توفيق الحكيم

عودة الروح

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميزت : ٤٢٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

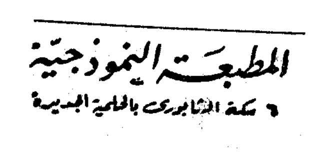
توفيق الحكيم

عودة الروح

١

(عند ما يصير الزمن إلى خلود)
(سوف نراك من جديد)
(لأنك صائر إلى هناك)
(حيث الكل فى واحد)
نشيد الموتى

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميز ت : ٤٢٧٧٧



كتب للمؤلف
نشرت فى اللغة العربية

الكتاب	الطبعة	المطبعة
محمد	الطبعة الأولى :	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر)
	الطبعة الثانية :	مطبعة المعارف عام ١٩٣٦)
	الطبعة الثالثة :	(المطبعة النموذجية ١٩٥٥)
شهر زاد	الطبعة الأولى :	(مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤)
	الطبعة الثانية :	مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
	الطبعة الثالثة :	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣)
أهل الكهف	الطبعة الأولى :	(مطبعة مصر عام ١٩٢٣)
	الطبعة الثانية :	مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣)
	الطبعة الثالثة :	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠)
	الطبعة الرابعة :	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
	الطبعة الخامسة :	مطبعة النموذجية عام ١٩٤٨)
	الطبعة السادسة :	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)
	الطبعة السابعة :	(المطبعة النموذجية عام ٢٩٥٧)
عودة الروح فى جزءين	الطبعة الأولى :	(مطبعه الرغائب عام ١٩٣٣)
	الطبعة الثانية :	مطبعة المعارف عام ١٩٤٦)
	الطبعة الثالثة :	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥)
	الطبعة الرابعة :	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٧)
تحت شمس الفكر	الطبعة الأولى :	(مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
	الطبعة الثانية :	(مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
	الطبعة الثالثة :	مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)
	الطبعه الرابعة :	(المطبعه النموذجية عام ١٩٥٤)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

تاريخ حياة معدة
- الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
- الطبعة الثانية : مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥)

عهد الشيطان
- الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمه والنشر عام ١٩٣٨)
- الطبعة الثانية : (مطعبة التوكل عام ١٩٤٢)

براكساأو مشكلة الحكم ((مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)

راقصة المعبد
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)

نشيد الإنشاد (مطبعة مصر عام ١٩٤٠)

حمار الحكيم
- لطبعةا لأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
- الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)

سلطان الظلام
- الطبعة الأولى : (مطبعه التوكل عام ١٩٤١)
- الطبعة الثانية : (مطبعه التوكل عام ١٩٤٢)

من البرج العاجى ((مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)

تحت المصباح الأخضر ((مطبعه التوكل عام ١٩٤٢)

أهل الفن (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤)

بجماليون
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربية

مسرحيات	المجلد الأول : ويشمل قصص : سر المنتحرة ، نهر الجنون ، رصاصة فى القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٧)
القصر المسحور	بالاشتراك مع الدكتورطه حسين (مطبعه دار النشر الحديث عام ١٩٣٦)
مسرحيات	المجلد الثاني : ويشمل قصص الخروج من الجنة أو الملهمة أمام شباك التذاكر. الزمار، حياة تحطمت (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
يوميات نائب فى الأرياف	الطبعه الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) الطبعة الثانيه : لحساب وزارة المعارف العمومية (مطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر عام ١٩٣٧) الطبعه الثالثة : (النموذجية ١٩٤٩) الطبعه الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣) الطبعة الخامسة : (النموذجية ١٩٥٤)
عصفور من الشرق	الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)
سليمان الحكيم	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
زهرة العمر	الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣) الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)

تابع الكتب التى نشرت فى اللغة العربيه

رصاصة فى القلب	(مطبعة التوكل عم ١٩٤٥)
الرباط المقدس	(مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤) (المطبعة النموذجيةعام ١٩٥٧)
حمارى قال لى	(مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)
شجرة الحكم	(مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
الملك أوديب	(المطبعه النموذجيةعام ١٩٤٩) (الطبعة الثانية ١٩٥٧)
قصص توفيق الحكيم	المجموعةالأولى والثانية (مطبعة دارسعد مصر ١٩٤٩)
مسرح المجتمع	(المطبعة النموذجبة عام ١٩٥٠)
فن الأدب	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)
ذكريات الفن والقضاء	(مطبة المعارف عام ١٩٥٣)
ارني الله	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤)
عصا الحكيم	(دار الهلال عام ١٩٥٣)
دقت الساعة	(مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)
تأملات فى السياسة	(مطبعة روز اليوسف عام ١٩٥٤)
التعادلية	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٥)
إيزيس	(المطبعه النموذجية عام ١٩٥٥)
الصفقة	(المطبعة النموذجيه عام ١٩٥٧)
المسرح المنوع	(المطبعة النموذجية عام ١٩٥٧)

كتب للمؤلف

نشرت فى لغة أجنبية

شهرزاد	ترجم ونشر فى باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج لكونت عضو الأكاديمية الفرنسية فى دار نشر (نوفيل ايديسيون لاتين) وترجم إلى الانجليزية ونشرت مختارات منه فى دار النشر بيلوت بلندن ثم فى دار النشر (كروان) بنيويورك فى عام ١٩٤٥
عودة الروح	ترجم ونشر بالروسية فى لينجراد عام ١٩٣٥ وبالفرنسة فى باريس عام ١٩٣٧ فى دار فاسكيل للنشر وبالأنجليزية ونشرت مختارات منه فى لندن عام ١٩٤٢
يوميات نائب فى الأرياف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ٩٣٩ (طبعة أولى) وفى عام ١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥ وترجم ونسر باللغة الانجليزية فى دار (هارفيل للنشر بلندن عام ١٩٤٧ وترجم إلى الأسبانية فى مدريد عام ١٩٤٨ وترجم ونشر فى السويد عام ١٩٥٥
أهل الكهف	ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخى لجاستون فييت الأستاذ بالكوليج دى فرنس ثم ترجم إلى الايطالية بروما عام ١٩٤٥
عصفور من الشرق	ترجم ونشر بالفرنسة عام ١٩٤١

تابع الكتب التى نشرت باللغة الأجنبية

بجماليون : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

أوديب : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

سليمان الحكيم : » » » » » » »

نهر الجنون : » » » » » » »

عرف كيف يموت : » » » » » » »

المخرج : » » » » » » »

بيت النمل : » » » » » » »

الزمار : » » » » » » »

« دار نشر نوفيل ايديسيون لاتين باريس »

مشكلة الحكم : ترجم ونشر بالفرنسية فى باريس عام ١٩٥٠

السياسة والسلام : » » » » » » »

الشيطان فى خطر : » » » » » » »

بين يوم وليلة : » » » » » » »

العش الهادى : » » » » » » »

أريد أن أقتل : » » » » » » »

تابع الكتب التى نشرت باللغة الأجنبية

الساحرة	:	ترجم ونشر باللغة الفرنسية فى باريس عام ١٩٥٣
دقت الساعة	:	» » » » » » »
نشودة الموت	:	» » » » » » »
لو عرف الشباب	:	» » » » » » »
الكنز	:	» » » » » » »

كتاب « عودة الروح » فى نظر النقاد الأوروبيين

مقتطفات *

من بعض مانشر فى الجرائد والمجلات الأوروبية عن طبعة شاربانتييه « فاسكيل » وشركاه بباريس

« لوبيتى هافر » ٢١ يولية سنة ١٩٣٧

قرأت هذا الكتاب بلذة عظيمة لأنه ينقل القارىء دفعة واحدة، إلى وسط عائلة مصرية ، نستطيع أن نقف فى الحال على عيوبها، ومحاسنها، وذلك فى بساطة وبغير تزين وتصنع .. إن القارىء ليحس إن مايقرأ هو الحقيقة، وأنه ليشعر أن هذه العائلة هى صورة طبق الأصل لشعب بأكمله،

جوليان جيمار

« سيرانو » فى ٢٣ يولية سنة ١٩٣٧

اننا نلمس مؤلفاً من تلك المؤلفات التى لو وجدت عندنا لنعتها «موريس بريس» بقصة « النشاط القومى » . وليس لمدلولها غير معنى واحد، هو أن الروح العائدة إنما هى روح فلاحى مصر العريقة فى القدم ..

جان ديستيو

---

* قام بترجمة هذه المقتطفات إلى العربية الأستاذ عبد الرحمن صدقى .

« إيكودى لا نيفر » فى ٢٤ يولية سنة ١٩٣٧

هذه القصة التى تصور حياة أسرة «بورجوازية» مصرية صغيرة لتدل على معنى من الحياة والحقيقة يثير الدهشة ، وهى فى عين الوقت تظهر لنا كيف أن هذه الأمة الجميلة ، أصبحت قادرة على كسر أغلالها.

راوول توسكان

« لوبنيون » فى أول أغسطس سنة ١٩٣٧

كل شىء يسحرنا فى هذه الرواية ، التى ترسم لنا من جديد عظمة روح شعب . .

فرديير لوبلتييه

« فير لافنير » أول أغسطس سنة ١٩٣٧

إن رواية توفيق الحكيم ، وهو من أكبر كتاب العالم العربى ، لتفيض حياة وتشتمل على كثير من الأسانيد الحقيقية

مارك دى لا فورج

« جنوب ووسط أمريكا » سبتمبر سنة ١٩٣٧

ان قراءة « عودة الروح » سهلة وممتعة لأن الطرافة تتمشى فيها إلى جانب الفكاهة .

ا . ملشيسيديك

سبتمبر سنة ١٩٣٧

إنه كتاب جميل ممتلىء حيوية وتأثيرا وذكاء مع فكاهة ، ولكن نزعته الوطنية مما يضايق قليلا . على الأقل فيما يختص بى . غير أنى أفهم جيداً أن ظروف الحياة المصرية الحاضرة تجعل من الصعب محو هذه النزعة ، دون المساس بصدق الكتاب كله . وأنه لمن الظاهر فيه فضلا عن

ذلك وجود بعض عناصر أدب « الطبقات الفقيرة » أو على الأقل أدب شعبي لاشك فيه . . . وكل هذا فى لهجة بعيـــدة عن الفتور والمجاملة والترفع الـكاذب . . .

مارسيل مارتينييه

« لوجور » ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣٧

ان كتاب عودة الروح ليس فقط مؤلفاً وليد الخيال ، ولـكنه مستند على الحالة الاجتماعية لشعب فى حالة تطور سريع ، بعد أن سجن نفسه طويلا فى قيود العادات الاسلامية القديمة .

ان مثل هذه الـكتب ضرورية لنا لتساعدنا على تفهم شعب يعيد بناء استقلاله على مهل ، محاولا نسيان خرافات التعصب الشرقى القديم

تيريز هيريان

« لوبيتى باريزيان » فى ٣١ سبتمبر سنة ١٩٣٧

مؤلف مملوء بالحياة والطرافة وهو ممهور بالطابع العربى . وإنى لأ كثر تذوقا للجزء الثانى من الـكتاب .

جان فينو

« ريفيودى لـكتير » ١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٧

ان قيمة هذه الرواية المصرية هى فى تلك الصورة التى أعطتها عن خلق وعوائد وروح مصر الحاضرة ، وفى ذلك التباين بين تراخى الفلاح الظاهر ، وقوة روحه العظيمة الكامنة فيه

شارل بوردون

« لا كريتيك لينيرير » فى نوفمبر سنة ١٩٣٧

ان « عودة الروح » المنقولة اليوم إلى الفرنسية ، والتى ترجمت إلى

الروسية، وظهرت فى لننجراد عام ١٩٣٥، هى فى نفس الوقت رواية خلقية ، واجتماعية معاً ، تظهرنا على حياة أسرة من طبقة الشعب الوسطى وعلى نهضة جنس بأسره .

« لورور » فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٣٧

لوحة فنية طريفة تصور فيها وتعيش فى أرجائها كل مصر العصرية الحديثة ، لا مصر التى يراها السائحون بنظراتهم العابرة ، ولكن مصر الحقيقية النبيلة ، مصر الشباب ، ومصر الفلاحين والموظفين والطلاب . مصر التى على شاكلة محسن بطل القصة ، وأعمامه الذين لا يشعرون الا بحب واحد . هو حب « مصرهم »

«بولتان دى سنديكا دى جورنالست فرانسية» ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٣٧

قصة تصف بطريقة فكهة حياة أسرة مصرية .. ولكن الستار الخلفى لهذه اللوحة يصور جهود مصر فى الحصول على استقلالها ، تلك الجهود التى أدت إلى معاهدة ١٩٣٦ مع انجلترا .

ان المغزى الاجتماعى لم يغب عن هذه الرواية . وأن قراءتها ممتعة بقدر عظيم .

بول ديلاندو

« لى لونوفيل ليتيرير » أول يناير سنة ١٩٣٨

انها ولا شك طريقة « شهرزاد » فى حديثها ، مع سخرية دقيقة مماثلة لسخرية « فولتير » مؤلف « كانديد » .

ياله من سحر يجتذب القارىء حتى نهاية القصة .

جانين بونجران

Exclusively

First published on the net by :

Passer By_in Time

MARCH 2009

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time

تمهيد

أصابتهم كلهم فى عين الوقت الحمى الإسبانيولية. وعادهم الطبيب. فما كاد يقع بصره عليهم حتى دهش: قاعة واحدة اصطفت فيها خمسة أسرة « عيار بوصة وربع » أحدها بجانب الآخر . وخزانة واحدة كخزانة الخطاطين مخلوعة إحدى عارضتيها ، فيها ثياب على كل لون ومقاس وبعضها ملابس بوليس رسمية بأزرار نحاسية . وآلة موسيقية بمنفاخ عتيقة . . . « هارمونيكا » معلقة بالحائط . . .

— « أعنبر » فى ثكنة ؟

ولكن الطبيب واثق، من أنه دخل منزلا ، ومازال يذكر رقمه وشارعه ! ودنا أخيراً من السرير الخامس فلم يتمالك وابتسم : لم يكن هذا سريراً إنما مائدة الطعام الخشبية، انقلبت فراشاً لأحدهم.

وقف الطبيب لحظة يتأمل المرضى الراقدين صفاً . . . وفى النهاية تقدم وهو يقول :

— لا . . . دامش بيت دا مستشفى ! .

ثم فحصهم الواحد بعد الآخر ، وفرغ من عمله وهم بالانصراف ولكنه عاد فنظر إليهم من جديد فى شيء من العجب ، وهم محشورون فى تلك الحجرة . ما يحملهم على هذا الحشر، وفى الشقة غرفة أخرى.

حجرة الاستقبال على الأقل ؟ وسألهم فى ذلك فأجابه صوت ارتفع من أعماق السرير :

— مبسوطين كده !

لفظت هذه العبارة بلهجة ساذجة صادقة بل عميقة . . . يدرك المتمعن فيها سروراً داخلياً بهذه المعيشة المشتركة . ولو استطاع أحد لقرأ على وجوههم الباهتة ضوء سعادة خفية بمرضهم معاً ، خاضعين لحكم واحد ، يعطون عين الدواء ، ويطعمون عين الطعام ، ويكون لهم عين الحظ والنصيب ! . . .

وانتهت عيادة الطبيب واستعد للذهاب وبلغ عتبة الباب . غير أنه وقف كالمفكر واستدار للمرضى الراقدين وقال :

— يظهر أنكم من الأرياف ! ...

وخرج الطبيب دون أن ينتظر جواباً . . . وقد ارتسمت فى مخيلته صورة الفلاحين . . . وطفق يقول فى نفسه ليس غير الفلاح يستطيع هذه الحياة ، هو وحده الذى على الرغم من رحب داره لابد له أن ينام هو وامرأته ، وعياله وعجله ، وجحشة فى قاعة واحده ! . . .

الفصل الأول

انقضت ساعة الغذاء وانصرف أفراد الأسرة كل إلى جهته . حتى مبروك الخادم . فرغ من معاونة الست زنوبة فى رفع المائدة وغسل الأطباق ، ثم خرج هو الآخر يجلس عند الفكهانى المجاور لحارة باب الميضة . ولبثت الست زنوبة وحدها فى البيت بعيدة عما يعكر صفو خلوها إلى نفسها . فذهبت إلى حجرتها الصغيرة ، وقعدت على « الشلته الكرنبى » ساهمة تطيل النظر فى أوراق « الكوتشينة » التى صفتها أمامها فوق « الكليم » الأحمر الباهت .

مر الوقت وأذن العصر وزنوبة غارقة فى أحلامها، لاترى إلا الولد الأشقر بجانب البنت السوداء . . . وأن الفرح نازل عليهما أحدهما فى طريق سفر وأن وأن . . . إلى مافى عالم الغيب والرموز . . .

وفتح فجأة باب الحجرة وظهر محسن متأبطاً كتبه ومسطرته وبرجله وصاح بها فى لهجة صبيانية مرحة :

« الشعب » لسه ماجاش ؟

فلم تتحرك ولم تجب فى الحال . . . وظلت غارقة فيما هى فيه . . . وأخيراً قالت دون أن تنظر إليه :

— جيت من المدرسة ؟

— خرجنا من زمان . لكن كنت عند . . . الخياط .

ثم شمر أطراف ثيابه بمنتهى العناية وجلس بجانب زنوبة على حافة «الشلتة». وصمت قليلا ثم تململ ثم نظر إليها وتردد كأنما يريد كلاماً فيمنعه شيء.. كالخجل..

وكأنما تذكرت زنوبة شيئا فجأة فقالت دون أن ترفع رأسها عن الورق:

— أظن جعت يامحسن: قم خذ خياره اقرشها .. تصبر بها ... من هنا للعشا وقت طويل.

ورفعت بصرها كى تدله على سلة خلف باب الحجرة .. تخفيها عن مبروك. لكنها ماكادت ترى محسن حتى صاحت دهشة:

— الله! ماشاء الله!.. انت لابس بدلة جديدة؟!

فأطرق الفتى ولم يجب.

واستمرت زنوبة فى استغرابها:

— عجيبة ياختى!.. اللى يشوفك يقول مش انت!..هم اهلك بعتوا لك فلوس؟ أما عجيبه..!

فسألها محسن فى شيء من الخجل والتردد

— عجيبة ليه؟

ولم تنقطع زنوبة عن تأمل ثيابه الجديدة بعين ملؤها الدهشة والاعجاب:

علشان دى مش عادتك. عمرك ماترضى تلبس بدلة جديدة غير فى العيد الكبير، زى أعمامك. إيش عجب النهارده بقيت عايق وحلو

كده اوالنبي ،من شافك يقول عليك ابن السلطان ،اسم النبي حارسك !. . عيني عليك بارده . . . النهارده الخميس . . النهارده الخميس ! . .

فاحمر وجه محسن قليلا لهذا الاطراء . غير أن هذا المديح بدل أن يملأ قلبه ارتياحاً وغبطة ، أحدث فى قرارة نفسه وخزة غريبة فغير فى الحال مجرى الحديث :

— إيه العشا الليلة ؟

فأجابت زنوبة بصوت اللاهى وقد عادت إلى النظر فى ورق الكوتشينة :

— زى الغدا .

فصاح محسن قليلا :

— برده تانى ورك الوزة إياه ؟

فرفعت رأسها فى حدة وقالت وهى تنظر إليه نظرة تقريع :

— ماله ورك الوزة ؟ . . حتى انت يامحسن اللى بقول عليك عاقل ؟ . . طب والست الطاهرة بكره يشوفوا على البطر ده . هو ربنا يبارك لمن يبطر على لقمة عيش ! دول بعيد عنك اعمامك بقوا ماينطاقوش . . ياحفيظ . . . إياك تعمل زيهم .

فقال الفتى برفق :

— لكن ياعمتى . . ورك الوزه إياه بقى له ثلاثة أيام نشوفه ورانا فى كل طقه . . عمى عبده حلف على المصحف النهارده الضهر . . .

ولم يتم . . . لأن زنوبه أتت بحركه تدل على الغضب وصاحت :

— عبده!. ومن هو بسلامته سى عبده !!. سيد البيت حضرته !.. والا كبير البيت ؟ . . ياسم على سى عبده . . ياسم ! . من امتى كده يا اد لعدى كان البيت ده له سيدو الا له كبير ؟ . . واللى حتى الكبير بحق وحقيق عمك حنفى الله يحميه اللى بيشتغل ويصرف ويوكلنا ، عمره ما تكلم ولا تنفس ... إلهى مانعدمه ! . . يبقى الولد عبده اللى ماحيلته من ضهر الدنيا إلا حلقه والزعيق والغارة . . .

— بكره يجيب فلوس يا عمتى . آخر السنة دى راح ياخد الدبلوم ويبقى مهندس :

فلم تجب زنوبه . وظل وجهها مكفهرا . . . وقد عادت مرة أخرى إلى ورق الكوتشينة ترتبه وترصه وتصفه .

غير أنها بعد لحظة رفعت رأسها بغتة وقالت :

— هو فاهم إنى رايحه أخاف من طرطوره؟ . . الولد المفعوص ده ... اسم انه عامل عصبي وخلقه ضيق ! ! . لأ والست الباتعة .. أنا ما أخاف من حد أبدا . . .

فابتسم محسن ابتسامة سخرية وقال :

— تقدرى تقولى كده قدامه ؟ . . .

فالتفتت إليه بقوة وقالت :

— بتقول إيه ؟ . . .

فلم يشأ محسن أن يجادلها، لا سيما فى ذلك اليوم، وكأنه ندم على

عباراته فضحك أو تضاحك موهما إياها، أنه يمزح ولم يقصد إلا هزلا. ثم اتخذ هيئة الجد وقال :

— عايزه الحق ياعمتى؟ عمى عبده قلبه من جوا أبيض وطيب زى الباقيين كلهم.

فلم تجب زنوبة وسكتت لحظة. ثم انحنت من جديد فوق ورق الكوتشينة وشغلت به واهتمت . ولم يمض قليل حتى غاصت فى تأملاتها وأفكارها القديمة. وطفق محسن ينظر إليها ويتبع حركات يديها وهى ترتفع وتنخفض بالورق ويراقب ملامح وجهها كأنما يريد أن يستكشف سرها وفى عينيه سخرية صبيانية بريئة. وأخيراً اقترب منها فى غير كلفة حتى لاصقها وقال وهو يبتسم متخابثاً :

— بتفتحى الكوتشينة لمين ؟ ... للعريس ؟ ...

فما كادت تسمع هذه الكلمة حتى اهتزت أهداب عينيها التى يصبغها الكحل صبغاً ثقيلا ... ورفعت يدها بحركة مرتبكة تصلح وضع الطرحه — وليست فى حاجة إلى اصلاح — على رأسها المصبوغة بالحناء. ثم أجابت ناظرة إلى الأرض بصوت خجول.

— لا والنبى .. فكرى مش فى كده ...

فاستمر محسن فى سخريته الخفية :

— امال فى ايه ؟ أنا غريب تخبى عنى !! انت عارفه يا عمتى والله العظيم ما حدش طفش العرسان غير عمتى حنفى . الغلطة كلها

غلطة حنفى . هو اللى طفش العرسان . .

— لأ والنبى ... فكرى مش فى كده . .

وظلت مرخية الطرف حياء كأنها فتاة فى العشرين ربيعاً . وصمت محسن لحظة جعل يتأمل خلسة وجه تلك العذراء المسنة وما به من دمامة وتجاعيد . وكأنما يسائل نفسه عن معنى هذا الحياء منها . أهو تصنع أم حقيقة : ثم لم يلبث أن أطرق قليلا وقد داخل سخريته الصبيانية شىء من الرثاء .

* * *

نشأت زنوبة فى الريف جاهلة مهملة تخدم امرأة أبيها وتربى لها الدجاج . فلما قدم شقيقاها حنفى وعبده القاهرة فى طلب العلم قدمت معهما هى ومبروك ابن « الخولى » زميلهما فى كتاب القرية الذى لم يفلح . كى تدبر أمر المعاش وتدير دفة البيت . ولم يكن لمقامها الطويل فى العاصمه أثر حقيق فى تكوينها . . . فهى ما زالت على حالتها الأولى . ولم تدرك من حياة البندر ومدنيته غير أشياء سطحية، لا تتعدى الملبس وطريقة الكلام . وقد ذهبت فى ذلك إلى حد تقليد صويحباتها من أهل القاهرة، وجاراتها من النساء الحديثات، تقليداً لا تفقه معناه . وروى محسن أنه سمعها ذات مرة تحي زائراتها قائلة « بونسوار ياستات ! ! » مع أن الوقت صباح والشمس فى الضحى . وزنوبة كأكثر القبيحات قد يخطر لها كل شىء، الا قبحها . وتعجب كثيراً اذ ترى غيرها من المعارف والجيران يخطب

ويتزوج وهى الجميلة.. المقتصدة ...ست بيتها ... كاملة الصفات باقية لا يطلبها أحد ؟ ! لكنها تعزو ذلك الى سبب .

— البخت . . . ! البخت الأسود بعيد عنكم . . . مفيش غيره أبداً . . . ! !

هذا ما كانت ترده لنفسها وللناس ..

ومع ذلك فقد جاءتها الخاطبات يخطبنها غير مرة ... ولكن الواحدة منهن ما كانت ترى زنوبه وهيئتها حتى تختصر الكلام وتنهض تلتفت فى ازارها وتسرع بالخروج وزنوبة لاتحسب الا أن الخاطبة مسرورة وذاهبة توا لأخبار العريس فترافقها متزلفة حتى باب المسكن وهى تهمس فى أذنها : « ابقى اشكرى له فى » فترتسم على فم الخاطبة ابتسامة يحجبها البرقع وتجيب فى خبث وتهكم خفى : « أمال ياأختى ... ولا يستحق الشكر الا انت ... ! ! » ثم تنصرف ولا تعود بعدها أبداً . إلا أنه ذات يوم وقع حادث تاريخى فى حياة زنوبة . يوم لايحسب من عمرها سنحت فيه فرصة نادرة لارجعة لها. ولكن ... ولكن وا آسفاه . أضاع حنفى افندى تلك الفرصة الوحيدة بحمقه وعبطه وبساطته . ذلك أنه فى ذات عصر شاء الحظ — وكأنه ضجر أخيراً من اتهامه ظلماً ومن الصاق العيب به زورا — فأرسل لزنوبه رجلا افنديا متعلما لا بأس به يطلب يدها دون وساطة خاطبة أو أم . افندى طيب القلب سليم النية على ما يظهر ... اوتى واضع ثقته العمياء فى الله الى غير حد .

جاء هذا الرجل وقابل حنفى افندى مدرس الحساب بمدرسة خليل أغا، بصفته رئيس الأسرة وأكبر أعضائها سنا ومقاما. وحادثه فى الأمر قائلا أن لالزوم لإيفاد أحد من قبله يرى العروس، وأنه يكتفى بالسؤال عما إذا كانت قبيحة فمادامت غير قبيحه ولا دميمة فهو لا يطلب أكثر من ذلك. وسأل رئيس الأسرة المزعوم عن رأيه فيها بنظرة مؤدبة متحفظة. فرفع « رئيس شرف » الأسرة — كما يدعونه — رأسه إلى محدثه ونظر اليه بعينيه القصيرتى البصر السقيمتين الأعمشتين، والتفت إليه بوجهه الدميم الأغبر، وقد حرقته الشمس والدمامل، فصيرته فى لون الطوب النيء، الذى تبنى به بيوت القرى. ومد يده الى طربوشه فقسعه الى الخلف كاشفاً عن جبهة قبيحة بها أثر بطحة، ثم قال للخاطب فى حرارة وحماسة :

— أبداً . . أبداً . . اطمئن . . مش وحشه أبداً. اطمئن وحط فى قلبك بطيخة صيفى. دى مضمونة زى الجنيه الدهب. أربعة وعشرين قيراط. وعلى ايه. شوف حضرتك. انت واخد بالك منى ؟ آهى هى العروسة شبهى تمام. بالحرف الواحد لأنها شقيقتى ونازله فوق راسى أنا مباشرة.

فبغت الأفندى الخاطب ووجم لحظة، ثم هدأ قليلا وجعل يختلس النظر الى وجه حنفى القبيح، محاولا اختفاء غمه وقرفه واشمئزازه.. ثم غمغم أخيراً قائلا كالهامس لنفسه : « مستحيل !... مش ممكن!..

وسمعه حنفى فبادر يطمئنه قائلا :

ـــ مش ممكن ازاى ؟ داشيء مؤكد ومثبوت .

ـــ مستحيل ! . .

ـــ بس اطمئن انت حضرتك من الجهة دى . .إنت ياحضرة مالكش دعوة اتشبه لى تمام وعلى عهدتى ولا يكون عندك خوف ابدا .

وماكان الأفندى يفوز بالخروج من منزل حنفى حتى اختفى ولم يسمع بخبره قط ...

* * *

أعاد محسن عبارته بلهجة فيها ملق ومداهنة :

ـــ صحيح الغلطة كلها غلطة عمى حنفى .

نخفضت زنوبة رأسها ولم تجب . وقد ضغطت على نفسها حتى لا تتنهد . وسكت محسن لحظة ، ثم فجأة اعتدل كأنما تذكر شيئا ظهرت على شفتيه ابتسامة حاول إخفاءها وتكلف الظهور بمظهر الجد وقال فى الحال :

ـــ عمتى ! عندك خبر؟؟ مصطفى بك اللى ساكن تحتنا. عيان !

فرفعت زنوبة رأسها . وبدأ احمرار خفيف على وجه تلك المرأة التى ناهزت الأربعين . غير أنها تصنعت الهدوء وقالت فى صوت أرادت أن يخرج طبيعياً:

ـــ عيان ؟ مين قال لك ؟

فأجاب وهو يدرك مابها ويتغافل :

ـــ النهارده الصبح لقيت خداامه فى السلم معاه شربةملح انجليزى . . .

فشخصت ببصرها اليه كأنما تريدأن تسأله وتستزيد ولكنها ملكت نفسها فى الحال وخفضت نظرها خجلا وصمتت صمتةطويلة وطفق محسن يراقبها خلسة،وعلى شفتيه دائماً هذه الابتسامة الصبيانية الهازلة . وأخيراً قال مشيراً الى الورق فى شيء من التخابث :

ـــ مش قالت لك الكوتشينة ؟ ؟

فاضطربت قليلا ولم تجب .

ونظر إليها محسن لحظة ثم قال فجأة :

ـــ فكرك مشغول بإيه ؟ ؟

فارتعدت المرأة رعدة خفية . . . وأجابت فى عجلة وتعثر وحيرة :

ـــ أنا . . . فكرى مشغول . . . بحاجة تانية . . .

فلم يمهلها محسن :

ـــ حاجة تانية . . . زى إيه مثلا ؟

وأخجلتها لهجة محسن ذات المغزى . ولكنها تماسكت وحضر ذهنها فى تلك اللحظة وأسعفتها ذاكرتها فأجابت فى صوت مطمئن بعض الشيء :

ـــ قاعدة من الصبح افتكر فى منديل الجيران اللى ضاع أول امبارح فوق سطوحنا .

ما كادت زنوبة تلفظ هذه العبارة حتى تغير وجه محسن وعلته حمرة وأطرق من فوره

ولم تفطن زنوبه إلى ماوقع بغتة فى نفس محسن . وكأنما قد

وجدت موضوعا تنقذ به موقفها فاستطردت تقول :

— منديل سنية الحرير افكرك يامحسن يكون صحيح طيره الهوا؟

فلم يجب محسن . . ولم يستطع أن يرفع رأسه .

فاستمرت زنوبه :

— والست الطاهرة ما يدخل عقلى الكلام ده . طيره الهوا ؟ هو فيه هوا يطير مناديل ؟ !

فقال محسن متلعثما :

— أمال . . . إيه ؟

فأجابت للفور :

— أبدا . . أنا عبيطه ؟ ! وحياتك مسروق .

فنظر إليها الفتى نظرة خوف ولم يلفظ كلمة .

فاستمرت تقول :

— والنبي الغالى مسروق . تعرف مين اللى سرقه ؟

فلم يحر محسن جوابا

فاستطردت :

— اللى سرقه : عبده .

فرفع محسن رأسه فجأة فى شبه دهشة وفرح :

— عمى عبده ؟ ! !

فأجابت بلهجة تحامل :

ـــ ماعندناش قبيح غيره .

فأطرق محسن ولم ينبس بحرف ..

فقالت بقوة :

والنبي لأفتح بكره المندل واشوف ..

فرفع محسن رأسه ودمدم فى قلق وخوف :

ـــ المندل ..

فأجابت مستطردة :

ـــ إن ما كانش هو الواد عبده.أبقى أنا أستحق ضرب الشبشب

وسكتت لحظة . ثم مر برأسها خاطر فقالت فجأة :

ـــ يوه . . ياندامه ! نسيت واحد .

فارتجف محسن قليلا وصمت منتظراً كلمتها . والتفتت هى بغتة إليه ثم قالت بلهجة المقتنع :

ـــ بالك كمان مين يكون سرق المنديل ؟ . .

فتململ الفتى مضطربا . ولكنها لم تتنبه إليه وقالت :

ـــ سليم .

فتنفس محسن الصعداء ورفع رأسه إليها ودمدم :

ـــ سى سليم ؟ .

فقالت :

ـــ راخر منجوس،كلمة الحق والتكال على الله.انت ناسي حكايته

ونوادره مع النسوان . وفشره ومعره اللى قلب دماغنابه . النبى ياسم عليه راخر،لمايعوج طربوشه ويبرم شنابه، ويقعد يضرب على السخامة المزيكة بتاعته أم منفاخ . قال إيه فاهم نفسه حلو . ياسخطة ! النبي يامحسن تطلع عليه كمان غنوة من غناويك الحلوه، هو فاكرنا سهيناعنه وعن حكايته المشهورة، اللى كانت سبب وقف حاله من الحكومة . حادثة الست الشامية بتاعة بور سعيد . قطع بعيد عنك سليم ابن عمى . هو فيه حد قده فى الخبص واللبص .

فاطمأن محسن وانفرجت أساريره وابتسم ابتسامة ساذجة ... ثم اقترب من زنوبه بلطف وقال بصوت تعتوره رجفة طفيفة :

— انت شفتيها يا عمتى . . فوق السطوح النهارده ؟

فقالت زنوبة :

— مين هى ؟ سنية ؟ . .

فحرك الفتى رأسه علامة الإيجاب وقال متوخياً الهدوء الطبيعى فى نبراته :

— قالت لك إيه ؟

فأجابت زنوبه دون أن تلتفت إلى اهتمامه :

— فى مسألة المنديل ؟ ضحكت وقالت إن كان صحيح مسروق يبقى الحرامى يستحق الشنق به .

فأحمر وجه محسن حتى صار بلون « الكليم » ثم غض بصره ونظر إلى الأرض ...

الفصل الثانى

جاءت ساعة العشاء واجتمع « الشعب » فى فسحة الشقة حول مائدة من الخشب الأبيض الرخيص عليها غطاء مشمع . قد أكل عليه الدهر وشرب كما أكلوا هم عليه وشربوا ، وربما نام الدهر عليه أيضاً كما نام مبروك الخادم ، فهذه المائدة هى التى تنقلب بالليل سريراً لمبروك ، يضع عليها مرتبته ولحافه وبراغيثه . وفى الصباح تعود مائدة يوضع عليها طبق الفول المدمس الكبير وأرغفة الخبز الخاص للافطار ، وقصعة الفريك أو الفول النابت للغذاء أو العشاء

فى تلك الساعة كانت القصعة المعهودة موجودة يتصاعد منها الدخان . إلا أن الجميع فى سكون وجمود عجيبين . وما كانوا قد بدأوا الأكل بعد كأنما هم ينتظرون أحدهم وحقيقة كان موضع حنفى خالياً ... ولكن هل انتظار الغائب ينبغى له منهم كل هذا الصمت والوجوم ؟ فهذه زنوبه واضعة كفها على خدها كالغارقة فى أحلام بعيدة ... وهذا مبروك فى مجلسه بطرف المائدة ، يستنشق بخياشيمه رائحة الدخان المتصاعد من القصعة بنهم ، ويلقى على مكان حنفى أفندى الخالى بقربه نظرة من نفد صبره . لكنه لا يجرؤ مع ذلك على قطع هذا الصمت المخيم . وبين آن وآن يرمق ثوب محسن الجديد أمامه بعين منكسرة ذليلة . ومبروك ليس

خادماً عادياً . فهو رفيق صبا أفراد الأسرة ،وهو الذى لاعب فى الصغر حنفى وعبده وسليم. ونشأ معهم فى بلدة الدانجات. لذلك هو فى الأسرة شبه خادم (شرف) كما أن حنفى رئيس (شرف) وكان محسن فى مقعده من المائدة مشغولا هو الآخر باختلاس النظر إلى عبده وسليم كأنما يريد استطلاع سر صمتهما الغريب، ولا شك أن عبده وسليم هما أصل عبوس تلك الليلة . وأنه ليبدو من أمرهما أن شيئاً غير عادى يعكر مزاجهما، ويجعل هذا العشاء خلوا من السرور والجلبة والانشراح المعتاد بين (الشعب) كلما اجتمع حول مائدة، فسليم أفندى (المهياص) المرح، واجم على غير عادته، مطرق بفتل شاربيه الكبيرين فى سكون وتفكير. أما عبده فجامد مكفهر، وقد انتفخ منخاره الكبير واحمر أكثر من المعتاد، دلالة على غضبه الشديد وهياجه العصبى الهائل ذلك المساء.

استمر الصمت والاطراق على ذلك النحو زمنا . وأخيراً رفع عبده رأسه فجأة وضرب المائدة بقبضته ضربة عصبية قوية، أفاقت الجميع وصاح :

— ملعون أبو اللى ينتظر ...

وبغت مبروك الخادم من الصيحة فوثب على قدميه فى الحال واتجه شطر قاعة النوم وألقى نظرة على سرير حنفى أفندى ثم عاد يقول

— سى حنفى ممدد فى سريره وبيا كل من غير مؤاخذة رز بلبن مع الملايكة .

٢

وعندئذ سمع الحاضرون صوتا فى قاعة النوم يقول :

ــ رز بلبن مع الملايكة ؟ يسمع منك ربنا يامبروك افندى . أنا بقى لى زمان ماأكلتش رز بلبن من نهار مااستخدمت وسلمت مصروف البيت .

فرفعت زنوبة رأسها وقالت غاضبة :

ــ من نهار ايه ؟ ؟ . فشر ! كمان بسلامتك ؛ ياسم ! . . النبى تقوم تهز طولك بلا وخم . الأكل برد من الصبح .

فقال حنفى من قاعة النوم :

ــ أنتم فاهمين انى نايم ؟ أما أنكم صحيح متأخرين . أناعندى شغل أكوام . . أكوام .

وهنا تململ عبده وصاح :

ــ انتظار مفيش . ! مفيش انتظار .

فأجاب « الرئيس الشريف » من قاعة النوم بصوت يترنم بنغمة كنغم المواويل :

ــ يا «شعب» اصبر ! د. الصبر طيب وان كان مر مايضرش: باقى على التصحيح دفتر و كراسة، ياسيدى دفتر وكراسة. ياسيدى دفتر وكراسه . ياسيدى كراسه. وإن كانوا كراستين ايه يعنى مايضرش

فكظم عبده غيظه . وظل حنفى فى قاعة النوم ذات الأربعة أسرة يشتغل فى سريره بتصحيح كراريس تلاميذه وهو يترنم ويغنى :

ــ ياسيدى دفتر وكراسه : ياسيدى دفتر . . ياسيدى . .

آه . . ياسيدى كراسه . .

ولم يتحرك للغناء أحد من الحاضرين سوى مبروك، فإنه وقف فى منتصف الفسحة ووجهه إلى قاعة النوم حيث سرير الرئيس،وأخذ يصفق براحتيه كما يفعل « المطيباتيه » ويقول :

ـــ الله . . الله ! كمان « ياسيدى كراسه » .

وأخيراً لم يطق عبده صبراً فصرخ :

ـــ أقسم بالله العلى العظيم مانا ساكت . . خـــــلاص .

ثم مديده فى حركة عصبية، إلى ملعقته فرفعها بقوة وعنف، ودسها فى قصعة الفت وحساء الفول النابت ، وأخذ يأكل غير حافل بأحد.

وعندئذ تبادل الآخرون النظرات ، كأنما أدهشهم عمل عبده أو كأنما هم لم يرتاحوا له . ومع ذلك لم يجرؤ أحد منهم على التفوه بلفظ

غير أن زنوبة مالبثت أن تكلمت بصوت يبدو منه رنة المحاول تبرير عمل عبده فقالت :

ـــ أيوه امال ! الحق على بسلامته الكبير الريس . . اللى دايماً ممدد زى تنابلة السلطان، وحياة ربنا العزيز البيت باظ من تحت راسه

والتفتت إلى عبده فى ملق وزلفى تريد تهدئة خاطره . وكأنما رأت أن تغير مجرى الحديث وتوجه الأفكار إلى موضوع آخر فقالت:

ـــ ماتعكرش دمك ياسى عبده. قطع الأكل والشرب وسيرته

ثم فجأة غيرت لهجتها وقالت :

— ياترى حدش منكم لقى منديل سنيه الضايع ؟

كان عبده قد بدأ يهدأ ثائره من تلقاء نفسه، وبدأ يندم فى ضميره على إسرافه فى الحدة والغضب، أو على الأقل لإظهاره هذا الغضب، لكنه ما كاد يسمع عبارة زنوبه الأخيرة وما كادت تلفظ أمامه كلمتا « منديل سنية » ، حتى انقلبت سحنته ثانية وعاد شراً مما كان ... وكأنما زنوبه قد أرادت تهدئته بهذه العبارة كمن يهدىء النار بالزيت.

أطرق عبده لحظة وقد انتفخت أوداجه ، واحمر منخاره، ثم لم يعد فى استطاعته الجلد والكظم فانفجر صائحاً :

— يعنى مش عارفه المنديل عند مين؟ كلنا عارفين المنديل عند مين.

فارتعد محسن ونظر إلى الأرض. لكن عبده التفت إلى جهة ابن عمه سليم وأومأ برأسه ايماءة فيها معنى الشر والهجوم. واستطرد يقول:

— لو كنا مغفلين كان ينطلى علينا . ولكن احنا الحمد لله مش مغفلين . حضرته يقول لك فين المنديل .

وأشار إلى سليم بأصبعه إشارة صريحة . ففتل هذا شاربه بتؤدة وأجاب ببرود :

— حضرتك بتقول إيه ؟

فقال عبده فى لهجة جافة قاطعة :

— مفيش لزوم للكلام . كلنا عارفين .

فقال سليم بنفس البرود :

— عارفين إيه ؟ ؟

فلم يجب عبده وأشاح بوجهه عنه. فهز سليم رأسه متعجباً وقال :

— عفارم عليك! تبقى حضرتك عاملها وتتهم فيها غيرك! لكن هى دى شطارة شبان اليوم .

فاستدار له عبده فى قوة وعنف وصاح به :

— لوكنت أنا من أرباب السوابق فى المسائل دى، كان يبقى صحيح..

فتخاذل سليم قليلا ودمدم

— سوابق ؟

فاستطرد عبده ملمحا :

— لوكنت أنا يوزباشى، وأوقفونى عن وظيفتى علشان مسألة واحدة شامية . . .

فتجلد سليم ورفع رأسه وقال بقوة وتبجح :

وإيه يعنى ! . . .

ولكنه مع ذلك أحس إفلاسه أمام السامعين. فإن هذه الحادثة التى طالما كانوا يستشهدون بها لتهمته مقدما من دون حاجة إلى دليل الجميع يعلمون أنه ضابط بوليس موقوف عن العمل منذ ستة شهور بسبب سوء استعماله سلطة وظيفته. فقد اتهم فى بورسعيد بمغازلة سيدة سورية تقطن منزلا أمام نقطة البوليس. ولو أن الأمر اقتصر على مجرد المغازلة والمناورة وإرسال الأشارات والتحيات والابتسامات وفتل

الشوارب وتلعيب الحواجب لتلك المليحة كلما بدت من نافذتها ، لما كان فى الأمر مايدعو إلى جزاء الإيقاف، ولكن سليم افندى ذهب إلى أبعد من ذلك وطلب الوصل والقرب من ذات الحسن وبحث طويلا عن الطريقة، وأخيراً هداه الشيطان . وكان ذلك فى يوم صيف ووقت عصر اشتدقيظه، والتهبت فيه العواطف والأجساد التهاباً، فقام على الفور سليم افندى معاون البوليس فى لباسه الرسمى العسكرى ، تلمع أزراره النحاسية فى وهج الشمس كما تلمع النجوم الثلاث فوق كل من كتفيه، ومضى إلى منزل الجميلة وصعد إلى مسكنها وطرق بابها وقال :

— افتحى ياست ماتخفيش . أنا المأمور .

— ليه ؟ لازم حاجة ؟

— اسمحى لى بس ادخل شويه ..

— علشان إيه ؟ . .

— علشان إيه ؟ سبحان الله فى طبعك .. علشان .. أفتش .. لازم أفتش . . . مش تسمحى أنى أفتش . . .

وهكذا قرر زوراً وباطلا أنه يريد تفتيش مسكنها.. وكشفت الحيلة وانتشر الخبر وكانت فضيحة وكان الإيقاف لمدة سنة . . مر كل هذا كالبرق برأس سليم ، فسكت ولم يحر جوابا ورأى عبده منه ذلك فقال بصوت المهاجم المغتاظ المتشفى :

ــ ايوه اسكت أحسن لك . المسألة واضحة كا لشمس .

فرفع سليم رأسه وقال ببرود :

ــ قصدك ايه ؟

فرد عبده متكلفاً الهدوء .

ــ مفيش لزوم . عرفنا كل شيء .

فاعتدل سليم وقال فى حدة وجد :

ــ بقا اسمع . كفايه . أمور التهويش بتاعتك دى مش علينا . حضرتك فاهم انها شطاره لكن لأ . عيب إن كنت صحيح شاطر تقول ولا تنكرش . ومع ذلك دا شيء ظاهر . بس أنا مش راضى اتكلم . ان كنت مش مصدق أنا مستعد أثبت كلامى واشهد الحاضرين .

فقاطعه عبده :

ــ تثبت كلامك ! ؟

فقال سليم على الفور .

معلوم . تحب اثبت لك ؟ قوم رجلى على رجلك خلينى أفتش عفشك وهدومك .

وعندئذ لفظ عبده ضحكة سخرية كبيرة وقال :

ــ بتقول ايه ؟ تفتش ! ؟ ؟ ماشاء الله ! . لسه حضرتك ما حرمتش التفتيش ؟ !

تبع الحاضرون تلك المناقشة فى سكون تام وكان أشد الحاضرين انتباهاً لما يدور، الصغير محسن . فقد كان ينصت والخوف والقلق يتناوبان هز قلبه ، وما كان أحراه أن يهدأ ويطمئن . فمن ذا يتهم أو يسيء الظن بغلام فى الخامسة عشرة من عمره .

وبيناهم كذلك، إذ ظهر حنفى فجأة بباب قاعة النوم المؤدية إلى الفسحة وأخذ يتأملهم لحظة بنظره القصير ثم قال :

— خبر ايه ؟ ما لكم كده الليلة ظايطين زى اللى معجونين بمية عفاريت طيب أدينى حضرت . . . أدينى حضرت أهه

فلم يجبه أحد . زنوبه فقط « تنازلت » ورفعت عينها ونظرت إليه فى عدم اكتراث ، ثم حولت بصرها عنه وعادت إلى ما كانت فيه . فتقدم رئيس شرف الأسرة نحو المائدة ثم قال :

— يعنى مش شايف أكل ولا شرب . هو فين أمال العشا اللى بتقولوا عليه ؟ سمعنا ان فيه عشا . يظهر أنها كانت إشاعة .

فرفعت زنوبة رأسها وأشارت إلى القصعه قائلة بفتور .

— مش شايف ؟

فأحكم حنفى وضع منظاره على منخاره وسدد عينيه إلى القصعة وما بها ثم قال

— فول نابت ؟ شى الله يا ام هاشم !

فلم تنظر اليه زنوبة . غير أنها نهضت من مكانها فى الحال وسارت

في الفسحة متجهة شطر المطبخ وهى تقول :

— فيه كان ادلعدى صنف .

وذهبت ...

ما كادت تخرج زنوبة حتى عاد السكون والصمت من جديد .
وجلس حنفى فى مكانه الخالى بقرب الخادم .

وظل لحظة ينتظر كلاما . وأخيراً تنحنح وثبت منظاره على منخاره وطفق يحدق فى وجوه رفاقه واحداً واحداً كأنما أدهشه حالهم وأراد أن يستوضح سر سلوكهم الغريب ذلك المساء .

— خبر إيه ؟ « الشعب » ماله !

ولكن أحداً من الحاضرين لم يتحرك ولم يعن بالرد عليه .
إلا أن مبروك الخادم التفت اليه فى النهاية وقال بصوت خافت خطير :

— « الشعب » بلا قافية متخاصم .

فتساءل حنفى عجباً :

— متخاصم ! من فيهم اللى متخاصم . ؟

فأجاب مبروك باقتضاب :

— جميعاً .

فسأل حنفى مستوضحاً :

— جميعاً ! ليه ، حصل إيه لا سمح الله ؟

فقال مبروك :

ـ بلا قافية جميعاً . ياما حلى الخصام جماعة !

فاشتدت رغبة حنفى فى المعرفة فقال :

ـ لكن يعنى ايه بس سبب الخصام !

فسكت مبروك ولم يجب ، وألقى نظرة سريعة على الآخرين فألفاهم صامتين، فلزم الصمت مثلهم، وكأنما يخالجه شيء من الارتياح واللذة أن يكون هو أيضاً ضمن الصامتين . . وعلى الرغم من الحاح حنفى وغمزه له ووخزه له بكوعه كى يخرجه من الصمت ، فقد ظل مبروك ساكتا لا يريد أن يتكلم، ولا يحرك إلا عينين كبيرتين ينقلهما بين الطبق والقصعة . ويئس منه حنفى فانصرف بوجهه عنه وتمتم قائلا :

ـ شيء عجيب ياناس .

عبثاً حاول الرئيس أن يحملهم على الكلام حتى سئم وتعب . . . فتوجه بكليته الى الأكل وصار يزدرد فى سكون مثلهم .

ومضى زمن قليل ثم عادت زنوبة تحمل فى يدها طبقاً . ونظرة واحدة اليه من عين مبروك الحادة استطاعت أن تعرف ما يحتويه فصاح معلناً :

ـ ورك الوزة شرف !

فانتفض الرئيس حنفى انتفاضة مسرحية مصطنعة وقال :

مش ممكن !

ثم قام على قدميه فى الحال وثبت منظاره على منخاره ونظر ـ

ثم قال :

— ياخبر باين ! دا صحيح يا اولاد :

ثم فجأة اعتدل فى وقفته وغير لهجته وصاح معلنا :

— صاحب العزة ورك الوزة شرف !

رفع الجميع رؤوسهم . وبعد أن تعرفوا الطبق أخذوا يتبادلون النظرات، ثم ألقوا أبصارهم فى النهاية على عبده، كأنما هم يسألونه رأيه وما هو فاعل ، لا سيما هذا المساء وهو على تلك الحالة من الغضب وتعكر المزاج .

ولكن عبده لم يأت بحركة ولم ينبس بكلمة . بل ترك زنوبه تضع الطبق باطمئنان فى وسط المائدة وعندئذ رفع عينيه ونظر طويلا إلى ورك الأوزة الهادىء فى طبقه ثم .. فجأة وفى سرعة كسرعة الحدأة انقض على ذلك الورك فحمله باصبعيه وذهب به إلى النافذة فألقى به فى الشارع ثم عاد إلى مكانه دون أن يلفظ حرفاً واحداً .

وجم الحاضرون لحظة إزاء هذا المنظر الصامت ثم انقلبوا فى الحال محبذين مسرورين ضاحكين ماعدا زنوبه . وكان أكثرهم بالطبع ضحكا وصخباً وتشويشاً حنفى ومبروك . فقد كان الرئيس (شرف) والخادم (شرف) يضحكان من قلب صاف بسيط ويودان لو يستمر الضحك والصخب وقد وجدوا له فى النهاية سبباً على الأقل . وجعل حنفى يطيل ضحكاته ويصـــل بين أطرافها

وينظر إلى مبروك الضاحك الوحيد الباقى مثله ويقول :

ــ آه ... آه منه ... ورك الوزة !

وكأنما قد تذكر شيئاً فالتفت بغتة إلى عبده وقال :

ــ لكن يا سيد عبده انت نسيت ان قهوة المعلم شحاته تحت قدامنا فى الشارع وأنا أراهن إن ما كان الورك نزل فوق راس زبون !

فرد مبروك الخادم فى الحال :

ــ إنا لله وإنا اليه راجعون !

فقال حنفى موافقاً فى لهجة جد مصطنعة :

ــ الدنيا حكم ومواعظ !

فتنهد مبروك ثم قال :

ــ ياسلام سلم! زبون قاعد بلا ،قافية كافى خيره شره وطالب له فنجان قهوة ساده والا واحد شيشه يقوم فى غفلته ينزل عليه..

فقاطعه حنفى مكملا :

ــ ينزل عليه ، اللهم احفظنا واكفنا السوء...

فتميزت زنوبة من الغيظ وهى بلاشك الوحيدة التى أغضبها عمل عبده غير أنها كظمت وسكتت .

واستطرد مبروك يقول وهو يهز رأسه :

ــ الدنيا من غير مؤاخذة حكم تمام ومواعظ ؟

فانفجرت زنوبة وصاحت به :

— اخرس بقا ! انت كان ياخدام يالواطى يالحاس الاصحن !

فأخذ مبروك قليلا ثم عاد فقال :

— واناقلت حاجة: دى بلا قافية مواعظ كبيرة قوى واحد زبون طالب غايته، واحد قهوة بقرش تعريفه والاشيشه بنيكله، يقوم من غير مؤاخذة فى غفلته ينزل عليه من السماورك وزة فلاحى يساوى جنيه.

فقالت زنوبه بحدة :

— قلت لك اخرس .

ثم التفتت إلى عبده وقد أطمعها فيه سكوته وقالت :

— وانت وحياة ربنا العزيز بكره تشوف . ابق تف فى وشى ان كنت تكسب !

فاحتقن وجه عبده غضبا وصاح :

— بتقولى إيه !

ولكن زنوبه تجلدت واستمرت تقول :

— بكره تشوف إن كان ربنا يسامحك والا يبرى لك دمه ! ابق قابلنى ان كنت تورد على جنة أو يتشفع لك نبى !

فأتى عبده بحركة عصبية من يده ملأتها رعبا فسكتت فى الحال. وكأنها رأت أن الأولى بها أن تتلطف معه فقالت :

— وأنا كنت جايباه لك ؟ والنبى الغالى داما كان لك . الطير ده أنا كنت جايباه لمبروك . مش كده يامبروك ؟

فنظر إليها مبروك ثم ، نظر إلى الحاضرين حائرا مترددا متورطا لا يدرى ما يقول . . وأخيرا وافقها فى لهجة سخرية خفيفة :

ــ آه ... الطير ... !!

واستطردت زنوبة دون أن تلتفت إلى جواب مبروك :

ــ أصل ادلعدى مبروك يحب الطير البارد .

فهز مبروك رأسه علامة الموافقة الاضطرارية وقال :

ــ ايوه زى بلا قافية الانجليز .

فنظر إليه حنفى الرئيس وقال له :

ــ وانت كمان ايش كان عرفك بأكل الانجليز . .

فأجاب مبروك :

ــ امال ايه . مش ابن عمى أخدوه فى السلطة ايام الحرب مع الجمال والحمير والانفار اللى أخدوها ؟

فقال حنفى :

ــ صحيح . وكان بقا يا كل راخر طير بارد ، والله عال . يظهر ان ست زنوبة عايزه تعملنا انجليز على آخر الزمن .

وفهمت زنوبه ان حنفى يسخر منها فالتفتت إليه وصاحت به فى حدة :

ــ النبي تنسد انت كمان وتحط على خيبتك برش . .

دى نوايب إيه يا ختى دى ! أنا عارفه جرى لكم إيه ؟! انتم

بقيتوا والنبي ما تنطاقوش أبداً . . .

ماكادت زنوبة تتم جملتها حتى رفع عبده رأسه وصرخ بصوته الهائل قائلا :

— هس اخرسى ولا كلمة .

ثم تبع ذلك بقوله متوعداً :

— أقسم بالله العلى العظيم مانا ساكت لك، انت فاهمه اننا كلاب توكلينا الأكل ده أحنا مش كلاب أبداً .

فنظرت إليه زنوبة فى خوف ثم قالت فى دعة ورفق :

— مش قلت لك أنا كنت جايباه لمبروك ؟

فأجاب عبده على الفور :

— ومبروك مش بنى آدم ؛ ومبروك مش واحد منا ؟

ومن إمتى مبروك له معاملة غير معاملتنا ؟ من إمتى ظهر التمييز دفى البيت ؟

ماقال عبده هذا حتى وجد من «الشعب» تصديقاً واستحساناً مملوءين قوة وحماسة عجيبتين . فاخفض مبروك الخادم بصره خجلا، وجعلت أصابعه تلعب بازرار قفطانه القذر الممزق، وأحس من أعماق قلبه أشياء لايفهمها . وشعر بدفاع خفى يدفعه إلى اختلاس النظر إلى ثياب محسن الجديدة الثمينة. غير أن شيئاً آخر جعله يغض من بصره، ثم إذا الدافع يدفعه ثانية إلى النظر سرا إلى ثياب محسن الجديدة الثمينة ،

وكانت تلك النظرات بريئة ساذجة لا تؤدى أى معنى . ولكن فيها بعض الخضوع والانكسار والكآبة . ولعل ذلك على غير علم منه. ولعله كان يحس فى تلك اللحظة بشىء من الفرق، يجب أن يظل موجودا بينه وبين أولئك الذين يعايشهم منذ أمد عيشة الأهل . إلا أنه لم يفطن لشىء من هذا ولم يدرك قط شيئا . إنما هو مجرد إحساس سريع مر كالبرق .

واستطرد عبده قائلا لزنوبه فى خشونة وجفاء .

ـــ سلمناك المصروف لاجل تصرفى علينا .مش لاجل تصرفى على السحر والتنجيم .

وأسرع حنفى الرئيس مصادقاً :

ـــ عليك نور يا ابو عبده ! الميزانية كلها ضايعه وشرفك، فى البخور والشبشبة وتبييت الأثر .

فصاحت زنوبة محتجة ولكن عبده أسكتها صارخاً :

ـــ هس ولا كلمة ! حضرتك فاهمة اننا مغفلين . والا لسه عيال قاعدين نمص صوابعنا ؟ كلنا عارفين . انت قاعده توفرى وتدبرى من المصروف . وتضيعى اللى توفريه على المنجمين والدجالين ياجاهله . فاهمه ان العمل ده رايح يجيب لك عريس ؟

وأردف الرئيس شرف قائلا :

ـــ بدل ماتحرمينا وتصرفى الميزانية على بسم الله الرحمن الرحيم

العفاريت . اصرفيها علينا احنا أولى . احنا يعنى أقل من العفاريت ؟!

فلم تجسر زنوبة على الكلام وتشاغلت بالأكل. وجعلت تأكل صامتة ووجهها متجهم قاتم وجبينها مكفهر معقود ، وسرعان ماخيم الصمت والسكون على المكان من جديد. فقد انصرف الكل كذلك إلى الأكل دون أن يفتح أحد موضوعاً للحديث، ومامرت لحظة حتى كانت أصوات الملاعق والمضغ والرشف . هى وحدها المسموعة فى الفسحة وكأن «الشعب» نزل أخيرا على إرادة البطون فانصرف عن كل شىء آخر

ومع ذلك فمن نظر إلى محسن أيقن أن شيئا خفيا يشغل باله منذ لحظة فهو يأكل ساهما وكأن فى نفسه شيئا . فقد باغت منذ قليل تلك النظرة البريئة الخجلة الخاضعة، التى يرسلها مبروك خلسة إلى ثوبه الجديد ، ولعل نظرة بسيطة ساذجة كتلك النظرة لاتحوى فى ذاتها أى معنى ما كان لأحد أن يعبأ بها. غير أن نفسا كنفس محسن لخليقة أن تحس بمعناها وأن تتأثر بها . فقد أثارت فى نفسه ذكرى قديمة من أيام طفولته الأولى يوم كان له من العمر ثمانى سنوات وكان تلميذا بمدرسة دمنهور الابتدائية . وكان له رفاق صغار فقراء، وكان هو أغناهم وأفضلهم أسرة . فهو محسن العطيفى ابن حامد بك العطيفى كبير الأعيان فى البلد وأثراهم (وقد نشأ حامد بك غنيا من أمه لا من أبيه. وهى غير أم حنفى وعبده وزنوبه. اخوته غير الاشقاء. لذا كان هؤلاء فقراء أما هو حامد بك فغنى .) ولقد أراد أن ينشىء ابنه محسن على

الترف والنعمة واليسر فأحاطه بألوانها . ولكن محسن كانت له نفس من تلك النفوس التى تمج النعمة والترف ولعل من النفوس من عذبتها الثروة . لقد كان محسن يخجل سرا ويتألم لأنه غنى . وكم من مرة ناضل وبكى وصرخ، حتى لا يلبسه أهله ثيابا فاخرة اوكم من تضرعات وتوسلات ودموع كى لا يرسلوا له العربة تنتظر خروجه بباب المدرسة ! ما كان محسن الصغير يتمنى غير شىء واحد: أن يكون مثل رفاقه الصغار الفقراء . لا شىء كان يذيبه خجلا سوى أن يبدو ممتازا على أقرانه بثوب أو نقود أو مظهر ثراء، واشتد به الأمر إلى حد أن كان يخفى اسم أسرته عن رفاقه . وهكذا لبث فيهم طويلا وهم يحسبونه مثلهم تلميذا عاديا بسيطا من والدين فقراء أو متوسطى الحال . إلى أن كان يوم نحس أغبر عند محسن . فقد أصيب مرة بانحراف فى صحته وخشيت والدته عليه ولم تستطع الأصغاء إلى توسلاته، فأرسلت له العربة تنتظره على غير علم منه، وخرج التلميذ الصغير محسن كعادته فى رهط من زملائه الصغار يضحكون ضحكاتهم الصافية الساذجة السعيدة وإذا هو يرى نفسه أمام عربة والديه الفخمة . وكانت دقيقة من الخجل لا ينساها. ولكنه تجلد فى الحال وتجاهل العربة وحوذيها وأراد المضى فى سبيله كأن ليس له بها شأن . ولكن الأسطى أحمد الحوذى لمح سيده الصغير فناداه . فارتجف محسن وتصامم وانحشر فى زمرة رفاقه حشرا كأنما يريد الاختفاء بينهم والهرب معهم، وكأنما النداء

ليس له . ورأى الحوذى منه ذلك فناداه مرة أخرى باسمه قائلا :

— سى محسن بك ؟ سى محسن بك ؟ تفضل هنا . . .

وجرى إليه ليأتى به إلى العربة .

وكانت هى اللحظة التى فهم فيها رفاق محسن من هو صديقهم . وعندئذ جعلوا يرسلون إليه طورا وطورا إلى العربة الفاخرة بجواديها المطهمين ، نظرات بريئة ساذجة فيها شبه ذلة وخضوع

أى أثر لا يمحى تركته فى نفس محسن تلك النظرات !؟ انهم فى الواقع ما كانوا يقصدون بها أى معنى . أولئك الصغار البسطاء . .

ولا يمكن لهذا العمر الطاهر البرىء أن يعنى شيئا . ومع ذلك فقد أطرق محسن يائسا واتجه نحو العربة كمحكوم عليه ، وكأنما يسمع فى أعماقه صدى حكم لا يقبل نقضا يهتف :

« محسن خرج من زمرتنا ... إلى الأبد »

الفصل الثالث

— يا معلم شحاته !

هكذا صاح سليم افندى منادياً فى عظمة . ثم وضع بحركة متئدة متكلفة الوقار «لى الشيشة» فوق الطاولة وجعل يفتل شاربه العسكرى المدهون بمعجون الكوزماتيك، متوخيا فى حركاته وسكناته الظهور بمظهر الشخص المهم، ذى « الحيثية » والاعتبار وهو بين آن وآخر يرسل نظرات خفية إلى شرفة منزل الدكتور حلمى . وهى شرفة خشبية من النوع القديم، مقفلة ذات نوافذ كنوافذ المشربيات التى ترى ببيوت الوقف فى شارع الخليج . وفطن سليم افندى إلى أنه نادى الحاج شحاته فلم يلب النداء، فأدار فى الحال رأسه العارى المعطر بأنواع الأطابيب ونظر إلى داخل القهوة .

كان الوقت ضحى والشمس قد اشتدوهجها : غير أن سليم الجالس على الرصيف خارج القهوة فى مكانه اليومى المعتاد، لم يكن ليعبأ بحرارة الشمس . يدل على ذلك طربوشه المخلوع الموضوع على كرسى بجواره . ولو أنه فى كل لحظة كان يخرج منديله الحريرى «الرخيص» من كم سترته ليجفف جبينه فى أناقة متصنعة فى حيطة واحتراس، حتى لا يهدم المنديل ترتيب شعره، وحتى لا يمس أطراف شاربه المدببة .

صاح اليوزباشي سليم افندى مرة أخرى منادياً .

— يا معلم شحاته !

ولكن المعلم شحاته لم يسمع شيئاً على ما يظهر . فقد كانت الغوغاء والجلبة داخل القهوة تصم الآذان . وكان كل نداء يضيع بين قهقهة الزبائن وكحهم وتفهم ، ونفهم وزبائن المعلم شحاته ليسوا من طراز سليم افندى، لا فقط من حيث المركز والمقام، بل من حيث المزاج والعواطف ،ومن حيث الظروف أيضاً. فإذا كان سليم افندى يجلس منفرداً منعزلا خارج القهوة مشتغلا بالعواطف والاحلام الجميلة، فإن باقى الزبائن داخل القهوة،مشتغلون بالصخب والضجيج ويكادون يهدمون عليهم المكان . ذلك شأنهم فى كل يوم زبائن الحاج شحاته هؤلاء كلهم متعارفون . وكلهم يختلفون إلى هذه القهوة الصغيرة فى عين الميعاد، كى يؤدوا فريضة لابد لهم منها : فريضة الضحك . وكأن هؤلاء الناس لا صناعة لهم غير الضحك، وأنهم لم يخلقوا لغيره، فهم يقضون حياتهم كلها ـ على ما يبدو ـ فى القهقهة بين أنفاس التعميرة والقهوة السادة . وهم دائماً فى مجلسهم المعتاد ملتفون حول واحد منهم، يظهر عليه الامتياز عليهم والتفوق والنبوغ فى مضمار النكت والمزاح، فهم دائبون النظر إليه حتى إذا مافاه بكلمة هذا المهرج الأعظم، انقلبوا جميعاً ضاحكين ومختنقين من الصخب والضحك، سواء أكان لما فاه به معنى أم لم يكن. كأنما هم يجدون فى مجرد الضحك والصخب لذة حسية

يدير المعلم شحاته وصبيانه هنا وهناك بينهم حاملين، الطلبات وهم يضحكون ولا يدرون أحيانا لماذا يضحكون ، كأنما قد سرت إليهم العدوى، أو أنهم يقصدون زيادة التشويش والتهييص واحماء الوطيس، فما تمر دقيقة حتى يصفق المعلم شحاته براحتيه ويصيح فى الجميع صيحة لامبرر لها . كأنما يود أن يبلغ الضجيج والانشراح أقصى قمته :

— وحدوه ! اللى يصلى على النبى يكسب !

ولا يغطى صوته إلا نداء زبون :

— واحد زبيب ياجدع .

أو صدى وقع النرد على الطاولة بقوة وعنف فى أحد أركان المكان:

— درجى . شيش جهار .

ولكن الصوت الأعلى دائماً للمهرج الأعظم وزمرته المحدقة به كأنه معبود وسط عباد مؤمنين . وهو يقول فيهم ويأمر وينهى :

— اسمع ياواد انت وهوه !

فتعلو الأصوات :

سمع هس !

فيتكلم مازجاً الهزل بالغناء ، خالطاً الكلام العادى بالمواويل . فبينما هو يحدث من حوله من المقربين همسا عن ملاحظه عنت له أو عن شىء خاص ، إذا هو فجأة يرفع عقيرته بغير سابق انذار :

— سبع سواقى بتملا لم طفوا لى نار ...

فيجيب الجمع .

— الله . .

— سبع سواقى بتملا لم .

وهنا مر المعلم شحاته حاملا طابا،فقطع المغنى مواله والتفت إلى أعوانه وقال بصوت مسموع :

— سبع سواقى بتملا لم غسلت وش المعلم شحاته .

فضحك الجميع على نغم الموال :

— ها . . ها . . هـاى .

وظلوا يضحكون حتى جفت حلوقهم، وحتى أسكتهم صاحب الكلام، ولم يستأ المعلم شحاته بل ضحك معهم ثم نظر إلى المهرج الأعظم نظرة عتاب و « عشم » وقال وهو يستأنف سيره بالطلب :

— طيب . .طيب . . ياحاج حسنْ . !

وسمع المعلم شحاته صوتاً يناديه خارج القهوة فصاح :

— حاضر . . حاضر . .

ثم مشى مسرعا فاصطدم بكرسى وسقط الطلب على رأس زبون فانحنى يجمع بقايا الكوب من الأرض وهو يقول :

— صلى على النبى تكسب .

غير عابئ بالزبون الذى سال على وجهه وقفطانه ما كان بالكوب .

وجعل الزبون يجفف وجهه بطرف قفطانه ويقول متذمراً :

— أكسب إيه ؟ . . مش تحاسب شويه !

فرفع المعلم شحاته رأسه إليه وقال :

— صلى على أبو فاطمه ياجدع انت. واللى خلقك دا زبيب. مين يطول يدهن وشه بزبيب، دا أحسن من مية القسيس ياجدع انت.

فضحك الجميع . وطفقوا يضحكون معا ذلك الضحك الطويل الذى لا ينتهى، كأنما هم مجاذيب، وفى الحقيقة من يدرى إن كانوا هم كذلك، أو أنهم فقط قوم وجدوا النعيم فى الضحك جماعة !

نفد صبر سليم، أو الأصح أنه تصنع نفاد الصبر، فأتى بحركة غضب ناظراً بطرف عينه إلى شرفة الدكتور حلمى، وصفق بيديه الكبيرتين تصفيقا كالرعد وصاح :

— يا معلم شحاته ! خبر إيه يا معلم شحاته !

ومرت بضع ثوان ثم ظهر صاحب القهوة خارجا منها يقول :

— حاضر .

وما كاد يتبين المعلم شحاته سليم افندى حتى هرع إليه :

— سعادة البك ! محسوبك !

قال ذلك ووقف باحترام أمام زبونه النظيف المستديم، وكأن سليم أعجبته هذه الوقفة الخاضعة فلم يأمره فى الحال بما يريد، بل تركه يقف، وأخذ يتمتع بهذا الاحترام وهو يفتل شاربيه، غير غافل عن أن يرسل نظراته الخفية إلى الشرفة المعهودة . أخيرا قال فى لهجة

حشدة وقورة ذات جلال وهو يومىء إلى الشيشة فى تناقل الشخص ذى المقام :

— ولعة ... بسرعة !

واختلس نظرة أخرى إلى الشرفة ثم قال للقهوجى آمراً :

— انت لسه واقف ! قلت لك بسرعة .

فوضع المعلم شحاته يده على رأسه المعممة باللاسة وقال :

— ياسلام يابيه. أوامر سعادتك على راسى دى. وأراد أن يذهب كى يأتى بالطلب، ولكن سليم افندى استوقفه قائلا وعينه للشرفة :

— انت مش عارف أنا مين يا معلم شحاته ؟ . ما يغركش انى لابس ملكى .

قال ذلك بصوت مملوء عظمة . فأسرع المعلم شحاته قائلا عارف . عارف . أهل الحسب والنسب والكرامة ، اللهم زيد وبارك ...

ثم مشى نحو باب القهوة وهو ينادى صائحا :

— ولعة للشيشة بره !

ودخل القهوجى وعاد سليم إلى الشيشة، فأخذها ووضع طرفها فى فمه ،ثم رفع رأسه وأرسل الدخان فى الفضاء ونظر بملء عينيه هذه المرة إلى شرفة منزل الدكتور حلمى ،وثبت نظراته ولكنه مالبث أن خفض بصره يائساً. إنه لم يلمح ظل إنسان فيها . لا رجل ولا امرأة .

سئم سليم أخيراً وأخذ يتمتم بألفاظ الضيق والاستياء، وأخذه نوع من التعب فجعل يتثاءب . وله فى ذلك حق . فقد مضى عليه نحو الثلاث ساعات، وهو مرهون فى مكانه بالقهوة . لم يتحرك بجسمه الضخم كأنه قنطار من القطن . فكم من مرة نظر إلى الشرفة عبثاً . وكم من مرة صفق بيديه كالرعد للمعلم شحاته وصبيانه ، صائحا بهم فى لهجة، يحرص دائماً أن تكون آمرة ناهية كلهجة المأمور . ولم يختص صاحب القهوة وغلمانه فقط بهذا الأمر والنهى، بل إنه لم يترك مساح أحذية يمر بالشارع منذ ثلاث ساعات ، دون أن يناديه فى سلطة صائحا :

— ياولد تعالى نفض الجزمة .

ويمد له قدمه قائلا :

— نفض كويس . إنت مش عارف أنا مين ...

ولم يدع بائع جرائد يقع عليه نظره دون أن يقول :

— اسمع ياولد . معاك بصير ؟ والا هات أهرام، علشان اقرا أخبار الترقيات والتنقلات .

ولا يرى بائعاً متجولا حتى يستوقفه :

— تعالى ياجدع انت وريني . حمالات شغل ألمانيا . لكن لا لا لا . دا شغل نصب . أنا لا ألبس إلا من عند سمعان . روح ياجدع . والغرض أن يتكلم ويرفع صوته مدوياً ، وينظر بين الفترة والفترة إلى الشرفة .

لكن مع الأسف كل هذه الأساليب ما كانت لتسترعى انتباه أحد. اللهم سوى زبون كان جالسا خلف سليم افندى تماما، ولعله جاء دون أن يشعر به . ويظهر أن هذا الزبون ما كانت تفوته حركة من حركات سليم . بل انه على مايبدو من اهتمامه وابتسامه المكبوت، كان يسر ويلتذ ويضحك فى نفسه لما يرى ، كأنما هو يشاهد قصة مسلية . لم يكن هذا الزبون المشاهد سوى مصطفى بك الجار ، القاطن بالدور الأسفل لدور سليم وشركائه . ومع ذلك فلو أن سليم أخطأ النظر مرة واحدة وسدد عينيه إلى المنزل الآخر اللاصق بمنزل الدكتور : إلى المنزل رقم ٣٥ أى منزل « الشعب » للمح فى إحدى نوافذه شبح امرأة، تلقى نظراتها القانطة هى الأخرى نحو القهوة منذ عشرين دقيقة، ولاستطاع كذلك أن يسمع صوت الجلبة والضوضاء التى ما فتئت تحدثها تلك المرأة فى نافذتها ، بحجة وضع القلل الفخار ذات الأغطية النحاسية

لم ير سليم شيئا من هذا. ولعل مصطفى بك لم يلمح هو الآخر شيئا فإن اشتغاله بمشاهدة سليم وحركاته وأحواله، وحرصه على تلك المشاهدة والملاحظة ، منعه من النظر إلى النافذة المذكورة وما يجرى فيها .

اشتد الحر ووهج الشمس مما اضطر سليم إلى لبس طربوشه، وألقى نظرة أخيرة على الشرفة، ثم أخرج ساعته وطالعها فإذا هى لم تتجاوز الحادية عشرة . وأفراد « الشعب » لا يعودون لتناول الغداء عادة

قبل الواحدة بعد الظهر . فماذا يفعل بالوقت ؟ أيظل جالساً أم ينصرف ؟ وإذا انصرف فإلى أين ؟ تردد وتحير .

ومر بخاطره كالبرق خيال قهوة الجندى يوم أن كانت محله المختار وتذكر تلك الفاتنات الأفرنجيات ، اللاتى كن يترددن على الطابق الأعلى وكيف ، أنه كان — على حد زعمه وتصوره — محبوباً بين هاته الظباء النافرة ، يتهافتن عليه وينظرن بإعجاب إلى شواربه المفتولة الزنهار. ولكن. واأسفاه! لعن الله القلب المصاب الذى حمله على المجىء إلى قهوة شحاته الحقيرة، يمكث فيها طول النهار، ينظر بعيون مرتفعة إلى السماء ، كأنه عابد وثنى إلى شرفة لا روح فيها .

تثاءب مرة أخرى . ثم مد يده فى حركة متراخية وتناول جريدة على الطاولة. وحاول القراءة . غير أن إحدى عينيه كانت دائما خارج الصحيفة . تنظر فى كل جهة وتدور فى محجرها قلقة، كبلية فى فنجان وتستقر أخيرا على الشرفة المعهودة .

مرت لحظة وهو على تلك الحال . وفجأة حدث أمر جعل سليم يترك جريدته تسقط على الطاولة ،وأخذ ينظر أمامه فى انتباه، ذلك أنه رأى مبروك الخادم يخرج من المنزل حاملا تحت ابطه «بقجة» صغيرة، لكن مااسترعى انتباهه واهتمامه أن مبروك يلبس قفطان الطلعة، ثوبه النظيف الوحيد الذى يدخره لأيام الأعياد والمواسم والموالد، ثم شىء آخر أغرب وأهم: أن مبروك يتوجه بكل هذا إلى منزل الدكتور حلمى.

والواقع أن مبروك بعد أن ظهر بالباب، وألقى على الشارع نظرة شاملة ، أدار وجـــهه وخطى بعض خطوات نحو المنزل المجاور المحبوب وهو يتمتم مغنياً :

« وأنا مالى ماهى اللى قالت لى »

عندئذ نهض سليم نصف نهوض وصاح :

— يا مبروك . !

فالتفت اليه الخادم وابتسم، ولكنه لم يقف ولم يلفظ كلمة بل استمر يغنى:

« روح اسكر وتعالى ع البهلى . »

فقام سليم على قدميه ، وجعل يصيح ويشير إشارات قوية :

— هس . اسمع. أما أقول لك يامبروك ! إسمع أما أقول لك . كلمة واحده وروح . . .

فلم يرد عليه مبروك بل وقف ونظر إليه وهو يغنى . ثم أدار له ظهره ومضى،وصار يمشي كأنه يرقص، حتى بلغ باب منزل الدكتور فوقف على عتبته والتفت إلى سليم ، وغمز له بطرف عينه ولعب حاجبه ثم دخل تواً .

فزجر سليم ودمدم بين أسنانه :

— أما حيوان . . . صحيح .

ولم يفت مصطفى بك الجالس خلف سليم شيء من كل ذلك فابتسم . ومضى نحو عشر دقائق وإذا امرأة ملتفة فى إزار أسود، قد ظهرت

على عتبة المنزل رقم ٣٥ أى منزل سليم، ووقفت هذه المرأة لحظة ساكتة جامدة، تنظر إلى القهوة نظرات مسددة طويلة، من عينين يبرقان على جانبى قصبة البرقع النحاسية، ثم فى حركة فجائية تدل على السأم والغضب، أدارت ظهرها للقهوة، مشت فى شارع سلامة متجهة إلى ميدان السيدة زينب .

ما كاد يراها سليم حتى نهض ناسياً جرائده وعصاه فوق الطاولة والكراسى ، وأسرع فى أثرها فلحق بها بعد ثلاث خطوات من خطاه الواسعة ، وهى تسير أمامه بجسمها المهتز المترنح فى تؤدة وتمهل كأنها المحمل .

فتل سليم شاربيه بسرعة وتقدم مقترباً منها حتى حاذاها فتنحنح وقال هامساً :

— ياسلام على كده ! ياقشطه بلدى ! خدامك ياهانم ، عربية والا أوتومبيل ؟

فعرفت صوته فى الحال، فوقفت والتفتت إليه وقالت فى شىء من الحزن وخيبة الأمل :

— هو انت بسلامتك !

فبهت سليم وخجل قليلا وتمتم دهشاً :

— زنوبة !

فابتسمت تحت البرقع فى كآبة . . وبغير أن تعبأ بانتظار جوابه، أخذت تختلس نظرات قلقة ، إلى قهوة شحاته خلفها ، كأنما تبحث

عن شيء أو عن شخص ...

وأحس سليم الحيرة لهذا الموقف، فقال مرتبكا وهو يحاول إخفاء ذلك بالضحك :

— ها . . . ها . . . الله يجازيك . أنا كنت فاكر . . نهايته بقا. انت رايحه فين ؟

فقالت زنوبة وهى شاردة الفكر غائبة الذهن :

— أنا ... !

وكأنما تذكر سليم عندئذ سؤالا هاماً فأسرع يقول :

— على فكره . الولد مبروك دخل دلوقت بيت الدكتور . ؟

وانتظر منها إجابة أو تفسيراً ، ولكنها ظلت صامتة ، ثم قالت أخيرا وهى ساهمة وعيناها تفتشان بين مقاعد القهوة فى آخر الشارع.

— مين ؟

فنظر إليها مليا :

— مين ازاى ؟ بقول لك مبروك . .

فعادت إلى نفسها والتفتت إليه وقالت :

— مبروك ؟ ماله ؟ ماهو راح فى مشوار .

— مشوار . . . !

— آه . . راح يرجع فستان سنيه حلمى، اللى كنت قاعده أفصل عليه .

فأقتنع سليم وسكت قليلا ثم عاد يقول بصوت غريب :

ـــ ومشوار زى ده خطوتين اثنين ، يلبس له الحيوان ده قفطان التشريفه بتاعه ؟ !

فأجابت زنوبة بعدم اكتراث :

ـــ هو دايما كده نهار مايروح هناك .

فحملق فيها سليم :

ـــ عجيبه بقا هو دايما كده نهار مايروح هناك . !

فقالت زنوبة وهى لاهية :

ـــ له حق . مايحبش يروح للناس وسخ .

فدمدم سليم فى غير تصديق :

صحيح ... فى محله . نهايته انت رايحه فين ؟

فترددت زنوبه ونظرت إليه وارتبكت قليلا ثم قالت :

ـــ أنا . ؟ . أنا عايزه أروح عند . . . « زهرة » الخياطة .

فسألها سليم :

ـــ هنا فى البغالة ؟

فأجابت بسرعة :

ـــ آه . . .

فأتى سليم بحركة لينصرف وقال وهو يبتعد عنها :

ـــ طيب بقا أما ارجع أنا . . وابقى سلمى لى على زهره ان كانت

حلوه .. وتفصيلها حلو .

ثم استدار ومشى عائداً إلى مكانه بالقهوة .

لبثت زنوبة لحظة جامدة، وكأنها مترددة، وكأن نفسها فريسة لشيء خفي، وجعلت تفكر كما يتاح لمثلها ولمن له عقليتها أن يفكر. ولم تدر ماذا تصنع . فألقت نظرة أخيرة على القهوة ، ثم أرجعت بصرها خائب الأمل ، وسارت ببطء متجهة إلى ميـــدان السيدة زينب. وما وصلت إلى الجامع ، حتى وقفت وأرسلت عينيها من خلال قضبان نافذة الضريح ، وحدقت بمقام بنت رسول الله ذي النقوش الفخمة ، ثم طفقت ترتل في سرها وفي حزن، سورة الفاتحة للسيدة الطـاهرة ... وميدان السيدة زينب محطة رئيسية لمركبات « أمنبوس سوارس »، والمار به لا يلبث أن يخترق أذنيه من حين لآخر صوت العامل السائق يصيح :

— يلله الموسكي ! السيدة نفيسة . الموسكي . موسكي . موسكي

وكانت زنوبة أولَ من نبهه هذا الصوت ووجهت كلمة الموسكي فكرها إلى شيء في رأسها . فترددت لحظة . ثم فجأة استقر عزمها فمشت بقوة إلى مركز الأومنبوس ، وصعدت مسرعة إلى أول عربة متهيئة للسير .

* * *

مرت نصف ساعة وسوارس تخرج وتدخل في شوارع وحارات

عتيقة، مخترقة الأحياء القديمة لمدينة القاهرة، حتى وصلت أخيراً إلى الموسكى، فنزل من الركاب من نزل واشرأبت رقاب الباقين فى العربة إلى الخارج، ينظرون على جانبي الطريق إلى المتاجر والدكاكين التى لاعدد لها، وقد عرضت بضائعها التى تبهر الأنظار من أقمشة من الحرير والقطيفة، مزركشة بالقصب اللامع والترتر البراق، ومن مصوغات ذهبية حقيقية وقشر سمكة. ومن أحذية وشباشب «بكعب وزحافى» على آخر طرز. ومن خردوات ودنتلات وبياضات لزوم البيت. وأوانى نحاسية، وأخرى من الصينى، وملاعق ومغارف خشبية ومعدنية، وبالاختصار كل شىء موجود فى هذه السوق المشهورة، وكان الزحام شديداً كالمعتاد، وسوارس تلقى صعوبة فى شق طريقها بين أمواج الناس المجتمعين كالنمل، فى شارع الموسكى الضيق. يعلو صياحهم، وتشتد حركتهم وضجيجهم، كلهم تجار وباعة ومشترون ومتفرجون، فالتجار والباعة يصيحون منادين على بضاعتهم متنازعين الزبائن، بخالب أقوالهم ورخص أثمانهم، وحلفهم وقسمهم بالشرف والإيمان على جودة الصنف وعلى أنها فرصة حقيقية وأوكازيون على ذمة الخواجه. والمشترون نساء ورجال يشاهدون ويجادلون ويمارسون، متناولين الأقمشة بين أيديهم يفركونها ويفحصون متانتها فى عنف، ثم يساومون ويناقشون فتعلو الأصوات وتكثر الأقسام، ويشتد الشد والجذب، ويسيل العرق على الجباه والوجوه، ويضاف على هذا الهرج والمرج صوت صناجات

بائع العرقسوس، يزاحم الناس بقدرته الحمراء على بطنه، وأبريقه النحاس في يده، ولوح الثلج المركب فوق القدرة لا يبرد شيئا ولا يصل إلى الشراب وإنما وظيفته مجرد الأعلان « حاسب على سنانك ! أنا بياع الشربات ماليش دعوى بسنانك ! » ثم يدق دقة بصناجته أو يملأ كوباً لزبون، ثم يصيح في لهجة أخرى: «صبر جميل ! فقر بلا دين هو الغنى الكامل ! سنانك حاسب ! » ظل ركاب سوارس يشاهدون هذا كله من نوافذ المركبة، إلا زنوبه فإنها وحدها البثت جامدة ساكنة، لا تعبأ في هذا اليوم بالموسكى ومافيه. ولم تتحرك ولم تصح من تفكيرها وما يشغل بالها إلا عند ما حان محل نزولها. وكان عند سيدنا الحسين، حيث وقفت الأمنبوس، فنزلت زنوبه وكأنما كأنت على علم تام بالجهة التي تقصدها، فإنها ما كادت تطأ الأرض حتى جعلت تسير في هذا الحى من شارع إلى آخر، ومن حارة إلى حارة، لا تلوى على شيء ولا تضيع ثانية واحدة.

في قلب هذا الحى.. عطفة سد صغيرة مظلمة، لا يمكن لغريب عن الناحية أن يهتدى إليها بمجرد المصادفة. إلى هذه العطفة كانت زنوبه تسير. وبلغتها بعد مسير ربع ساعة، ووقفت بباب منزل هو الأخير من الجهة المسدودة.

ترددت زنوبه قليلا ثم طرقت الباب برفق. ومرت لحظة ثم فتح الباب وظهرت خلفه امرأة عجوز، جعلت تنظر إلى زنوبه في تقطيب

نظرة المتسائل . فقالت لها زنوبه فى شىء من الخجل :

ــ جايه للشيخ سمحان .

فأفسحت لها العجوز طريقا وأجابتها فى خشونة .

ــ أدخلى من هنا .

دخلت زنوبه وأغلقت العجوز الباب وراءها، ثم قادتها إلى حجرة واسعة قليلة الأثاث، وأشارت إلى شلتة على الأرض خالية بجوار امرأة ترضع طفلها ثم قالت لزنوبه :

ــ اقعدى استريحى لما ييجى دورك .

وانصرفت من باب فى صدر المكان .

جلست زنوبه على الشلتة وأخذت تجيل النظر فيما حولها، فرأت نسوة جالسات على الأرض مثلها ينتظرون أيضاً نوبتهن . وكن كلهن مجتمعات ووجوههن إلى باب الصدر، وقد لبثن صامتات يحدقن بعيونهن فى ذلك الباب.. كما لو أنه باب الله . وكان يرتسم على ملامح هاته النسوة معنى واحد . حتى ليخيل للرائى أن فكرة واحدة تجول فى رؤوسهن كلهن، وتوحدهن جميعات . وكأنهن فى صلاة الجمعة حيث تنفصل النفوس فى لحظة من أجسامها المختلفة. وتنسى كل روح حياتها الخاصة لتجتمع كلها وتذوب جميعها وتنصب فى شىء واحد : المحراب، ونسيت زنوبه نفسها لحظة تحت تأثير ذلك الشعور الذى كان يخضع له باقى النساء، ولبثت جامدة صامتة وقتاً تنظر مثلهن إلى باب الصدر .

وأخيراً التفتت فى هدوء ولطف إلى جارتها المرأة ذات الطفل وهمست فى أذنها سائلة :

— انت جايه للشيخ يا ادلعدى ؟

فنظرت إليها المرأة وأجابت :

— ايوه يااختى .

ثم قدمت لطفلها ثديا كضرع البقرة وأضافت وهى تشير إليه برأسها :

— علشان الولد بعيد عنك !

فاقتربت زنوبه بشلتتها من المرأة ثم مالت نحو الطفل فى رفق وقالت:

— اسم الله عليه ماله ؟

فرفعت المرأة غطاء أزرق كان يغطى وجه ابنها الصغير ثم أجابت:

— عينيه . ربنا مايو ريك . شوفى !

ألقت زنوبة نظرة على عينى الطفل التى يأكلها الرمد وقالت :

— مش رحت به للحكيم ؟

فرفعت المرأة رأسها والتفتت إلى زنوبه التفاتة المحتج وقالت بصوت المعرفة والثقة :

— حكيم ؟ ! هم يا اختى الحكما بيعرفوا حاجة ؟! دا أنا ماخليت شىء إلا جربته . ياماوصفوا لنا يا اختى . ربنا هو العالم . فيه بقا أكتر ولا أقوى من العسل الاسود ، وكحل البنت والششم المغربى

والدود العلق . الحداسم الله على مقامك لبخة سبلة الحمار السخنة . وكل ده لا نفع ولا وشفع. تقولى إيه .

فسكتت زنوبة لحظة ثم سألتها فى بساطة :

والشيخ سمحان يعرف فى العينين ؟

فمصمصت المرأة بفمهـا أسفاً لجهـل زنوبة ، وقالت وهى تهز رأسها المغطاة بالملاءة السوداء :

— يعرف ؟ بتسألى يعرف والا مايعرفش! دانت باين عليك ياختى ماسمعتيش به . ياندامة ! بقـا اللى دلك على الشيخ سمحـان الأسيوطى ماقال لـكيش على كراماته ؟ ؟ !

فقالت زنوبة فى أدب :

قالوا لى كثير . لـكن أنا لسه ماجربتش ...

فقاطعتها المرأة واندفعت تقول:

— لا ياختى داجرب . فيه أكتر منى أنا . قبل ما أحبل فى الولده،كنت بعيد عنك ما باحبلش،وياما عملت علشان الحبل. يادهوتى على اللى جرى لى . الراجل جوزى نفسه فى الخلف.ويصبح ويبات يقول لى،ياوليه ياتحبلى يا أروح اتجوز عليك وأجيب لك ضرة،قولى لى بقا ياأختى أعمل إيه ؟ الرب هو العالم. لاخليت طب ولا دوا.ولا سحر ولا عمل. كله وحياتك مافادولا عاد.ويوم من الأيام جارتى أم حسنين إلهى يمسيها بالخير قالت لى قومى ياختى روحى لواحد اسمه الشيخ «سمحان»ورا

سيدنا الحسين ،الناس بتحكى لى عنه وتقول.والله وحياتك ما كدبت خبر . تعرفى مسافة ما كتب لى الحجاب ولبسته وفات شهر والشهر إللى هلّ ،حسيت ببطنى رقعت بالزغروط . .

فسألتها زنوبة تطلب التأكيد بلهجة استغراب ساذجة :

ــ جالك الحبل ؟ !

فأجابت المرأة على الفور :

ــ أمال ياختى . الحبل عقبال أملتك . بعد الحجاب بشهر . عايزه إيه بقا أكثر من ده . . !

وهنا فتح فجأة باب الصدر ،وظهرت بالعتبة المرأة العجوز وأشارت إلى المرأه ذات الطفل قائلة بصوتها الجاف :

ــ يلله قومى دورك انت وابنك .

فانحنت المرأة على طفلها ونظرت إليه ،ثم التفتت إلى زنوبه وقالت:

ــ ياختى الولد نعسان.طول ليلة امبارح يا كبدى ماداق النوم إن كنت مستعجلة ياختى قومى إنت بدالى .

فنهضت زنوبه بسرعة . وشكرت المرأة ودعت لها الله والنبى وسيدنا الحسين ،كى يأخذوا بناصرها ويمنوا بالشفاء على ولدها . ثم أسرعت إلى الباب وتبعت العجوز .

ما اجتازت زنوبه عتبة باب الصدر ،حتى وجدت نفسها فى حجرة الشيخ ،وهى حجرة مربعة الشكل ، ضئيلة النور ،ليس بها من نوافذ إلا

طاقة مشبكة بالحديد قرب السقف، ولا من أثاث إلا بضع شلت على الأرض، حول خوان صغير فوق سجادة عجمية عتيقة .

وفى وسط تلك الحجرة يقوم ضريح الشيخ سمحان . ولم يكن ضريحا بالمعنى المعروف . وإنما شيء كالقفص محجوب عن الأنظار بغطاء أسود كثيف، وعلى سطحه صف من شمعدان نحاسي قديم، وله باب صغير كالكوة ذو قضبان فى لون الذهب ..

عند ذلك الباب الذهبي للضريح أو القفص، كانت تجلس امرأة فى متوسط العمر، سمينة ولكن فى وجهها بعض ملاحة . هذه كما يقولون امرأة الشيخ، فهى وحدها التى تتصل به بواسطة هذا الباب الذهبي الصغير . وهى التى تنقل كلامه الخفى إلى الزوار السائلين . ولكن الشيخ نفسه، لم يره أحد قط، كيف ولماذا هو محبوس فى هذا القفص أو الضريح؟ لا أحد يعلم. ولعل أحداً ما تساءل عن ذلك . كل ما يعرفه الناس أن الشيخ سمحان الأسيوطى، ذو قوة خفية وأسرار حقيقية وأنه على اتصال دائم مع « بسم الله الرحمن الرحيم » أهل تحت .

وقفت زنوبة جامدة تنظر إلى الضريح إلى أن أشارت لها امرأة الشيخ إشارة صامتة، تدعوها إلى الاقتراب والجلوس على إحدى الشلت المجاورة لها . فجلست زنوبة حيث أشير لها . وعندئذ نظرت المرأة إليها فى تحديق ثم سألتها بصوت متزن خافت :

— شاورت نفسك ؟

فسكتت زنوبة لحظة ثم أجابت فى تردد :

— أيوه ... لكن بس ...

فقطبت المرأة جبينها الذى تكاد تخفيه قطة المنديل الكحلى ثم قالت :

— لكن بس إيه ؟ ؟

فأجابت زنوبه فى خجل :

— جنيه ... غالى ...

فرسمت المرأة على شفتيها ابتسامة احتقار وقالت :

— غالى ! جنيه واحد غالى ! .. علشان اللى فى بالك تنوليه ؟ أمال لو كنت قلت لك خمسه جنيه زى الست اللى لسه خارجه قبلك

فقالت زنوبه بصوت خافت :

— والنبي لو كنت غنية ماكنت أتأخر . . .

فقالت امرأة الشيخ فى رفق :

— صلى على النبي ياختى انت فاكره الفلوس دى أناطالباها لنفسى؟ فاكره دى حاجة رايحة تدخل جيوبنا . ! أبداً وحياة راسك . احنا مش محتاجين بعد الشر . ياسلام ! الجنيه بتاعك ياختى رايحين نشترى لك به اسم الله عليك، خروف أبيض من غير إشاره ..وندبحه على اسمك هنا على الباب ده، وندهن العتبة بدمه . على الله ببركة الأسياد إللى سامعيننا ينفتح لك باب السعد والهنا .

فدق قلب زنوبه فجأة للكلمتين الآخيرتين، وخفضت نظرها لحظة فى حياء ثم عاد إليها الهدوء والسكينة فأخرجت منديلها من صدرها، وفكت عقدة فى طرفه وتناولت جنيهامن بين نقود أخرى بالمنديل ، ووضعته على الخوان الصغير بيد مرتجفة وهى تقول :

— بس خروف ؟ مفيش حجاب ولا حاجة ؟ ؟

فأجابت أمرأةالشيخ وهى ترمق الجنيه على الخوان بطرف عينها :

— أمال ياختى أمال . حجاب وبخور وتبييت آتر . أنا عارفه بخورك ماتخافيش : فسوخ وشبه وجنزاره وعنزروت وفرفاره ورمش عين الجان . لازم لك حجاب تلبسيه دايماً ولا تقلعيه أبداً . حاكم انت اسم الله سلطانى دقتك خفيفة . اصبرى كمان لما اسأل لك الشيخ .

وقربت فمها من الكوة أو الباب الذهبى ونادت :

— ياشيخ سمحان !

وعندئذ سمع صوت ضعيف، كأنه جثة مقبورة فى يوم الحشر ينبعث خافتاً من أعماق الضريح المظلمة . فالتفتت المرأة إلى زنوبه بسرعة وسألتها :

— قولى لى قوام اسمك واسم ابوك وجدك ؟

فردت زنوبه على عجل :

— اسمى زنوبه بنت رجب بن حموده ...

فعادت المرأة إلى باب الضريح وصاحت :

— ياشيخ سمحان ! . . اسمها زنوبه بنت رجب بن حموده...

وساد سكون هائل عميق دام لحظة . ثم فجأة . . . عاد ذلك الصوت الضعيف البعيد غير الجلى ،وألصقت المرأة أذنها على الباب الذهبي وجعلت تنصت بانتباه . وأخذت زنوبه فى اهتمام تتبعها بعيون تنم عن صبر نافد، وقد مدت عنقها ووجهت أذنيها هى الأخرى علها تسترق بضع كلمات . .

ولم تلبث المرأة أن فرغت وتركت باب الضريح، وأقبلت على زنوبه تفضى إليها بالنتيجة .

اسمعى ! الشيخ بيقول عايز أتر من شعره ... بس على شرط يكون من صحن الراس عند مفرق الشعر .

فدمدمت زنوبه بصوت خافت فى خجل واضطراب :

— شعر مين ؟ ؟

فنظرت إليها المرأة فى خبث وقالت :

— شعر مين ؟ ! شعر اللى فى بالك .

فدمدمت زنوبه مرددة وكأنما تقول لنفسها :

— أتر من شعره ؟ !

فأضافت امرأة الشيخ مؤكدة :

— من صحن الراس عند مفرق الشعر . إياك تنسى . ان كنت

شاطره، قولى للمزين اللى بيحلق له واغمزيه يجيب لك طلبك .اسمعى كمان ياختى . الشيخ بيقول يلزم لك كمان قلب هدهد يتيم .

فسألت زنوبه مستفسرة بصوت ساذج :

ـــ قلب هدهد ؟

فقالت المرأة مؤكدة :

ـــ يتيم قلب هدهد يتيم . أوعى تنسى .

فسألتها زنوبه :

ـــ وبس خلاص ؟ ؟

فأجابتها امرأة الشيخ :

ـــ هاتى دول الأول ،الحجاب المعمول من دول عمره مايخيب. الشيخ قال من تحت . وهو أعلم بالسر والكرامة، كل من كان راجل والا حرمه لبس دى الحجاب ، يصبح يلقى اللى فى باله تحت رجليه

فاقتنعت زنوبه وتورد وجهها . . .

الفصل الرابع

كان عصر ذلك اليوم يشبه تمام الشبه أيام الربيع . سماء صافية زرقاء، ليس فيها نطفة سحاب . وشمس مصر فى نشاطها الملتهب الخالد كأنها إله شاب . ترسل على القاهرة قيظا لافحا يلطف من حدته قليلا نسيم النيل المسكر . .

فى تلك الساعة كانت زنوبه ومحسن على السطح جالسين فوق حصيرة صغيرة ، فرشاها تحت حائط الجيران كى يستظلا به، وهو الحائط الذى يفصل سطحهم عن سطح منزل الدكتور حلمى، وكانت زنوبه مشتغلة بتطريز فستان لها، وعلى وجهها دلائل الفكر. أما محسن فكان لابساً بذلته الجديدة وفى يده كتاب يقلب صفحاته دون أن يبدو عليه الميل كثيرا إلى القراءة . وكان السكوت قد طال بينهما . وكأن كلا منهما مشتغل بنفسه وبأفكاره عن الآخر . وأن أحدهما قد نسى وجود الآخر . وأخيراً فطنت زنوبه ورأت أن تقطع هذا الصمت، فتكلمت قائلة لمحسن فى غير اهتمام وبدون أن تقف عن عملها:

— كتاب إيه اللى معاك ؟

فأجاب محسن باقتضاب ،واهمال وفتور ،دون أن ينظر إليها:

— ديوان شعر .

فدفعت زنوبه الأبرة بالكستبان الذى بأصبعها ثم قالت :

ــ ديوان إيه . ؟؟

فلم يجب محسن .

وصمتت زنوبه لحظة، ثم تنهدت وقالت وهى تقص قطعة قماش:

ــ ياعينى على بختى ! إذا كنت بس أعرف أقرأ واكتب !!
مش ناقصنى ياخسارة بس إلا الكتابه والقرايه . . .

فرفع محسن رأسه باسماً ونظر إليها بعين ساخرة وهمس فى خبث مردداً :

ــ بس ؟ !

لم تلاحظ زنوبه سخريته، وثبتت نظرها على جزء من الثوب قد انتهت من حياكته ، ورفعته فى يدها وتراجعت برأسها إلى الوراء تتمعنه وتفحصه ثم قالت لمحسن فى تباه وإعجاب :

ــ بص يامحسن ! . . . بكره تتفرج عليه لما يكمل .

نظر محسن بغير اكتراث بادىء الأمر . لكنه فجأة تذكر ماجعله يحمر قليلا . فقال بإعجاب بالغ حد التحمس :

ــ الله ! فى غاية الجمال !

ثم أضاف بعد قليل فى تردد وخجل :

ــ التفصيل ده على رسم فستان . . .

فأسرعت زنوبه وأجابت فى تفاخر :

ــ سنيه ! تمام على كسم بدلة سنيه حلمى الجديدة تمام . انت شفتها؟

فاضطرب محسن متلعثما :

ـــ شفت . . . مين . . ؟

فقالت زنوبه :

ـــ بدلتها . . بدلة سنية الجديدة . . . ماشفتهاش ؟ دى حاجة تجنن . آخر موضه . دى الوقت تشوفهابعينك يامحسن . كان شوية تطلع سنية فوق سطحهم وتناولها لى من فوق الحيط

نخفق قلب محسن ونظر إلى عمته كمن لا يصدق ، وكأنما يطلب التأكيد . ولكن زنوبه استطردت تقول وهى ترفع رأسها وتنظر إلى أعلى الحائط :

ـــ أنا قلت لها من الصبح على كده . ياترى تأخرت ليه . .؟

فارتجف محسن وقال :

ـــ جايه هنا دى الوقت ؟ . . قصدى بدلتها . . يعنى البدلة . . . وارتبك فى كلامه فسكت فى الحال . ثم . . كأنما كان قلبه ممتلئاً بفرح مكتوم، ففاض فجأة وانفجر يتكلم فى حماسة غريبة :

ـــ أيوه ياعمتى أيوه . . . عايز أشوف رسم فستانك الجديد . لازم أشوفه واتفرج عليه . لو كنت تعرفى يا عمتى . والله العظيم . أنا أحب دايماً أنك تلبسى كويس . لأن الواحدة الجميلة لازم أنها تلبس كويس .

فأجابت زنوبه وهى تنظر إلى ثوبها الجديد :

ـــ معلوم .

فاستطرد محسن فى حماسته :

دا صحيح . تعرفى ياعمتى ... بكره الناس تجنن عليك . والله العظيم بكره تبقى كويسه . والناس تقول ياسلام ...

نخفضت زنوبه بصرها فى حياء، كأنها فتاة وقالت بصوت بطىء خافت فيه رنة التظاهر بالتواضع :

ـــ بلاش كدب ...

وفجأة مرت بخاطرها فكرة اضطربت لها قليلا، وعادت متشاغلة بعملها فى غير اكتراث ، ولكن عقلها جعل يفكر ويبحث ...

واستمر محسن فى ثرثرته الحماسية، وهى تحرص على الإصغاء إلى إطرائه فى زهو داخلى، ولو أنها لبثت مشغولة الفكر بشىء ...

وأخيراً بدا عليها أنها اهتدت إلى ماتروم، فالتفتت إلى محسن وقالت بحنو وعطف غير طبيعيين :

ـــ انت كان يامحسن حلو والنبى بسترتك وبنطلونك الجديده .

فقال فى لهجة فرح صبيانية ساذجة :

ـــ صحيح ؟ ؟

فقالت زنوبه وهى تنظر إلى شعره :

والست الطاهرة ... بس ياخسارة ..

فسألها محسن فى قلق :

— إيه ؟

فقالت زنوبه فى تردد.

— انت بتحلق شعرك عند مين ؟

فرفع محسن يده بسرعة إلى رأسه، وأخذ يرتب شعره وقد ألقى بطرف عينه نظرة خفية سريعة إلى أعلى الحائط ثم قال :

ليه ؟ شعرى ماله ؟

فقالت زنوبه متلطفة :

— لا . . . مفيش حاجة . . بس يعنى . المزين بتاعك مش شاطر قوى .

فقال محسن :

— الاوسطى دسوقى ؟

فقالت زنوبه :

— أنا عارفه ؟ هو مفيش غيره فى الخط ؟

فقال محسن :

— ماله ؟ دا المزين بتاعنا كلنا . أنا وأعمامى و . . . وكلنا . . .

فأضافت زنوبه بلهجة ذات مغزى

— ومبروك الخدام .

فرد محسن فى الحال :

— وماله ؟ حلاقته وحشه فى إيه ؟

فارتبكت زنوبه وسكتت . ثم عادت بعد لحظة :

ـــ لأ بس يعنى . كان بدى أقول إن اللى يلبس بدله زى بدلتك يحق له يحلق عند حلاق الناس المعتبرين . .

فرفع محسن عينيه وصوبهما إليها، كأنما يستفهم عن مرادها . وقد خالجه قلق خفيف لمعنى عبارتها . أهو لوم خفى توجهه إليه وإلى ثوبه الجديد وتأنقه الحديث العهد؟ أتراها أرادت التلميح إلى أنه أصبح الآن بلباسه وتأنقه مميزاً عن أعمامه ورفاقه، ولكن لهجتها وملامحها ما كانت تدل على أى لوم . واستطردت زنوبه تقول :

ـــ آه . . . لو كنت منك . ما كنت أحلق إلا عند حلاق الأغنيا المعتبرين . أنا عارفه انت عامل فى نفسك كده ليه :أبوك غنى ، والا يمكن انت مش عارف الحلاق الكويس فين؟ آه..شوف البخت الحلو . آهو جارنا الغنى الملتزم اللى ساكن تحتنا . لابد عنده حلاق مفيش بعده.

فقال محسن مسرعا وهو يتنفس الراحة ويبتسم ابتسامة من فهم المراد :

ـــ مصطفى بك . ؟

فقالت زنوبه سائلة فى اهتمام يبدو من عينيها، ولكن فى تردد وقد احمر وجهها قليلا :

ـــ تعرف ياشاطر بيحلق عند مين ؟

فنظر إليها محسن بطرف عينه وأجاب وعلى شفتيه ابتسامة :

— أيوه أمال أعرف . أنا شفته مره قاعد عند الحلاق الكبير اللى قدام الجامع . اللى مكتوب عليه « صالون الكمال » .

فارادت زنوبه زيادة الاستيضاح فسألت :

— قدام جامع الست ؟ يعنى فى الميدان جنب محل . .

ولم تتم عبارتها . فإن صوتا موسيقياً حلوا فى السطح الآخر المجاور ناداها قائلا :

— أبلتى زنوبه ! انت فين ؟

ثم بدا بأعلا الحائط رأس جميل ذو شعر أسود لامع. فرفعت زنوبه عينيها . أما محسن فقد اصفر وجهه بغتة ثم احمر وجمد فى مكانه خافضا بصره مسدداً إياه إلى كتابه الذى بيده .

فقالت زنوبه منادية :

— تعالى ياسنيه !

ولكن سنيه لمحت محسن فقالت برقة ولطف :

— آه . . لأ معلهش بقا . . وقت تانى . .

وفى الحال اختفى رأسها الجميل وراء الحائط .

فصاحت بها زنوبه وهى تنهض لتلحق وتمسك بها :

— تعالى . . تعالى ياسوسو ! . . مفيش حد غريب. دامحسن رايحه تنغطى وتستخبى على عيل صغير ؟ حاتنكسفى منه . . وانت اسم الله متعلمه فى المدارس ؟ . تعالى . ؟

فعادت سنيه إلى الحائط وعلى شفتيها ابتسامة مؤدبة ساحرة وقالت :

ــ ما أخدتش بالى . .

ثم التفتت إلى محسن فى تحفظ وحذر وقالت بلهجة خلابة :

ــ بونسوار يا محسن بك !

فارتبك محسن واضطرب ونهض واقفاً على قدميه بسرعة وأجاب متلعثما وهو ينظر إلى الأرض :

ــ بونسوار . .

ومدت زنوبه يدها من فوق الحائط وهو لا يزيد فى ارتفاعه عن متر وبعض متر ، وتناولت بقجة صغيرة كانت فى يد سنيه وهى تقول :

ــ جبت الفستان ؟ هاتى يا اختى وتعالى عدى من فوق الحيط ونطى هنا عندنا زى العاده .

فأجابت سنيه معتذرة فى حلاوة :

ــ ما اقدرش اقعد ياأبلا . ماما منتظره تحت علشان أضرب لها بيانو .

فقالت زنوبه متسائلة :

ــ دلوقت . . دلوقت ؟ !

فردت سنية مبتسمة :

ــ أيوه دلوقت . . دلوقت

فقالت زنوبه فى إلحاح :

— اقعدى خمس دقايق بس . يعنى حاجة خمس دقايق ؟ طب اقعدى وأنا أنزل معاك .

فقالت سنيه بفرح :

صحيح يا أبلا ؟

— آى والست الطاهرة ! بس اقعدى الأول علشان تشوفى فصلت فستانى إزاى . وبعدين ننزل سوا .

فأجابت سنيه :

— قبلت علشان خاطرك . هاتى إيدك يا أبلا من فضلك . .

وأسندت يدها الناعمة على كتف زنوبه العريض ، وقفزت إلى الحصيرة وهى تقول مبتسمة :

آدينى بقيت على سطحكم .

وجلست المرأتان إحداهما بجانب الأخرى .. بينما أخذ محسن يتنحى عنهما قليلا قليلا ، حتى صار فى طرف الحصير حيث لا مفر بعد ذلك .

وأسرعت زنوبه فأخذت البقجة وفتحتها وهى تثرثر وتقول ، وقد اتخذ صوتها لهجة الجد مع بعض الدهشة :

— ومن امتى ياختى نينتك تحب تسمع البيانو ؟ !

فأجابت سنيه :

— دايماً يا أبلا . ماما تحب البيانو . خصوصاً يوم ما تكون زهقانه

النهارده هى قاعده لوحدها فى البيت . مفيش وراها زيارات ولا مشاوير ولا حاجه . وبابا خرج من بدرى زى عادته يقعد عند أجزاخانة الجوالى . . آه . . شوفى يا أبلتى والنبى ماما كانت عايزه تعمل لك زيارة النهارده وأنا اللى منعتها .

فقالت زنوبه فى احتجاج :

ليه يا سنيه ؟ يا ندامه ! . .

فأجابت سنيه فى صوت لعوب مرح وهى تشير إلى فستان زنوبه

ــ علشان كنت عارفه إنك مشغوله بفستانك . وخفت الزيارة تعطلك . مش عملت طيب يا أبلا ؟

فقالت زنوبه وهى تربت على كتف سنيه الجميلة :

ــ يا سلام على ذوقك ولطفك ياسنيه ! لكن والنبى مالكيش حق . هى نينتك كانت حاتعطلنى فى إيه ؟ نهايته . . . يلله نشوف التفصيل بالعجل وننزل الا ما يصحش نسيب نينتك لواحدها .

وتناولت فستانها بسرعة وعرضته على سنية قائلة :

آدى ياختى بسلامته فستانى الجديد . شوفى القماش . كريب دى شين من العال . لكن ما يجيش زى قماشك . أعمل إيه غلبت أسأل عند اللى اسمه بلاتشى والمواردى والجمال . . . لفيت ياختى لما دابت ركبى . . لكن أرجع وأقول أهو برده يقضى . ما تفتكريش إنه رخيص . التمن واحد ياختى وحياتك . . روحى اسألى . .

ثم التفتت إلى محسن . أهو فستانى راح يبقى زى ده .

فصار وجه الفتى كالنار احمراراً وحرارة وأجاب متحمسا فى صوت مرتجف :

— دا بديع جداً . ! .

فتحولت زنوبه نحو سنيه وضربت بلطف على ذراعها البضة وقالت :

— شايفه ازاى يا سوسو فستانك عجبه .

فرفعت الشابة الجميلة رأسها وألقت نظرة مؤدبة على محسن . فخفض هذا بصره وردد مؤكداً فى تلعثم :

— جداً . .

ثم بحركة طائشة مد يده يبحث عن كتابه وهو يتجنب النظر إلى سنيه .

ولاحظت الفتاة حيرته فأخفت ابتسامة خفيفة، ثم التفتت بعينيها السوداوين كعينى الغزال ذوات الأهداب السود الطوال، ونظرت إلى الكتاب الذى فى يد محسن وسألته فى شىء من التحفظ يخالطه دلال وسحر :

— دى روايه ؟

فأجاب محسن بدون أن ينظر إليها وهو يشير بأصبع مرتجفة إلى عنوان الكتاب :

— لأ . . دا ديوان شعر . . مهيار الديلمى .

فقالت سنيه بصوتها الرقيق :

ـــ حضرتك تحب الشعر ؟ !

فتردد محسن لحظة،ثم رفع رأسه فجأة كمن صمم أن يتشجع قليلا وقال لها وهو يحمر ولكن فى ابتسام :

ـــ أيوه ... وحضرتك ؟

فأجابت :

ـــ أنا ... فى الحقيقة . . أفضل الروايات . ومع ذلك أحب بعض قصايد وأزجال أغنيها على البيانو .

وما سمعت زنوبه كلمة الغناء حتى وضعت فستانها فى حجرها والتفتت بقوة إلى سنيه وقالت فى تحمس :

ـــ ومحسن كان يختى . ماتعرفيش انه بيغنى ؟ داعليه صوت ياسنيه هانم أنا ماحكيت لكيش،انه وهو صغير كان اسم الله عليه بيغنى مع الأوسطى شخلع العالمة فى التخت !

فدهشت سنيه وقالت :

ـــ بتهزرى والاصحيح ! ؟

ثم نظرت إلى محسن بعين الاستفهام .

ولكن محسن تحاشى نظرتها، وطفق يقلب صفحات كتابه ثم قال بصوت خافت وهو يتلعثم :

ـــ دا كان زمان ...

فسألته سنيه مبتسمة وفى سرور لذيذ :

— صحيح كنت فى التخت ؟

فأجاب وهو يحاول هذه المرة أن ينظر إليها .. لكنه مالبث أن غض بصره أمام عينيها السوداوين الخلابتين :

— كنت غاوى ...

وأسرعت زنوبه فقالت راجية :

— محسن ... غنى لنا : « قدك أمير الأغصان ... »

فصاحت سنيه الجميلة فى إعجاب :

— غنوة عبده الحمولى المشهورة ! لكن دى مين يقدر يغنيها ؟ دى قديمة وصعبه خالص !

فأجابت زنوبه على الفور وهى تشير إلى محسن بثقة وتباه :

— عارفها اسم النبى حارسه قول يامحسن ! ..

فأحمر وجه الفتى الصغير وارتبك ثم قال فى لعثمة :

— أنا ما أعرفهاش .. دلوقت .. نسيتها .

فابتسمت سنيه بفتنة ومكر وقالت :

— ربما محسن بك ما يعرفش يغنيها من غير آلات ،

فتنفس محسن الصعداء وقال وهو يومىء برأسه بقوة علامة المصادقة :

— أيوه .... صحيح . . تمام . .

ولكن زنوبه نظرت إليه بطرف عينها وقالت :

— آه يا كداب ! دا انت لسه امبارح مغنيهالى تحت فى الفسحة . . أصلك انت بس مكسوف دلوقت . .

فرفع محسن رأسه متشجعاً وقال :

— لأ أبدا امبارح غنيت لأنك مسكت لى قطعة الشوربة بصفة رق.

فانطلقت سنيه تضحك بملء فيها ، وقد بدت أسنانها المنتظمة كأنها حجارة كريمة مرصعة . ولم يفهم محسن أول الأمر سبب ضحكها ، فقد نطق عبارته الأخيرة ببساطة وبشكل عادى . فالتفت إليها فى احتراس وتحفظ وأدب . وما أدرك أنه نجح فى حملها على الضحك حتى أحمر وجهه فى الحال . ثم أحس بعدئذ شيئاً من الزهو . وكأن قلبه تداعبه أنامل سعادة دقيقة خفية ، جديدة عليه حتى الساعة ، إذ لا عهد له بمثلها قط من قبل ، ونهضت سنيه وهى تبتسم وتقول عارضة عليه فى جد :

— طيب وإذا كان بدل الرق بيانو ؟ ؟

فصاحت زنوبه :

— والنبى عليك نور ! لكن ياترى نينتك ماتقولش حاجه ؟

فقالت سنيه وهى تلفظ الكلمات فى دلال :

— بالعكس . ماما تحب قوى غناوى المرحوم عبده الحمولى . علشان وهى صغيرة سمعته كتير فى حياته .

فالتفتت زنوبه إلى محسن وقالت له وهى تنهض هى الأخرى :

— تعال معانا بقا يا محسن .

ومع أن الفتى أحس فى أعماق قلبه سعادة لا توصف لهذه الدعوة، فقد تردد فى خجل :

— لكن . . بس . .

فقالت سنيه بصوتها الحلو وهى تقترب من الحائط :

تعالى يامحسن بك . مالكش حق تتردد . أنا وعدت انى رايحه أسندك بالبيانو . « بارول دونير » !

فدق قلب محسن دقاً قوياً كأنما هو خائف . ولكنه نهض أخيراً واتجه نحو الحائط كما فعلت المرأتان

لم تمض لحظة حتى كان الثلاثة قد عبروا ذلك الحائط الفاصل، وأصبحوا فى سطح الجيران، أى سطح منزل الدكتور حلمى. وهناك ساروا إلى باب السطح المؤدى إلى السلم، حيث نزلوا إلى داخل البيت وعندذاك وجدوا أنفسهم فى ردهة واسعة جميلة الرياش، مملوءة بالسجاجيد والأرائك الموشاة بالقصب، ومعلق على جدرانها رؤوس غزلان سودانية محنطة وأسنان أفيال . وكذا على باب المدخل معلق أيضاً تمساح هائل محنط من تماسيح السودان .

وتساءل محسن فى نفسه عن سر وجود تلك الآثار السودانية بالمنزل، وسرعان ما تذكر أن والد سنية الدكتور أحمد حلمى. كان طبيباً بالجيش

المصرى ، ولابد أنه قضى زمناً فى السودان كأغلب رجال الجيش .

تركت سنية ضيفها فى الصالة وأسرعت تبحث عن والدتها . فوجدتها فى حجرة نومها وقد مدت سجادة صلاة صغيرة وهى تختم صلاة العصر . فانتظرتها سنية حتى انتهت من الصلاة واقتربت منها وقالت .

ــ ماما . . أنا جبت معايا ضيوف : أبلتى زنوبه و . . .

ثم وقفت مترددة .

وأخذت والدتها تصلح وضع طرحة الصلاة الحريرية البيضاء فوق رأسها. وقد طوت السجادة الصغيره ثم نهضت وهى تقول فرحة:

ــ والله بركة . . أهلا وسهلا بها . .

فأضافت سنية على عجل متظاهرة بعدم الاكتراث :

هى وابن أخوها محسن . . .

فنظرت إليها والدتها وقالت :

ــ ابن اخوها ؟ ؟

فقالت سنية فى شىء من القوة :

ــ أيوه ابن اخوها محسن .

فتجهم وجه والدتها قليلا وقالت :

ــ أهو ده اللى ناقص . جايبه راجل هنا :

فتضاحكت سنية فى تهكم :

— رجل ؟ ! ودا اسمه رجل ؟ ! ولد صغير زى ده !

ثم اتخذ صوتها لهجة الجد.

— ماسمعتيش ياماما ؟ بيقولوا إن صوته جميل قوى دلوقت يغنى لك غناوى عبده الحمولى .

فكبر الأمر على الأم وقالت مستنكرة :

— إيه اللى انت بتقوليه ده ؟ ماشاء الله ! يغنى لى أنا؟ رجل ؟؟

فقالت سنيه فى شىء من الجفاء :

— برده بتقولى رجل ! قلت لك ياستى مش رجل ؟ دازى ابنك أو ابن ابنك .

ولكن الأم لم تشأ الإصغاء وقالت وهى تدير ظهرها لابنتها :

— مابقاش إلا كده ! هى دى رخره موضه ؟ ! عايزانى أنا رخره أقل عقلى . . . على آخر الزمن ؟ !

فلم تجب سنيه ولبثت لحظة ساكتة تنظر إلى والدتها فى غيظ . واستطردت الأم تقول

— طب انت يابنتى زى بتوع اليوم . . . ماشيين على السخامه الموضة، ماحد يقدر يقول لكم تلت الثلاثة كام. وأمك رخره عايزه منها إيه ؟ ؟ لا اعملى معروف . سيبينى فى حالى واعتقينى كرامه للنبي . . . ربنا يهديك . . .

فضاق صدر سنيه وتناولت يدوالدتها تريد أن تقودها وهى تقول

ببعض الحـــدة :

— ماتضحكيش علينا الناس . قلت لك دا طفل . طفل . تعالى شوفيه بعينك . . تعالى . .

فقالت الأم مترددة فى ضعف وخوف :

— لكن . . . يابنى . . .

فقالت سنية فى الحال بقوة :

— مفيش لكن . انك بتزوديها وتبالغى خالص . تعالى شوفيه الأول وبعدين تكلمى . . .

— بس يابنتى . . ماتسحبنيش كده . . اعملى فى معروف . انت اللى دايماً ساحبانى وراك حاتضحكى على الناس . المره دى وحياتك ما اسمع كلامك أبدا .

وحاولت أن تتخلص من يد ابنتها :

ولكن سنيه لم تتركها وقالت محتفظة بمظهرها الجدى الآمر ولكن فى شىء من اللطف والرفق :

— لا يا ماما : لازم تسمعى كلامى . علشان أنا عارفه أكثر منك . تعالى . . .

فقالت الأم يائسة :

— روحى انت . . . روحى انت لواحدك . . ليه بس أنا رخره آه يا وعدي يانا . . . دا كان مستخبي لى فين . ! !

فقالت سنيه بصوت الغضب وهى تجذب والدتها :

— لازم تيجى معايا ياماما . ما يصحش أبداً . أنا وعدت . ماأقدرش أرجع فى كلامى . يقولوا إيه ؟ يلله بنا بقا . . . قوام . . إلا دول منتظرين فى الصالة من زمان . . .

فقالت الأم وهى تنظر إليها بخوف :

— طب استنى . . . مادمت مشددة . . . أما ألبس بقا البرقع.

ففقدت الفتاة صبرها وصاحت :

برقع ! يادى المصيبه . . . برقع علشان ولد صغير ! . . . انت رايحه تضحكى علينا الناس بالتأكيد . . . اسمعى يا ماما أرجوك مفيش لزوم . صدقينى لوكان دا شيء ما يصحش ، كانت أبلتى زنوبه أول من لاحظ . . كان ماتصدقبش زنوبه ؟ واحده زيك ومن عصرك ؟ ! ومع ذلك هى اللى جايبه ابن أخوها علشان يشوفك ولو كانت شافت إن دا عيب ما كنتش عملت كده .

ويظهر أن هذه الحجة الأخيرة أقنعت الأم ؛ لكن على الرغم من ذلك فقد نظرت لحظة إلى ابنتها كأنما تبحث فى عينيها لآخر مرة عما تقتنع به وتطمئن إليه . ثم لفت رأسها التى وخطها الشيب لفاً محكماً بالطرحة البيضاء ، محاولة أن تخفى معظم وجهها وقالت :

— وهم فين ؟

فتنفست سنيه كمن أغاثها الله أخيراً . ومشت تقود أمها فى

صمت حتى وصلت بها إلى الصالة الكبيرة وعندها تركت سنيه أمها وتقدمت بسرعة نحو محسن وزنوبه الجالسين على احدى الأرائك وقالت لهما معتذرة عن التأخير والإبطاء .

ــ ماتآخذوناش ! ماما كانت فى الصلاة . .

واقتربت عندئذ أم سنيه ، ومدت رأسها لتقبل وجنات زنوبه وهى تقول :

ــ أهلا بزنوبه هانم !ياميت ألف مرحباً !

ثم التفتت إلى محسن ومدت له يدها اليمنى بالسلام بينما هى باليسرى تحبك وضع الطرحه لتخفى ما ظهر من وجهها :

ــ شرفت يا محسن افندى .

ثم بلهجة يخالها السامع خالى الذهن ترحيبا أو مجاملة أضافت :

دا اسم الله أهو رجل . . .

ولفظ محسن كلمتين أو ثلاثاً مضغها مضغاًثم استمر فى اطراقه ونظره إلى الأرض .

وكأنما أرادت والدة سنيه أن تظهر ترحيبها بمحسن فاستطردت تقول موجهة اليه الكلام ، فى صوت جدى رزين :

ــ نينتك يا محسن افندى ست أميرة طيبة

فرفع محسن رأسه فى خجل وحياء وقال :

تعرفى والدتى يا تيزه ؟

فتدخلت زنوبه مسرعة فى الحال :

— يا ندامه . . . أمال ! ما كنتش عارف يامحسن ؟ بس ده شيء بقى له زمان .

فصادقت أم سنيه :

— زمان قوى . فى عين العدو. دلوقت هلبت تكون نسيتنى. فين من أيام ما كنا بنات صغار . أصلنا كنا جيران أولاد حارة . وكنا نلعب كلنا بنات الحاره مع بعض قدام بيتهم . نينتك كانت بنت أتراك من عيله تركيه وكانت أصغرنا لكن كانت شيختنا . وكلنا كنا نخاف منها ونحسب حسابها بنت الجندى التركى أبو شنب أصفر . ومفيش لعبة إلا ونعملها هى الريسه، وكنا مسمينها الملكه بنت السلطان وكانت تحب تميز نفسها عنا . إن لبسنا فى العيد أحمر، تلبس هى أخضر. وإن لبسنا أخضر، تلبس أحمر . ويا ويلنا نهار ما تزعل منا . كانت تقول أنا بكره أبقى غنيه خالص، وأشتريكم عندى جوار وعبيد . . آه . . أيام فاتت يا محلاها . . .

وأمسكت عن الكلام ورفعت رأسها إلى السماء كأنها تحن إلى طفولتها اللذيذة . .

وكانت لحظة صمت وسكون . . .

قطعتها أخيراً سنية قائلة فى لهجة مرحة مبتهجة :

يلله كلنا على البيانو . . . على الصالون . . . من هنا . . .

وسارت تقود خلفها الجميع، حتى دخلت بهم صالون الاستقبال ذا الشرفة الخشبية ، التى تطل على شارع سلامة ، وقهوة شحاته وهو حجرة متوسطة الاتساع مؤثثة برياش على الطراز الأوروبى . . . من مقاعد فوتيل ، ووسائد ومصابيح كهربائية ، ومن بيانو أسود فى زاوية المكان . . يقابله باب الشرفة مفتوحا على اتساعه

قفزت سنيه فى خفة الغزال على البيانو . وبدون أن تنتظر حتى يأخذ كل مجلسه، كانت أصابعها المتمرنة قد مرت على مفاتيح البيانو العاجية ، وأخرجت صوتاً سريعاً كتغريد العصافير . ثم وقفت فجأة والتفتت إلى ضيوفها ، وقالت مخاطبة الفتى الذى أتخذ له مقعداً فى طرف الحجرة :

— ليه قعدت بعيد كده يامحسن بك ؟

وأشارت إلى كرسى بقربها وقالت

— تفضل هنـا .

فنهض محسن بسرعة كأنما وخز بأبرة ، وأسرع إلى الـكرسى المشار إليه كما يصدع الوسيط النائم بأمر منومه .

وعندئذ قالت سنيه مبتسمة :

— أيوى كده . دلوقت تقدر تغنى معايه . ورينى بقا ازاى تبتدىء الغنوة القديمه دى ؟

وضربت بيد واحدة نغمة جعلت تدندنها بصوت خافت . ثم

التفتت بقوة إلى والدتها وزنوبة اللتين مافتئتا تثرثران من ساعة دخولهما وصاحت بهما :

— اسمعوا بقا من فضلكم . رايحين نبتدى ...

فردت زنوبه :

— أيوه ابتدوا ربنا يقويكم . . أدحنا سامعين جاهزين . . .

ثم التفتت إلى والدة سنية التى بجوارها وقالت لها فى تفاخر وتعاجب:

— دلوقت تسمعى عبده الحمولى !

فدهشت الوالدة وقالت مأخوذة :

— والنبي صحيح؟ يعرف اسم الله يغنى غناء عبده؟ على صغره محفض

فأشارت سنية بالسكوت ثم نظرت إلى محسن وقالت :

— يلله يامحسن بك !.

فارتجف الفتى . . لكنه لم ير بدا من الامتثال فنهض واقترب من البيانو وهو لايدرى مايفعل . ونظرت إليه سنية وأناملها فوق المفاتيح قالت له بابتسامة ونظرة تسكران :

— أما أقول لك الحقيقة يامحسن بك . إياك تعتمد على بصحيح!

وكان صوتها كالموسيقى . فأحس الفتى بالدم يصعد فى رأسه وشعر بنشوة حارة . وأحس فى نفسه شجاعة الثمل فقال فى لهجة عتاب خفيفة :

— دا وعدك ياسنية هانم ؟ يعنى فى آخر لحظة ضحكت على دقنى.

فضحكت سنية ، وبدا فمها واسنانها كالكأس السحرية ، تقلب

الرؤوس على البعد بغير شراب . وأجابت :

ــ أؤكد لك . ما ضحكتش على دقنك . بس أصل الغنوه صعب . ولسه ماعرفهاش، ابتدى انت الأول يامحسن بك أرجوك

ثم اعتدلت فى جلستها إيذاناً بالابتداء .

فتردد محسن لحظة وارتبك،ثم فتح فاه وأقفله ولم يلفظ بعد حرفاً ولم يخرج صوتاً .فنظرت إليه سنيه تدعوه إلى الغناء بنظرة لا تعصى،ثم كى تشجعه جعلت تضرب على البيانو ما تظنه النغمة الأصلية لهذه الأغنية.

وعند ذاك سمع الحاضرون صوتاً يخرج ويرتفع رويداً رويدا . مرتجفاً قليلا بادىء الأمر،لكنه أخذ يثبت ويستقيم ، ويتضوع فى فضاء المكان حلوا حارا، فى نغم متنوع دقيق . . .

ولم تكن زنوبة تصغى وتستمع بقدر ما كانت تنظر إلى وجه والدة سنية، لتتعرف فيه مبلغ وقع الغناء ، حتى إذا ما تأكدت من دهشتها وعجبها واستحسانها، أخذت تهز لها رأسها فى تباه وفخر،وتشير لها إلى محسن إشارات الثقة بمقدرته ونبوغه .

وأخذت والدة سنية حقيقة بصناعة محسن ومهارته . فجعلت تنصت بانتباه غريب . .

وكانت سنية تصغى أيضاً إلى محسن بسرور ولذة .وتنظر إلى سقف الحجرة مبتسمة طروبة،وتردد بعض النغم فى نفسها معه، ولكنها ما فطنت قط الى أن المغنى إنما يعنيها هى.ويفكر فيها هى وهو يغنى.

أغنية عبده :

« قدك أمير الأغصان من غـــير مكابر »
« وورد خدك سلطان على الأزاهـــر »
« الحب كله أشجان يا قلب حـــاذر »
« الصد ويا الهجران جـــزا المخاطر »

الفصل الخامس

كان الوقت مساء حينما عاد محسن وزنوبة إلى بيتهما .. وليس فى الدنيا ولا يمكن أن يكون فيها أسعد من محسن فى ذلك المساء.

وكما أن أثر الصدمة لا يحس إلا بعد حدوثها بوقت. كذلك الفتى محسن بهره ودهاه وجود سنيه، فلم يدرك مقدار ما ظفر به من سعادة إلا بعد أن غادرها. ما أجمله حلماً ! أممكن كل الذى حصل هذا العصر! وهو الذى ما كان يتوقع مجرد مر طيفها . لقد رآها وتوصل إلى محادثتها . تلك التى ما حادثها قط وما رآها قط من قبل الا خفية من ثقب الباب هو وأعمامه ، وقد جاءت يوماً لزيارة زنوبة .

كان ذلك منذ نحو شهرين وكان يوم جمعة . . و « الشعب مجتمع» على أتم ما يكون من صفاء وهناء ، فأتاهم مبروك يجرى ويغمز بعينه مشيراً الى حجرة زنوبة قائلا : إن عندها ضيوفاً وفيهن « ضيفة » ثم قبل أطراف أصابعه . .

فقام الشعب يتقدمه اليوزباشى سليم، وهرع إلى باب حجرة زنوبة المقفل . وهنا انحنوا جميعاً على ثقب الباب، وهم يتدافعون بالمناكب ويتضاحكون بصوت خافت، ضحكات صافية كضحكات الشباب الهنيئه ثم نظروا إلى الحجرة فاذا هم يبهتون لجمال ما رأوا مثله من قبل .

ومن تلك الساعة جعلوا يتسابقون إلى ثقب ذلك الباب ، كلما علموا بمجيئها لزيارة زنوبه ، ذلك كان أول عهد محسن بها . كان فرداً من « الشعب » يجرى مع الجارين إلى ذلك الباب ، ويتأمل معهم ويتعبد تلك الصورة . أما الآن فأين هم منه . إنه آت من عندها منذ لحظة . وإنه قد كلمها . وانه قد جلس بجانبها . وانه ربما قد حاز اعجابها . وانه سيراها من اليوم . سيراها كثيراً . . كثيراً . فقد طلبت هى إليه ذلك، كى يعلمها الغناء على أصول الفن، وقد وافقتها والدتها وأقرتها على ذلك . أيمكن كل هذا ما بين عصر ومغرب؟ أى سعادة وأى معجزة !

وأحس محسن فى نفسه الحاجة إلى أن يفضى بهنائه الهائل الى أحد . ولكن إلى من ؟

وتذكر محسن منديلها الحريرى يحمله دائماً كما يحمل أهل السنة المصحف الشريف .

فليخبر منديلها إذن .

وتاقت نفسه الى الانفراد والأنزواء فى مكان قصى، ليخلو إلى نفسه، وليلثم هذا المنديل العزيز، وليبوح له كثيراً ويحادثه طويلا .. ولكن الجميع كانوا قد عادوا من الخارج وقد جهزوا العشاء .

* * *

غرق محسن فى أحلامه الجميلة ، فلم يسمع الجلبة والضوضاء القائمتين حوله ، انهم يبحثون عن مبروك .

وسليم وعبده ، ينظران فى حنق الى باب الفسحة الخارجى من وقت لآخر .

وسليم يفتل شاربه ويقول :

— دى مش عادته أبدا يتأخر عن العشا !. داطول عمره البرنجى !

فيجيبه عبده بإشارات عصبية من يديه .

وكانت زنوبة تراقب ضيق صدريهما هـذا ، فى صمت وقلق واضطراب . ومن آن لآن تحاول تهدئة ثائرهما وتقول لهما :

لسه بدرى على العشا . مستعجلين ليه ؟ سى حنفى نايم . ودلوقت رحت أصحيه زعق وعينيه مغمضة ؛ وقال لما تنطبق السما على الأرض ماهو قايم ولا متحرك .

فألقى كل من عبده وسليم نظرة سريعة الى جهة سرير الرئيس الشريف . وقال عبده متبرما متأففا :

— ياساتر على الكسل ! . .

ومضت فترة صمت ثم التفت سليم فجأة الى زنوبة وسألها فى خبث :

— يعنى انت مش عارفه مبروك راح فين ؟

ولكن زنوبة أدارت ظهرها كمن تريد تحاشى الاجابة ومشت مسرعة الى الجهة التى بها محسن .

ولمح عبده أخيرا ، وحدة محسن وانزواءه فى أحد الأركان ، فنهض وسار حتى اقترب منه كذلك وقال :

وأنت يامحسن جعان والا شبعان ؟ الله . . مالك النهارده ساكت كده وقاعد لوحدك ؟

وفى هذه اللحظه أقبل سليم واقترب من زنوبة ، كمن تذكر أمراً وسألها فى لهجة ذات مغزى :

— يكونش مبروك راح فى مشوار ... عند ... مثلا ...

فتظاهرت زنوبه بعدم سماع قوله . وكأنما رأت أن تشغلهما بموضوع آخر ، فضربت على كتف محسن بلطف والتفتت إلى عبده وقالت فى صوت المفاخر :

— اسم الله عليه محسن جنن بيت الدكتور حلمى النهارده بصوته الحلو . الست الكبيرة أم سنية بتحلف أن دى صنعة عبده الحمولى بعينها . لغاية أن سنيه هانم اللى ضربها على البيانه مفيش بعده طلبت منه محفض يعلمها الغناء ..

وسمع محسن كلامها هذا فأستاء وأوجس خيفة إنه ماكان يود أن يعلم أحد من أعمامه بهذا . على الأقل بهذه السرعة ...

وقد أصاب . فإن إفشاء زنوبه لهذا الخبر أنتج فى الحال أثره . فما كاد عبده يسمع قولها حتى أخذه شبه دهش أوذهول ... ونظر إلى محسن نظرة شك وارتياب . ثم كأنما أدرك أخيرا سر صمته وانزوائه هذا اليوم . ولم يفت سليم كذلك أن يلاحظ على وجه الفتى الصغير الأثر العميق الذى تركته فى نفسه تلك الزيارة لبيت الجيران .

فختل شاربه و تنحنح وقال فى لهجة مزاح باردة لاذعة :

— ماشاء الله ! صنعه حلوه توكل الشهد امغنى راتب فى البيوت ؟ ياترى كم الاجرة على كده ياسى محسن ؟

فرفع محسن عينيه وحدق فى سليم بخشونة وجفاء ولم ينزل إلى الرد عليه .

وزاد هذا من الشك فى أمره . فالتفت عبده إلى زنوبه وقال لها فى حدة شديدة :

— حضرتك بتأخذيه يغنى عند الناس ؟ مش ناقص إلا كده !

فكتم محسن غضبه وملك نفسه ورد فى هدوء

— وانت شأنك إيه ؟

فاحتد عبده وقال متقدا :

— بتقول ايه ؟ شأنى ايه ؟ انت فاهم نفسك كبير ؟ انت ولد صغير . انت جاى هنا علشان تذاكر دروسك مش علشان تعمل أوسطى عالمه ! . انت قدامك امتحان الكفاءة السنه دى . والله إذا كان أهلك يعلموا . .

فلم يطق محسن وصرخ قائلا :

— مش شغلك . . انت

ثم نهض فى حركة عنيفة ليغادر المكان ، وهو يجالد نفسه من فرط الغضب . ولكن زنوبة استوقفته وقالت فى دعة ورفق :

— رايح فين يامحسن ؟

فلم يجب وتخلص منها وسار قاصداً سريره .

فتبعته زنوبة خطوة وهى تقول :

— مش رايح تتعشى ؟

فأجاب محسن باختصار وخشونة بدون أن يقف :

— لأ .

فعادت زنوبة إلى عبده، ونظرت إليه بعين اللوم والعتاب قائلة :

— مالكش حق تزعل . والنبى ماكان لازم أبداً . فيها إيه لما يعلم سنيه الغناء ؟ ماهى اسم الله رخره رايحه تعلمه ضرب البيانو .

فاهتز عبده غضباً :

— بتقولى إيه ؟

وضحك سليم ضحكة صفراء وقال لعبده :

— سامع ؟ هو يعلمها الغناء وهى تعلمه البيانو شىء جميل خالص !

فالتفتت إليه زنوبه وحدجته طويلا بنظرة فهم معناها وأراد أن يستدرك .

فقال متظاهراً بالنزاهة والنصح :

— طبعا قصدنا كله مصلحته . علشان المذاكره بس . . و . . أهله . . و . . فصادق عبده على كلامه برأسه بينما عيناه تائهتان فى الفضاء .

وفى هذه اللحظة أحس الاثنان بالاتفاق المتبادل يعود بينهما .

ذاك الاتفاق القديم الممزوج بالصغاء .

* * *

خلع محسن ملابسه ودخل سريره وانزوى بين أرجاء الناموسية المسدولة عليه، ينشد الوحدة والحرية اللتين لا يحسهما إلا من كانت له حجرة خاصة .

ولأول مرة شعر محسن بسوء تلك المعيشة: خمسة أشخاص فى حجرة واحدة . لأول مرة أحس الحنق على تلك المعيشة المشتركة ، التى كانت دائماً منبع هناء وصفاء وغبطة للجميع .. له ولأعمامه ولمبروك الخادم أى « للشعب » حسب كلمتهم المتعارف عليها .

أخفى محسن رأسه تحت الأغطية، يريد أن ينسى صوت رفاقه البارد القاسى ، حتى لا يصغى إلا لصوت سنيه الحلو الموسيقى الساحر ... وجعل يذكر ويستذكر حوادث ذلك النهار السعيد .

لم يهمل محسن شيئاً . حتى التفصيلات الزهيدة . ولم يترك حتى ما لا تعيه الذاكرة عادة من أشياء وحركات وكلمات تافهة . طفق يستعرض فى مخيلته كل شىء له صلة بحادث اليوم. ولبث أخيراً يذكر ويتأمل: كيف كان إعجاب سنيه وحماستها وقتما انتهى من الغناء . وتلك الابتسامة التى نظرت إليه بها وهى تقدم له كوبا من شراب الورد مكافأة له كما كانت تقول. وتلك الأيدى والأنامل التى قدمت الكوب وتلك البسمات اللذيذة . والنواجذ . والنظرات . . والأهداب . .

وأقفل محسن عينيه كى يراها .

ثم طلب النوم علها تبدوله فى حلم . ولكن هل يستطيع النوم تلك الليلة والقلب يقظان كأنه إله ؟

هرب النوم من عين محسن . وعلم أنه لن ينام فى ليلته تلك .. إلا إذا أذنت هى له . . وتذكر قول مهيار الديلمى :

وابعثوا أطيافكم لى فى الكرى　　ان أذنتم لعيونى ان تناما

الفصل السادس

إن صبر عبده وسليم له حدود . وغدت محاولات زنوبه - فى تهدئتهما وتصبيرهما - لا فائدة منها . فقد صمما أخيراً على عدم انتظار مبروك وقاما إلى مائدة الأكل فى تذمر وهياج، وصاح عبده فى لهجة عصبية . آمرا زنوبه أن توقظ فى الحال حنفى ومحسن، وأن تغرف العشاء بلا توان .

وما كادت زنوبه تمتثل وتخطو نحو غرفة النوم كى توقظ النائمين ،حتى فتح باب الفسحة الخارجى،وظهر مبروك يلهث كالكلب التعب ، ويقول بين أنفاس متقطعة :

— آه . . آه . . ! انقطع نفسى خلاص . . من المشى واللف - يامسلمين .

فالتفت إليه عبده وسليم فى دهشة وسأله عبده .

— مالك كده ؟ كنت فين ؟

فأجاب مبروك بصوت المحتضر :

— الهدهد اليتيم . . .

فوضع سليم يده على أذنه مستفهماً :

— إيه ؟ ؟

فقال مبروك بصوت المتأوه :

— الهدهد اليتيم .. حسبنا الله ونعم الوكيل فى دى الهدهد .. اليتيم . ياعالم ... اليتيم ... ياناس ...

ووقفت زنوبة فى مكانها وقد دهاها الخوف . وأخذت تنظر خفية إلى عبده الذى قطب جبينه وسأل مبروك فى لهجة جافة :

— الهدهد اليتيم إيه ! أنا مش فاهم حاجة منك أبداً .

والتفت إلى سليم قائلا :

— وأنت فهمت منه ياسى سليم ؟

ففتل سليم شاربه ووضع أصبعه على جبهته وقال :

— لسه قاعد افتش فى عقل بالى ... عن دى اللغز ...

وتمالكت زنوبه نفسها وجعلت تشير إلى مبروك خفية كى يمتنع عن الكلام . ولكن مبروك لم يفطن لاشارتها على ما يظهر . فقد أخذ يفرك ركبتيه ويقول :

— آه ياركبي ! من العصر وحياة دقن النبي ، وأنا داير أجرى من الحسينية للقلعه ، لزينهم للدراسة ...

ثم رفع رأسه والتفت إلى زنوبه وقال :

— كل ده علشان خاطرك وخاطر بلاقافية الهدهد اليتيم . سألت فى البلد كلها . مالقيتش إلا هدهد واحد . ولا اعرفش بقا ان كان يتيم والا مش يتيم . ماسألتوش . هو أنا ياست زنوبه أفهم بلغة ـ من غير مؤاخذه ـ الطير ؟

ولم يفطن أيضاً لغمزات زنوبه التى تدعوه خفية إلى السكوت أمام الحاضرين . واستمر يقول :

القصد وانا راجع قابلت الواد بلحه صبي الجزار . قال مالكش دعوه، هات ريال وأنا أجيب لك حتة دين نتفة هدهد على ذوقك، يتيم من أبوه وأمه . وان عرفت له «فاميليه» . ابقى رجعه وقول مايلزمنيش .

وقهقه سليم ضاحكا وقال لمبروك وهو يغمز عبده بمرفقه، كى يجعله يضحك أيضاً هو الآخر :

— أحسن طريقه تروح تبحث عنه فى ملجأ الأيتام .

ولكن عبده لم يضحك ، ولم يشأ أن يمزح ويهزر ، بل ظل فى عبوسه وخشونته متسائلا :

— فهمونى إيه أصل الحكاية ؟

ثم التفت إلى زنوبه وقال لها :

— هدهد يتيم إيه اللى انت طالباه ؟

فلم تجب زنوبه .

فألقى عبده عليها نظرة مخيفة وصاح :

— برده السحر؟ مابطلتيش أمور السحر .. وضياع الفلوس فى الكلام الفارغ . ؟ !

فاستعادت زنوبه بعض رباطة جأشها وقالت فى احتجاج :

سحر إيه ! ما تقولش كده . دا دوا .

فقال عبده فى غضب ممزوج بلهجة تهكم باردة . .

— دوا ... ؟ !

فردت زنوبة بقوة :

— آى والنبي دوا بصحيح وصفه الحكيم . . .

فقهقه سليم ضاحكا وقال :

— اظبط . . . دخلنا فى الجد ! أى حكيم بقا ياشاطره يوصف هدهد !؟ بدى أعرف إسمه ايه الحكيم ده . أظن كتب لك على التذكرة هدهد؟ أستغفر الله :هدهد يتيم . أيوه لازم يكون يتيم، إلا لو كان والدته أو والده مازال على قيد الحياة يفسد مفعول الدوا . !

وعندئذ صاح عبده بزنوبه :

— مستحيل فلوس فى يدك بعد النهارده مستحيل ! خلاص كفايه . مانقدرش نطيق الحاجات دى . أكل زى الزفت . وفلوس ضايعه فى السحر . فلوسنا ضايعه ، ميزانيتنا رايحه كلها فى السحر للعرسان .

فانفجرت زنوبة صارخة ، وقد أغاظها هذا الكلام :

قطع لسان اللى يقول على كده ! أنا أسحر للعرســـان ؟ فشر . ! طيب والست الطاهره ان ماسكتم عن الكلام ده مانا سائله عنكم أبداً . فلوسكم تاخذوها على الصرمة القديمة . وابقوا انتم دبروا واصرفوا واطبحوا وشوفوا شغل البيت . والنبي ما أحط يدى فى

حاجة . لما اتفرج حاتعملوا إيه من غيرى . دنا لولاى عليكم لكانت بقت هلاهيلكم بين رجليكم .

فاشتد غضب عبده وهياجه العصبى وصاح بصوت هائل :

ــ بتقولى إيه ؟؟ فاهمه حضرتك إنك تهددينا؟ طيب اقسم بالله العظيم ماانت طابخه ولا غارفه . هاتى الفلوس اللى عندك حالا ... ردى لنا باقى مصروف الشهر اللى عندك حالا . . . مش عايزين إدارتك . . خلاص ا احنا نعرف شؤوننا . هاتى الفلوس .

فقالت زنوبة من بين أسنانها :

ــ حاضر على عينى . والنبى بركة من الله . وراحة دماغ . حد يكره راحته ! حاضر . دلوقت أسلم لكم اللى باقى لكم عندى .

وفى الحال اتجهت إلى حجرتها ودخلتها

وعندئذ التفت عبده إلى سليم فى قوة وقال :

ــ تغور ! أحسن لنا ألف مرة ! مش موافق ؟

فأجاب سليم فى لهجة هزار وهو يفتل شاربيه :

ــ موافق جداً أكلنا بالحق كان بطال جدا . وحكومتنا العزيزة بسلامتها مفرقة الميزانية فى شئونها الخصوصية والكلام الفارغ !.

فأضاف عبده بسرعة وهو حافظ لوجهه الجدى :

ــ دا شىء يجنن ويغيظ ! ساييانا جعانين نشتهى اللقمة . . مش لاقيين حتة لحمه . . .

فقال سليم مكملا :

— وإن غلطت يوم واشترت وزه،لازم نقعدنا كل فيهاشهرين !

وكان مبروك فى تلك الأثناء متكئاً بذراعيه على طرف المائدة، يشاهد فى صمت مايجرى أمامه،كما يشاهد فرد من عامة الشعب رواية عالية الأسلوب .

وحانت من عبده التفاتة إليه فسأله فى الحال :

— وانت يامبروك . ساكت ليه مش موافق !

فصحا مبروك من جموده وفرك عينه وأجاب :

— والله مانا عارف . داهيه تلعن أبوالهدهد اليتيم . كل ده من تحت راس شوشته . لكن بقا مفيش لزوم تزعلوا استزنوبة .

فصاح به عبده :

— ماتبقاش مغفل انت كمان . عايزين منك كلمه ورد غطاها : تحب تاكل كويس والا وحش ؟ آدى المسألة .

فأجاب مبروك على الفور :

— لأ وحياة سيدى زينهم أحب آكل كويس .

فابتسم سليم وقال بسرعة .

— طبعاً .

ثم اتخذ وجهه هيئة الجد بغتة ونبه عبده بيده مقترحاً :

واجب علينا كمان نقول للباقين . .

فصادق عبده على رأيه بحركة من رأسه، ونهض فى الحال وسار متجهاً إلى غرفة النوم، كى يخطر حنفى بالانقلاب الجديد. الطريقة المثلى والمجربة لإيقاظ حنفى سريعاً سهلة ومعروفة لدى الجميع: أن يجذب اللحاف من فوقه دفعة وحدة ثم يصرخ فى أذنه صرخة مستطيلة لذلك لجأ عبده مباشرة إلى تلك الطريقة بدون أن يضيع وقتاً فى مقدمات لا تفيد. وتحرك حنفى افندى أخيرا وهو يزمجر ساخطاً:

-- ياخلق هوه ! أنا فى جاه النبى ! يعنى ان نعست لى شويه حرام؟ أنا اشتغلت خمس حصص النهارده ياناس.

فقال عبده بصوت ثابت:

— اصحا .! قوم ياسى حنفى اسمع الخبر المهم. أصبح الآن فى حكم المؤكد أن الحكومة مضيعة الميزانية فى شئونها الخصوصية الفارغة

فتثاءب حنفى وقال وهو مغمض احدى عينيه

-- وأنا مالى ! أنا ماليش فى السياسة.

فقطب عبده وجهه وقال فى جفاء:

-- ازاى ؟ بصفتك كبير البيت.

فأقفل حنفى عينه الأخرى وقال بصوت متراخ، وفى عدم اكتراث

— وفى أى جريدة الخبر ده ؟

فقال عبده فى شىء من الدهشة:

— فى أى جريدة ازاى ؟! لا. لأ دا مش الجرايد. أنا

قصدى على حكومتنا احنا هنا . فى بيتنا . كلامى على زنوبه .

فتقلب حنفى فى فراشه وأدار ظهره لعبده وقال وهو يحاول العودة إلى النعاس :

— طيب بقا اعتقنى لوجه الله الكريم .

ثم لفظ من أنفه غطيطاً ثقيلا يؤذن ببدئه الفعلى فى النوم . وحاول عبده أن يمنعه بكل قوته فأزال عنه الغطاء مرة أخرى . وهزه من كتفه هزا عنيفاً، وهدده جدياً بسكب كوب ماء بارد على دماغه إن لم يستيقظ فى الحال ... بالاختصار استعمل معه كل الإجراءات الشديدة التى تتبع ضده عادة فى مثل هذه الأحوال . وأخيرا لم ير الرئيس شرف بدأ من النهوض، فقام فى فراشه نصف قيام ، وهو يدمدم ويزمجر ويصخب ويلعن . فلما اطمأن عبده على نهوضه وعلى هرب النوم من عينه ، تركه واتجه إلى سرير محسن . .

ولكن ماكاد يقترب منه حتى سمع فجأة صوت شجار يرتفع فى الفسحة . وعرف فيه صوت زنوبه، فغادر فى الحال حجرة النوم وذهب إليها توا سائلا فى خشونة ؟

— فين الفلوس ؟

فلم تجب زنوبة ولم تتحرك . . .

وأشار سليم إلى مبلغ جنيه فوق المائدة وقال :

— تفضل آدى كل اللى باقى . . .

فنظر عبده إلى الجنيه، ثم نظر إلى زنوبة وصاح فى صوت أجش:

— مش ممكن ! . النهارده ١٩ فى الشهر ! فاضل ١٢ يوم جنيه واحد رايح يكفى ١٢ يوم ، دا كلام فارغ !

فلم تجب زنوبة ، وكأنما كانت تكتم ما بها من غيظ تحت ستار الهدوء ، وأخيرا قالت فى برود :

— مش مصدق ؟ انت حر . أهو مش باقى لكم طرفى إلا ده . ان كنت مكدبنى تعالى فتش ...

فأشار سليم خفية إلى عبده أن يقترب منه، وهمس له فى أذنه محرضاً

— أيوه .. نفتش .

ولمح ذلك مبروك وكان قريباً من سليم، واستطاع أن يشرئب بعنقه ويسترق السمع، فعرف قول سليم فتنحنح وهمس هو الآخر كأنما يخاطب نفسه :

— والله سى سليم ما حيلته غير التفتيش ! .

ثم أردف قائلا بصوت عال :

— صلوا على النبي! مفيش لزوم. وكفى الله الشر. واللى مكتوب على الجبين تراه العيون ولو بعد حين . مش من غير مؤاخذة جنيه واحد ؟ الحمد لله . قسمتنا حانعمل إيه آدى السما وآدى الأرض !

فنظر إليه عبده طويلا نظرة غريبة . ثم كأنما هبطت عليه فجأة فكرة من السماء ، فوضع بسرعة يده على كتف مبروك وقال بصوت

ثابت مفكر رصين :

— اسمع يامبروك ! الله الغنى عنها . خلى معاك المصروف . انت تكون حكومتنا من الآن فصاعد . فاهم . انت . لأن معاك على الأقل مفيش خوف من التبذير ، وضياع الفلوس فى الهلس الفارغ.

فألقى الخادم نظرة استفهام أو استئذان سريعة على زنوبة ثم قال فى حيرة وارتباك :

— لكن . بس .

ففطب عبده حاجبيه وقال :

— إيه؟لكن بس إيه؟شايف المبلغ قليل ؟ قصدك يعنى مستحيل نعيش بالجنيه لآخر الشهر ؟ لكن ماهو ده المشكل اللى انت رايح تخرجنا منه بحسن تصرفك . دى عبقريتك . مش انت حكومتنا ؟ تصرف . فاضل ١٢ يوم على آخر الشهر . فوتنا من الأيام دى على خير. اعمل معروف . أكلنا زى ماتوكلنا . الغرض إن مبلغ الجنيه ده ، يكفى لغاية آخر الشهر ولا نحتاج لوش زنوبة .

فلفظت زنوبة ضحكة تهكم وغيظ، ثم أدارت ظهرها لهم وقالت من بين أسنانها :

— الله يسهل لكم . يابختى براحة بالى . الحمد لله ياجامع جات منكم ماجات منى .

ثم اتجهت بسرعة إلى حجرتها ودخلتها وأقفلت وراءها الباب

فى ضجة وعنف . فنظر عبده إلى الباب المقفول وضجته التى صمت الآذان وقال بغضب :

فى ستين داهية .

ثم التفت إلى سليم ومبروك واستطرد :

— مش خلاص اتفقنا .

فوافق سليم فى تحمس : اتفقنا . . .

ثم ضرب على كتف مبروك وقال :

— فليحى مبروك ! يعيش مبروك ! بطوننا معتمدة على الله وعليك يامبروك افندى .

ولكن عبده تدخل فى الحال صائحاً :

— مش الأيام دى ياحبيبي ! من هنالآخر الشهر اعمل حسابك على الصوم والقناعة . جنيه واحد مش راح يكفى طبعاً . اسمع يامبروك ! اعمل المستحيل . أكلنا الأيام دى كل يوم عدس زى المراكبية. والاجبنه قريش وعيش دره، زى الفلاحين . والافول مدمس وسلطة وطعمية زى ...

فأضاف سليم بسرعة :

— زى المجاورين ...

واستطرد عبده فى جد :

— أيوه يامبروك : اعمل زى ماتشوف . تصرف . الغرض

كله الجنيه يكفى لآخر الشهر . ولا نموتش من الجوع بمبلغ زى ده . خذ يامبروك . امشى بالحساب والعقل والتدبير . انت مش محتاج لوصايه .

ثم دفع إليه الجنيه .

فأخرج مبروك من جيب جلابيته كيساً كبيرا من القماش بلون العنترى الذى يلبسه كأنما كان فصله من قماش العنترى كيساً .

وبعد أن دس فيه الجنيه وأعاده إلى جيبه قال :

— ببركة الست أم هاشم ! ولا يكون عندكم خوف . المؤمن ما يموتش جعان . صلوا على نبينا اللى قال :

« من توكل على الله كفاه ... »

الفصل السابع

ذهب محسن إلى المدرسة في اليوم التالي ووجهه يطفح هناء، والانشراح يكاد يثب من صدره. وخيل إليه وهو في الترام في طريقه إلى المدرسة، أن الله لم يخلق صباحا أجمل من ذلك الصباح. ومر الترام بميدان «لازوغلي» وبتلك الأشجار الوارفة حول التمثال، وصوت العصافير وحركتها بين الأغصان. وصوت الحدأة والصقر يرفرف كل بجناحيه في الفضاء... عجبا.. كل ذلك يراه اليوم، ويسمعه ويسترعي اهتمامه. وهو الذي مر بذلك المكان مئات المرات، قبل اليوم فلم ير شيئاً.. أترى الدنيا قد تغيرت منذ ذلك الصباح، أم أنه هو الذي تغير وأصبحت له عيون أخرى ؟

ودخل محسن فناء مدرسته وهو يود أن يكلم كل إنسان يقابله ولو كان فراشا. غير أنه دهش إذ وجد المكان خاليا. أتراه أتى مبكراً جداً ذلك اليوم ؟ نعم فساعة الحائط بحجرة الضابط دقت، السابعة في تلك اللحظة.

وجعل محسن يسير ذهابا وإياباً في أرجاء المكان وهو يحلم بأشياء جميلة، وأحياناً يضغط الفرح على قلبه فإذا هو يجري قافزاً إلى السلم الكبير في مرح غريب.. ثم ينزل منه واثباً إلى الأرض، ويتجه إلى «المرشح» كأنما يريد الشرب. ولكنه لا يشرب بل،

يتجه إلى قاعة أخرى ومنها إلى ثالثة ورابعة ...

لاشك لو رآه أحد من عارفيه فى تلك اللحظة، لدهش ولأنكر أنه محسن .

وأخيراً سكن جأشه قليلا. لكنه أخذ يستبطىء زملاءه التلاميذ وعلى الأخص صديقه الحميم عباس .

كان محسن بالنسبة إلى من فى سنه رزينا عاقلا، لا يميل كأغلب أقرانه إلى الألعاب الصبيانية . فقلما كان يُرى جاريا قافزاً، كل ملاهيه وألعابه فكرية لا مادية . ألذ أوقاته ما كان يقضيها فى المناظرة ومطارحة الشعر مع عباس ومن يتفق معهما فى طبيعتهما الروحية الهادئة . لذلك كان مظهره أكبر من عمره . وكانت له هيبة المسن بين تلاميذ الفصل الدائبي الهزار والضجيج . كذلك عرف أساتذته ذلك فيه، فعاملوه معاملة ممتازة . وقد تنبأوا له بحظ باهر فى نتيجة الكفاءة ذلك العام .

كان محسن لا يحب كثرة المخالطة . ميالا للوحدة فى المدرسة. لعله كان يحتقر ذلك الصنف النزق من الشباب . إن أغلب التلاميذ كانت تحترمه وتحب الإصغاء إليه وهو يتكلم، وكثيرا ما كان التلاميذ يلتفون حوله وحول عباس، كلما لمحوهما بجوار الجدران يتناظران تحت السلم الكبير... حيث اللقاء المعتاد بينهما فى فسحة الظهر إلا أن محسن نفسه ما كان يصاحب أحدا خلاف عباس. لأنه يجد فيه طبيعة تماثيل

طبيعته .. ثم شيئا أهم : إيمانه بمحسن وإخلاصه له ، واعترافه الصامت بما لمحسن عليه من تأثير فى أفكاره وذهنه .

جعل محسن ينتظر قدوم عباس برغبة متوثبة لا يدرى سببها . أتراه يود الافضاء اليه .. بشىء؟ وهل يستحسن هذا ؟ وهل يصح؟ نعم عباس صديقه الحميم . لكن هل هو خليق بفهم هذه الأشياء؟ وبصرف النظر عن هذا أيضا ... هل يملك محسن حق إفشاء أمر لا يخصه وحده . ؟

ولكنه يريد الكلام هذا الصباح . يريد أن يخفف من وقر ما يحس به . وهدأ مرة أخرى . لكنه لمح عددا من التلاميذ يدخلون الفناء فأسرع إليهم مسلما ومحدثا بلهجة مرحة . يباسطهم ويضاحكهم ، والكلام يزدحم فى فمه مما دهشوا له منه ، وجعلوا ينظرون بعضهم إلى بعض وهو الذى يعرف بعزلته عنهم وبأنهم هم الذين يسعون إليه يخرجونه من سكونه . . .

وأخيرا ظهر عباس . فلم يكد يراه محسن حتى ترك من كان معهم ، وانطلق نحوه وجذبه من ذراعه وانتحى به ناحية أخرى ، غير جدار السلم الكبير حتى لا يحسبها الآخرون مناظرة أو مطارحة فيهرعون يشاهدون .

أخذ محسن يسأله عن سبب إبطائه وتأخيره ، فى لهجة واهتمام دهش لها عباس ، ولكنه أجاب بكل بساطة أنه فى ميعاده ولم يتأخر

قط ... ولكن محسن ألح وأكد معلقاً أهمية ...

فأجابه عباس مؤكداً هو الآخر :

— أبداً يا أخى ! انت اللى يظهر جيت بدرى النهارده

ولكن محسن استمر يقول فى صوته المتحمس غير المعتاد .

— أبدا . انت تأخرت ..

فازدادت دهشة عباس ، غير أنه اكتفى بأن أجاب :

— طيب وإيه اللى جرى .. ؟

فسكت محسن فى الحال ووقع فى حيرة وارتباك . وذهب عنه تحمسه ولم يجد ما يقوله ردا .

وطال سكوته إلى أن أحس أن عباس ينتظر وينظر إليه فى دهشة ، فتضاحك فجأة واتجه إلى صديقه يفهمه أنه أراد المزاح .. وجعل يثرثر ويضحك محاولا تغيير الموقف . يتكلم فى كل موضوع بسرعة . ويتنقل من مناسبة إلى مناسبة بغير مناسبة ، كأنه يريد مجرد الكلام ... مجرد القذف بنفسه فى الثرثرة ... مجرد قىء ما يثقل معدته من أشياء فارغة .. حتى يخفف عن ضغط القلب .. والتفت إلى عباس بغتة وقد شعر بحالته العصبية من طريقة كلامه المتدفق المتحمس فسأله قائلا :

— محسن . . . مالك النهارده ؟

فنظر إليه الفتى نظرة استطلاع وخوف ... وقد احمر وجهه

ثم قال مترددا :

— ولا حاجه ...

وفى الحال حول مجرى الحديث إلى موضوع آخر عادى. ولكن فى هذه المرة اجتهد أن يتكلم بصوت هادىء معقول ... صوته المعتاد . وهكذا طفق الاثنان يتحدثان لحظة فى الدرس والمذاكرة وحصص اليوم ، إلى أن صاح عباس فجأة متذكراً :

— الله . النهارده انشا شفوى عربى فاكر ... ؟

فسأل محسن بلهجة آلية :

— أى حصة ؟

وكان فى تلك الأثناء قد ترك فكره يسبح الى أفق بعيد .

فأجاب عباس غير شاعر بلهو محسن عنه :

— الحصة السادسة ... آخر النهار .

فلم يجب محسن . إذ ضغطت السعادة على صدره مرة أخرى، فود لو يستطيع الانطلاق أو الطيران أو الوثب أو الكلام ...

واستطرد عباس يقول وهو يحسب صاحبه يسمع له :

— ياترى الدور على مين ! الشيخ على بيختار الاسم من الدفتر قدامه . يارب ماينادى اسمى النهارده . أنا ماحضرتش موضوع .

لم يجبه محسن على ذلك . ولكنه فجأة قال :

عباس . الحياة جميلة !

فنظر إليه عباس مبغوتا . ولكن محسن استطرد غير مبال به
— تعرف ياعباس إيه هى السعادة اللى بنسمع عنها ؟ ان كنت
جدع صحيح تقول إيه هى السعادة ؟

فردد عباس دهشا :

— السعادة ؟ ! أنا عارف ؟ !

فقال له محسن بقوة :

— ماتعرفش إمتى تكون سعيد ؟ ؟

ففكر عباس لحظة ثم قال :

— يوم ماأنجح فى الكفاءة .

فظهر على وجه محسن شىء من خيبة الأمل والغيظ والازدرا. وقال من بين أسنانه لصديقه عباس :

انت مغفل !

وهنا دق جرس الدخول إلى الفصول فانطلقا الى الطابور وبنفس محسن رغبة فى أن يتحدث فى هذا الموضوع نهارا باكمله، أما عباس فقد عجب لرد محسن الأخير، وودلو يعلم منه لماذا هو مغفل

وأخذ التلاميذ مقاعدهم فى الفصل . وكان عباس يجلس فى تختة خلف تختة محسن . فلم يطق صبرا على الانتظار وأخذ يهمس سائلا محسن لماذا هو مغفل ؟ ولكن محسن أشار إليه بالسكوت، واعتدل فى جلسته يستقبل الدرس فى بشر ونشاط زائدين على

المعتاد ، وبسرعة بديهة فى الإجابة على الأسئلة وفى فهم الغامض منها ، وبتحمس اليوم وقوة عجب لها المدرس وسربها . . .

* * *

جاءت فسحة الظهر واجتمع محسن وعباس بجوار الجدار تحت السلم الكبير ، وأراد محسن أن يلقى شعرا فى الغزل ، وأحضر معه خصيصاً ديوان مهيار الذى يحبه . ولكن طلبة الفصل منذ الحصة الرابعة ، اشتغل فكرهم بمسألة اختيار القسم الذى سيلتحقون به بعد الكفاءة . وقد أثار تلك المسألة مبكرا عن ميعادها عادة مدرس الرياضة اليوم فى حصة الجبر . لذلك ما كاد التلاميذ يرون محسن وعباس فى موقف المناظرة والمطارحة ، حتى طرحوا على محسن السؤال الآتى :

— انت رايح تختار أى قسم : الأدبى أو العلمى ؟

فما تردد محسن فى أن قال :

الأدبى طبعاً .

ولكن عباس تردد قليلا :

أنا أحب القسم الأدبى ، لكن والدى عايزنى أكون حكيم .

فجذبه محسن بقوة نحوه وقال :

اسمع كلام نفسك انت وميلك ...

ثم أخذ يتكلم قائلا : أنه لم يختر طريقه اليوم فقط . بل انه منذ

الطفولة يشعر إلام يتجه ميله الغريزى ، ثم تناول ذراع عباس وضغط عليه بشدة قائلا :

— عباس انت لازم تدخل أدبى زيى . لازم أدخلك أدبى زيى ...

وهنا اعترض أحد الحاضرين من التلاميذ قائلا :

— وايه مستقبل القسم الأدبى ؟

فالتفت محسن اليه بشدة وقال :

— قصدك من جهة المال والثروة أنا مايهمنيش المال والثروة ...

فسأله آخر مستطلعاً :

— أمال ايه اللى يهمك ؟

فأشار محسن إلى نفسه وإلى عباس وقال فى تفاخر الشباب وغلوائه :

— بكره احنا اللى نكون لسان الأمة الناطق !

ونظر إلى عباس كأنما يزيده تشجيعاً وتأكيداً . وأراد أن يستمر ولكن خطرت له عبارة أبرقت لها أسرته ... عبارة تعتبر لمثله لمن فى سنه ومعلوماته وحياً . فاندفع قائلا :

— عباس ! وظيفتنا بكره حاتكون التعبير عما فى قلب الأمة كلها . فهم ؟ ياسلام ! لو تعرفوا قيمة القدرة على التعبير عما فى النفس.. التعبير عما فى القلوب .

وفكر قليلا ثم قال وقد لمعت عيناه بفكرة أخرى :

— فاكرين الحكمة اللى فى كتاب المحفوظات « المرء بأصغريه قلبه ولسانه » ؟ الأمة كذلك لها قلب يهدى ولسان يدير القوى المادية اللى فيها . المال وحده مش حاجه . وأخذ يفيض فى الكلام بتدفق وتحمس حول هذا المعنى ...

* * *

دق الجرس ودخل التلاميذ حصص بعد الظهر . وجاءت الحصة السادسة ، وقد اشتد شوق محسن إلى الخروج كما اشتدت عاطفته اتقاداً وظهر الشيخ على بلحيته الكثة وهيئته الوقورة ، فقام له التلاميذ احتراما ثم جلسوا بجلوسه . وأخذ يجيل بصره فى الحاضرين ، ثم فتح دفتره وعندئذ جعل الطلبة الصغار يتبادلون النظرات فيمن سينادى اسمه ، ليلقى على السبورة ارتجالا موضوعاً انشائياً يختاره بنفسه ، وارتجف بعضهم من كارهى الحصة ، وتعلقت أنفاسهم والمدرس يصعد نظره ويهبطه فى عمود الأسماء أمامه . كل يخشى أن يسمع اسمه .

وأخيراً نطق المدرس فاذا الاسم : محسن .

وإذا هو ينظر إلى محسن ويأمره قائلا :

— يا محسن . اصعد إلى السبورة .

فاطمأن التلاميذ وسروا بهذا الاختيار . ولم يتردد محسن . بل نهض فى الحال وذهب إلى السبورة .

وعندئذ قال له المدرس آمرا :

— يا محسن انتخب موضوعا ثم تكلم فيه .

فوقف الفتى حائراً متردداً . إنه لم يحضر موضوعا ما . وليس في ذهنه الساعة شيء . وطال وقوفه وتردده .

فقال المدرس بلهجته المتشدة :

— أكتب رأس الموضوع على السبورة ثم قسمه إلى نقط كالمعتاد

فقال محسن فى نفسه « وأنا عارف إيه الموضوع ؟ »

وفجأة خطر له خاطر احمر له . وطرده من فكره فى الحال لكنه لم يلبث أن عاد إليه . ولا يدرى أى شجاعة فى تلك اللحظة وأى قوة كانت تدفعه إليه . ولعل شعوره الساعة القوى أقنعه أنه لا يستطيع الكلام الآن باسهاب أو لذة . إلا فى هذا الموضوع . وتناول فى الحال الطباشيرة وكتب بحركة اندفاع عنيفة :

« رأس الموضوع : الحب »

ما كادت تظهر هذه الكلمة على السبورة ، حتى هاج الفصل وماج : ودهش المدرس من انقلاب الفصل أمامه ولم يدر بعد سببه . فدق بقلمه فوق منضدته طالباً السكوت وهو يصيح بهم :

— خبر إيه ؟ خبر إيه ؟

ورأى أنظارهم متجهة نحو السبورة فالتفت إليها هو الآخر ، ورأى كلمة « الحب » فلم يتمالك نفسه أن صرخ مستنكراً :

— الله . . الله ! ما شاء الله ! امشى انجر اقعد محلك . بلاش

قلة حيـــا ومسخرة !

وبهت محسن قليلا لأنه لم يعتد هذه المعاملة من مدرسيه . فوقف مرتبكا حائراً . ولـكنه لم يفقد تلك الثقة والقوة التى دفعته إلى كتابة تلك الكلمة الجريئة، أمام طلبة مساكين اعتادوا أن يسمعوا كلمة العلم والمذاكرة والتحصيل والمثابرة . ولـكنهم لم يسمعوا كلمة « الحب» ولا «الشعور» ولا « القلب »، وإن سمعوها فمحرف معناها إلى المقصد الدنىء . كأنما الحياة ليس فيها غير شيئين لا ثالث لهما : العلم والفساد فالعلم عندهم مرادف للحب والقلب وكل ماخرج عن مواد الامتحان . هذه هى الفضيلة والرذيلة كما تلقن لهؤلاء الصغار .

ورأى الشيخ على وقوف محسن وارتباكه وتأدبه برغم ذلك . وذكر سمعته الطيبة وأخلاقه المعروفه عنه منذ مجيئه السنة الماضية إلى تلك المدرسة فتلطف المدرس قليلا . لـكنه قال فى لهجة لا تخلو من العتب القارص :

— جرى لك إيه النهارده ؟ اتجننت ؟

فلم يجب محسن . ومرت برأسه فـكرة ثائرة ضد هـذا الشيخ الذى لا يفهم أكثر مما يفهم أى واحد من أولئك التلاميذ . وخيل إلى محسن أنه يرى ويحس أشياء عظيمة . . عظيمة جداً ... لن يراها واحد كالشيخ على ...

ونظر الشيخ على فى دفتره لينتقى طالباً آخر غير محسن .

ولكن الفصل بالاجماع تشجع وقال فى تحمس غير معتاد :

— عايزين الموضوع ده ! عايزين الموضوع ده !.. تكلم يامحسن ! قل يا محسن !

ونظر محسن إلى الفصل فأدرك أن هذه الكلمة قد أثارت حب استطلاع كبير عند هؤلاء الجهلاء الصغار . وأن هؤلاء التلاميذ ليبدو عليهم التعطش لموضوع كهذا . رأى محسن صاحبه عباس على الأخص فى رأس المطالبين ، يلوح بيديه إلى صديقه وعلى وجهه ابتسامة الذى كاد يفهم و تنقشع عن عينيه سحب . .

عندئذ تشجع محسن وعزم على الكلام بأى ثمن . ولكنه رأى من هيئة هذا الشيخ الحنبلى أن لا حيلة معه .

وهنا خطر لمحسن خاطر يدل على ذكاء ...

فتناول فى الحال الطباشيرة، وكتب تحت كلمة «الحب» هذه السطور :

« ينقسم الحب إلى ثلاثة أقسام : حب الله عز وجل . وهو حب الخشوع والاعتراف بالفضل . وحب الوالدين . . . وهو حب الدم ، وحب الجمال وهو حب القلب .

وهلل الفصل وفى مقدمته عباس . طالبين موافقة الشيخ على الموضوع . إذ هو أدبى محض . والتفت الشيخ إلى السبورة مرة أخرى بعد أن وضع منظاره وجعل يقرأ القسم الأول ثم الثانى بصوت فيه رنة القبول والموافقة . ولكنه مابلغ القسم الثالث حتى عاد فحزن

وتوقف ... ونظر إلى محسن وقال :

— اشطب نمرة تلاته !

فتردد محسن قليلا ... ولكن الشيخ على لم يلن ولم يتراخ فى هذه المرة برغم احتجاج الفصل وتوسلاته. وأخيراً لم ير محسن بدا من شطب القسم الثالث . غير أنه صمم فى سره أن يتكلم عنه خلال كلامه عن القسمين الأولين . كأنما هو يقارن بين العلل والأسباب .

وهكذا رضى الشيخ على باثبات كلمة « الحب » على السبورة .

وهكذا اندفع محسن يتكلم والفصل مصغ إليه فى هدوء وانتباه. لم يسبق لهما مثيل فى أى حصة طول السنة، وكان محسن كلما عرج على موضوع القلب تذمر الشيخ على وزمجر ودمدم كالقط إذا لمح فأرا . ولكن الفصل كان يقبل بعيونه وأسماعه مسددا النظر إلى محسن ومخارج ألفاظه فى لذة وفرح عجيبين ، كأنما هم حقيقة يستفيدون شيئاً . بل أكثر من ذلك .. أكثر من ذلك بكثير .. كأنما هم يسمعون منه شيئاً يحسونه كلهم دائماً، ولكنهم ما كانوا يجرءون على التعبير عنه أو أنهم كانوا يجهلون مايحسون ... يجهلون وجود الجمال فى العالم ! .. ويجهلون وظيفة القلب فى كيانهم ... ويجهلون المعنى الأسمى للحياة ...

شعر محسن بذلك فيهم .. كما شعر بأن سر انتباههم العجيب إليه وسرورهم الهائل المنبثق من عيونهم به وبما يقول لهم، انما مصدره شىء واحد : أنه هو يعبر عما فى قلوبهم ...

الفصل الثامن

وقفت سنيه وزنوبه خلف إحدى نوافذ الشرفة الخشبية بحجرة البيانو تنظران إلى شارع سلامة وترقبان مجيء محسن . وكان الوقت عصراً ولكن محسن لم يكن قد عاد بعد من مدرسته . غير أنه سيأتي توا إلى منزل الدكتور حلمى كى يعطى سنية درس الغناء ابتداء من ذلك اليوم . هكذا كان الاتفاق بينهما بالأمس . ولهذا حضرت زنوبه تنتظره عند سنية حيث الموعد والمقابلة .

أخذت المرأتان تنظران فى احتشام وتشغلان الوقت بالمشاهدة وكان من الطبيعى أن تلفت أنظارهما قهوة شحاته التى أمام المنزل، وهى تموج عادة فى تلك الساعة بزبائنها المعتادين داخلها وخارجها .

وما كادت سنية تلقى نظرها على الكراسى والموائد المصطفة على الرصيف .حتى غمزت زنوبة بذراعها وهمست فى أذنها :

— واخده بالك ياأبلتى من الافندى أبو شيشه ده ؟

خبره إيه ؟ دايما عينه فى البلكون بتاعنا ! بصى شنبه اكل شويه يبرم فى أشنابه بشكل يموت من الضحك . . !

فنظرت زنوبة إلى ذلك الأفندى ثم التفتت بسرعة إلى سنية قائلة على الفور :

— يوه قطيعه ؟ مش عارفاه ؟ ماهو ده بسلامته ابن عمى . -
فبغتت سنية وخجلت قليلا لما بدر منها وقالت معتذرة :
— إخص عليك ياأبلا ! ليه ما قلتليش من الأول؟
وسكتت قليلا ثم قالت :
— هو ده بقا المهندس ؟
فأجابت زنوبة :
— لا ياختى . المهندس أخويا عبده أما ده ادلعـدى الظابط اللى كان قال لك محسن امبارح على مزيكته أم منفاخ . .
— الهارمونيكا ؟
— أيوه ياختى . البتاعه دى عليك نور
فأعادت سنية النظر إلى ابن عم زنوبه وقالت محاولة الإطراء كى تصحح مابدر منها :
— حقا يا أبلا . باين عليه العظمة والهيبة والجلال فى كل حركة من حركاته . . !
فنظرت زنوبة إلى سليم على القهوة ثم ضحكت ضحكة تهكم خافتة :
— ياختى ماله عامل فى نفسه كده ؟ ياسم على دى نفخة كدابه ...!
وفى تلك اللحظة لفظت سنيه فجأة صيحة عجب صغيرة، وجذبت زنوبة من ذراعها ووجهتها فى حماسة خفيفة إلى ناحية من القهوة :
— شوفى ياأبلا شوفى . الافندى ده أبو شعر اصفر وشنب صغير

مقصوص، اللى جه دلوقت بس . شوفى الصدفه ... قعد ورا ابن عمك تمام ...

فنظرت زنوبه . وبغتة دق قلبها دقات متتالية وتغير لون وجهها لكنها أخفت ما بها .

واستطردت سنية تقول وهى ترمق ذلك القادم على القهوة :

— شايفه ازاى ابتسم بالضحك لما لمح ابن عمك ! هو يعرفه ؟ لكن دا مسلمش عليه

فأجابت زنوبه بصوت به بعض التغير :

— لسه ما يعرفوش بعض .

فدهشت سنيه قليلا لهذه العبارة وقالت مرددة

— لسه ما يعرفوش بعض ؟ !

فقالت زنوبه فى تنهد مكتوم :

— أيوه . قصدى جايز يوم يعرفوا بعض ...

وسكتت لحظة . ثم كأنما خشيت أن يكون فى عبارتها ما ينم على شىء فاستدركت قائلة :

— ما هو ده يبقى جارنا ...

فقالت سنية على الفور وفى اندفاع وهى تنظر إلى ذلك الرجل:

— الجدع ده ؟ ! . يبقى جاركم ؟ ! صحيح يا أبلا والابتهزرى ؟ وساكن لواحده ؟ ... صنعته إيه ؟ ؟ .

فأجابت زنوبة وهى نصف غائبة الذهن وعيناهامسددتان إلى القهوة:
أيوه . . صنعته غنى . . ملتزم ...
وفطنت زنوبة إلى نفسها وإلى سنيه التى تنظر كذلك ... فمدت يدها فى حركة سريعة جافة وأبعدت فى الحال سنية عن الشرفة وهى تقول فى خشونة :
— ارجعى ما تطليش قوى كده يا سنيه . . !
فتقهقرت سنيه إلى الصالون وهى تقول فى ابتهاج :
— ما ليش عاده أبص من البلكون ده . لكن الحق انه فرجه لطيفه . يا ترى كل يوم فيه ناس على القهوه كده ...
فلم تجبها زنوبه .
فعادت سنيه أدراجها إلى الشرفة لتنظر أيضاً .
لكنها ما لبثت أن قالت فى صيحة فاتنة :
— آدى محسن جه .
وسكتت قليلا كى تتبعه بنظرها ثم استطردت .
— راح الأول القهوة يسلم على ابن عمك . وكان ساب عنده كتبه . عمل طيب . علشان ييجى هنا على طول ... من باب الشارع ...
ولم تكن زنوبه تصغى إلى كلمة واحدة مما قالت سنيه.. بل كانت تنظر إلى القهوة فى صمت وفكرها سابح فى أحلام... غير أنها بعدئذ استقامت بسرعة وتحركت نحو الصالون.. ذلك أنها رأت شيئاً جعلها

تعزم على الخروج فى الحال ... فقد رأت سليم ينهض من مكانه بالقهوة ، متجها إلى منزلهم حاملا كتب محسن ... بينما كان الفتى الصغير قد طرق باب الدكتور حلمى . . .

والذى كان يهم زنوبة من كل ذلك أنها رأت مصطفى بك جالساً فى مكانه الآن بمفرده . فألقت عليه نظرة أخيرة ثم تركت نافذة الشرفة وذهبت تبحث عن «ملايتها اللف» على كنبة الصالة . ورأت سنيه ماتريد فسألتها :

— رايحة فين يا أبلا ؟ ؟ .

فأجابت زنوبة فى سرعة وحيرة متظاهرة بعدم الاكتراث :

— رايحه عند الخياطة ... وراجعه مسافة المشوار . . .

فقالت سنيه فى لهجة عتاب لطيفة :

— ازاى بقا تسيبينى وحدى؟ انت عارفه ان مامامش هنا ؟ !

فقالت زنوبة وهى تلتف بالملاية :

— وحياتك راجعه بعد عشر دقائق ...

فقالت سنيه فى شبه استياء :

— ويعنى ضرورى الخياطة دلوقت ؟ ...

فأجابت زنوبة وهى منهمكة فى اللبس :

— أيوه ياختى افتكرت حاجة مهمة قوى عندها . ماتخافيش إن تأخرت عن خمس دقائق يبقى لك الكلام ...

ثم أخذت-أمام المرآة- ترتب هندامها فى عناية . وتحسن وضع قصبة البرقع « قشر السمكة » على أنفها. وتحرص أن يظهر على جانبي رأسها مقاصيص شعرها المصبوغ . وكانت تقوم باجراء تلك الزينة وذلك التجمل فى رشاقة ابنة العشرين، مما جعل سنيه تبتسم على الرغم منها.

فى تلك اللحظة دخلت جارية سوداء لسنيه تعلن قدوم محسن، ولم يمض قليل حتى ظهر الفتى على عتبة باب الصالون. ووقف مترددا خجلا لحظة، ثم تقدم إلى سنيه وسلم عليها فى أدب وحياء عميقين .

وانتهزت زنوبة فرصة اشتغال سنيه بتحية محسن وانسلت إلى الشرفة، وأطلت من نافذتها خارجة بجسمها منها على نحو يكاد يظهرها واضحة لمن يكون بالقهوة، ثم بعد أن فرغت من ذلك عادت أدراجها مسرعة نحو سنيه ومحسن، وأكدت لهما قرب أوبتها وقصر مدة غيبتها ثم سلمت وخرجت على عجل

لبث محسن وسنيه وحدهما وجهاً لوجه . . .

وعندئذ أحس الفتى الصغير أن حياءه وخجله يشتدان إلى حد الخوف والرهبة . وشعر بأن تلك الشجاعة التى ظل يتمرن عليها طول يومه ،والتى عنى بادخارها لمثل تلك اللحظة، قد ذهبت عنه كلها فى لمح البصر . فوقف ساكتاً ينظر إلى الأرض كأنه طفل مذنب أمام مؤدبه .

ولم تكن سنيه فى هـــذا الحال من الخجل والحياء والرهبة

فمع أنها فتاة فى السابعة عشرة من عمرها، أى تكبر محسن بنحو عامين فقط، فقد كانت أربط جأشا وكانت المرأة فى كل ترعرعها الجسمى والمعنوى . وإن هى أحيانا خفضت أهدابها الطويلة الجميلة وهى تكلم محسن . وضحكت ضحكات نسائية رقيقة غاية فى الأنوثة . . ومنعت عينيها من اطلاق النظر إلا فى أدب وخفر وتحفظ ، فما كان ذلك كله عن طبيعة فيها بل هو حياء مصطنع ، لعله أرق سحر تمتاز به المصرية والحقيقة أن المصرية أمهر امرأة تدرك بالغريزة ما فى النظرة الواحدة من وقع وتأثير . . . لذا هى لا تنظر إلى محادثها كثيراً ولا تبخس نظراتها ولا تقلبها جزافا كما تفعل الفرنجية الجريئة النزقة . بل إنها تحتفظ بنظراتها وتحفظها بين أهدابها المرخاة . كما يحفظ السيف فى الغمد . إلى أن تحين الساعة المطلوبة فترفع رأسها وترشق نظرة واحدة ... تكون هى كل شىء .

قطعت سنيه الصمت أخيراً قائلة فى مجاملة وترحيب :

— تفضل يا محسن بك .

وأشارت له إلى كرسى كبير بجوار البيانو . ثم ابتسمت وأردفت :

— رايح تعلمنى إيه النهارده يا أستاذى ؟

فأجاب محسن مبالغاً فى الأدب والتحفظ والتكلف إلى حد ممل :

— زى ما تطلبى حضرتك .

فقالت سنيه مبتسمة :

— مش عارفه ليه أنا أحب طقاطيق اليوم . ومع ذلك غنوة امبارح ولو انها دور قديم قوى، لكن ما أقدرش أقول لك قد إيه عجبتنى!. أول مرة فى حياتى حبيت دور قديم. لكن الفضل لك يامحسن بك . الحق انت غنيتها بشكل . . ! والطريقة بتاعتك . . حاجة صحيح جميلة قوى . .

احمر وجه محسن وخفق قلبه فرحاً وتأثراً بهذا الاطراء الساحر . وكأنه استمد منه بعض الجرأة والشجاعة فقال وهو يحاول رفع رأسه المطرقة دائماً :

— متشكر ياسنيه هانم . . . دا من لطفك . . .

فقالت سنيه :

— أؤكد لك يامحسن بك . انت لك مواهب عجيبة . وعندك صنعة فى الغنا . أهى الصنعة دى اللى عايزاك تعلمها لى . مش كده ؟ . . .

وابتسمت فى ظرف واتجهت إلى البيـــانو وفتحته وأخذت مقعدها أمامه .

فتن محسن تماماً . وكأنما أراد أن يغير حالته الخجولة وأن يتبسط معها فى الكلام قليلا، فنهض وتقدم نحو البيانو، ثم قال متظرفا ومقلدا لهجتها الأخيرة عن تعمد :

— وأهو البيانو ده اللى عايزاك تعلميه لى. مش كده ؟ . . .

لكنه ما كاد يلفظ هذه العبارة حتى صعد الدم فى وجهه. فنظرت

سنيه اليه نظرة تستطيع أن تقلب قلب مارد من العمالقة وقالت :

— من غير شك . وأضمن لك تقدم سريع . لأنك قلت لى إنك تعرف تضرب على الهارمونيكا .

وعادت فالتفتت إلى البيانو تمر بأناملها على مفاتيحه . ووقف محسن خلفها. وقد هدأ اضطرابه قليلا واطمأن ، إذ هى الآن لا تستطيع رؤيته فى موقفه هذا . وعندئذ جعل يختلس النظر إليها اختلاسا . ولأول مرة فطن إلى أن شعرها مقصوص على أحدث طراز . وذهبت عيناه تتأمل نحرها العاجى غاية فى البياض، يعلوه رأس جميل مستدير الشعر غاية فى السواد ، يلمع لمعانا أخاذا كأنه قمر من الأبنوس . وخطرت لمحسن صورة يراها دائما فى الكتاب المقرر هذا العام للتاريخ المصرى القديم . صورة يحبها كثيرا . وطالما قضى شطرا من حصص التاريخ يطيل إليها النظر وهو سابح فى عالم الأحلام، لا ينزله منه إلى الأرض إلا صوت المدرس وقد بدأ فى شرح الدرس . تلك صورة امرأة . شعرها مقصوص أيضاً . . . وأسود لامع كذلك . . ومستدير كالقمر الأبنوس : إيزيس .

رفعت سنيه رأسها فجأة والتفتت إلى محسن مبتسمة وهى تقول شأن من تذكر أمرا بغتة :

— شوف . كنت ناسيه حاجة مهمة خالص .

فبغت الفتى ونظر إليها كمن صحا من حلم ... وارتجف قليلا

إذ خشى أن تكون قد فاجأته وهو يختلس النظر إلى مؤخر رأسها الجميل، لكنه تجلد وأجاب فى تلعثم :

إيه . . ؟

فاستطردت سنية :

— كنت عايزه أسألك . عن حكاية الأوسطى شخلع العالمه اللى علمتك صنعتها ؟ .

فصمت محسن قليلا حتى هدأ جأشه ثم قال :

— آه . لكن دى حكاية قديمة قوى .

فقالت سنيه فى رجاء لطيف وفى شىء من الدلال :

— عايزه أعرفها . مشتاقة قوى انى أعرفها .

فقال محسن فى شبه عجب ولكن فى فرح داخلى :

— صحيح؟ مشتاقه إنك تعرفيها ؟

أيوه . عايزه تحكى لى عرفت شخلع إزاى ؟ ؟

فوقف . محسن لحظة كمن يستذكر أشياء انقضت وقال مردداً وهو لاه ساهم .

— شخلع ! . . أنا نسيت . وقتها كنت صغير قوى . . ومع ذلك فاكر . . كانت أيام لذيذة . . وكنت سعيد ولوإنى مش فاهم علشان إيه . . أيوه افكرت . . تذكرت . . .

وعندئذ أخذ وجه محسن تكسوه فجأة ملامح غريبة . . .

لم يعد بعد وجه الطفل الساذج الخجول . بل غدا فى لحظة وجه رجل ترتسم عليه مشاعر عميقة :

أيوه . ! مستحيل أنسى ...

قال ذلك هامساً كأنما يخاطب نفسه .

وعجبت سنيه وأخذت تنظر إليه مشدوهة .. متأملة وجه ذلك الفتى الصغير وما فيه من معان .. وتلك العينين الخياليتين فيه كأنهما تخترقان سجف الماضى الأثيرية ..

الفصل التاسع

كان محسن فى السادسة من عمره، وقتما كانت الأوسطى لبيبه شخلع تختلف إلى بيت أهله. وحكاية تلك العالمة ومعرفتها الوثيقة بالأسرة لم تكن بجرد مصادفة. فإن جدة محسن أصيبت فى ذلك الوقت بمرض عصبي لم يجد فيه طب ولا دواء. وقد عالجها كثير من الأطباء فلم ينتهوا إلى شيء. وأخيراً قال واحد منهم بعد أن أعيته الحيل، إن أصوب ما يشار به فى مثل حالتها، سكون الفكر وهدوء البال وانشراح القلب. « ألهوها بقدر المستطاع، كثير من الفرح والسرور يمكن أن يصلح حالها »

— نلهيها ونفرحها ازاى يادكتور ؟

— يعنى غنوا لها وابسطوها، الغنا والطرب أحسن دوا لها.

جاءت بعد ذلك المصادفة فقد رأت والدة محسن فى ليلة عرس قريب لها الأوسطى لبيبة شخلع. ولم تلبث أن أعجبها من تلك العالمة المشهورة حسن خلقها وأدبها، وتواضعها وذوقها فاستظرفتها. كذلك رأت شخلع والدة محسن بين جموع السيدات، فاستلفتت أنظارها بما كانت عليه من أبهة الشخصية. فتعارفا. وذكرت والدة محسن عندئذ تلك المريضة التى دواؤها الطرب فانتهزت الفرصة ودعت شخلع إلى الزيارة.

ومنذ ذلك الحين . والأوسطى لبيبه شخلع تزور أسرة محسن كل صيف فى دمنهور ، مستصحبة تختها وآلاتها . فتلبث عندهم طول الصيف أو بعضه ضيفة مكرمة . . تروح النفس بمناظر الأرياف وهوائها ، وتسلى الست الكبيرة المريضة ، وتملأ البيت حياة وفرحاً وانشراحاً

وكانت تلك الأيام التى تمضيها شخلع وتختها فى بيت حامد بك العطيفى ، تعد خير أيامها كما كانت تقول . ولا يعكر صفوها إلا الحاج أحمد المطيب ، الذى كان يطلبها مع التخت من وقت لآخر ، من أجل سهرة مستعجلة أو صفقة طيبة .

لكن تلك الأيام عند الصغير محسن على الأخص ، كانت أهنأ أيام حياته بلا جدال . . فقد كان يحسب حسابها طول العام . ويعد الأشهر على أصابعه انتظارا لها يثبب من صدره كلما مر شهر .

ما ألذها أحلاماً ساذجة . وأعذبه سراباً صبيانياً عظيما ، ما كان يجول بنفس هذا الصغير المبهمة حتى فى تلك السن !

كان مايملأ محسن فرحاً وزهواً أن يعتبر عضوا فى هيئة التخت . فما كان يرضى إلا أن يغنى ويأكل ويجلس وينحشر بين « العوالم » وياويل من كان لا يدعوه أو يناديه فردا من الجوق . كم من مرة بكى وثار لأن أحدا نسى أن يعتبره « سنيد » ، كحفيظة ونجيه وسلم العمياء ! وكم من مرة غضب وهاج كى يعلمنه « السيم » المصطلح بينهن معشر العوالم . . . !

وذهب فى الاندماج فى سلك التخت و تقليد أفراده، حتى فيما هو عندهن مثل أعلى وما يشعرن به من إخلاص واحترام نحو مولاتهن الأوسطى : الست لبيبه شخلع .

نعم . إنه لا ينسى فرحه إذ كان يجلس على الأرض مع الجوق وهو محيط بالأسطى وهى مرتفعة فى الوسط على كرسى كبير، حاملة العود بين ذراعيها . فقد كان عندئذ يرفع عينيه وينظر إليها ، كمن ينظر إلى إلهة فوق قاعدة من الرخام . ثم يلتفت يميناً وشمالا برأسه الصغيرة إلى زميلاته « السنيدة »، فى شىء من الارتياح الداخلى لا يوصف ولا يمكن أن يكون له تفسير .

وأحيانا كان يشعر بإحساس غريب وهو ينظر إلى تلك المرأة اللطيفة التى ناهزت الثلاثين . لا سيما ليلة سهرة الاستقبال ، أو أى احتفال حيث كانت تظهر مزينة بالحلى البراقة أمام المدعوات والزائرات ، اللاتى كن يأتين خصيصاً لسماعها عند آل محسن .

وقد كان يحس أحيانا أنه فهم فى إبهام ما كانت عليه شخلع من ظرف، والواقع أن لبيبه كانت فوق غنائها الساحر، تمتاز بطبيعة مرحة غاية فى الظرف وخفة الروح ، تملأ المصغى إليها إنشراحاً وسروراً.

وكم كان محسن يحب الجلوس إليها متملقا متزلفا ، وقد جمع لها وقطف من الغيط طول الصباح ذلك الخلال الذى كانت تغليه وتشربه فيسلك صوتها ،وهو يرجوها فى مقابل ذلك أن تحكى له بعض نوادرها

التى طالما حكتها له وللجميع، دون أن يفقد التكرار مافيهامن ظرف.

— احكى لى حكاية الطباخه .

يقول لهاذلك محسن الصغير بصوت الرجاء، فتضحك ثم تتجهم تجهماً مصطنعاً وتقول له ولمن حواليها :

— طباخه ؟ ! يادى الفضيحة ياولادابقاكل ماأنسى تفكرونى .

* * *

أصل الحكاية أن الطباخة الحقيقية مرضت ذات يوم، فاقترحت الأسطى لبيبه فى جد وإلحاح أن تحل محلها . وقالت وأكدت أن الطعام الذى يخرج من يدها لم يذق أحد أشهى منه. وأوصت الجميع بالحذر حتى لا يأكلوا أصابعهم معه من فرط لذته، وزعمت أنها فى طهى السمك أوسطى من الطبقة الأولى . ومن يأكل من سمكها الإسكندرانى أحرى به ألا يقول أنه أكل سمكاً فى حياته .

فرضوا بتركها تفعل ،وقادوها إلى المطبخ وأحضروا لها الخضر والسمك وكافة اللوازم . وبدأت العمل . . لكن أى عمل ؟!

مامضى عليها خمس دقائق بالمطبخ حتى انقلب ذلك المطبخ إلى شبه سوق العصر . أنزلت جميع النحاس الموجود من حلل وصوانى وقصاع وأوان إلى الأرض، وبعثرته فى أنحاء المكان . فلم يبق ركن ولا موضع لايجد فيه الإنسان صحنا أو طبقا أو حلة . لم كل هذا ؟ لعلها لم تسأل نفسها هذا السؤال . ولم يجرؤ أحد على الاقتراب

من المطبخ . لأنها رفضت بتاتاً المســـاعدة من أى كائــن ، حتى يعترف لها وحدها بالفضل .

وكانت منذ مدة قد تركت فوق النار حللا فارغة، وأخذت تجرى هنا وهناك فى المطبخ وبيدها سمكة وهى تدندن :

« يامنعنشة يابتاعة اللوز . . . » بينما أقدامها تتعثر فيما يقابلها من صوان وأوان ملقاة على البلاط فى غير ترتيب .

وكان السمك أيضاً قد تبعثر فى أنحاء المكان . ولا يتصور أحد كيف حدث ذلك بهذه السرعة . فعلى الأرض سمك وفوق الرف سمك . وفى القصاع سمك . وفى الحوض تحت الحنفية سمك ،وكأنما انقلب المطبخ حلقة سمك . . .

ولكن الأوسطى لبيبة شخلع ، لم تنتبه ولاشك إلى الحالة التى صار إليها المطبخ . فقد كانت منهمكة حقيقة فى العمل وقد أخذتها حماسته ، فهى تصيح بين آن وآن قائلة وهى تضحك :

ـــ الله الله يادى الحبايب ! فين السميعة دلوقت يتفرجوا على الأوسطى شخلع بجلالة قدرها

* * *

وأخيراً لكلكت لها كم طبق . وخرجت من المطبخ يتصبب منها العرق . وفوطتها البيضاء يتصبب منها الهباب وصاحت فى ردهة المنزل :

ـــ خلاص يادى الحبايب ! البدنجان سبكته ... والبامية قمعتها والسمك . . . آه ياروحى ! . . قليته قلى يجنن ويسبى العقول . . .

وسكتت فجأة صفراء الوجه. ذلك أنه ظهر أمامها بغتة فى ذات الوقت بباب الردهة ، الدكتور فريد الذى استدعى لفحص الطباخة المريضة، وكان الدكتور فريد هذا من زبائن الأوسطى شخلع المتحمسين ومن سميعتها المعجبين ، الذين رأوها كثيرا وسمعوها فى الأفراح والليالى. فما رآها هو الآخر أمامه بفوطة المطبخ التى تقطر هبابا حتى صاح فى دهشة:

ـــ الله ! إنت عامله طباخه هنا والا إيه ؟!

ولكن شخلع ما كادت تفيق من بغتتها حتى أدارت ظهرها ، وولت مدبرة وهى تغطى وجهها بكفيها تارة، وتلطم على صدغيها تارة أخرى ، وهى تقول بصوت خافت :

ـــ ياكسوفى . . . ياكسوفى . . !

* * *

ولم يكن هذا كل ماجره عليها تطوعها للطبخ فى هذا اليوم .

ولا كل ما أتاها به السمك الاسكندرانى .

وورطة أخرى كادت تكون خطيرة .

فالسمك كان منتنا وهى لا تعلم . وقد أكلت منه أكلا كثيرا وجميع أفراد التخت لأنه من عمل يديها

ولسوء الحظ أنها والتخت كانت متعاقده فى تلك الليلة بالذات

لأحياء سهرة بمنزل أحد الأعيان .

فذهبت وغنت حتى صار الفرح فى قمة الجلبة والسرور . وقد اجتمع المدعوون واشتد الهرج والمرج. وإذا الأوسطى لبيبة تحس فجأة بالمغص يجرى بالطول والعرض فى معدتها . وكتمت ذلك بادىء الأمر خشية الفضيحة . لكنها ما كادت تتخاذل وتهم بالقيام حتى رأت هيئة التخت جميعاً يدب فيها أيضاً المغص . وإذا كل « سنيدة » منهن تستند على زميلتها وهى تتلوى ويدها على بطنها . فأدركت الواقعة . . وكان منظرا . . كما حكت شخلع فيما بعد بخفة روحها . . يبكى ويضحك فى نفس الوقت . فإن المعازيم مالبثوا أن رأوا على حين ، فجأة هيئة التخت بأكملها تتمايل وتتماوج ثم تنهض فى وقت واحد بسرعة، وكل يده على بطنه ،وجميع العوالم قد اندفعن يفسحن لأنفسهم طريقاً فى الزحام، طالبات الوصول إلى الحمام أو بيت الراحة. غير أن المنظر المؤثر حقيقة كان منظر سلم العمياء، إذ تركتها زميلاتها فى ذلك المأزق فوقفت وسط المكان تتخبط فى حيرة ، يدها على بطنها والأخرى تضرب بها الهواء متلمسة الطريق وهى تصيح :

— يادهوتى ! . . الحقونا بطشت والاقصرية . . ياللى تحبوا النبى . . إلهى مايوريكم يوم . . .

فضحكن منها السيدات المدعوات أولا، ثم سارعن لاسعافها .

لم يكن الصغير محسن مع التخت تلك الليلة. فإنه برغم دموعه والحاحه

لم تسمح له والدته بمرافقة العوالم. لذلك اكتفى بسماع القصة كما سمعها الجميع من فم الأوسطى شخلع، التى كانت ترويها وتذكرها غالباً فى معرض كلامها بشكل مسل، فيضحك محسن منها فى صفاء صبيانى، ويتغذى بسماع تلك الأخبار وينسى رغبته فى الذهاب معهن. وما تكاد شخلع تفرغ من كلامها، حتى يسارع محسن راجياً دون أن يمهلها ريثما تدخن سيجارة:

- أحكى لى كمان حكاية فرح اليهود.

* * *

دعيت الأوسطى لبيبه وتختها لإحياء ليلة عرس عند أسرة يهودية موسرة، وكان ذلك فى شهر طوبه أشد أيام الشتاء برداً. وجلست الأوسطى وسط تختها تنتظر خروج العروس من حمامها وزينتها. ومن طقوس العرس عند اليهود - كما قالت شخلع - أن تستحم العروس بالماء البارد ممزوجا بماء مقدس يرشه الحاخام. وبعد هـــذا الحمام تلبس العروس وتتزين، ويحرم على غير اليهودى مسلماً كان أو نصرانيا أن يلمسها. فإن حدث ذلك وجب أن يعاد استحمامها من جديد بالماء البارد.

لبثت لبيبه شخلع حتى ظهرت العروس تتبختر فى ملابسها وزينتها وجلست فى مكانها المعد لها، وبدأ الفرح ثم حمى وطيسه ثم قارب الانتهاء، وكانت الريح تعصف والمطر يتساقط بردا وثلجا فى تلك الليلة

بما لا عهد لمدينة القاهرة به من قبل . فقامت لبيبة على غفلة منها واقتربت من العروس تعجب بملابسها الفاخرة . وأرادت التمعن والتحقق من نوع قماش ثوب العرس، فمدت يدها ولمست العروس، وما كادت تفعل ذلك حتى دوى فى المكان صياح هائل دهاها . . وارتفعت أصوات الغضب من كل مكان ، فكمشت يدها مبغوتة ووقفت جامدة فى موضعها بلا حراك ونظرت فاذا الجميع : العروس وأهلها وحاشيتها قد خرجوا يرعدون ويزبدون مع الرعد القاصف فى الخارج، وهم يقودون العروس إلى الحمام ثانية فى ذلك البرد القارس .

وعادت بعد برهة العروس المسكينة من الحمام البارد وهى تشهق وتصطك أسنانها. وسمع الضجيج أقاربها الرجال فصعدوا يستطلعون الخبر . فبادرتهم السيدات من أهل العروس والمدعوات قائلات صاخبات :

— يقطعها لبيبه ! . . يحرقها لبيبة . . لمستها لبيبة ! . .

وكانت لبيبة تسمع ذلك وهى منزوية منكمشة بين أفراد تختها، وجسدها يرتجف خوفاً وفرقاً ، وقد جعلت ترتل فى سرها آية الكرسى، وبين آن وآن تنظر حولها خلسة كى ترى هل سكنت ثورة أهل البيت . ثم تلتصق بمن فى جوارها من السيدات وهى تهمس :

— قرب على شوية يانجية ! . . خبينى اعملى معروف! امسكينى

ياسلم فى عرضك . ! اشترونى يا اولاد ! . ياسيدى أبو السعود . . كراماتك ! نص دستة شمع ... بس نخرج من هنا سالمين ...

فتهدئها سلم « وهى » أشد منهـا خوفاً وتهمس لمولاتها فى صوت المزمجر .

قطيعه ! يعنى رايحين يعملوا فينا إيه ! . .

فأجابت نجية هامسة :

أقل ما فيها يغطسونا احناكمان فى السخام الحمام . ! . .

فاصطكت أسنان سلم وقالت :

— يا ساتر يارب ! . واحناكان مالنا ومال كده ! . .

وكان الصخب قد سكن فى تلك الأثناء . وكأنما قد رأى أصحاب العرس أن تعود المياه إلى مجاريها، حتى لا تختم الليلة ختاماً سيئا . فسكنوا فى الحال وأشاروا إلى الأوسطى لبيبة باستئناف الغناء والطرب . ورأت شخلع أن تلبي الأمر فى الحال كى لا تسبب اشكالا جديدا ، وكى تلهيهم عما سلف منها . فاعتدلت فى مجلسها وأمرت التخت بمسك الآلات . وقالت لنجية على عجل :

— صلحى العود حجاز كار . .

ثم رفعت عقيرتها وغنت ، « كيد العذول . . . » .

لكنها ما كادت تتم المطلع حتى سمعت همساً ولغطاً بين أفراد التخت وتنبهت إلى صوت « سلم » يصيح عالياً ويغطى صوتها :

الله .. الله ياأسطى شخلع بامصريه .. ياسمع الملوك ! .. وعقب ذلك فى الحال صوت «سلم» الخافت وقد انحنت عليها هامسة :

الله . الله يانشاز كار . .

فالتفتت إليها شخلع فى حدة :

— جرى لك إيه يابنت ؟ !

ولكن سرعان ما أدركت شخلع أن غناءها كان نشازا . وأن دافعه الخوف والفرق . فهدأت روعها وابتسمت :

أعمل لهم إيه ؟ طلعوا على جتتى البلا . غنوا يا اولاد غنوا زى ما يكون ، بس نخلص الليلة بجلدنا أهم ياخدوا «كيد العذول» فى جتتهم وتننا مروحين :

* * *

ولكن بين كل تلك الذكريات ليلة واحدة لا ينساها محسن أبدا . ليلة رأى فيها صغيراً ما نقش على ذاكرته وفى أعماق نفسه صورا ومشاعر لا تمحى ...

فى ذات عصر طلب الحاج أحمد المطيب الأوسطى شخلع، لإحياء ليلة عرس عظيم، وأشاد لها بفخامته وأهميته وأوصاها بالإستعداد التام. فسرى الخبر فى الجوق وصار له أثر داو وجعل كل يتأهب: البعض يجرى عمل البروفات . والبعض يصلح الآلات . والبعض يعد الملابس البراقة والحلى ، وشئون الزينة من مساحيق وعطور

ومكاحل لطلاء الأهداب ، وأدوات لتزجيج الحواجب . وامتلأت في لمح البصر هيئة للتخت جميعها حركة وفرحاً ونشاطاً .

شخص واحد فقط وقف بين تلك الحركة والضجيج، ينظر في كآبة وقد أحس بخيبة الأمل : هو الصغير محسن .

وقف حزيناً بجوار الحائط ، وقد بدا له في تلك اللحظة أنه كان يجرى وراء سراب . أنه ليس فرداً من التخت . ولم يكن قط كذلك يوماً من الايام . إذ هاهو التخت جميعه يتهيأ للذهاب بدونه وهاهو التخت قد استغنى عنه وعن خدماته ، ويستطيع أن يذهب للاعراس والافراح بدونه، وهاهن زميلاته حفيظة ونجية وسلم كل تهتم بنفسها ولا تفكر فيه . بل لم تفطن إحداهن في تلك اللحظة إلى وجوده .

ثم جعل ينظر إلى الأوسطى شخلع وهي تتزين أمام المرآة وعيونه راجية متوسلة . . ولكنها هي أيضاً كانت في ذلك الوقت لاهية عنه منصرفة بكليتها إلى شأنها . حتى هي أيضاً يظهر عليها أنها نسيت كذلك أنه عضو مهم في هيئة التخت ..

وآلمته كثيراً تلك الفكرة فانفجر باكياً . ثم أخذ يضرب الأرض بقدميه الصغيرتين ويصيح :

خذوني معاكم . . أروح معاكم . .

غير أن والدته رفضت .

فثار محسن وازداد عويله وهياجه . وحاولت الأوسطى والعوالم تهدئته . فكان ذلك محالا . واشتد غضبه إلى حد كبير وقد صمم فى رأسه على مرافقة التخت مهما كلفه الامر :

ــ أنا مالى هه ! لازم أروح . لازم أروح . . عايزه أشوف الفرح . . عمرى ماشفت فرح . .

ضحكت شخلع منه قليلا وأخذتها شفقة به ، فاقتربت منه وهمست فى أذنه بلطف ، تعده بالسعى لدى والدته حتى تأذن له فى الذهاب .

فسكت الطفل فى الحال ونظر إلى الاوسطى نظرة فيها كل معانى الإمتنان والامل . وهو يعلم أن والدته تثق ثقة كبيرة بالأوسطى شخلع ، التى أصبحت بعد طول العشرة من أهل البيت الموثوق بهم .

والواقع أن شخلع توصلت إلى اقناع الوالدة التى ترددت قليلا بادىء الأمر ، وانتهت إلى الإذن والموافقة إزاء تأكيد الأوسطى وقولها :

ــ ما تخافيش عليه .. مادام معايه . أنا أحطه بين عينى الإتنين ! خليه يتفرج ليلة من نفسه .

وكان محسن يتسمع خلف الباب بقلب يهتز خوفا ورجاء ، فما بلغ مسمعه الإذن حتى لفظ صيحة فرح وجرى حالا فى المنزل ، يبحث عن ملابسه الجديدة وهو يقول للجميع . . لكل من يقابله من خدم أو عوالم : إنه ذاهب هو أيضاً مع التخت . . .

وفى أعماق قلبه الصغير حفظ لشخلع احساسا أقوى من مجرد الشكر والامتنان . إحساس عميق يجهله حتى تلك الساعة .

كان الوقت مساء عند ماوقفت العربة «الحنطور» التى تقل العوالم أمام بيت الفرح . وقد نصب بالواجهة سرادق فخم كبير، مزين بأنواع التعاليق والنجف ، والرايات الصغيرة المربعة والمثلثة على مختلف الألوان، من أحمر وأصفر وأخضر ، واصطفت عمد مصابيح الغاز على جانبي الطريق الموصل إلى المنزل، كأنه طريق الكباش الموصل إلى معبد الكرنك ! ! !

وامتلأ السرادق بمئات الكراسى والمقاعد والدكك الخشبية ، يحتلها عدد من المدعوين لا يعلمه إلا الله وحده ، لا يشاركه فى العلم حتى أصحاب الفرح . صحيح أن من المدعوين من هم مدعوون حقاً . غير أن مع تلك الفئة أيضا عديداً عديدا، دعوا أنفسهم وهم لا يعرفون إن كانت العروس تدعى زينب أو شلبية .

وكان الساقون والفراشون بسترهم السوداء الرسمية ، يمرون حاملين الصوانى العريضة الكبيرة عليها أكواب الشربات الحمراء، فتمتد الأيدى ، ويتزاحم ذلك الجمع الغفير يطلب كل نصيبه .

وفى ركن من السرادق كانت تقوم الموسيقى الميرى ، أو شبه الميرى ، بطبلها وزمرها وأبواقها النحاسية، تزيد الضجيج وصم الآذان اللازمين لفرح فى تلك الأهمية وعلو الشأن .

ما كادت العوالم يصلن حتى حدثت حركة غير عادية بين الجموع . وهرع فراشان يستقبلان الحنطور ويساعدان الأوسطى «الصييته» على النزول .

نزلت شخلع أولا . فى جلال وعظمة وهى تبهر الابصار بحليها وصيغتهامن غوايشهاالذهب لخلاخلها الرنانة ،لثوبها الحريرى المطرز بالقصب والترتر ،البادى تحت ملايتها السوداء ،كل هذا يلمع تحت ضوء المصابيح الباهت فكأنها كلها قطعة جواهر تضىء وتتحرك . ولمت الأوسطى شخلع أطراف إزارها والتفت به جيداً ، ثم نظرت خلفها إلى السنيدة أفراد التخت ، وأمرتهن أن يحملن الآلات بعناية وانتباه . كل تحمل ما يخصها . ومشت الأوسطى تتهادى وفى ذيلها الصغير محسن لابسا بذلة العيد الكبير .

ورأى محسن فى الحال أن زميلاته . نجية حاملة العود وحفيظة الطبلة « الضربكه » وسلم الرق فزمجر ودمدم وهدد بالبكاء... وهو أيضا يحب أن يحمل آلة من الآلات . أليس عضوا فى التخت ؟ وعبثا حاولت شخلع بتوسلاتها وتحايلها أن تسكنه... وأخيراً أمرت شخلع أن يعطى محسن الصاجات وقالت له مبتسمة فى لطف :

— شيل انت الصاجات . أهى حاجه صغيره على قدك ! .

وتناولت يده تريد أن يمشى بجانبها .

ولكن محسن رفض فى عناد

أنه يريد أن يتبعها كفرد من التخت لا أكثر ولا أقل، وسارت أخيراً شخلع تتبعها حاشيتها، يقودهن جميعا الخدم والفراشون إلى جهة باب الحريم، وتشيعهن نظرات الرجال وبسمات المدعوين، وكلمات الإطراء والمغازلة والتنكيت التى كانت تعلو من بين الجموع :

« ياسيدى … ياسيدى . ! »

« كده . . كده . ! وسع ياجدع انت وهو . ! »

« نظره ياأم العواجز ! . . »

« حاسب الملف يا . . ها هاى . . ! » الخ الخ

وهكذا حتى اختفت العوالم عن أنظارهم خلف باب الحريم. دخلت الأوسطى شخلع فوجدت نفسها فى صالة رحيبة، مملوءة بسيدات يتلألأن فى أثوابهن وجواهرهن الفاخرة كأنهن النجوم .

وما كادت تظهر بالعتبة حتى أقبلت عليها صاحبات الفرح. وبينهن أم العروس، فاستقبلتها فى ترحيب لائق بمقام العالمة المشهورة، ثم قدنها إلى المكان المخصص للتخت وهو ركن فسيح مفروش بالوسائد الحريرية والشلت الناعمة ، على شكل دائرة يقوم وسطها كرسى فوتيل خصوصى للاوسطى الصيتة .

ولم يلبث أفراد التخت أن دخلن ودخل معهن محسن فاستلفت أنظار أهل الفرح . وسألت أم العروس شخلع قائلة :

— اسم الله عليه ابنك ؟

ولكن محسن لم يدع لشخلع وقتا للاجابه.. فقد قال على الفور بصوته الصغير وهو يشير إلى الصاجات التى يحملها :

ـــ لأ . أنا من التخت :

فضحك أهل العروس وسروا من لهجته الجديدة المملوءة عزما وارادة على رغم سنه . وأرادت أم العروس أن تقبله غير أنه فر لاحقا بزميلاته وانحشر بينهن ، وقد أخذن بمجالسهن وانهمكن فى وضع الآلات وأعدادها .

جلست العوالم كل على شلتة أو وسادة،محيطات بالأوسطى المرتفعة على الكرسى بينهن، وقد أخذن يثرثرن فيما بينهن بلغة السيم المصطلح عليها عند أهل الطائفة . وبدأن كالعادة ينقدن كل ما تقع عليه أنظارهن . وسالت «سلم» الضريرة عما إذا كان البيت والفرح وأهله حقيقة كما قيل، بيت عز وأكل أوز وخير وخمير . . ؟فجالت زميلاتها بأبصارهن الناقدة الثاقبة فى أنحاء المكان . وتأملن لحظة الكوشة التى فى الصدر وهى مكسوة كلها بالحرير الأبيض ، وفيها مقعد العريس والعروس غاية فى الفخامـــة . . ثم نظرن إلى قبة الكوشة وقد بطنت كذلك بالحرير الابيض ، فصارت كأنها سماء من الشمع، يتدلى منها على كل الجوانب ستائر من الفل والزهر والورد الأبيض . .

لم تكن العروس أو العريس قد حضرا بعد .

لذلك حولت العوالم نقدهن وحكمهن إلى المدعوات ...

ومع ذلك فقد كانت كل الشواهد تدل على أنه عرس فخم حقيقة.

وأخيراً قالت نجية العواده :

— آى بالحق ناس مليانين . بس كان واجب يشوفوا خاطرنا بالسجاير المعتبره ، والدخان اللى يشرح القلب ...

فانتهرتها الأوسطى هامسة :

— هس يامزغوده ! أم العروسه جايه علينا ...

وحقيقة اقتربت أم العروس من الاوسطى شخلع ، وسألتها فى لطف إن كان يمكنها التكرم ولو بأغنيه واحدة قبل افتتاح البوفيه إذ أن المعازيم يتوقون إلى ذلك .

فأجابت شخلع فى أدب :

— من عينى . محسوبتك ياست هانم ! بس التخت عايز سجاير . وأنا عايزه فنجان قهوه ساده ... واسم الله عليه . . .

وأشارت إلى محسن . وأرادت أن تتم عبارتها فقاطعها الصغير قائلا :

— أنا زى التخت .

فقالت شخلع مستنكرة :

— سجاير ؟ ... كله إلا كده ! لا يامحسن عيب . !

والتفتت بسرعة إلى أم العروس وهمست فى أذنها :

— هو اسم الله كباية شربات .

فأجابت أم الغروس :

— بس كده ! غالى والطلب رخيص ! حاضر ياختى . على راسى إسمعى ياأوسطى شخلع ، والنبى ماتعملوش تكليف . البيت بيتكم ومطرحكم ، إللى عايزينه اطلبوه . الليله دى عايزينها تكون ليلة العمر اللى نفتكرك بها ياست شخلع . . . نورى وانجلى كده وجلجلى وخليها ليله مفيش بعدها . . .

وذهبت مسرعة كى تقضى طلبات التخت .

ورفعت شخلع عينيها والقت نظرة شاملة على المدعوات ، فرأتهن ينظرن إليها فى إعجاب وانتظار . . .

فابتسمت لهن . . .

وفى الحال ارتفع صوت جرىء من بين المدعوات يصيح بها :

— يا اسطى شخلع . . ! من فضلك غنوة «حبيبى غاب ، وقلبى داب . . . »

فأتت شخلع بحركة طاعة مؤدبه ، بينما كانت السيدات وهن يضحكن بين ماجنات ومشجعات ومستنكرات ومستغربات ، يبحثن بعيونهن عن تلك السيدة التى تجاسرت أن تقول عالياً :

«حبيبى غاب ، وقلبى داب ، بقى له زمان ما بعتش جواب» !..

* * *

مضت ساعة ولم تفعل العوالم شيئاً غير إصلاح الآلات وتدخين

السجاير وشرب القهوة وتجرع الشربات والثرثرةوالانتقاد. ولعل أهم مافعلته إضجار السميعة وإفراغ صبرهم . وهذا فى الواقع جزء من الفن عند أهل تلك المهنة، بل لعله الفن الوحيد الذى تتقنه عوالم مصر . . فن الإضجار أو فن حمل السميعة على الانتظار .

لكن أحداً لم ينفد صبره مثل ما نفد صبر الصغير محسن .

هذا المبتدىء فى الفن لم يدرك بعد لماذا يتعمد التخت ذلك التباطؤ والتمهل الممل . ودفعته حمى الحماسة وأراد التخت على الغناء فى الحال وسأل الأوسطى فى سذاجة وقوة :

— ليه ساكتين؟ إمتى حانغنى بقا ؟ الناس عايزانانغنى من زمان.

فنظرت إليه شخلع نظرة رثاء وشفقة، كمن ينظر إلى طفل صغير أو إلى جاهل غر بسيط ، ثم انحنت عليه وهمست فى لهجة من يفضى بسر:

أهو ده كارنا ياعبيط . أدى سر الكار كله ! كل ما تتقل على على السميعة كل ما يقعوا فى دباديبك . . فهمت يابنى . ؟

وأردفت حفيظة الطبالة وهى تدلك جلد الطبلة بكفها لتشده:

— صدق من قال التقل صنعه . ! .

فوافقت شخلع :

— أهو كده .

ثم مدت إلى حفيظة فمها بالسجارة كى تشعلها لها .

* * *

عندما آنست شخلع أن قد حانت اللحظة التى يجب فيها الغناء حسبما يقضى به الفن ! وعندما أعطت الآمر بحمل الآلات ، كان الأوان قد فات ودخل أهل الفرح يعلن افتتاح البوفيه .

فأشار الأوسطى بترك الآلات وهى تقول للتخت ، مبتسمة :

— بركه يا جامع جت منك ماجت منى . ! .

وجاءت أم العروس تدعو شخلع وحدها إلى البوفيه ، وتعتذر لضيقه عن أن يسع بقية أفراد التخت ، واقترحت أن يأكل أفراد التخت فى أماكنهن . وقالت إن صينية كبيرة عليها مختلف الألوان كما فى البوفيه وأحسن ، ستقدم لهن وهن جالسات فى ركنهن هادئات ، بعيدات عن الجلبة وعن كل ما قد يخجلهن فى الأكل . ووافقتها الأوسطى على تلك الفكرة . لكنها سألتها إذا كان ممكنا اصطحاب الصغير محسن معهما إلى البوفيه . فأجابت أم العروس على الفور وهى تحاول تقبيل محسن :

— أمال ياختى ! ياسلام هو الخير والبركة ! .

غير أن محسن رفض أيضاً هذه المرة أن يترك زميلاته وصاح أمام الحاج شخلع قائلا :

— لأ مش عايز ... وأنا مالى هه ...

وذكرت شخلع ماقالت لوالدة محسن ووعدها بأن تحافظ عليه وتضعه بين عينيها ، فألحت فى مرافقته لها وقالت له فى شىء من

الحدة والغضب :

— تعال معايه بقول لك . ! .

ثم همست فى أذنه برقة :

— البوفيه أحسن . حاتاكل هناك حاجات حلوه ! . .

فأجاب محسن فى عناد وهو يشتبك بذراع الكرسى كيلا يغادر المكان :

— مش عايز آكل حاجات . أحسن عايز آكل هنا . مع التخت .

وظهرت فى تلك اللحظة خادمتان تحملان صينية كبيرة وضعتاها على الأرض بين العوالم . وكان يرى عليها طبق كبير ملآن بالكسكسى وديك رومى محمر ، وألوان من الخضر مختلفة ، ومن اللحم والكباب والكفتة وأصناف الحلوى والفطائر والفاكهة .

ولم ينتظر محسن . بل انحشر فى الحال وسط زميلاته غير حافل بأحد . وترددت شخلع قليلا فيما ينبغى لها أن تصنع .

لكنها مالبثت هى أيضاً أن انتهت إلى عزم والتفتت إلى أم العروس واعتذرت لها عن البوفيه ، ثم جلست على الأرض بجانب محسن تأكل مثله مع التخت .

وشمت سليم العمياء رائحة الديك المحمر ، فسألت زميلاتها أن يطمئنوها إذا كان ما شمت هو ديك حقيقة ؟ . .

وبدأت العوالم بالكسكسى .

وعندئذ تبين أن الخادمتين قد نسيتا الملاعق . ومدت سلم الضريرة يدها فى الهواء وهى تقول :

— فين المعلقة ياأخواتى ؟ . .

فأجاب الصغير محسن وهو يأكل بشهية ولذة :

— مفيش غير شوك . تاخدى شوكه ؟

فقالت العمياء فى تشكك :

— شوكه ؟ وانت بتاكل الكسكسى بايه ياادلعدى ؟

فقال محسن على الفور مبتسما :

بالشوكه ! كلنا بناكل كده . كلى انت كمان زينا

فقالت سلم فى حدة

— الكسكسى بالشوكه ؟ ياحلاوه ! . بلاش هزار والنبى يامحسن . هات المعلقة بلاش عطله ينوبك ثواب . اخص عليك دامش وقت هزار . ناولنى المعلقة بالعجل اعمل معروف ...

فتدخلت شخلع وقالت ببعض جفاء مصطنع :

— مفيش معالق . بيقول لك خدى شوكه وتسممى وانت ساكته،

فمدت سلم يدها فاستلمت شوكه فزمجرت :

— برده شوكه ؟ ! هى ياخواتى البتاعة دى تنفع فى الكسكسى ! وغرست الشوكه غرساً عمودياً فى طبق الكسكسى كما لو غرست فى قطعة من اللحم فلم يعلق بها طبعاً حبة واحدة ورفعتها إلى فمها

فلم تجد ذرة كسكسى وصلت إليه .

فقهقهت زميلاتها ضاحكات، وضحك الصغير محسن بالأخص ضحكا صبيانيا صافياً وقال :

— شوفوا مش عارفه تاكل الكسكسى بالشوكة ! . .

ثم أراد أن يعلمها كيف تضع الشوكة ، مستقيمة لا عمودية وتجرف بها وتغرف بدل أن تغرس وتغرز . ولكن زميلاته الآخرات أشرن إليه خفية أن يمتنع . وقالت « نجيه » بصوت عال وهى تغمزه بطرف عينها :

— سيبها ما هى بتاكل كويس . هى ناقصه . ؟ !

ثم همست فى أذنه :

ان فضلت على كده . والله ما هى واكله عشر حبات فى ليلتها . سيبها والنبي يامحسن . أما تشوف حانعمل إيه ؟ أهو تسالى أمانضحك عليها شويه .

فوافقها محسن بادىء الامر وهو يكتم ضحكه الصبيانى بيده . غير أنه عاد فتأمل قليلا ثم قال فى بساطة وسذاجة .

يعنى بقى مش رايحه تاكل؟ مش ريحه تاكل معانا سلم؟ حرام . .! لازم تاكل معانا . . . شوفى يا سلم . . .

ثم أخذ يعلمها أكل الكسكسى بالشوكه حتى استطاعت أن تأكل مثل الجميع .

كانت شخلع تلاحظ كل ذلك فى صمت وانتباه . فقالت فى تأثر كأنما تخاطب نفسها :

— ياما انت قلبك طيب يا محسن !

* * *

عند منتصف الليل كان الفرح قد بلغ غايته من السرور والضجيج . وكان التخت قد غنى بضعة أدوار وطقاطيق ، يفصل أحدها عن الآخر فترات استراحه طويلة .

وكانت السميعه من المدعوات المتحمسات ، يحطن بالتخت كما يحيط الهلال بالنجمة فوق العلم المصرى . وكن يسمعن كما لو أنهن جميعاً فرد واحد يسمع . لا لأنهن مطرقات فى صمت وسكون . على العكس . صراخ إعجابهن واستحسانهن وحماسهن ، كان يعلو على الغناء بل لأن على وجوههن يرى الرائى معنى واحد . معنى ذلك الفرح المعربد . معنى واحد من أثر الموسيقى فيهن . لم تكن بين المدعوات واحدة فقط انعزلت ناحية ، لتستخلص من الموسيقى معنى آخر ، أو عاطفه أخرى ، غير تلك التى كانت تملأ الباقيات . أصبحن كلهن شخصاً واحداً أمام الموسيقى . وكأن الموسيقى كذلك معبود يستطيع أن يرجع الخلق أجمعين إلى رجل واحد .

* * *

ماجاوزت الساعة منتصف الليل بقليل ، حتى جاء بعضهم يهمس

فى أذن الأوسطى شخلع بضع كلمات نقلتها هى الأخرى فى الحال إلى أفراد التخت بصوت خافت، وعندئذ اعتدلن فى جلستهن واتخذت وجوههن هيئة الجد والخطورة، ورفعن فى أيديهن الآلات فى نشاط وتحمس، كما يرفع الجنود أسلحتهم. وقد تلقوا الأمر بالهجوم. وفجأة ارتفعت فى أنحاء البيت الزغاريد حادة مستطيله، كأنها صفير دهبية فى النيل: وظهرت العروس وقد خرجت من تحت يد الماشطة فى ثوبها الأبيض الحريرى، وعلى رأسها الدواق يتبعها أهلها وأقاربها ونساء المنزل والماشطة على يسارها، ترش الملح فى كل جهة وتصيح:

— العاشق للنبي يصلى عليه!

وسارت العروس تتهادى حتى وصلت إلى مقعدها فى الكوشة وجلست وقعدت الماشطة على مقربة منها، وبسطت يدها بمنديلها تستقبل النقطة من المعازيم، بينما كان التخت يغنى فى جلبة تملأ المكان.

وما كادت العروس تستقر حتى ظهر من يعلن قدوم العريس. وبدا العريس بالباب يتقدم فى خجل بعد أن ابتسم لمشيعيه من الرجال الواقفين بباب الحريم يتطلعون هم كذلك لرؤية العروس، دون أن يشغلهم ذلك عن النظر إلى الجميلات من المدعوات والابتسام لهن. وشق العريس طريقه بين السيدات اللاتى يفترسنه بأعينهن، ويتهامسن عن رأيهن فيه.. حتى وصل إلى الكوشة فوقف مترددا، ثم تجلد ورفع بيمينه القناع الأبيض الحريرى المتصل بالدواق والذى يخفى

وجه العريس .

وهنا اشرأبت الأعناق ووقف الحاضرون على قدمٍ وساق ، ينظرون فى صمت رهيب، ويكادون يحبسون الأنفـــاس كأنما هم ينتظرون حكما لا يقبل النقض والإبرام . حتى التخت وهو يغنى ويضرب على الآلات فى حماسة وقوة لم يفت أفراده أن يسددوا عيونهم فى انتباه شديد إلى وجه العريس .

وأنتابت العريس بغتة ودهشة خفيفة عندما كشف القناع . لكنه عاد فابتسم وانحنى على يد العروس ورفعها إلى فمه ولثمها ، ثم صعد إلى الكوشة وجلس بجانبها .

عندذاك ارتفعت أصوات الفرح والتهليل من كل جانب، وعلت الزغاريد تصم الآذان . وغناء العوالم أشتد فزاد الجلبة والضجيج.

وفجأة سمع صوت الصاجات يرن فى المكان، وبدت شخلع نصف عارية فى ثوب الرقص الذهبي المضىء . وتقدمت حتى بلغت منتصف الصالة وهى ترقص بجسدها اللين الرشيق ووسطها يلعب كأنه قد من الملبن ... والصاجات تدوى بين أصابعها المطلية بالحناء .

وسكنت الصالة . وخفت ضجيج المدعوات وحملق الجميع بعيون مسحورة معجبة، يتبعون بأنظارهم حركات ذلك الجسم البديع، وغمزات تلك البطن الرقيقة ، والنهدين كأنهما الثمر الناضج . كل هذا يهتز فى دوى جميل متفق مع نغم الطبلة والرق .

غير أن تلك العيون المنبهرة، كانت عينا محسن أشدها انبهاراً وعجباً فى سذاجة غريبة : لا لأنه يراها ترقص لأول مرة، فقد رآها ترقص مراراً، لكنها فى تلك الليلة وهى مرمى كل تلك الأنظار التى تأكلها إعجاباً، أحس محسن أولا شيئاً من الزهو والفخر إذ يعرفها ويعيش بجانبها . . وأنه من التخت . . من تختها . ثم شعر بعدئذ باحساسات أخرى مبهمة .. وقبل أن تنتهى شخلع من رقصتها، أخذ أهل الفرح ثم الأقارب فالمدعوات يقتربن منها ويلصقن على جبينها كل بدورها عملة من النقود الذهبية جنيه أو بنتو، كما تلصق طوابع البوستة على وجه المظروف .

وما تكاد تنوء جبهتها بالذهب، حتى تمسحها بمنديلها كما تقول كى تلصق ثانية وثالثة ...

هذا عدا النقطة الأخرى بنقود من غير الذهب يمنحها من لا ذهب له . وعدا البدرة التى كان أهل العريس يرشونها رشاً فيتهافت عليها العوالم يجمعنها من الأرض ، وكذا الخدم والحاشية والاتباع ...

* * *

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل ... بعد شىء كثير من الغناء والرقص، أبدى العروسان رغبتهما فى مغادرة المكان إلى غرفة الدخلة . ونهضا ونزلا درجات الكوشة ببطء، وذراع أحدهما تحت إبط

الآخر يتبعهما الأهل والأقارب والحاشية. ونهضت الأوسطى شخلع ومعها العوالم جميعا، رافعات الآلات فى أيديهن يتبعن المدعوات. وسارت «الزفة» وسط التهليل والزغاريد، حتى بلغ العروسان باب حجرتهما، ودخلاها وأغلق عليهما الباب. فارتفعت فى المنزل آخر زغرودة. ثم انفك عقد الحضور وحل الهرج والمرج والفوضى وذهب الجميع فى غير ترتيب إلى أهل الفرح يباركون ويقولون: «عقبى للبكارى» وهكذا انتهى العرس. وقد انهال أصحابه والمدعوات على الأوسطى شخلع يرزحنها تحت ألفاظ المديح وعبارات الإعجاب والإطراء، لما نالته من فوز واستحسان فى تلك الليلة الباهرة.

وثملت شخلع بذلك الظفر. وأخذت تفرق المدعوات فى لطف وتشق طريقا بين الزحام وهى تدندن مسرورة، حتى وصلت إلى مكان التخت وأرادت أن تستعد للانصراف. غير أنها فجأة تذكرت محسن فدقت على صدرها فى قلق وخوف:

— ياندامتى.. ياحوستى!.. فين محسن يا اولاد؟!

والواقع أن الجميع نسوا المسكين محسن الصغير. وشغلوا عنه بزفة العروس والعريس. ولم ينتبه أحد أن الساعة قد جاوزت الثانية صباحا، وأن الطفل لا يستطيع الاستمرار على مقاومة النوم إلى ماشاء الله...

وبحثت شخلع بعيون قلقة والهة، حتى وجدته أخيراً ملقى على

الأرض ونصفه مختف تحت الكرسي وهو يغط فى نومه، فأخذته فى الحال بسرعة وقوة بين ذراعيها وغطت وجهه بقبلاتها ...

ففتح عينيه .

وما رآها وتبينها حتى ذهب عنه النوم فجأة ، وارتجفت أهدابه واحمرت وجنتاه ، واضطرب قلبه قليلا لا يدرى لماذا .. ، ثم تخلص بسرعة من أحضانها وجرى ...

* * *

ان مر السنوات لن يمحو أبدا من ذاكرته تلك اللحظة الحلوة السعيدة التى فتح فيها عينيه ليرى نفسه بين ذراعيها يتلقى قبلاتها . .

ولما شاءت الظروف بعدئذ أن تتزوج شخصا من الحاج أحمد المطيب . . أحس محسن كآبة وخيبة آمال وشبه سراب يزول ، وشيئاً كالقنوط يحل فى أعماق نفسه دون أن يدرك لذلك أسباباً ...

الفصل العاشر

مر الوقت دون أن يشعرا به . .

وما كان يغنيان . وما كانت هي تضرب على البيانو . بل كان الإثنان صامتين مطرقين . وكأنما شيء يشغل باليهما في تلك اللحظة وكانت على وجه سنيه ملامح الجد والاهتمام . وكانت تنتاب محسن عوامل مختلفة من التردد والخوف .

لم يكن السبب في كل هذا تلك القصة التي سردها محسن عن أيام طفولته . فإن تلك القصة وإن سرت سنيه حقيقة ، فهي لا يمكن أن تكون سبباً في شغل بالها هذا واهتمامها .

السبب أن محسن بعد أن فرغ من حديثه عن أيامه الأولى تشجع وأخبرها في غير مناسبة وباندفاع عن أمر منديلها الحريري ، قائلا لها إنه لم يضع ولم يحمله الهواء بعيداً . . وإنه موجود في حوزة إنسان يحمله دائما ويحافظ عليه ويعتز به ، وكتم عنها اسم ذلك الإنسان ، وعلى الرغم من إلحاحها الشديد ظل ساكناً لا يجيب وهو بين التردد والخوف ، ويئست هي منه فأخذت تفكر فيمن يمكن أن يحتفظ بمنديلها . وبين آن وآن تنظر إلى محسن نظرة رجاء وقد وقعت في حيرة . . وهو الذي أوقعها وتركها فريسة لحب الاستطلاع ، وأخيراً رفعت رأسها في قوة وقد أعياها الأمر

وصاحت به :

— مش عايز تقول لى منديلى مع مين ؟

ولطفت من حدتها قليلا ، وأردفت فى لهجة تأنيب ساحرة :

ليه مش عايز تقول لى . ؟ . اخص عليك . ؟ !

— فلم يجب محسن .

فاستطردت :

انت تعرفه طبعاً . ؟

فارتجف الفتى وقال على الفور فى لعثمة :

— مين هو ...

لكنها لم تلاحظ اضطرابه وقالت وهى تفكر :

— انت قلت لى دلوقت مش ضرورى يكون المنديل وقع على سطحكم .

فهدأ محسن وابتسم لأنه ضللها وقال فى تخابث :

— أيوه مش ضرورى ..

فقالت وكأنما تخاطب نفسها :

— طيب . . يكون بقا وقع على سطح مين ! ؟ .

وفى الحال برق فى رأسها خاطر .. فنهضت بسرعة واتجهت إلى الشرفة ونظرت منها . ثم همست لنفسها وقد تفرست فى قهوة الحاج شحاته أمامها :

— يجوز . مستحيل . . ليه ... لأ ...

ثم أدارت نظرها إلى المنزل المجـــاور . ولـكن إلى الدور الأسفل وهمست لنفسها :

— الدور اللى تحتهم له بلـكون !

وتبعها محسن بنظره ، دون أن يفهم معنى حركتها هذه وقيامها إلى الشرفه ، غير أنه أحس شعوراً كالانقباض . .

وفى تلك اللحظة ظهرت زنوبة بباب الحجرة .

وينبغى أن تـكون قد ذهبت حقيقة إلى الخياطة. أوأنهاذهبت إلى أى جهة أخرى بعيدة كى تقضى كل هذا الوقت الذى مرّ من ساعة خروجها، وينبغي كذلك أن تـكون قد أخفقت فى خطتهاالتى اعتزمتهـا ، لأن مصطفى بك مازال جالساً بقهوة الحاج شحاته . ولم يغادرها قيد أنملة .

لمحت زنوبةوهى بالعتبة سنيه تطل من نافذة الشرفه، فلم تتمالك أن صاحت بها منتهرة فى لهجة غريزية شاذة خشنة :

— بتعملى إيه عندك فى الشباك ؟ !

فالتفتت سنيه دهشة مبغوته ورأت زنوبه بعتبةالحجرة فقالت كالمأخوذة :

انت . يا أبلا . . . رجعت ؟

وتمالـكتزنوبه نفسهاوفطنت إلى تلكالخشونة التى بدرت منها

تمشت وقالت بصوت هادىء وهى تخلع إزارها وتضعه على مقعد :

— خلاص . . . درس البيانو ؟

فأجابت سنيه وهى تعود من الشرفة وتجلس على كرسى :

— كسلنا عن الدرس النهارده. الوقت راح كله فى الكلام، وانت يا أبلا . . . رحت فين ؟ .

فارتبكت زنوبة قليلا ، ولكنها أجابت فى الحال باختصار كمن يتحاشى الموضوع :

— الخياطه .

— طول الوقت ؟

— آه .

إلا أن زنوبة ذكرت فى الحال تلك النصف الساعة التى طرحتها من الحساب . نصف ساعة ملعونة قضتها فى شارع سلامه ذهابا وإيابا أمام القهوة، ومع ذلك فإن هذا الأحمق الأعمى لم يبد عليه أنه لاحظها صمت الكل لحظة. وأخيراً التفتت سنيه إلى محسن وقالت فى رقة

— واقف بعيد ليه كده يا محسن بك ؟

وكان محسن متكئا على طرف البيانو . لم يتحرك منذ ذلك الحوار بينه وبين سنيه. وكان لا يفتر يفكر ويسأل نفسه، عما تراها فهمته من كل حكاية المنديل هذه ؟ وعما جناه هو أو استفاده من إخبارها به ، ما هو الأثر أو النتيجة لكل ذلك عندها ؟ ثم حركتها الأخيرة وقيامها

للشرفة . . . ما معناه ؟ إن هناك أشياء مغلقة عليه . وقد بدا يحس الخوف من غموضها هذا . .

ودخلت عندئذ الخادمة السوداء تخبر بقدوم مبروك . وما كادت تلفظ اسمه ، حتى كان حاضرا أمامهم فى الصالون بقفطانه الرسمى .

فحدجته زنوبة بنظرة استهزاء وقالت :

— وانت بسلامتك جاى تعمل إيه هنا ؟

فانخذل مبروك قليلا بعد أن كان داخلا منفوشاً .

وتنحنح ثم أجاب فى لهجة خطيرة :

— جاى علشان أقول لكم . .

فقالت له زنوبه فى تهكم لاذع :

— تقول لنا إيه ياادلعدى ؛ !

فسكت مبروك قليلا وقد أحس الخجل ونظر إلى سنية فى مسكنة . . ثم نظر إلى الأرض ثم أخذ ينظر حوله فى حيرة كالبله

وجعلت زنوبه تتأمل حركاته لحظة ثم قالت فجأة :

— يا باى . ! . ياختى ما له عامل زى الأهبل فى الزفة ! ما تنطق . .

فاعتدل مبروك فى الحال والتفت إليها و تنحنح ثم قال :

جاى علشان أقول لكم . .

فلم تتمالك زنوبه صبراً وصاحت :

— ياختى ... سمعنا دى ألف مرة ...

فتجلد مبروك وقال لها محتجاً :

— مش تصبرى على لما أقول ...

فقالت زنوبه فى تهكمها :

— طب قول يا ادلعدى الخبر المهم . قول ...

فسكت مبروك لحظة . ونظر إلى سنيه ثم إلى زنوبه . ثم تنحنح قال بلهجة من يعلن أمراً ذا خطورة :

— العشا .

فرنت عندئذ ضحكة سخرية من زنوبه، تصبب لها جسد الخادم عرقاً بارداً . وقالت فى برود :

— هو ده الخبر ؟ ! يادهوتى على كده ؟ بقا حضرتك جاى لابس قفطان الطلعة ومتهيأ أربعة وعشرين قيراط، علشان تقول لنا الكلمة اللى لا طلعت ولا نزلت .

وأرادت سنية الضحك . غير أنها رأت مبروك قد ارتبك وصار فى موقف الحرج، فلم تشأ أن تزيد إحراجه ... أو أن تخجله أكثر من ذلك .. بل انها أرادت عندئذ أن تسرى عنه وتخلصه مما هو فيه وقالت مجاملة . . .

— والله مبروك فى قفطانه كأنه عمدة تمام . .

فتقدم مبروك الخادم خطوة نحو سنيه وتنحنح فى كمه الواسع

ثم قال فى جـــد :

ــ تصدقى بالله ياست سنيه هانم . . . أنا كنت فى زمانى عمدة.

فلم يتمالك محسن من الضحك برغم ماهو فيه .

ورفعت زنوبه رأسها وألقت على مبروك نظرة سخريه وقالت :

ــ فى زمانك امتى يانور عينى ؟ !

فغمزها مبروك بطرف عينه متوسلا إليها أن تسكت .

ولكنها لم تسكت . لعله انتقام منه . واستطردت :

ــ انت فى زمانك كنت فلاح فى الدوار ، تنام وتقوم مع الجحش والعجلة والجاموسه . واحنا اللى جبناك البندر وهيأناك ومدناك . وعلمناك سكن البيوت . وبقيت بنى آدم . . .

فوقع مبروك فى افلاس . وبدت عليه هيئة أضحكت منه الجميع . غير أن سنيه بعد أن ضحكت ، عاودتها فى الحال الرأفة به فقالت فى حلاوة ساحرة :

ــ لأ ياأبلا . .ماتقوليش كده . والله مبروك يشبه تمام العمدة بلد بابا . بس عمدة بلدنا يلبس على عينيه نضارة . . .

فأحس مبروك بعودة اعتباره إليه بعد هذه الكلمات .

فالتفت إلى سنيه وقال :

ــ طب وسيدنا الحسين أنا عندى بلا قافية نضارة . . .

فضحك الجميع .

وقالت زنوبة فى الحال فى لهجة لاذعة :

— نضارة ! اسم الله .. تعمل بها إيه ؟! إن كنت تعرف تقرأ وتكتب كنا قلنا تقرأ بها الجرانيل . . دا انت حتى عليك عينين تندب فيها رصاصة . .

فلم يجبها مبروك . بل نظر إلى سنية وقال :

— ياست سنية هانم .. صدقينى أنا . وحياة دقن النبى أنا كنت عمدة بنضارة . .

حتى سنية فى هذه المرة لم تستطع كتم ضحكها فانفجرت . . .

واقترب محسن من مبروك وقال له :

— يامغفل عمدة من غير نضارة أحسن .. مادام عينيه سليمه من الأصل .

ولكن كان عبثا إدخال ذلك فى رأس مبروك .

بل ان مبروك لم يشأ قطعياً أن يصغى إلى هذا الكلام .

والتفت إلى سنيه وأشار لها بيده إشارة معناها :

— « ماتصدقيش إلا كلامى أنا . . . »

الفصل الحادي عشر

كان اليوم التالى يوم جمعة . نهار راحة وسعة . وحنفى أفندى ورفاقه أفراد « الشعب » بالمنزل طول ذلك اليوم فى انتظار أكلة مهمة ، كما هى العادة فى هذا اليوم المفترج . لذلك ما كاد الرئيس حنفى يسمع صوت المؤذن يدعو لصلاة الجمعة « حى على الفلاح » فوق مئذنة مسجد السيدة زينب، حتى وضع كفه على معدته وصاح مظهراً الجوع . ولم يمض قليل حتى حذا سليم اليوزباشى حذوه ... ثم محسن . . .

بقى عبده وحده لايريد فى عناد الاعتراف بالجوع . . بل إنه جعل يقاوم رفاقه ويهديهم باللين ، ويحضهم على التمسك بأهداب الصبر . خاطباً فيهم كأنه خطيب الجمعة، أن يتحلوا بالقناعة إذا أرادوا أن يبقوا أحياء يرزقون حتى آخر الشهر .

وسكت « الشعب » قليلا ، وظل حنفى أفندى يسير فى المسكن داخلا فى حجرة خارجاً من أخرى، يسلى جوعه وأخيراً قال فجأة :

— فين مبروك ياجماعة ؟

فأجاب عبده فى ثقة واطمئنان :

— فى المطبخ :

ثم أردف قائلا للرفاق :

— ربما رايحين ناكل النهارده عدس بجبته . .

فقال حنفى وهو يدلك بطنه ويتأوه :

— بجبته وقفطانه . . ؟

فأجاب عبده على الفور فى شىء من الحدة :

— أيوه ياسيدى بقفطانه وجبته وعمته . أمال عايز إيه حضرتك؟ أظن ناوى تعشم نفسك فى ديك رومى محمر فى أيام زى دى . . ؟

فأسرع اليوزباشى سليم وقال وهو يضع يده كذلك على معدته .

— هس ! . . . ممنوع كلمة ديك رومى دلوقت . خطر . . ! اسحبها . . ! تف من فمك الديك الرومى . . .

وسكتوا قليلاً مرة أخرى . ثم عاد حنفى فضحك ساخراً وقال :

— والله مش باين لنا أكل النهارده .

وأردف سليم قائلا :

— صحيح . أنا مش سامع صوت طبق ولا حله ولا هون ولا يد طالعه . .

فقال عبده فى غضب .

— قلت لكم عدس .

فأجاب الرئيس حنفى :

— والله المطبخ لا فيه عدس ولا ديك ولا مبروك .

فقال عبده فى قلق .

ـ إزاى ؟ مبروك مش فى المطبخ ؟

وفى الحال نهض الجميع فى غير نظام ولا ترتيب وكبسوا المطبخ. ودهش الجميع إذ لم يجدوا أحدا قط . . وبحثوا بعدئذ فى كل الحجرات وفى حجرة النوم الكبيرة ، وتحت أسرتها الخمسة المصفوفة وتحت المائدة والكراسى . فلم يعثروا على رائحة لمبروك . ولم يروا بالبيت غيرهم وغير زنوبه ، التى فى حجرتها لا تتدخل منذ اعتزلت مقاليد البيت والمطبخ .

وتساءل سليم :

ـ يعنى راح فين ؟ داوقت غدا وساعة جمعة ؟

فحك عبده رأسه بيده وقال وهو يفكر :

ـ يمكن راح يصلى الجمعة .

فقال سليم فى غيظ :

ـ ماشاء الله ! ! يصلى الجمعة واحنا ناكل بعضنا هنا . . ! المغفل ده يصلى قبل مايطبخ ؟ ونبقى نتغدى بصلاته ؟

فقال حنفى فى تهكم :

ـ يمكن راح يدعى لنا المولى سبحانه وتعالى يحدف علينا صحنين طبيخ .

ولكن عبده صاح فجأة كمن وجد شيئاً :

ـ همس . ! اسمعوا . . . فهمت خلاص . أنا عارف مبروك راح فين

بقا هو ربما وجد الطبيخ يكلف مصاريف . طبعاً الطبيخ يكلف مصاريف دا شيء بديهي . مثلا يشترى كبريت بايه . و . . .

فقال حنفى متهكما :

— بقى هى يعنى علبة الكبريت أم مليم إللى عطلت الدنيا .؟!

فأسكته عبده بإشارة عنيفة واستطرد :

— قصدى الطبيخ غالى والسلام . دا شيء بديهى ولذلك مبروك شخص ذكي يفهم . لاحظ كده ونوى النهارده مثلا يغدينا أكلة فسيخ ... إيه رأيكم فى الفسيخ ؟ . . . مش فكره مدهشه ؟ ! .

فقال حنفى مستفهما :

— دا استنتاجك انت بصفتك باشمهندس . . وإلا . . .

وأردف سليم متمما :

— والا أكيد راح يشترى . . .

ولم يختم عبارته لأن باب الفسحه فتح فى تلك اللحظة ،وظهر مبروك فالتفت اليه الجميع بسرعة واستقبلوه قافزين ، كمن يستقبل رسولا من السماء . . .

غير أنهم لم يلبثوا أن لفظوا جميعاً صيحة واحدة : مبروك خالى الوفاض بادى الانقاض . لايحمل لاعدس ولا فسيخ . شيء واحد فقط يحمله مبروك : « نظاره » جديدة « لنج » يضعها على عينيه .

وقف مبروك لحظة فى مكانه ينظر الى « الشعب » المأخوذ من خلال

منظاره الجديد . ثم فجأة تقدم إلى عبده وبسط يده إليه بمبلغ ٤٥ قرشاً صاغاً وقال :

ــ أنا فكيت الجنيه اللى سلمته لى إمبارح . وآدى الباقى . . خدوا فلوسكم بقا . . أنا رفعت إيدى من الشغلة دى. المسألة مش نافعة يظهر من هنا لآخر الشهر ... لكم رب اسمه الكريم .

بهت عبده وفتح فاه ولم يجب بحرف . وجعل ينظر طويلا إليه . ثم التفت إلى رفاقه ثم عاد فالتفت إلى مبروك ، وقال أخيراً وهو ينظر إلى المبلغ الباقى من الجنيه :

ــ إيه الكلام إللى بتقوله ده ؟ !

محسن وحده هو الذى فهم الموقف وتذوقه . فنظر إلى «نظارة» مبروك الجديدة وابتسم ثم همس له :

ــ دلوقت «عمده بنضاره» . . .

وظل عبده فى دهشة وهو يسدد عينيه تارة إلى النقود القليلة، وتارة أخرى إلى مبروك حتى نبهه سليم بغمزة من ذراعه . وضرب بيده على كتفه قائلا فى تهكم :

ــ ما ألعن من ستى إلا سيدى ! آدى حكومتك وميزانيتنا . .

فهز مبروك كتفيه لهما . . وقال فى استخفاف .

ــ أنا لا كان أبويا حكومه . . ولا أمى حكومه . . ولا قلت لكم اعملونى حكومه. آدى فلوسكم . . واعتقونى وابروا دمتى، كرامه لأم هاشم.

الفصل الثانى عشر

لبث عبده يرمق مبروك بين الحنق والغضب لحظة أخرى بعد أن خاب أمله فيه . وأخيراً صاح :

ـــ الغلطة غلطتى ! انغشيت . كنت فاكر إنه بنى آدم ! . . لكن صحيح طول عمر الخدام خدام !

ولم يكن مبروك الخادم يصغى إلى كلمة واحدة مما يقول عبده . فقد انتحى ، ناحية وأخذ يشتغل بتنظيف منظاره الجديد بورقه سيجارة شفافة كما يفعل حنفى افندى .

واستطرد عبده يقول دون أن ينظر إلى مبروك :

ـــ على رأى المثل العامى : أصابع الإنسان مش زى بعضها . كان يجب أفهم كده من الأول ! لو كانت الطبايع والعقول من نوع واحد ما كانتش الدنيا بقت دنيا .

وأراد أن يستمر فى هذا الكلام . لكن سليم ضرب كتفه ضرباً خفيفاً موجهاً نظره إلى مبروك المنهمك فى شأنه المشغول بمنظاره وقال له :

ـــ وفر على دماغك دى الفلسفة ! صاحبنا فى دنيا غير الدنيا واللى كان كان . .

فالتفت عبده إلى ناحية مبروك ورآه ، فهاج ثائره ونهض

مستشيطاً وصاح :

— وكان قاعد تلمع النضاره ! امشى انجر من قدامى . .
ألا يكون يومك زى القطران النهارده . .

فنهض مبروك واتجه نحو الباب وهو يقول فى هدوء :

— حقا بلا قافية صدقت ! النهارده الجمعة فيها ساعة نحس . !

فصاح به عبده :

— بقول لك امشى اخرج ! مش عايز أشوف خلقتك . .

فوضع مبروك منظاره على عينيه ونظر بهما إلى عبده وقال :

— طيب ومن غير مؤاخذه تزعل ليه وتغير دمك ! الزعل ممنوع والشكل مرفوع ! . .

ثم خرج تشيعه نظرات عبده النارية . .

وكانت لحظة صمت قطعها أخير سليم قائلا :

— والعمل دلوقت ؟

غير أن عبده لم يجبه كأنما لم يسمع . أو كأنما لا يدرى ماذا يجيب . أو لعله مشتغل عنه بالتفكير فى الخروج من تلك الورطه .

رأى عبده فى لحظة أن التجربة لم تنجح وأن زنوبه لا محالة هازئة بهم، متشفية فيهم، شاعرة بفوزها عليهم، ومع ذلك فهاهو ذا عبده يرى أن لا بد من الرجوع إليها . ونارها ولا جنة مبروك اللعين . غير أن ما كان يشغل بال عبده. هو كيف يعود إلى زنوبة

صاغراً . . وكيف ينزل عن كبريائه فيخبرها بخيبة أمله وبالركون إليها، كى تسوى الأمور كما ترى حتى آخر الشهر ؟ ؟

وكأن الله شاء الا يكسر كبرياء عبده . والله يهيء أحيانا الكل ظروفا تماشى خلقه . فقد ظهرت زنوبه فجأة بالباب وتقدمت فى تردد وعلى وجهها علائم الجد . . كأنما تريد الاخبار بأمر هام .

فرفع عبده رأسه إليها ولم يتكلم بحرف . غير أنه لم يعبس فى وجهها . قالت زنوبة فى الحال وبلهجة سريعة :

— سلك الكهربا انقطع عند الجيران .

فنظر إليها عبده دهشاً مستفسراً كمن يسأل عن شأنه فى ذلك. فأخبرته زنوبة على الفور.. أن الجيران (أى بيت الدكتور حلمى) كانوا يريدون طلب أحد عمال الكهرباء لإصلاح السلك الآن ، خوف دخول الليل عليهم ، لكن اليوم الجمعة ويخشون ألا يجدوا الآن أحدا من عمال الشركة يمكنه الحضور، فاقترحت زنوبة عليهم أن يذهب عبده بصفته تقريبا مهندساً، فيصلح العطب بمنتهى السرعة، ولا الحاجة إلى عامل من الشركة وإحداث ضجة من أجل شىء بسيط .

فما كاد عبده يسمع ذلك حتى نهض واقفاً على قدميه كمن مس بسلك ، وقد علم أنه سيذهب إلى بيت الجيران . ونظر الى زنوبة بعين الاهتمام ، وقد بدا عليه أنه اغتفر لها كل ذنب وسيئة فى لحظة ..

— أروح دلوقت حالا . ؟ ؟

— دلوقت والا العصر زى بعضه .

ومشى عبده يتلفت إلى كل جهة كمن يبحث عن شيء وهو يقول :

— فين الشاكوش . . فين السكاشه . . فين المسامير . . فين . .

ولم يسر سليم كثيرا بهذا الخبر الجديد الذى جاءت به زنوبه . وأخذ يراقب اهتمام عبده وما طرأ عليه من انقلاب . . وهو يفتل شاربه متظاهرا بالهدوء . . وفى عينيه شيء من السخرية والحسد . فلما رأى عبده تعجل البحث عن الأدوات حتى قال فى لهجة تهكم لاذعة :

— على مهلك . على مهلك . . العجلة من الشيطان . . !

فنظر إليه عبده شزرا وقال .

— نقطنا بسكوتك من فضلك .

فأجاب سليم ممتعضاً وهو يفتل شاربه

— تروح للناس فى ساعة غدا . . ؟ ؟ !

فلم يجبه . وعندئذ قال حنفى أفندى وهو يفرك عينيه بيد، ويتأهب باليد الأخرى لوضع منظاره على أنفه :

— بمناسبة الغدا . . . عملتم إيه فى مسألة غدانا احنا . ؟ .

فلم يلتفت إليه عبده . والتفت إلى زنوبه وقال :

— والسلك ده انقطع ازاى ؟

فأجابت :

— كانت البنت فاطمه الجاريه بتنفض الفسحة النهارده ... قامت المقشة ضربت السلك على الحيط . وقع كله ووقعت مساميره .

ولبث عبده يفكر لحظة وقد بدا له أن الأفضل الذهاب بعد الظهر ، كى يستعد أيضاً لا من حيث ما يلزم لإصلاح الكهرباء، بل من حيث مايلزم لإصلاح هندامه هو وقيافته .

ولم يكن طبعاً من الصعب على عبده عندئذ أن يشير لزنوبه الى مبلغ الخمسة والأربعين قرشاً الموضوعة على المائدة ، ويطلب إليها فى غير ذلة ولا رجاء أن تتدبر حتى آخر الشهر . وكلمها فى ذلك بغاية الاختصار وبلهجة مبتورة قاطعة ،حتى لا يدع لها مجالا لتفتيق ماحصل ، فتشعر زنوبه برجوعهم إليها صاغرين . ولما رأت زنوبه المبلغ وأرادت أن تلفظ صيحة الدهشة والاستنكار قائلة :

— يادهوتى ! داباقى الجنيه ؟ ! .

أجابها عبده فى الحال بشىء من الحدة :

— مفيش لزوم للكلام الكتير . تصرفى انت . . ووفرى علينا وجع الدماغ ...

فتناولت النقود من فوق المائدة فى صمت . وذهبت بها إلى حجرتها وقد رأت بفكرها ألا داعى للتفنيد والتفتيق، واكتفت بما شعرت به ضمنا من خيبتهم والعودة إليها .

* * *

ماقاربت الساعة الثالثة بعدالظهر ،حتى شاهد الجميع عبده فى حركة غير عادية ، فقدكان يخرج من حجرة يدخل أخرى ،وحول عنقه الفوطة وفى ذقنه الصابون وفى يده الموسى ،وهو يبحث عن مبروك أوأحد لينظف له سترته ويزيل بقعها بالبنزين . وسمع مبروك ذلك فصاح

— احنا لاقيين نا كل لما نلاقى بنزين ؟ !

غير أن عبده أنتهره وأمره عابساً صارخاً ،أن يساعده على ارتداء ملابسه لأن الوقت حان ...

وكان الجميع ينظرون إليه وأغلبهم غير مستظرف ولا مرتاح لاهتمامه وتأنقه . وجلس سليم صامتاً وكأنه يحس شيئاً يقبض صدره وجعل يفتل شاربيه ويختلس النظر إلى عبده وهو أمام المرآة ، يلطخ وجهه عقب الحلاقة ببودرة زنوبه، التى أحضرتها له من حجرتها بناء على طلبه .

ولم يطق سليم صبرا .. فنظر إلى حنفى الذى على الرغم من ظاهره البسيط ، كان يتبع هو الآخر حركات عبده من خلال منظاره السميك وغمز سليم الرئيس حنفى وأشار له عبده وقال فى سخرية صفراء :

— تقولش رايح رندفو ؟ !

فتظاهر حنفى بعدم السماع ، وظل ينظر إلى عبده حتى فرغ من ارتداء ملابسه ووضع الطربوش على رأسه بعناية وتمهل جاعلا الزر فوق الأذن اليمنى . ثم صاح بمبروك أن يلف له الشاكوش

والـكماشه ... فى جريدة قديمة بغاية السرعة .. ثم خطى بضع خطوات نحو الباب ..

فقال له الرئيس شرف عندئذ فى هزل يشبه الجد ولـكن فى لطف

— مش لازم لك صبى ؟

فأجاب عبده فى اختصار قاطع :

— لأ .

فألح حنفى :

— يشيل لك العدة .. يامعلمى !

— لأ .

وقال عبده هذه اللأ الثانية بلهجة باتة جافة تدل على الضيق . فالتفت حنفى إلى سليم وقال :

— لأ لأ . الله الغنى ...

* * *

ذهب عبده إلى منزل الدكتور حلمى فوجد زنوبه بانتظاره على باب الصالة ، كى تصحبه إلى حيث السلك المقطوع . وما كاد يضع قدمه فيها حتى جعل يختلس النظر يمينا وشمالا غير ملتفت إلى زنوبه، وهى تشير له إلى مكان الإصلاح المطلوب . وكانت الأبواب المطلة على الردهة كلها مقفلة ، ماعدا بابا واحداً مقفلا نصف اقفال .. وهو

الباب المؤدى إلى صالون البيانو. ولكن عبده لم يستطع رؤية طيف ولا خيال خلفه . وأخيراً قال بصوت ملأ الصالة كلها :

— فين السلم ؟ مفيش هنا سلم خشب ؟

وكان صوته ذا رنة إمرة وخيلاء . فأسرعت زنوبه نحو الباب نصف المقفل ونادت :

— فاطمه ! يا فاطمة . ! .

ولم تنتظر مجىء الجاريه بل دخلت مسرعة من الباب المؤدى إلى الصالون . . تاركة عبده وحده فى الردهة، يتأمل رؤوس الغزلان المعلقة بالحائط، والتمساح المحنط على باب الدخول . وعندئذ ارتجف قلب عبده فجأة لأنه سمع فى الحال صوت بيانو يرتفع بأنغام بديعة. وظل ينصت مبتهجاً مبتسما فى شىء من النشوى، حتى ظهرت بغتة فاطمه الجارية تحمل السلم الخشبي، فالتفت إليها وتناوله وأسنده إلى الحائط وأخذ يصعد الدرج وهو يصغى تارة وتارة يسائل نفسه، لماذا ضربت على البيانو الآن . ! . أتراها فعلت ذلك لما علمت بوجوده فى المنزل؟ أم أنها المصادفة ؟ أم هى عادتها أن تضرب فى مثل هذا الوقت من كل يوم ؟؟: غير أنه أخذ فى نفسه يستبعد كلا من الفرضين الأخيرين بحجج مختلفة ، ويعزز الفرض الأول وهو أنها لما علمت بوجوده وبمجيئه . . نعم كل الدلائل تدل على ذلك . . .

وظهرت زنوبه تسأل عبده عما إذا كان يطلب شيئاً آخر .. وترى إذا كان العمل سائرا على مايرام ... وفى هذه اللحظة سكت صوت البيانو . ولم يلبث عبده المتيقظ أن سمع حفيف ثوب خلف الباب نصف المقفل وصوتا ناعما يهمس :

— أبلا . ! . يا أبلا . . .

والتفتت زنوبه إلى الصوت واتجهت إليه . غير أنها قبيل أن تصل إلى الباب قال الصوت بلهجة واضحة مسموعة هذه المرة :

— نقدم لعبده بك قهوة والا شربات ؛

فوقفت زنوبه والتفتت إلى عبد، وقالت :

— سنيه هانم بتقول لك تشرب قهوة والا شربات .. ؟

وكان عبده قد سمع منذ أول مرة . وما كانت هناك حاجة أن تكرر العبارة، ولعلها فعلت ذلك لتتملق عبده. غير أن سنيه ما كادت تسمع زنوبة تلفظ اسمها لعبده ، حتى ضحكت أو تضاحكت خلف الباب وتمتمت فى حياء متكلف :

— كده ياأبلا ! ... اخص عليك ! . .

وقبل أن يجيب عبده قفزت سنيه مختفيه ، وقد بدا عن بعد لون فستانها الأخضر الفستقى الخاطف . وقد ملأ عينى عبده فلم يعد يرى إلا اخضراراً يمر فى فكرة السارح . . .

ولم يصح عبده من بغتته وحلمه إلا على صوت محسن، وقد خرج

من الباب المؤدى إلى الصالون ، وهو يسأل زنوبه فى فتور عما إذا كانت حكاية السلك هذه انتهت أم لم تنته بعد .

فنظر إليه عبده فى دهشة وتجهم وقال ببرود وجفاء :

ــ الله . انت هنا بتعمل إيه ؟ ؟

فأجاب محسن باقتضاب وفتور :

ــ الدرس . .

ــ درس إيه ؟ ! .

درس البيانو .

ومرت فى قلب عبده بسرعة البرق ، سحابة شابت هذه اللحظة اللذيذة التى سلفت منذ قليل، وتلك الموسيقى والصوت الهامس باسمه يدعو لشرب القهوة أو الشربات . . وأراد أن يجيب محسن وقد عبس وجهه ، غير أن حفيف الثوب عاد وبدا اللون الأخضر يخطف البصر خلف الباب . . وصوت ينادى فى رقة وعذوبة ودلال:

ــ محسن . . . رحت فين وسبت الدرس ؟ . . .

فهم محسن بالذهاب إليها يقول :

ــ حاضر ياأبلا سنيه . . . جاى حالا . . .

غير أنه التفت إلى عبده وقال له بصوت مسموع فيه شيء من البرود أو التشفى أو السخرية :

ــ صلح السلك كويس . . بس أوعى تتكهرب . . . !

فنظر إليه عبده نظرة نارية من أعلا السلم . ولكن محسن كان قد اختفى بسرعة عن عينيه ، ولم يلبث عبده المملوء غيظاً أن سمع البيانو يعود فيضرب نغمة جميلة ، تدل على أن ضاربها حاذق بارع، فظل يصغي ولا يزال به بعض غضب، حتى سمع فجأة هذه النغمة الجميلة تتلاشى، ويحل محلها صوت ضرب آخر يدل على ضارب مبتدى يتخبط.. ولم تمض لحظة حتى أحس حفيف الثوب ولمح لونه الأخضر الخاطف. يمر بين عارضتي الباب نصف المقفل ، فجمد بصر عبده المصوب إلى الباب، وفجأة لم يدر عندئذ إن كانت يده قد مست سلكا من الأسلاك الكهربائية التي يصلحها . . فقد أحس قلبه ينبض نبضة واحدة قوية بسرعة البرق . ذلك أ عينيه قابلتا عينين أخرتين سوداوين لم ير أجمل منهما . . لهما فعل السحر . ثم هف حفيف الثوب مرة أخرى ، ومر اللون الاخضر أمام عينيه الساهمتين واختفى . .

وعاد عبده وقد هدأ إلى نفسه يسائلها فى شيء من الابتهاج ونشوة الظفر . . لماذا هى تكثر من المرور أمامه ؟ وهل هى تفعل ذلك عمداً ؟ . .

وامتلأت عيناه ووجهه حياة وقلبه أفعم نشاطاً لم يعهد نظيره من قبل، فأمسك السلم الخشبي بيديه ووضعه على جزء آخر من الحائط، وأخذ يصعد درجاته فى قوة وحماسة كأنه قلب يصعد درج الحب . .

الفصل الثالث عشر

عاد عبده إلى المنزل قبيل المغرب بعد أن تبطأ فى مهمته عند الجيران ماالمستطاع . ومن رآه عند عودته من أهل منزله ورفاقه أخذته الدهشة . فقد كان عبده ممتلئاً وداعة وخفة روح وانشراح، لم يعهده فيه أصحابه «الشعب» من قبل . وجعل يخرج من غرفة ويدخل أخرى وهو يداعب حنفى أفندى بكلمات لطيفة ، ويريد أن يبعد عنه لحظة تلك الكراريس التى كان مشتغلا بتصحيحها كى ينصرف إليه ويحادثه . غير أنه لم يجد منه إقبالا كثيراً .

فاتجه إلى مبروك الخادم يمازحه ، مذكراً إياه بمنظاره الجديد الذى اشتراه بمصروف البيت . . حتى سليم ذى الابتسامة الصفراء المتظاهر بالانهماك فى قراءة إحدى الصحف مانسى عبده أن يخطف الصحيفة بغتة وكأنه يود أن يفاتحه بالكلام . غير أن سليم نظر إليه نظرة باردة وأخذ الصحيفة من الأرض وعاد إلى القراءة وهو يقول كمن يخاطب نفسه :

— جرى إيه ؟ إيه أصل الهوسه دى !!

وسمعه عبده فقال ممازحاً ولكن فى شىء من الامتعاض :

— نعم ياسى سليم . . !؟

— ولا حاجه. بس يعنى شايف إنك مظأطط قوى من غير مناسبه !

— بوجودك لأن النهارده ما نزلنش زى عادتك . .

فلم يجب سليم . وأخذ يطالع وهو يحرك شفتيه شأن المهتم بما يقرأ دون أى شىء آخر. فتركه عبده ممتعضاً والتفت إلى حنفى فألفاه قد عاد إلى كراريسه يصححها ، وكأن حمى العمل قد أنسته ما حوله . فشعر ببرود حوله تضايق له، ولم يجد أمامه سوى مبروك فكلمه كلمتين ثم سئم . وتردد لا يدرى ما يفعل . إنه يحس نشاطاً غير عادى فى كل جسمه ، يدعوه إلى الكلام وإلى الحركة وإلى الحماسه . ولكنه اذ يبتغى ذلك اليوم لا يجد حوله إلا سكوناً. وإن كان عبده بطبعه يكره السكون قيراطاً فهو اليوم يكرهه أربعة وعشرين، ولا يتصور أن يهدأ إلى نفسه ويترك لها عنان الخيال ويبحث عن الوحدة كما بحث عنها محسن فى ظرف كهذا، لذلك مشى عبده فى البيت لا يدرى ما يفعل ، وهو يود لو يجد من يصغى له ويثرثر معه . . .

واتجه أخيرا إلى غرفة النوم العمومية فوجدها خالية، فأدار ظهره بسرعة يريد الخروج منها، وقد ضاق صدره سأما وأحاط بقلبه الحار المتحمس الهائج غلاف من برد هذا السكون والوحدة .. وقد تمثلت فى مخيلته صورة تلك الأسرة المرصوصة أحدها بجانب الآخر فى غرفة النوم . فنظر إليها وقد أحس إحساسا غريبا لأول مرة ... أحس إحساس محسن تماما عند ما عاد هو الآخر من منزل

الجيران للمرة الأولى، أحس الاشمئزاز إذ يعيشون خمسة فى غرفة واحدة . غير أن محسن لاحظ ذلك لأنه يطلب الانفراد والوحدة كى يطلق لخياله العنان . ولكن عبده على العكس اشمأز لأنه شعر فجأة أن هذا الاتصال الوثيق بين خمسة يعيشون فى حجرة إنما هو اتصال كاذب . . وهاهوذا فى وقت ما، يحس الوحدة والسأم ولا يجد من يتحدث إليه ويفهم لغته . . .

واشتد ضيق عبده . وإن شخصاً عصبياً مثله لا يطيق طويلا الصبر على حالة واحدة . . .

وهكذا غادره سريعا ذلك المظهر الوديع الدمث المنشرح الذى جاء به الساعة . وعادت إلى وجهه تلك الملامح المقطبة العبوسة المعهودة وما كان ينقصه إلا حجة بسيطة فينفجر عبده العصبى هائجاً صاخباً كعادته .

* * *

مضت بضعة أيام على ما تقدم ، قضاها عبده قلقا لا يدرى ماذا يفعل بعد ذلك كى يتصل بالجيران . ويخشى أن يكون ما وصل إليه حتى الآن هو كل شىء . ولم يكن لعبده برغم رجولته ونشاطه ، ذلك النوع من الجرأة والصفاقة، التى بها يأتى عملا إيجابيا ظاهراً بغير أن يهتم لكلام الناس .

لذلك لم يستطع أن يفعل أكثر من سؤال زنوبه وتكرار السؤال

فى كل يوم عما إذا كانت الاسلاك الكهربائية تسير سيراً حسناً فى بيت الجيران، أو أن بها بعض خلل يستدعى الاصلاح. فكانت زنوبه تجيب بأنها على مايرام . فكان عبده يلح فى شىء من الجفاء العصبى قائلا لها :

— وانت إيش عرفك ؟ مش تسأليهم . ؟

ولاحظ رفاقه منه ذلك الإلحاح، فكان محسن يقول فى لهجة باردة جافية :

— الكهربا ماشية كويس قوى .

ولكن سليم المغتاظ لم يكن يترك الفرصة تمر دون أن يتهكم بكلمة وكلمتين قائلا :

— يا سيدى الكهربا ماشية عالعال ! لازم تنخرب بالزور ؟ ياسيدى شوف لك شغله غير دى . .

وتضايق عبده أخيراً فصرخ فى وجهه :

— وانت مالك يابارد !

فقال سليم فى لهجة مستنكرة ولكن هادئة :

أنا بارد ؟

— ستين بارد . . !

— شاهدين ياجماعة ؟

— ما لك تنحشر فى شئونى ؟

— الله يسامحك ! أنا غلطان .

وسكت وأخذ محسن ينظر إليهما . ولم تكن زنوبة موجودة فقد صعدت السطح تنشر الغسيل بمساعدة مبروك . ولم يكن حاضراً سوى حنفى . غير أن الرئيس الشرف كان فى سريره . ولم يشأ أن يتدخل بكلمة لاصلاح ذات البين . اللهم إلا أنه قال ضاحكا من تحت اللحاف :

— ما هو ده كلام طيب . تزعل ليه ياسى عبده ؟ حيث أن الكهربا راحت عليها ، ابحث لك عن شغل تانى . مش تعرف تصلح مثلا وابور الجاز واللمض ... والشماسى ...

فالتفت إليه عبده وقال فى ازدراء .

— نعم ؟ وانت كمان حضرتك ... ياابو لحاف ! نام .. نام .. أحسن لك ما تخلنيش اتكلم ..

فأجاب حنفى افندى على الفور وهو يجذب لحافه فوقه :

— أنام ؟ وأنا طايل النوم ؟ فى المدرسة أدخل الحصة الفصل يعمل شوشره ، وفى البيت أدخل السرير تحصل شوشره ! غلبت وغلب حمارى . ! .

ثم أحكم الغطاء وأغمض عينيه وأدار ظهره للجميع ، وأعطى الحائط قبالته وأخذ يغط ناخرا مستدرجا النعاس ، ولم تمض لحظة حتى علا شخيره ، فالتفت محسن إلى سليم فى شىء من التودد والثقة

وقال كالهامس مشيرا إلى حنفى النائم بعد أن نظر إلى عبده المبتعد نظرة تحاشى وتجافى .

— عمى حنفى ده يا خسارته ! ما عندوش غير النوم . !

فرد سليم فى ازدراء ورثاء .

أناعارف ده مدرس ازاى . ؟ لازم اللى زى ده التلامذه مستغفلاه . !

* * *

لم يكن محسن مطمئنا فى صلته ببيت الجيران برغم تردده عليهم، فهو حتى الساعة لم يفهم دخيلة سنيه . ومازال يرى فيها سرا غامضاً عليه ، وقد أحس لأول مرة شيئا غريبا فى قلبه نحوها ونحو عبده، يوم ذهب هذا الأخير لإصلاح الأسلاك . . .

فقد لاحظ محسن بعض تصرفات من سنيه لم ترقه . غير أنه لم يظهر على سنيه أى تغير نحوه مما يؤكد احساسه الغريب ، لذلك مالبث أن فارقت قلبه تلك السحابة . ولو أنه مازال متخوفا غير مرتاح لعبده . وقد تيقظت فى قلبه نحوه مشاعر دنيئة كان يقشعر لها . . إن أفعال سنيه البسيطة ذلك اليوم أوحت إليه ذلك الوحى المرعب.. إن النساء قبل كل شيء يهمن بالرجل القوى الجسم الممتلىء طولا وعرضا، ذى الصوت الخشن، مدفوعات بدوافع خارجية عن ارادتهن . لعلها الغريزة الجنسية . ولعله هو بالنسبة لعبده ما زال

طفلا أو غلاماً ، لا يوحى إلى المرأه تلك العاطفه . وأخذ محسن يتذكر صوت عبده وهو يرتفع فى صالة الجيران، وساعديه القويين وهما يضعان السلم الخشبى بقوة على الحائط .

فكان هذا يعذبه فى دخيلة نفسه . . ولا يعلم ولا يستطيع إبداء علة لهذا الشعور المبهم ، الذى يوخزه والذى يحرضه على كراهة عبده .

وقد ساعد على تولد هذا الشعور عند محسن موقف عبده حياله بعد مجيئه من بيت الجيران . فإنه بدل أن يخاصم محسن ويغضب ويغتاظ منه كما سبق أن فعل معه مرة . فإنه لم يهتم هذه المرة بمحسن ولا بوجوده . . . بل كانت كل حركاته زهوا كمن يشعر بفوزه المطلق . . . ولم يحسب لمحسن حساباً . وحتى لو كان فى فكره أحد يستحق المخاصمة فى نظره ، فليس هو محسن الصغير بل آخر جدير بمنازلته فى هذا المضمار : رجل مثل سليم .

أحس هذا كله محسن الصغير بفؤاده الذكى الواعى فخامره شك فى نفسه . وأوجعته وآلمته تلك الفكرة : أنه صغير لا يصلح حتى أن يعد غريماً ومزاحما ...

الفصل الرابع عشر

لا احد يدرى إن كانت هى مداعبات القدر أم مداعبات شخص من البشر ...

ذلك أن زنوبه جاءت تخبر يوما بأن البيانو عند الجيران به بعض الخلل ، وأنها وعدت سنيه أن تسأل لها سليم عن محل تصليح للبيانو ، باعتبار أن سليم يملك آلة موسيقية تشبه البيانو وهى الهارمونيكا.

وسمعها سليم باهتمام شديد. فما كادت تتم كلامها حتى نهض واقفاً. فأخبرته زنوبة فى الحال أن لا داعى للتعب . . المطلوب كله هو أن يكتب اسم محل «التصليح» الذى يثق به وعنوانه على ورقة صغيرة وسنيه تتكفل بعمل الباقى .

ولكن سليم لا يكتفى بهذا. ولا يدع الفرصة تفلت منه . وإذا كان عبده الشاب ، الطائش الأهوج ابن الأمس ، فى نظره قد ذهب يصلح سلكا فى بيت الجيران ، أفلا يذهب هو الرجل المجرب المتفنن الراسى بأى حجة إلى بيت الأحباب ؟ ...

لذلك ما تأخر سليم عن إظهار المعرفة بشئون البيانو وآلات الموسيقى جميعها ، وذكر أسماء المحلات المختلفة ، وختم ادعاءه بقوله إن تلك المحلات تطلب أجوراً باهظة ، ولا ينبغى أن يلجأ إليها إلا فى أحوال ضرورية جداً وخطيرة . ومن يدرى لعل بيانو الجيران

أمره سهل جدا ، ويمكن لخبير مثله ، أى مثل سليم أن يعرف علته وينصح بما يلزم له ، ولا الحاجة إلى محل تصليح من تلك المحلات النصابة :

ــ أيوه أمال ! لا بد من معاينة البيانو . لابد أعاينه أولا . . على كل حال . علشان أفتش فيه عن . . .

وكان مبروك الخادم حاضراً سامعاً فقال مبتسماً :

أيوه . . علشان سى سليم يفتش . . .

وغمز بعينه لمحسن .

ولكن محسن لم يبتسم وظل باهت الوجه . وأخيرا قال :

ــ مين قال البيانو مخروب ؟

فأجابت زنوبه :

ــ سنيه قالت لى . . . وانت مش موجود .

فاكفهر قليلا وقال :

أنا لسه ضارب عليه امبارح ! لازم هى قالت عايز تنضيف مش مخروب . . .

فتدخل سليم قائلا بشىء من الغيظ :

ــ لا ياسيدى هى قالت مخروب ، انكسف بقا . . . !

ــ مستحيل . . . أنا لسه امبارح . . .

وكان محسن يتكلم بلهجة اليائس وقد احمر وجهه . . .

وقد كادت تطول المناقشة لو لم يدخل حنفى افندى آتيا من الخارج

حاملا رزمة كراريس ، فوضعها على المائدة وقال :

— خبر ايه ؟

فلما أعلمه مبروك بالخبر تنحنح ونظر إلى سليم وقال :

— مبارك !

فأجابه سليم ببرود :

نعم ياسى حنفى ! ...

— ولا حاجه ... بس ... مش لازملك صبي ا د بيانو . مش حتة سلك ... !

فابتسم سليم قليلا . لكنه عاد إلى الجد والفتور :

— أما والله أمرنا عجيب؟ناس جيران يقصدونا فى خدمة نعملها حكاية ؟المسألة فى غاية البساطة . أنا رايح هناك علشان ا كشف على البيانو . وأعرف اللازم له وأشوف . .

فقاطعه حنفى ناظراً إليه من تحت منظاره الغليظ فى ابتسامة ماكرة :

— يعنى بالاختصار رايح تفتش . !

— وبعدين يعنى معاك ؟

— أنا قلت حاجه . استغفر الله !

وتحرك حنفى متجها إلى سريره ، ليخلع ملابسه ويرتدى جلبابه وطاقيته ويتمدد كالعاده . . .

كان عبده غائباً عن المنزل لحسن حظ سليم ساعة أن جاءت

زنوبه تحدث بمسألة البيانو. فلما عاد ووجد سليم على قدم الاستعداد وقد أخرج بذلته العسكرية من «الدولاب» الكبير، يريد ارتداءها رغم إيقافه الرسمي ورغم معارضة الجميع . . سأل عبده عن الخبر . . فلما علم به أكفهر وجهه ووجم، ثم ملك نفسه ولكن ابتسامة غيظ باردة ارتسمت على شفتيه المرتجفتين . أخذ يلاحظ سليم بشاربه المفتول جيداً بالكوزماتيك وهو يمشط شعره باعتناء زائد ويقول لمبروك آمراً مشيراً إلى النجوم النحاسية على كتف السترة العسكرية، وقد صدأت من طول الترك وعدم الاستعمال منذ انقطع عن الخدمة :

— بسرعة لمع الضبابير يا ولد . !

فقال مبروك مبتسما ساخرا :

حاضر ياسعادة الحكمدار !

وذهب فأتى بخرقة . . وجعل ينظف النجوم وينظر إلى عبده ومحسن الجامدين من طرف خفي، ويغمز بعينه لهما باسماً . :

وانتهى سليم من لبس البنطلون ذى الشريط الأحمر وجاء يطلب السترة وهو يقول بلهجة الآمر الكاذب :

— خلاص الضبابير ؟ ؟

فأجاب مبروك فى هدوء :

— خلاص الضبابير والصراصير . .

ثم مد له يده بالسترة يساعده على ارتدائها وهو يقول له فى

لهجة الجد والنصح :

ـــ ويعنى يا سى سليم إذا قفشوك بالبدلة دى يبقى كويس ؟

ـــ مين يقفشنى ؟ ؟

ـــ الحكومة بلا قافيه ...

عندئذ تدخل عبده ولم يطق صبرا :

ـــ سيبه هو يعنى .. مش عارف انه مرفوت من الوظيفة . ؟

فالتفت إليه سليم وقال ببرود :

ـــ من فضلك تسحب كلامك . أنا مش مرفوت أنا موقوف فقط . .

ـــ وإيه الفرق ؟

ـــ أظن أى واحد متعلم يعرف الفرق بين مرفوت وموقوف يا حضرة المهندس ! !

ومضى سليم يرتب هندامه

وفى هذه اللحظة نهض حنفى من فراشه متثاقلا فما رأى سليم حتى صاح دهشاً :

دهده ! انت لبست بدلة التشريفه ؟ !

فأجاب سليم بفتور دون أن ينظر إليه وهو متجه بكايته إلى المرآة :

ـــ امـّال . . !

فقال حنفى أفندى محبذا :

— عظيم! روح يا عم هنيا لك! عقبال كده احنا كان ما يطالبونا نصلح .. نصلح إيه ..؟!

فرد عليه سليم بسرعة من وجد القافية :

— تصلح كراريس! ..

وتناول الكرباج الجلد الضباطى وضرب به الفضاء علامة الانتهاء والإيذان بالذهاب .

* * *

ما جاء العصر حتى كان سليم فى بيت الجيران ، وقد قادته زنوبه والخادمه إلى حجرة البيانو . فنظر فى أرجائها فوجدها خالية فانصرف إلى البيانو ورفع غطاءه ومر بأصابعه عليه ، ثم ضرب بيد واحدة نغمة سريعة لأحد الأدوار المعروفة والتفت إلى زنوبه وقال :

— ماله البيانو ؟ ماشى عال قوى .

— ياختى امال سنيه كانت بتقول مخروب ليه ؟

— يجوز فيه شىء لازم تصليح . أظن الأحسن تتفضل سنيه هانم تورينى بنفسها الشىء اللازم .

فخرجت زنوبه لتخبر بذلك وتبعتها الخادمة

ولم يمض قليل حتى سمع وقع أقدام آتية ، فاستعد سليم وفتل شاربيه على عجل ، ورتب السترة وأصلح الهندام ، والتفت إلى الباب فاذا به يرى محسن . فقطب سليم وجهه وقال فى ضيق وبرود :

— الله . . ! إيش جابك ؟ .

فأجاب الفتى فى حيرة وغيظ :

— أنا ديما آجى هنا .

فلم يرد عليه سليم وأدار ظهره وجعل يتمشى فى الغرفة جيئة وذهاباً وكان موقفاً بارداً أحسه محسن وأراد ترك الحجرة ،غير أن الباب فتح وظهرت زنوبه تطلب إلى سليم أن يخلى الغرفة، لأن سنيه آتية لتريه عيب البيانو . وفتحت باباعلى شبه دهليز صغير وأشارت إلى سليم أن يتبعها وأوقفته خلف الباب . وعندئذ أقبلت سنيه وتمهلت على باب الصالون قائلة بصوت كله دلال يسبى .

— آجى ياأبلا ؟ مفيش حد فى الصالون ؟

وسمع سليم هذا الصوت فنسى موقفه ، ومد رأسه ونظر بعينيه الشائعتين الزائغتين ، يفتش عن تلك الظبية الجميلة . وقال بصوت موزون متكلف الرقه :

— مفيش حد ياهانم . تفضلى . !

وأسرعت زنوبه إليها وجاءت بها إلى البيانو وطلبت إليها أن تخبر سليم افندى بنفسها عما تراه . . .

فأسرع سليم قائلا :

— لو تتفضل سنيه هانم تضرب دور علشان أشوف صوت البيانو . .

فتضاحكت سنية فى حياء وأمسكت بزنوبه وقالت مشيرة إلى أحد مفاتيح البيانو :

ـــ نوتة « الدو » بس يا أبلا مى اللى مختكة ... شوفى . !

وضربت على مفتاح « الدو » عدة ضربات . فقال سليم وهو ينظر إليها مختلساً من خلف الباب .

ـــ ماينفعش الكلام ده ياسنيه هانم . لازم تضربى دور، إضربى « ياطالع السعد» مثلا . دور حلو قوى، قوى . أنا قبل ماأنتقل من بورسعيد كان عندى فرقة موسيقى البوليس السوارى والبيادة، كل يوم الصبح بعد الطابور أعطيها أمر بضرب الدور ده. ومع ذلك أنا بالهارمونيكا بتاعتى كنت أضرب الدور ده أحسن من موزيكة البوليس . فين دلوقت بقالى زمان تركت الهارمونيكا علشان كده أحب أسمع الدور على البيانو من يد سنيه هانم .

فابتسمت سنيه متخاجلة و نظرت إلى زنوبة وإلى محسن بجوارها نظرة سريعة غير واعية وقد احمر وجهها . . وهمست لزنوبة :

ـــ بعدين ماما تقول إيه ؟

ولكنها لم تنتظر جواباً . بل جلست على كرسى البيانو فى الحال وكان سليم خلف الباب يراقب حركاتها ... وقد كاد يطير صوابه وهو يرى جسدها الممشوق يتثنى ونهديها يرتجان وهى تجلس ... وأخذت تضرب دور « ياطالع السعد » بقوة حينا ورقة حيناً

آخر وسليم لا يرى خلف الباب من هذا كله إلا ثدييها الناهدين يهتزان كلما اشتدت فى الضرب ، كأنما يرقصان على نغم الدور ... فيصيح سليم فى قرارة نفسه :

— ياعمرى .. ياعمرى على دى النهود !..

برتقان بلدى لسه على أمه .. ياعمرى !

وانتهت سنيه أخيراً وقامت عن البيانو وهى تقول فى خجل يزيد رنة صوتها دلالا :

— سمعت ازاى يا سليم بك صوت البيانو متغير ؟ مش عارفه بقا إذا كان ده من « الدو » والا العده كلها عايزه تنضيف . ؟ .

فأجاب سليم فى الحال :

— والله ياسنيه هانم أنا ، أنا ما أخدتش بالى لأن ضربك ياطالع السعد مفيش بعد كده أبداً بقا . اسمحى لى اقول لك أنا ماسمعتش عمرى أحسن من كده .. !

فنظرت سنيه إلى زنوبة وقد احمر وجهها على شكل انقبض له محسن . ثم قالت بصوت خافت يسمعه سليم :

مرسى .. !

انتقل بعدئذ موضوع الحديث إلى مسألة تنظيف البيانو ، وقد نصح به سليم بعدئذ ووعد أن يأتى بعد يوم أو اثنين بمصلح خبير يتولى شأنه ، وسيكون هو المسئول شخصياً عن هذا التصليح وعن

هذا البيانو بعد الآن . وأون كل ما تأمر به سنيه هانم يجاب ويلبى على الفور فى سرور واغتباط .

وشكرت له سنيه ذلك بعبارات رقيقة مؤدبة ، وفى تحفظ وحشمه وجاءت الجارية بالقهوة فشرب سليم وانصرف وهو يؤكد قائلا فى لهجة السلطة والخيلاء :

— انشاء الله النهارده أبعت واحد عسكرى والا أومباشى صف ظابط لأحسن محل تصليح ...

وسار فى الردهة بقوة وانتفاخ يهز أكتافه « ذوات الضبابير » اللامعة .

ويحدث فى البيت جلبة وضجة وضوضاء بحذائه الحكومى ذى المهماز . .

* * *

ذهب سليم إلى المنزل توا ليخلع ملابسه الرسمية فى الحال ، قبل أن يضبطه بها أحد . ودخل على « الشعب » دخول الظافر المنتصر ، وقد انتصبت شواربه وهو ينفخ كمن أتى بعمل كبير ، وعلى وجهه دلائل الفرح و « الزأططه » . وابتدره الرئيس حنفى بقوله :

— عملت إيه يابطل ؟

فأشار إليه سليم من طرف أنفه قائلا :

— اسكت . . اسكت !

فألح حنفى فى السؤال :

— إيه ؟ جرى إيه بالذمه ؟

فأجاب سليم سريعاً وهو يدخل غرفة النوم العمومية خالعا ازرار سترته :

— البنت واقعه خالص ...

وحاول حنفى الاستيضاح منه ، غير أن حضرة الضابط لم يجب بعد ذلك . بل نظر إلى غرفة النوم والأسرة الأربعة المصفوفة أحدها بجانب الآخر ، وأبدى بشفتيه علامة الاحتقار وأحس لأول مرة غرابة هذه المعيشة ، ودهش كيف أنه استطاع حتى الآن أن يحيا مع أربعة أو خمسة فى حجرة واحدة، غير أن إحساسه هذا كان مصدره الترفع والتعالى على رفاقه . لذلك ألقى بسترته بعيداً فوق أحد الأسرة وخرج يقول :

— إحنا كلاب والا إيه ؟ أنا لازم أنقل سريرى وأعزل فى أوده تانيه ، نص دسته فى أوده زى الجحر ؟ إحنا كلاب ؟ ! .

فأجابه عبده وقد حاول عبثاً كتم ما به بكل قواه . غير أن الدم المحتقن بوجهه كان يدل على غيظه المحبوس :

— طول عمرنا عايشين كده . حضرتك ماعرفتش إنك كلب غير النهارده ؟ !

فضحك حنفى وحسبها نكتة وضحك ، كذلك مبروك من قلب

صاف ، فاكفهر وجه اليوزباشى سليم وقال :

قصدك تهيننى ؟

فأجاب عبده فى لهجة عصبية :

— قصدى أقول ان مفيش عندنا أوده تانيه . واللى يعجبه على كده يعجبه واللى مايعجبوش ...

فقال سليم ببرود :

— وانت مالك؟أنا رايح أعزل فوق. فى أودة السطح، فى أودة الغسيل ، حد شريكى .؟.

وانقطعت المناقشة بدخول زنوبه ومحسن. وعم الهدوء.وراح سليم يتم خلع ملابسه وهو يدندن نغمة « ياطالع السعد » . . .

وعندئذ ناداه حنفى وقال له فى رجاء وسرور :

— قل لنا بقا ياسليم البنت كانت واقعه فيك ازاى ؟ . .

وسمع محسن هذه العبارة فارتجف وغص بريقه..وذهب الدم عن وجهه دفعة واحدة،ولكنه سكت.وخرج سليم يقول باعجاب وخيلاء :

— أما يا اولاد عليها نهود ! صلاة النبى أحسن ! برتقال حلو صغير على أمه ! . . .

وعندئذ شعر الفتى محسن بما يشعر به عابد ورع متنسك،وقد رأى أحدا يهين معبوده بكلمات بذيئة . وسرت زنوبه مفاخرة بصديقتها وقالت :

— شفت ياسى سليم الفستان اللى كانت لابساه ؟ ..

فأجابها اليوزباشى وهو يحاول التذكر :

ــ فستان ؟ ؟ والله مش واخد بالى . . .

ومر فى هذه اللحظة أمام خاطر عبده الصامت الكاتم ما بنفسه لون أخضر . وظل يكبر هذا اللون حتى امتلأت عيناه وفكره بالاخضرار . . حرير أخضر يهف عليه كالنسيم على أوراق الربيع . فأحس قلبه يكاد يقع ملتهبا ثائراً . وود لو ينهض فيصفع سليم أو يضربه « بوكس » ويقلب البيت حربا وضجة وعراكا . . . لكنه تجلد .

وما لبث الرئيس حنفى أن قال ردا على سؤال زنوبة فى شىء من سخريته الريئة المعتادة ... سخرية ذى القلب الهادىء الخالى المستغنى عن كل وجع دماغ :

ــ بتسأليه عن لون فستانها ؟ ؟ هو سليم شاف غير نهودها وبطنها وكوارعها . ؟ ؟

وسمع الصغير محسن هذه الكلمات أيضا ، وتمثل صورة سنية الملائكية فثارت نفسه . وحاول أن يطرد من فكره معنى تلك الكلمات الفاحشة الوحشية . واضمر لسليم شيئاً لم يدرك كنهه . وأحس ذلك الإحساس المبهم مرة أخرى بصورة أوضح ، إحساس القصور والضعف المذل بالنسبة لسليم . وتصور سليم ذلك الرجل الذكر الذى يتغلب بسهولة على المرأة ولا قبل لها بمقاومته .. أو أنه

سليم رجل يعرف أشياء لايعرفها هو . . أو أن . . أو أن . .
لا يدرى الصغير محسن ... : إنها مجرد احساسات غامضة لا يستطيع
تحليلها . ولا يفهم منها إلا أنه بات يكره سليم ويخشاه ويشعر
نحوه بشبه اذلال نفسى .وأنه بدأ يميل إلى عبده ويرى فيه زميلا له . .
أو على الأقل نوعا من البشر يقارب نوعه قليلا .. هذا النوع الذى
لايرى فى المرأة نهودا ولا بطنا بل شيئاً آخر . . . والذى يذهله
ويجرحه سماع تلك الكلمات المرعبة المذلة ...

وصدق احساس الصغير نحو عبده . فإن عبده ما كاد يسمع
هو الآخر هذا القول حتى نهض مستنكراً ثائراً ، والتفت إلى زوبه
وقال موجهاً إليها الكلام :

— إيه المسخرة دى وقلة الحيا ؟ مبسوطه لما تاخديهم حضرتك
بيوت الناس علشان يرجعوا يقولوا الكلام ده . ؟ !

وخرج عبده محتجاً تاركا لهم المكان

ولكنه فى الواقع خرج لأنه لم يطق صبرا على سماع أكثر مما سمع ،
ونزل هذا الاحتجاج فى قلب محسن الملتهب كالماء المثلج ، فاطمأن
قليلا وتعزى به عما فى نفسه من قلق مذل . .

الفصل الخامس عشر

مضت أيام تم فى خلالها إصلاح البيانو بمنزل الجيران . وكان محسن قد انقطع عن الذهاب اليهم طول ذلك الوقت . وكانت الأيام تمر وهو يرقب بصبر ملتهب يوم يدعونه كى يعود إلى الدرس عند سنيه بعد أن غدا البيانو صالحا للعزف عليه . وكان يسلى انتظاره بقراءة رواية « ماجدولين » ترجمة المنفلوطى . .

وفى ذات يوم رجع من مدرسته مبدراً فلم يجد بالبيت سوى عبده يشتغل برسم خريطة هندسية ، سيقدمها فى اختبار نصف السنة . فخلع محسن ملابسه الخارجية وأراد أن يشغل وقت فراغ العصر . . فراح يأتى بالرواية لينتهى من صفحاتها الباقية : غير أنه لم يجدها فى مكانها المعتاد . فسأل عبده عنها فلم يعرف شيئاً من أمرها . فاستغرب الفتى الصغير قليلا . ولكنه عاد فاشتغل عنها بالتفكير فى سنية وفى شأنه وشأن عبده وسليم . . .

هل تراها فضلت أحدا منهم على الآخر ! . .

ومن هو الذى تفضله ؟

وانتفض قلبه عند ما ذكر قول سليم أن البنت واقعه خالص ، واشمأزت نفسه وتساءل أيمكن لمثل سليم هذا أن ينال قلبها حقا ؟ وتعزى قليلا إذ تذكر عبده وحظه . ان مثل عبده كان الأجدر على الأقل

باعجابها من الآخر ولكن ها هما الاثنان هو وعبده لا يعرفان من مصيرهما شيئاً . وها هو ذا سليم منذ ذلك اليوم يخرج ويدخل مرحا،ويذهب ويجيء وكله نشاط وبشر وفرح وخيلاء وزهو.. كأنما قد ملك وضمن شيئاً ..

وبينما هو فى ذلك التفكير وعبده على مقربة منه منحن على لوحة الرسم فوق مائدة الردهة ، إذا مبروك الخادم يدخل حاملا خطابا يلوح به فى يده باسما فى خبث :

— جواب لسى سليم ! جواب علشان سى سليم !

فاضطرب محسن . ورفع عبده رأسه ونظر إلى الخطاب فى يد مبروك لكنه لم يقطع صمته الطويل بكلمة. بل إنه عاد فانحنى على عمله كأنه ركن إليه أخيراً يلتمس فيه راحة القلب والبال . غير أنه لم يستطع منع فكره من الاشتغال بأمر هذا الخطاب . وتساءل فى نفسه ممن هو ؟ إن سليم لم يتسلم خطابات من أحد منذ أن نزل عندهم، ولماذا هذا الخطاب بعد هذه الحوادث الأخيرة؟ دب الشك فى قلبه . ومن الغريب ان كل ما جال برأسه كان يجول برأس الصغير محسن فى عين الوقت . ولكن محسن تشجع وتقوى بعدئذ وقال لمبروك :

— منين ؟

فأتى الخادم بحركة تدل على الجهل وعلى أن الخطاب مقفل طبعاً فكيف يعلم من أين جاء !!

فرفع عبده رأسه ثانية ونظر إلى الخطاب ومد يده إلى مبروك وقال :

— هات لما أشوف ختم البوستة . .

فناوله الخادم الخطاب فقرأ على ختمه بوستة السيدة زينب « صادر » . وأخذ يقلب الخطاب بين يديه ويتمعن خط العنوان وقد ازدادت شكوكه وبهت وجهه . فوضع الخطاب على المائدة بقربه وقال لمبروك بصوت هادىء ولكن به بعض التغير :

— طيب . خليه له هنا لما يرجع .

وعاد إلى عمله كما انصرف محسن إلى نفسه يحدثها فى أمر ذلك الخطاب وهل ممكن أن يكون لمن . . ؟ والتفت مبروك إلى كل منهما فلما ألفاهما لاهيين عنه انصرف هو الآخر بعد أن قال إنه نازل يجلس بالباب فى انتظار الغائبين .

وما ابتعد الخادم قليلا حتى رفع عبده رأسه وتناول الخطاب ثانية . وتأمله وقلبه بين أصابعه والتفت إلى محسن الذى كان يختلس إليه النظر عن بعد ثم قال :

— الظرف مش مصمغ كويس .

وكأن محسن أدرك من هذه العبارة معنى خاصا، فقال باندفاع ورغبة شديدة وموافقه :

— ياترى الجواب ده فيه إيه ؟

فقال عبده فى تردد وهو يرمق الخطاب بحب استطلاع جشع :

ممكن فتحه ولزقه تانى

فأجاب محسن مغرياً :

— آى والله لازم فيه حاجات تضحك . .

فقلب عبده الظرف وقال بصوت متردد خافت :

— تيجى نشوف فيه إيه ؟

فأجاب محسن على الفور بشبه فرح صبيانى وقد اقترب منه

أيوه يلله والنبي نشوف فيه إيه .

فرفع عبده رأسه ونظر إلى محسن نظرة ثاقبة وقال :

— بس ماتقولش . . ؟

فأجاب محسن بقوة :

— ماتخافش . . أنا مجنون ؟ ؟

وفى الحال فض عبده الغلاف بحذر وحيطة ، حتى يستطيع أن يغلفه ثانية ويعيده إلى أصله . وأخرج الرسالة ونشرها وأخذ يقرأ بظمأ ورغبة، وقد التصق به محسن مزاحماً إياه فى القراءة بتلهف . ولم يفهما بادىء بدء شيئاً مما يقرآن . غير أنهما نظرا إلى الامضاء فى ذيل الرسالة فانجلى لهما كل شىء . وجعلا يضحكان بملء شدقيهما فى شماتة وتشف .

لقد كان هذا الخطاب مرسلا فى الأصل من سليم إلى الحبيبة ولكنها بدل أن ترد عليه ردته إليه بالتالى دون أدنى تعليق .

وما أدرك عبده ومحسن هذا الأمر حتى عادا يتسليان بتلاوة هذه الرسالة الغرامية . ويلفظان بعض عباراتها فى إلقاء تهكمى كمن يكذب صدق ماجاء فيها من عواطف . والرسالة نصها هكذا :

عزيزة الفؤاد سنيه هانم

لقد أحببتك حباً لم يحبه أحد من قبلي أحداً . وأخلصت لك إخلاصاً لا يضمر مثله أخ لأخيه ، ولا والد لولده . وأجللتك إجلال العابد لمعبوده . لقد ملأت فراغ حياتى كله بك . فلا أنظر إلا إليك ولا أشعر إلا بك . ولا أحلم إلا بطيفك . ولا أطرب لرؤية الشمس ساعة شروقها إلا لأنى أرى فيها صورتك ولا لسماع أغاريد الطير فى أفنانها إلا لأنى أسمع فيها نغم حديثك . ولا لمنظر الأزهار الضاحكة فى أكمامها إلا لأنها تمثل لى ألوان جمالك . ولا تمنيت لنفسى سعادة فى هذه الحياة إلا من أجل سعادتك ، ولا آثرت البقاء فيها إلا لأعيش بجانبك وأستمتع برؤيتك . إن كنت ترين أنى لا أستحق الوصال فأخبرينى خيراً بما بذلت لك فى حياتى من دموع وآلام وشجون وأحزان . . والسلام ختام ؟

المحب الولهان

اليوزباشى سليم العطيفى

وفرغا من القراءة فالتفت عبده إلى محسن وقال ساخراً :

— بقا بذمتك معقول ان سليم يعرف يكتب كلمة واحدة من دول . . ؟!

فسكت محسن قليلا كمن يتذكر . ثم صاح فجأة :

— ياخبر ! تعرف صفحة ١٧٢ من رواية « ماجدولين » ؟ ناقلها بالحرف نقل مسطرة . ! ! !

فقال عبده فى شىء من سرور التشفى :

— برافو عليه !

وأردف محسن مؤكدا وفرحاً :

— أنا كان بقول فى عقلى جرى إيه ؟ الصفحة دى أنا لسه قاريها أول امبارح . آه فهمت ، مش قلت لك إن الرواية مش موجوده فى مطرحها : ؟

وعندئذ تناول عبده الخطاب بسرعه . . ووضعه داخل الغلاف كما كان باحتراس وتمهل وحذر ولصقه كى يعيده إلى الحالة الأولى كأنه لم يفتح .

* * *

عاد سليم بعدقليل إلى المنزل وهو يدندن منشرح الصدر ، فأخبره مبروك الخادم بالباب أن له خطابا . . .

فما كاد يسمع تلك الكلمة حتى انتفض وقال :

— فين ؟ هو فين ؟

فأجابه مبروك وقدابتسم لاضطرابه بأن الخطاب فوق فى حفظ عبده ، فلم يدعه سليم يتم كلامه ، فقد تركه فى الحال وأخذ يصعد

الدرج ناهبا كل ثلاث فى خطوة ، ودخل على عبده وابتدره قائلا :

— فين الجواب ؟

فرفع عبده رأسه إليه فى شىء من التهكم كأنما يقول له ابدأ بالسلام أولا ... غير أن سليم لم يأبه لشىء ، بل كرر كلمته بلهجة قوية وقد نفد صبره :

— فين الجواب ؟ ؟

فلم ير عبده بدا من أن يشير له بيده إلى الخطاب على المائدة بقربه ، فانقض سليم عليه وتناوله وخرج به من المكان حتى ينفرد بمطالعته ، تاركا خلفه عبده ينظر إلى محسن القابع فى ركنه نظرات السخريه والتشفى .

ما كادت تمضى لحظة حتى رجع سليم إليهما والخطاب فى يده وقد بدا وجهه هائلا ، واقترب من عبده وأراه الغلاف وصاح :

الجواب مفتوح !

فتظاهر عبده بالدهشة وتجاهل الأمر :

— مفتوح ازاى ؟

— مفتوح وملزوق تانى، والظرف لسه مبلول ... أنامش مغفل !. أنا ما ينطبخش فوق راسى الطبيخ ! .

قالها بلهجة مخيفة لم يعدها فيه أحد من قبل ...

فارتعد عبده قليلا لكنه تجلد وقال فى شىء من الحدة :

إيه لزوم الكلام ده ؟

فأجاب سليم صائحاً فى غضب هائل :

— الجواب ده مايلزمنيش ، مااستلموش والله مااستلم الجواب ده . . والله مااستلم الجواب . !

فهاج هائج عبده وأجاب فى لهجة عصبية :

— تسلمته وإلا ماتستلموش . . أنا مالى تقول لى الـكلام ده . . عنك مااستلمته ياسيدى .

فقال سليم وهو يرغى ويزند :

— سافل ودون . . ومنحط . اللى فتح الجواب ده !

صحيح إنه ندل . . سافل دون . . وقليل التربية . .

وأجاب عبده ببرود وهو يخفض رأسـه متظاهرا بالنظر إلى لوحة الرسم :

— اللى فتحه .

فنظر إليه سليم محدقا وقال فى هجوم :

— حضرتك ماتعرفش مين اللى فتحه ؟ السافل اللى فتحه ؟ .

فغلى الدم فى وجه عبده وصاح :

— قلت لك ألف مرة لأ ! ... انت رايح تدوشنا بجوابك ؟ .

فقال سليم :

— والله العظيم ما اسكت عن المسألة دى من غير تحقيق . . .

وإلا ما أبات فيها من الليلة . . كله إلا مسألة فتح الجوابات الخصوصية ،

فقال عبده ببرود :

— روح اعمل اللى تعمله . بس سبنى أشتغل . أنا مش فاضى . عندى امتحان .

فتركه سليم بعد أن وضع الخطاب فى جيبه ويمم شطر الباب وهو يقول :

— لك كبير يترد عليه . البيت مش سايب . مش فوضى .

قال هذا وجذب باب الشقة خلفه بعنف وخرج .

وعندئذ التفت عبده إلى محسن الصامت الواجم وقال له مطمئنا إياه :

— فضك منه . ولا تسأل فيه . أصل كل غيظه وناره من الكسفه اللى أخدها ، وجوابه اللى انرد له .

فوافق محسن بابتسامة باهتة ، غير أنه ظل ساكتا يغالب شيئاً يعكر عليه صفاء ضميره .

* * *

خرج سليم من المنزل قاصداً تواً مدرسة خليل أغا الابتدائية ليقابل حنفى أفندى بصفة كونه : كبير الأسرة ورئيس البيت ، ويعرض عليه ماحدث ويرى هل هذا يرضيه وهل يسكت على مثل هذا الأمر دون أن يتدخل ، ويظهر هذه المرة بعض السلطة والنخوة والشهامة التى تخولها له حقوقه الطبيعية .

وكان سليم طول الطريق يفكر و يقول فى نفسه إن حنفى أفندى مهما كان أمره فهو رب البيت وإليه المرجع الأخير ، وأنه لاشك مظهر بعض الهمة فى هذا الحادث ، لذلك لم يتردد فى وجوب الاعتماد عليه ، ورأى فى ذلك كل الرأى والحكمة .

كان حنفى فى ذلك اليوم لايزال بالمدرسة ، إذ كانت عليه النوبة فى مراقبة الألعاب الرياضية مع ضابط الجمباز المنوط بذلك ، وكان عليه أن يظل بالمدرسة حتى منتصف السابعة مساء ، وكان قد أخطر رفاقه فى المنزل بذلك قبل ذهابه فى الصباح ، لذلك رأى سليم أن يقابله بالمدرسة، ويحكى له المسألة قبل أن يعود إلى المنزل فيشوش عبده فكره بالتهويش . فيفسد على سليم الأمر ...

وصل سليم أخيرا إلى المدرسة ، بحث عن البواب أوالفراش فى حجرته الصغيرة فلم يجده، فمشى فى فناء المدرسة قليلا يلتفت يميناً وشمالا عله يصادف أحداً، وأخيراً التقى بتلميذ صغير يسير إلى حجرة المرشح، وهو يضرب الحجر والحصى بقدمه عابثاً ، فأشار له بالدنو فدنا فسأله :

— فين يا شاطر حنفى افندى ؟

فنظر التلميذ إليه وأجابه على الفور :

— حنفى افندى أبو زعيزع ؟

فبغت سليم قليلا وقال كأنما يخاطب نفسه :

— أبو زعيزع!

ولم يلبث التلميذ أن استطرد مشيراً بأصبعه إلى جزء من الفناء مختف خلف بناء المدرسة :

— حضرتك عايزه؟ هو هناك مع سنه أولى تالت .

وعندئذ ارتفع فى الجو صوت ضحك صبية صغار . وما كاد التلميذ الواقف يسمع هذا الضحك حتى ترك سليم بغتة، وأخذ يركض نحو زملائه وهو يضحك على ضحكهم ويصيح بصوت حذر خافت:

— حنفى افندى أبو زعيزع ! حنفى افندى أبو زعيزع !

ولكن سليم صاح به مستوقفاً إياه واقترب منه وسأله أن يستدعى له حنفى افندى فى الحال .

وذهب التلميذ . وظل سليم ينتظر وقد داخل قلبه الشك فى نجاح مسعاه لدى حنفى . وقال فى نفسه هل ترى يرجى نفع من مثل حنفى هذا الذى عرف الكل حتى الصغار أن يسموه « أبو زعيزع » ؟

لم ينتظر سليم طويلا. فان حنفى افندى مالبث أن أتى مستغرباً مجىء سليم ، ظاناً أن شيئا خطيرا قد وقع بالمنزل. ولم يخب ظنه كثيرا فان سليم طفق يحدثه بما حصل فى لهجة المبالغة والإغراق، مصورا له هذا العمل أكبر تصوير ومجسما للحادث أقسى تجسيم . كل ذلك ورب الأسرة ساكت مطرق يصغى إليه فى تؤدة ، يحسبها الرائى رزانة وحزماً.وأخيرا التفت إليه سليم وهز كتفه هزة عنيفة وقال له:

— انت ساكت ليه ؟ مش تقول رأيك ياأخى ؟

ورفع الرئيس شرف رأسه وأجاب فى الحال :

— رأيي أن معك حق .

— مش كده صحيح ؟؟ هو عبده . مفيش غير الواد عبده اللى عاملها . أنا متأكد . . أنا أحلق شنبي . . !

— أنا راخر متأكد واحلق دقنى ... مفيش غير الواد عبده،

— وإيه العمل دلوقت ؟

— معاك حق .

— معايه حق بس مش كفايه . انت ياسى حنفى بصفتك رب البيت وكبير العائلة ورئيس الجميع تسكت على كده برده ؟؟ والا واجب تستعمل سطوتك . . .

فانتفخ حنفى فى نفسه والتفت إليه فى قوة وخيلاء :

— لازم استعمل سطوتى .

ومد يده وجذب سليم وساربه :

— تعال معايه . . . ماتخافش ! . . إحنا نروح نخرب لك بيتهم . . !

قال هذا فى حماسة وقوة آمن معها سليم واستبشر واطمأن .

* * *

وصل حنفى وسليم إلى المنزل ودخلا الشقة وقد تأخر سليم

خطوة ودفع حنفى أمامه بيده مصدراً إياه وهو يهمس له :

— استعمل الشدة . !

— ما تخافش .

ودخل حنفى فرأى عبده مكباً على لوحة الرسم فتصنع العبوس والتقطيب وقال متغاضباً :

— إيه مسألة الجواب دى ؟ وازاى يحصل فتح جواب فى البيت ده ؟

فرفع عبده رأسه ولم يقل شيئاً . ولكن رمى حنفى بنظرة أرعبته.. ثم صاح فجأة بلهجة عصبية قائلا إنه ليس مسئولا عن خطابات أحد ، وأنه لا يسمح لإنسان باتهامه هذه التهمة . وترك لوحة الرسم واقترب من حنفى افندى وصاح به :

— وانت كان ما كانش لازم تنحشر فى مسألة فارغه زى دى.

فسكت الرئيس شرف فى الحال وأطرق .

فقال له عبده :

— ساكت ليه ؟ مش تتكلم ...

فرفع حنفى افندى رأسه . وتنحنح وتردد ثم أجاب فى تلعثم :

— معاك حق .

فما كاد سليم يسمع هذا حتى جن جنونه . وقبض على ذراع حنفى افندى وقرصه ثم هزه مذكراً إياه بوعده وقوله إنه سوف

يخرب بيتهم، ثم ذكره بالتهمة المنسوبة إلى عبده، وطلب إليه مرة أخرى فى مواجهة الجميع أن يبدى رأيه صراحة

فالتفت إليه رب الأسرة الشرف وقال له :

— معاك حق .

وعندئذ صاح به عبده وأراد أن يفهمه أن كل ماقاله سليم لا يهمه ولا يخصه ولا يثبت عليه شيئاً ... وأن ... وأن . ولكن حنفى وفر عليه مؤونة الكلام بأن التفت إليه وقال له هو الآخر :

— معاك حق .

ورأى مبروك الخادم ذلك فضحك كما ضحك محسن على الرغم من قلقه ووخز ضميره . وعلم الجميع أن حنفى هازل ولا يرجى منه . وقد أدارا الحادثة وقلبها هزلا . واراد سليم أن يحتج وأن يغضب . وذهب إلى « الدولاب » الكبير ليجمع أمتعته وملابسه ويغادر المنزل وهو يردد :

— بيت هلس ! بيت مالوش كبير ! بيت فوضى ! لكن الحق على ، اعتمد على سى « أبو زعيزع » !

غير أن حنفى افندى لم يدعه يذهب واجتهد فى تهدئته ملاطفا إياه مرة، ومداعبا ومضاحكا مرة أخرى، وقال كأنما يتملقه ويسره :

— وتزعل ليه بس ياسيد سليم ؟ داانت بالعكس تفرح، لأن المسأله واحد من أمرين .. إما أنه كان جواب عادى وانفتح ففيش

ضرر. وإما أنه جواب حب وهيام وعشق وغرام وفى الحالة دى كويس قوى.

فقال سليم من بين أسنانه:

كويس قوى ازاى ؟!

فأجاب حنفى بحسن نية أيضاً وهو حاسب أنه يسره

— أمال! دا والله من حسن حظك أنه انفتح .. علشان العذول يتكاد وينفقع! دى من مصلحتك باعبيط! هو حد طايل فى الأيام دى ربع جواب حب. ياسلام! يابختك ياسليم!.. ! دا أنت كان واجب عليك تفتحة علينا وتقراه علينا كلنا. علشان نفرح بك ونحتفل بحسن الوفاق.

وسمع محسن هذا وتصور وقع هذا الكلام على سليم وقد خذله ذلك « الجواب ». فكاد يغلبه الضحك وخرج يجرى إلى المرحاض يطلق فيه العنان لضحكه . . .

ومر بالفسحة، فرآى عبده كذلك وجهه للحائط وهو يكتم ضحكه بيده

الفصل السادس عشر

لم تمض أيام حتى جاء محسن خطاب .

وإن مجرد كلمة خطاب فى هذا الظرف كافية لأن تقلب كيان قلب الفتى، أو أى فرد آخر فى ذلك البيت . ولكنه سرعان ماعلم أن الخطاب الذى أتاه إنما هو من أهله فى دمنهور يبعثون إليه بمصروفه وبالمبلغ الشهرى المخصص لحنفى أفندى مقابل إقامة محسن عنده . وهم يدهشون فى ذلك الخطاب ، أن عطلة نصف السنة قد اقتربت دون أن يبدى محسن أى رغبة ، ودون أن يحدد أى ميعاد للسفر إليهم كالمعتاد فى كل سنة . والواقع أن محسن فى هذا العام ماخطر بباله قط أمر السفر ولا أمر العطلة . وما اشتغل فكره بغير ما هو فيه ورفاقه . ولقد هجر كذلك أصدقاءه فى المدرسة هذا العام . . ولم يكن يهمه من المدرسة غير مجرد تحصيل الدروس . فكان يؤدى عمله بها وهو يرقب ساعة الانصراف بصبر نافد ليذهب إلى المنزل . وكثيرا ما كان يشغل فراغ فسحة الغداء وكافة الفسح ، فى مذاكرة الدروس ، كى ينطلق إلى المنزل بعدئذ حرا من كل قيد .

ولكنه الآن قد بوغت بهذا الخطاب يدعوه إلى السفر . وكأنه فتح عينيه من غيبوبة لذيذة فرأى الواقع ... لا بد من السفر ...

ومع أن العطلة قصيرة الأمد ولن تتجاوز العشرة الأيام، فقد بدا له ذلك طويلا .. غير أنه تمثل فى فكره صورة والديه فحن إليهما، وانشرح قليلا بالسفر لرؤيتهما.

ولم يكن محسن وحده الناسى أمر السفر فى هذا العام الغريب بل كانت زنوبه أيضاً زنوبه التى اعتادت أن تحسب ميعاده بالضبط كى تستعد فى تجهيز الهدية الواجب ارسالها مع محسن.

ودهش محسن قليلا لنسيان زنوبه فذهب يذكرها بسفره القريب فوجدها فى حجرتها «تقرص» كعكا من النوع المسمى «كعب الغزال» فقال فى نفسه إنها لم تنس، ولكنه تجاهل وسألها عما تصنع دون أن يخبرها بسفره. فترددت قليلا ثم احمر وجهها بعض الشىء وقالت:

ـ أصل خدام جارنا اللى تحت طلع بصينية دقيق وسمن علشان نعمل له شوية كعب غزال ..

فبغت محسن قليلا وقال:

ـ مصطفى بك ... ؟

فاستطردت زنوبه وهى فى عملها لا تنظر إليه:

ـ أصل ماعندوش حد هنا يعرف يعمله .. قام قصدنا. وعلى رأى المثل .. النبى وصى على سابع جار ..

وأخفى محسن ابتسامة. وذكر فى الحال أنه أمس وهو آت من المدرسة لمح زنوبة تخاطب خادم مصطفى بك على مدخل السلم. فظن أنها إنما تنبهه

إلى كنس جزء السلم الخاص بهم لأنه سمعها قالت ذلك عندما رأته يصعد.
أما الآن فقد وضح لمحسن أمر تلك المحادثة مع خادم الجار. ومن يدرى لعلها هى التى عرضت عليه الخدمة كلما احتاج سيده إلى شيء بصفة كونه أعزب، ليس له من يهيىء له ما يشتهى من كعك وكعب غزال وغير ذلك.

* * *

توجه فكر محسن بعدئذ إلى سنيه. وأراد أن يذهب إليها يخبرها بسفره، ويعلم ما يكون من أمرها، وقد تخيل فى رأسه أنها ستتكدر لهذا الخبر كما تكدر هو، فخفق قلبه لهذا الخاطر.. وأخذ يهيىء فى نفسه ما سيقول لها. ورأى أن يتشجع هذه المرة ويجعل من خبر سفره هذا ذريعة يكشف بها عن بعض ما يكتمه منذ شهور.

جاء العصر وعاد محسن من يومه الأخير بالمدرسة قبل العطلة فذهب توا إلى منزل الجيران.

ودخل كعادته حجرة البيانو فلم ير بها أحدا بادىء الأمر، ولكنه التفت إلى جهة الشرفة فوجد سنيه تطل من نافذتها مصوبة أنظارها إلى القهوة الصغيرة، وقد ارتدت ثوباً فاقع اللون على آخر طراز، ورتبت شعرها ترتيباً غاية فى الجمال. فدق قلبه وثبت فى مكانه لحظة وهى لا تحس وجوده...

وأخيراً تجرأ ومشى إليها فى سكون، حتى حاذاها ونظر معها إلى حيث تنظر.. فإذا هو مصطفى بك جالساً فى مكانه بالقهوة وقد رفع بصره

هو الآخر بأعين باسمه . فارتعد محسن وأحست سنية قربه فبغتت قليلا ، ثم استقامت ومدت يدها إليه مسلمة مرحبة فى سرور وحماسة منادية إياه « يا أستاذى » كعادتها ، ولاقته ملاقاة أنسته نفسه وكل شىء . . فأحمر وجهه وصمت لا يدرى ما يجيب ، فقادته إلى البيانو قائلة بصوت لذيذ :

— من زمان ماأخدناش درس .

وجعلت تمر بيدها على مفاتيح البيانو ومحسن ينظر إليها ساكتاً وأخيرا قال متمتما

— دا آخر درس .

فرفعت رأسها إليه ولم تفهم .

وعندئذ هدأ محسن من اضطرابه . . وبدأ يقص عليها ما جاء به إليها اليوم ، وأن عمته زنوبة مشتغلة بإعداد ما يلزم لسفره ، وقد قالت إنها ذاهبة إلى سنيه هانم فى الغد ولكنه هو لم يستطيع صبرا على انتظار الغد . . . لذلك ما خرج من المدرسة حتى جاء إلى سنيه توا . . . ثم سكت قليلا ونظر إلى سنيه ، فإذا هى ساكتة أيضاً تنظر إليه وهو يلهث بعد كلامه . . .

فاستطرد يقول إنه حزين . . . وصمت غير مستطيع أن يستمر فيما اختطه . . .

فقالت سنيه فى لطف حار :

— حزين ؟ ليه حزين ؟ . . .

فأجاب الفتى مترددا :

— علشان . . .

فاردفت سنيه :

— علشان مسافر ؟

فقال محسن بصوت خافت متلعثم غير مفحم :

أيوه . .

وكأنها أدركت أوشكت فى أمره مما يبدو عليه ، فتلطفت قليلا وازداد صوتها نعومة وأنوثة بغير ما تعمد ، كأنما شىء فى قرارتها يدفعها إلى تشجيعه ، أو على الأقل يحبب الاستماع إلى ما يقول فى هذا الشأن .

فأظهرت له الاستغراب إذ يحزن لسفر قصير الأجل كهذا . وقالت له فى ابتسامة مغريه إنها لا تصدق أنه حزين من أجل شىء كهذا فقط . ولكن محسن لم يجب ولم يزد على خفق قلبه شديدا كلما هم بالكلام ، واستطردت سنية تقول فى رقة

علشان إيه صحيح انت حزين؟ اخص عليك مش عايز تقول لى؟

فتمتم محسن بألفاظ خافتة ، ثم قال وهو ينظر إلى الأرض :

— علشان . . . مسافر . . .

فامتعضت سنية قليلا لهذا الجواب وسكتت هى الأخرى لحظة

ثم قالت بصوت عادى فيه رنة الجد :

— مش تسلم على ماما قبل ماتسافر ؟

فأجاب الفتى وقد رفع رأسه :

— أيوه .

فنهضت سنيه وصفقت للخادمة تناديها فلما . . حضرت سألتها عن مولاتها الكبيرة إذا كانت قد عادت من الخارج .

فأجابت الجارية سلباً .

فالتفتت سنيه إلى محسن وقالت :

— مش عارفه راحت فين ! خرجت النهارده بدرى على غير عادتها من غير ما تقول لى !

ونهضت قافزة إلى الشرفة ولبثت تنظر منها . . .

فرفع محسن رأسه والتفت إليها خلسة ، وقد انقبضت نفسه وأحس شكا مبهما يحزه ، ولكنها عادت إليه مبتسمة واقترحت عليه العزف على البيانو عزف الوداع . . ثم لم تمهله حتى يجيب: بل عرجت بمناسبة ذكر البيانو إلى ذكر سليم ، كيف أنه كان لطيفاً غاية اللطف إذ عنى بإصلاح البيانو إصلاحا جيدا . فنظر إليها محسن مبغوتاً وذكر خطاب سليم وحاول أن يستشف منها أو يشتم رائحة تهكم فلم يجد إلا العكس . .

واستطردت سنيه تشكر سليم بعبارات جميلة . . . فاختلج فؤاد

محسن ومر بخاطره أن عبده قد أصلح كذلك أسلاك الكهرباء، فلماذا لم تذكره بكلمة شكر واحدة ... وتذكر محسن ساعة دخوله اليوم إذ كانت سنية عندئذ بالشرفة تطيل النظر إلى القهوة .. وقال فى نفسه ترى أكان ذلك من أجل سليم ؟ .. وأحس الفتى وخزا عميقاً. غير أنه عاد فذكر ألا يمكن أن يكون ذلك، لأن سليم قد ترك هذه القهوة منذ زمان، ولم يعد يرى جالساً بها مطلقاً من يوم أن طلب لإصلاح البيانو. كأنها طريقة القهوة لم تعد مفيدة له فى الوصول إلى شىء..

إذن لماذا وإلى من كانت تنظر وترنو من الشرفة الآن على ذلك النحو . ؟

وشعر محسن بشىء من الحقد الغريب على سنيه. وكأنه ما كان يحب أن يراها تتنزل فى عينيه إلى مثل هذا.

واختلج قلبه بذلك الاحساس الذى أحسه نحوها يوم لاحظ سلوكها نحو عبده وهو يصلح الكهرباء، ونحو سليم وقد جاء يكشف عن البيانو. وكان قد أنكر عليها فى قرارة نفسه تصرفها وعده خليعاً ومستلفتاً عمداً لأنظار الضيفين.

كبر عند محسن هذا الاحساس وهو صامت .. وفجأة إذا هو يرى سنيه تنهض من مجلسها القريب منه. وكأنما اعتراها ضيق أو ملل، ومضت متجهة إلى الشرفة وما بلغتها حتى بدا على وجهها شبه

تورد وانتعاش. وكان محسن يلاحظها من طرف خفى فرأى ذلك كله منها، وخيل إليه أو هى الحقيقة أنها كأنها تتنفس الصعداء وتبتسم لشخص فى الخارج فانقبض قلب محسن انقباضة قوية ودب فيه يأس هائل. وتحقق فى لحظة أن كل أحلامه عبث.. وأن كل آماله فيها سراب. وثبت عنده الآن أنه كان مغفلا إذ بالغ فى تقدير الواقع، إذ كان يرجو من مثلها أكثر مما يستحقه مثله... من هو؟ طالب كفاءة صغير. وما صلته بها للآن؟ أليست صلة عائلية بسيطة؟ وإذا كانت سنيه تتلطف معه أليس لأنه غلام صغير، أو على الأقل هى تعاملة كذلك، وهو فى نظرها دائما ذلك الغلام الصغير الذى لا تتحرج من ملاطفته أمام والدتها، وأن تقدم له «الشربات» وأن تملأ جيوبه بالحلوى و«الملبس» إذا شاءت..

والملاطفة والمجاملة غير الاهتمام والميل. أتراها اهتمت بمقدمه يوماً واحمر وجهها كما فعلت يوم حضر سليم أو عبده، أو حتى كما تفعل الآن وهى ترنو من الشرفة الى.. الى.

اسودت الحجرة فى عين محسن. وهذه الأفكار تدور فى رأسه، بسرعة الحلم المخيف، ونظر حوله ورأى نفسه جالساً بمفرده وهى منصرفة عنه لاهية. وشعر بحرج موقفه وبرودته ... ولماذا هو لا يزال منسياً مهملا...

فنهض وقد تصبب جبينه عرقاً. ولم تشعر سنية بنهوضه. فوقف

لحظة حائراً مترددا . وأدخل يده فى جيبه يبحث عن منديله فعثر بمنديل سنيه الحريرى الذى لا يفارقه . فدق قلبه ولكن يأسه عاجله فاصفر وجمد فى مكانه . وخيل إليه أنه فى حاجة إلى أن يبكى أو يصيح أو يموت . . . ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك . ولم يستطع حتى أن ينبه سنيه إلى وجوده وإلى نهوضه . .

وحانت من سنيه أخيرا التفاتة اليه فأقبلت نحوه ومدت يدها قائلة :

مروح خلاص ؟

ورأى محسن فى صوتها وحركتها فتورا ، فهم منه أنها لا تلح فى استبقائه ، وخيل اليه أنه مكث أكثر مما يجب . فمد يده إليها بسرعة وقال بصوت لا يكاد يخرج :

— أيوه مروح . . .

وتركها وذهب إلى الباب وهى تنظر اليه مبغوتة لهذا الذى اتى لوداعها وانصرف على هذا الشكل . . . غير أن محسن وقف بعتبة الحجرة مترددا . ولاحظت سنيه ذلك فذهبت اليه تستطلع سبب وقوفه . فأدخل محسن يدا مرتجفة فى جيبه وأخرج منديلها الحريرى وأعطاها إياه بدون أن ينظر إليها . . .

فتناولت سنيه المنديل وقلبته فى يدها دهشة وقد عرفته ولكنها لم تفهم بادىء الأمر وصاحت :

— منديلى ! لقيته فين ؟

فأجاب محسن بصوت خافت :

— كان عندى . .

وكانت هذه الجملة كافية أن تفهم منها سنية ... فنظرت إلى وجه محسن الشاحب لحظة وتأملت ملامحه الحزينة، وشفتيه المتوترتين وعينيه المرخيتين ، ترسلان إلى الأرض نظرات جامدة قانطة وذكرها منظره الساعة بمنظره يوم رأته يستذكر ماضيه ، وقد لبس وجهه لها فجأة لبوس الرجولة . غير أنه اليوم يبدو خطيراً رهيباً كمن يجالد شيئاً داخل نفسه . .

وأدركت سنية بعض ما بالفتى وارتاحت له . .

وأراد محسن أن ينصرف فمنعته وقالت له بصوت رقيق :

— كان عندك من زمان يامكار ؟ !

فلم يجب محسن ولكنه أحس دمه يغلى وقد حسب سنية تهزأ به بهذه العبارة الفاترة . فتجلد . وأردفت سنيه قائلة :

— وإيه السبب ترجع لى المنديل دلوقت !

فأجابها محسن بلهجة عنيفة فجائية :

— مش بتاعى ...

فبغتت سنيه . ولكنها هدأت واقتربت من محسن ومدت له يدها بالمنديل فى لطف وقالت بإخلاص :

— وإذا كنت أهديه لك ... ؟

فأجاب محسن على الفور بلهجة جافة قاطعة :

ـ مش عايز .

فتغير وجه سنية وقد فاجأها هذا الجواب . ورأت من وجه الفتى أنه فى أشد حالات الغضب والتأثر . فصمتت . ولبثا لحظة فى سكون : وأخيرا قالت له بصوت متغير خافت :

ـ محسن ! انت زعلان من حاجة . . ؟

فلم يجب

ورفعت رأسها تطلب إليه أن يجيب فرأت دمعتين تنحدران من عينيه . . .

فاهتز قلبها قليلا . ومدت يدها برفق وتناولت يده وقادته إلى المقعد الكبير قائلة بصوت ملؤه التأثر :

محسن ! بتعيط . . . ؟ محسن . . .

وجلست وأجلسته بجانبها . ولكن محسن لم يستطع كتم دموعه فانهمرت رغم إرادته وبغير مسوغ . .

فبادرت إليه سنية بمنديلها الحريرى تمسح عينيه وتقول له فى رقة .

ـ زعلان منى أنا ؟ زعلان منى أنا يا محسن ؟ . . .

ولكن الفتى لم يجب بغير شهقاته العصبية التى حاول عبثاً حبسها. واستمرت سنية منفعلة تقول :

ـ محسن . ! . إخص عليك . . . محسن . .

ثم التصقت به وقبلته فى أسفل خده قبلة أحس الفتى مع حرارتها رطوبة كالندى . فنظر إليها فاذا هى أيضاً تبكى من التأثر .

وساد بينهما سكون لحظة ، قطعته سنيه بسؤالها عن سبب بكائه ، وألحت فهمهم بكلمات غير مفهومة أولا . ثم تمالك نفسه قليلا وقال إنه يعلم بأنه ليس عندها شيئاً مذكورا ... غير أن ما يؤلمه هو انها تخفى عنه ذلك وكان الأجدر بها أن ...

ولم يستطع الاستمرار فى هذا القول ... فعاد يقول إنه لا يعتب عليها فى شىء قط . وإنما هو متألم لنفسه ويؤنب نفسه لأنه أغرق فى آمال موهومة كاذبة .. وأحلام خادعة ..

وجعل يتكلم هذا بصوت مرتجف محموم ، وسنيه تصغى إليه بتأثر وفى لذة الى أن فرغ . فاقتربت منه وأمسكت بيده المرتجفة وقالت بصوت خافت وهى تنظر إليه :

ــ مالكش حق يا محسن ! برده كده ؟. إخص عليك الو كنت مش مهم عندى ما كنتش أعلمك البيانو .. وأقول لماما توافق على كده .. تعرف من يوم ما شفتك فوق السطح ..

فاختاج قلب الفتى . وابتسمت أساريره . والتفت إليها وكأن عينيه تسألان : صحيح ؟ !

واستطردت سنيه تتكلم بصوت خافت حار تؤنبه على ما قال وهو لايدرى ماذا يجيب وماذا يفعل . ولا يشعر أين هو . فكأنه

فى عالم أثيرى لايحس فيه حتى السعادة تعبق بها تلك اللحظة..وصحا قليلاً. وأخذ يساور نفسه فى الارتماء على يديها تقبيلاً وعلى خدها ووجهها لثماً . ولكنه لم يجرؤ على شيء من هذا . . . وظل جامداً كالصنم واللحظات تمر سراعا. وأخيرا جمع شتات عزمه وتحرك كى ينفذ إيحاء قلبه الواثب . ولكن . . . كان قد فات الأوان إذ سمع وقع خطوات الجارية جاءت تعلن عودة سيدتها الكبيرة من الخارج ، وعندئذ نهض محسن بسرعة واقفاً كما نهضت سنيه . وأخذ يصلح من شأنه وأراد أن يبحث فى جيبه عن منديله يمسح به وجهه . فأسرعت سنيه وناولته خفية منديلها الحريرى ، وغافلت الجارية وهمست له :

— خليه عندك تذكار !

ودخلت السيدة الكبيرة لابسة « حبرة » الخارج السوداء . ورأت محسن فأقبلت تسلم عليه . وأخبرتها سنيه أنه أتى يودعها قبل سفره ، وأنه انتظرها خصيصاً حتى تعود من الخارج . فشكرته الست الكبيرة ، وتمنت له سفراً سعيدا وطلبت إليه أن يسلم لها على والدته وأن يذكر والدته بها إن كانت نسيتها ، واستأذن الفتى فى الانصراف. فشيعته المرأتان حتى السلم ، فنزل بسرعة وهو لايشعر أنه فى العالم.. وكأنه ينزل من عالم آخر . .

الفصل السابع عشر

عاد محسن إلى المنزل فوجد عمته زنوبه قد جهزت الهدية التى سيحملها معه فى الصباح . ولم يكن بالمنزل وقتئذ غيرها وغير مبروك الخادم على مقربة ، منها يشتغل بربط « الطرد » بخيوط الدوباره . وما رأت زنوبه محسن مقبلا يلهث حتى أخبرته أن كل شىء قد هيء ولم يبق غير ملا بسه ، وأنها كانت تود أن تجهز ما سيأخذه منها ولم تأت السيدة والدة سنيه ... وما كادت زنوبه تذكر ذلك حتى عادت فاستدركت ... بسرعة وارتبكت وكأنما أخطأت فى ذكر هذا . لكن محسن انتبه فسألها على الفور فى بعض استغراب :

— هى كانت هنا ؟ !

وأرادت زنوبه أن تغالط ، فاقترب منها محسن بلطف وقد داخله شك ، ومازال بها يلاطفها ويتزلف إليها حتى أخبرته قائلة :

— أيوه كانت هنـــا . تعرف ليه ؟ كلام فى سرك يا محسن . ما تقولش لحد . . .

وكانت لهجتها لهجة من يفضى بسر . فأجابها الفتى على الفور فى جد :

— ماتخافيش . . ! قولى ياعمتى ...

فترددت قليلا ثم مالت عليه هامسة وأخبرته أن والدة سنية

جاءت اليوم كى تقول لها ، إن الدكتور حلمى زوجها قد وقع فى يده خطاب من سليم افندى إلى سنيه فاستاء وتكدر غير أنه لم يشأ أن يفضح الأمر استبقاء لصلة الجوار ، فأعاد إلى سليم خطابه بالتالى ولم يخبر ابنته بالخطاب ولا بما فعل ، ولم يقل إلا لزوجته وحدها كى تنبه فى رفق زنوبه بأن هذا أمر ما كان يصح مطلقاً ...

فأطرق محسن مفكرا بعد سماع هذا . وتعكر هناؤه قليلا إذ خطرت له فكرة لم يرتح لها . أن سنيه لم تعلم بأمر خطاب سليم وليست هى إذن التى ردته إليه على الشكل الذى رآه هو وعبده . ومن يدرى لعلها ما كانت ترد الخطاب لو أنه وقع فى يدها هى ، بل ربما أجابت عليه أحسن جواب . .

انقبض الفتى لهذه الفكرة . لكنه عاد فذكر ما حدث بينه وبينها منذ لحظة فاستبعد الفكرة أوليست تقول له الآن وهى تبكى أنها منذ رأته فوق السطح ... ثم تلك القبلة ... كلا ... هذه الفكرة الغبراء لا ينبغى أن تمر بخاطره . بل إنه ليس له الحق أن يرتاب فى سنيه معبودته بعد الآن ...

وعادت زنوبه إلى الكلام هامسة فى شىء من السخرية الصفراء :

— والنبى أنا كنت حاسبه الحساب ده من زمان . ! . هو سليم رايح يجيبها البر . !

° ° °

وقت أن ورد خطاب سليم ، كان الدكتور حلمى جالسا كعادته فى كل عصر أمام أجزخانة الجوالى يشرب فنجاناً من القهوة أحضر له من قهوة قريبة، ويتحدث بصوت الراوى فى بضعة أشخاص جالسين حوله يظهر من سنهم وهيئتهم . أنهم مثله موظفون بالمعاش . وكانوا مصغين إلى حديثه بلذة ودهشة وانتباه ، وهو يصف لهم حياته فى السودان وقت أن كان طبيباً بالجيش . وكان ذلك الحديث ولا شك تتمة لسلسلة أحاديث سابقة ، ألقاها عليهم فى جلسات الأمس وماقبله وكان الدكتور قد سكت قليلا ريثما يتناول رشفة من فنجانه ويستجمع ذاكرته . ناظراً بأعين لاهية إلى ميدان السيدة زينب أمامه ومافيه من حركة وضجيج .ولم ينبس أحد من الجالسين بكلمة . . بل لبثوا ناظرين اليه منتظرين عودته الى الكلام ، ولم يأت كذلك أحد بحركة الاواحدا انتهز فرصة تلك الهدنة ، وأخرج علبة «نشوق »من جيب سترته السوداء القديمة الطراز . وبعد أن عزم بها فى صمت على من بجواره . . تناول منها قليلا ودرصه فى أنفه ثم عطس عطساً شديداً وهو يقول :

— الله . . الله . . الله .

وعندئذ التفت اليه الصيدلى القانونى الجالس على مقربة منه وقال له :

— انت حاتقعد تعطس لنا ياشعبان أفندى؟احنا غرضنا نسمع

كلام الدكتور . .

فأخرج شعبان افندى باشكاتب الدفترخانة الشرعية سابقاً منديله الكبير من جيبه ومسح به أنفه وهو يقول :

ـــ خلاص ياسيدى . . قول بقا يا دكتور . . !

فوضع الطبيب فنجانه على الصينية الصغيرة الموضوعة فوق كرسى أمامه . وألقى نظرة على من معه ، كأنما يسألهم أين انتهى به الحديث ، فأسرع أحدهم وهو مفتش صحة مركز أشمون سابقاً ومن ذوى الأملاك حالا ، فقال وهو يسبح بسبحة كهرمانية يحملها على سبيل الوجاهة أو ورع آخر الزمان :

ـ كنت بتقول لنا على مديرية بحر الغزال .

فرد الدكتور حلمى وكأنما يخاطب نفسه :

ـــ أيوه . . بحر الغزال !

ثم صمت ونظر إلى الميدان بعيون اللاهى المستذكر الماضى . فقال شعبان أفندى بعد أن كتم عطسة دهمته :

صحيح يادكتور . . مديرية بحر الغزال وحدها تطلع قد القطر المصرى كله . ؟

فلم يجب الدكتور على سؤاله . والتفت إلى الحاضرين جميعاً كأنما سيبدأ الحديث . وعندئذ سكت الكل ونظروا إليه مصغين . فرفع يده « بمنشة » ذات مقبض من العاج طرد بها الذباب عن صينية

القهوة ، ثم قال :

— أنا أقول لكم عن بحر الغزال . . . آه بحر الغزال . ! السودان

ولفظ كلمة السودان الأخيرة فى شبه تنهد عميق ، أو شبه أسف صادر من كل نفسه . أو شبه حنين يهز كل شخصه ، حتى ليخيل للسامع أن السودان كل شيء عند هذا الرجل . هو كل حياة هذا الطبيب العسكرى الكهل ، الذى عاش ردحاً من الزمن فيه .

وأخذ يسرد للحاضرين بصوت حار رصين ، كيف رافق الحملة المصرية فى ارتياد مجاهل بحر الغزال :

قال إنهم كانوا معسكرين قرب « غابة شامبى » واستيقظوا فى صباح ذات يوم مبكراً واصطف الجنود . كل يحمل كوباً فى يده وسار هو بينهم بزجاجة الكينا . يصب فى كل كوب جرعة أو جرعتين ، كالمتبع فى تلك البقاع كل صباح للاحتياط والمناعة ضد الحمى . ثم حملوا متاعهم وخيامهم وقرب مائهم ، وساروا مخترقين الغابات الكثيفة الشاسعة والأدغال . يتقدمهم دليل زنجى من أهل البلاد وكانوا كلما قطعوا مرحلة ودخل عليهم الليل . وقفوا وأوقدوا النيران حتى لا تقربهم وحوش الغابة . ومع ذلك فقد كانوا يرون على ضوء اللهب المشتعل فى الدغل اليابس ، عيون النمور والأسود التى ترود حولهم عن بعد . وكان يشع منها لمعان وبريق ذو ألوان غريبة جميلة ، وكانت تلك الليالى حارة وأحياناً مقمرة بديعة فى سكونها العميق ،

لا يقطعه سوى زئير الأسد الذى يرود طالباً نصيباً من لحم التيتل والجاموس الوحشى الذى كانوا يشوونه على النار . وكان الدكتور حلمى مع الجنود جالسين (القرفصاء) ، ينظرون بعيون حريصة وبعضهم يحمل البنادق استعداداً للطوارىء ، ومع ما فى تلك اللحظات من قلق مخيف ، فقد كان الدكتور يشعر بلذة تلك المغامرة ، ويود لو تتاح الفرصة ويرى أسداً هاجماً عليهم فيصطادونه بالبنادق ، وأفضى بهذه الرغبة لجندى سودانى ملحق بخدمته ، فقال له الجندى سترى أغرب من ذلك عندما نصل إلى « توبج » . سترى بعض الوطنيين يصطادون الأسد بالرماح القصيرة .

وفى الصباح استأنفت الحملة السير :

وكانوا أثناء سيرهم يصطادون طعامهم . والصيد هناك كثير من تيتل مدهن إلى جاموس دسم ، وطالما كان الدكتور ينحرف عن الحملة وراء صيد جميل . وكان شأن كل عسكرى حديث سلمت إليه بندقية يضرب بغير حساب كل حيوان يصادفه . مفترساً كان أو غير مفترس . ولاحظ منه ذلك الجندى السودانى المرافق له . فقال له يوما محذرا : أن اضرب فى تلك الغابات أى حيوان تشاء مهما كان ضارياً إلا حيواناً واحداً ، حذار أن تمسه بسوء وإلا نال الحملة بأجمعها كل السوء : القرد . إياك أن تتعرض لقردة الغابة . واستمرت الحملة تسير أياماً حتى أنهكها التعب وفرغ منها الماء . وقال الدليل

إنه لا رجاء فى ماء إلا بعد ثلاث مراحل حيث توجد بئر واحدة ، والغابة كالصحراء أحياناً قد يوجد بها كل شىء إلا الماء الصالح للشرب. وأخيراً اقترب الجنود من مكان البئر حيث يستريحون ويطفئون ظمأهم بعد سير مضن فى حرارة شديدة وطعام دسم : ولكن قبل أن يبلغوا البئر ببضع مئات من الأمتار ، تراءى للدكتور أن يغافل الحملة ويسرع بمفرده من طريق مختصر بين الأدغال ، ويصل إلى البئر قبلهم . ونفذ الفكرة فى الحال دون أن يخبر حتى جنديه السودانى ، وما أن بلغ البئر حتى وقف فى مكانه دهشا مبغوتاً ، ذلك أنه شاهد على البئر قرداً هائلا واقفاً بلا حراك .

فتردد قليلا ثم لوح له بيده فلم يتحرك القرد ، فالتقط حصاة من الأرض رماه بها فلم يتحرك كذلك . فصوب إليه بندقيته فنظر إليه القرد نظرة ثاقبة ، ولكنه لم يترك موقفه فحار الدكتور فى أمره ولم ير بداً من اطلاق النار على ذلك القرد الغريب .

وفعل . فسقط القرد مدرجاً بدمه فى البئر دون أن يلفظ صرخة وتقدم الدكتور فى الحال نحو البئر وانحنى ينظر إلى القرد فيها ويرى مقدار ما بها من ماء . لكنه وجد بها ما أدهشه . وجد ما ينيف على مائة قرد ساقطة كذلك فى الأعماق ، فتساءل عما أتى بكل تلك القردة إلى البئر ؟ وما تصنع فيها ؟

وفكر ثم فكر فاتضح له شىء عجيب : ان هذه القردة أتت فى

الحقيقة كى تشرب من البئر . وكانت وسيلتها للوصول إلى مائها الغائر أن وقف ذلك القرد الكبير وأمسك بيده قرداً ثانياً قد تدلى . وهذا القرد الثانى أمسك بثالث قد تدلى كذلك تحته والثالث برابع وهكذا جعلت بعض القردة من أجسادها سلماً تدلى فى البئر كى ينزل عليه ويصعد البعض الآخر !

أدرك الدكتور ذلك من هيأة القردة ، ومن أيدى بعضها التى ما زالت ممسكة بأيدى البعض .

فتعجب قائلا فى نفسه أى تضامن هذا الذى يرى من تلك القردة!

وأى تضحية قام بها ذلك القرد الكبير فى سبيل الجماعة !

هذا القرد الذى لم يشأ أن يتحرك وقد رماه بالحصى وصوب إليه النار . إنه كان ممسكا برفاقه المتدلين فى البئر . واستقبل الموت بعيون ثابتة وجسد جامد دون أن يترك مهمته . لقد كان فى استطاعته ترك رفاقه والهرب بنفسه راكضاً قافزاً إلى الغاب بمجرد رؤية الدكتور . . .

ندم الطبيب قليلا على قتله ذلك القرد . غير أن ما كان يشغل باله فى تلك اللحظة أمرا أهم من ذلك بكثير : الحملة عما قليل تصل منهوكة القوى . وسترتمى على البئر طالبة الماء . وهاهى البئر قد تلوثت بالدم والقردة فيه . ودون الوصول الى بئر أخرى مراحل يجب قطعها فى أيام وليال . وهل تستطيع الحملة الاستمرار فى السير أياماً

آخرى بلا ماء ! . . ثم من المتسبب فى كل هذا ؟ ومن المسئول عما حدث وعما يحدث من تعريض الجنود لخطر كهذا . ان اتلاف بئر أو تسميم بئر لهو فى قانون الجيش جريمة . . فكيف والمتسبب هو طبيب الجيش ؟ ! ! أى الموظف المكلف بمراعاة صحة الجنود ! والذى لا عمل له الا صحة الجنود ! ما كاد الدكتور يخطر له ذلك حتى ارتعد ولبث قليلا كالمذهول ، ولكنه صحا لنفسه فجأة وركض إلى الأدغال فى الحال ، وقد رأى أفضل طريق للخلاص من هذه الورطة أن يتجاهل كل شيء ويعود إلى الحملة ويسير خلفها دون أن يشعر به أحد ، كأنما هو لم يفارق الحملة قط ولم يسبقها إلى البئر ولا يدرى ما بها . . .

ولم تلبث الحملة أن بلغت البئر . وهرع الجنود اليها فرحين مهللين بعد أن انزلوا أحمالهم وأثقال دوابهم وأعدوا قرب مائهم الفارغة . .

وما كادوا ينظرون ويرون ما بالبئر حتى صاحوا ساخطين لاعنين ودب فيهم اليأس . وانقلب تهليلهم أنات غيظ وحزن . .

وكان الدكتور خلف الجميع يشاهد ذلك فى صمت وهو واجف قلق . غير أن أحداً لم يلاحظ ما فى نفسه .

وأخذت الحملة تتشاور فيما يجب عمله . والدكتور حائر يتوارى ويتجلد ، وإذا هو فجأه يشعر بشخص خلفه . فالتفت إليه وإذا هو يرى الجندى السودانى ينظر إليه نظرة فهم منها فى الحال أن ذلك

الجندى قد أدرك الحقيقة . . .

ولم ينبس الجندى بكلمة بعدئذ . بل تناول حبلا متيناً من بين الأمتعة ، وذهب إلى البئر صامتاوربط طرفه إلى حجر ثقيل وأدلى بطرفه الآخر فى البئر ، ثم صاح بالجميع أن ابتعدوا واختبئوا بين الأدغال القريبة . ولم يمض قليل حتى كانت الحمله مختفية خلف الأدغال تنظر إلى البئر عن كثب . وفى الحال أبصر الجميع من مخبأهم قرداً يبرز من البئر متسلقاً الحبل وقد تبعته باقى القردة ثم إذا هم يرون فى عجب قردين كبيرين فى آخر الجماعة يحملان القرد القتيل المدرج بدمه ، ويركضان به مع باقى القردة التى اختفت قافزة بين الأشجار.

وهكذا حلت البئر والمكان ، وأرادت الحملة أن تظهر من مكمنها وتجرى إلى البئر تنظف ما تلوث من مائها ثم تأخذ حاجاتها منها . لكن الجندى السودانى أشار بالتريث والسكون ، قائلا للدكتور الذى كان بجانبه فى همس ، إن القردة لا تترك ثأرها ولن تدع دم القتيل يذهب هدرا . . .

وحقاً لم يكد يتم كلامه حتى ظهرت القردة ثانية من كل فج من أرجاء الغابة ، كأنما ذهبت تلك الجماعة لتخبر كل قرود المكان وتعبىء منها الجيوش . واقتربت طائفة من البئر وجعلت تبحث بعيونها الضيقة الثاقبة وإذا هى تعثر على جندى من الحملة كان لسوء حظه متخلفاً عن زملائه مشتغلا باعداد الخيام دون أن يشعر أو يأبه

باختباء الباقين. انقض القردة على ذلك الرجل فألقوا به على الأرض... وشدوه شدا من قدميه، وجذبوه جذبا على الأرض وساروا به إلى داخل الغابة، وقبل أن يختفوا به قفز باقى القردة إلى الأشجار القريبة، فاقتطعوا منها أغصانا رفيعة كالسياط ونزلوا بسرعة البرق إلى هذا الرجل وانهالوا عليه ضربا . . . ولم تستطع الحملة انقاذ ذلك الجندى المسكين من أيدى تلك الطائفة الا بثمن غال : هو الإسراع باستئناف السير وترك تلك البقعة بعد أخذ ما تيسر من الماء على الرغم من تعب الجنود المضنى وحاجتهم القصوى إلى الراحة .

وهكذا خرجت الحملة من تلك المنطقة سريعاً ودخلت فى غابة أخرى كالمحيط اتساعا وكل أشجارها من نوع « الماهوجنى » الذى يصنع منه الأثاث الثمين .

استراحت الحملة فى هذا المكان وقتا ما . وكان الدكتور قد نسى فعلته وأخذ يفكر فى مواضيع أخرى وتأملات أثارها ما حوله من منظر تلك الأشجار . فكر فى تلك الثروة الهائلة التى يجنيها من يستطع استثمار أشجار غابة كهذه الغابة الثمينة . إن العقبة الوحيدة دون تلك الثروة صعوبة المواصلات . . فلو أن خطاً حديدياً يصل تلك المنطقة بمصر أو بالبحر لكانت الثروة مضمونة . . . فى المستقبل سيحدث ذلك . . . لهذا تريد انجلترا السودان لا لليوم بل للغد .

ولم يسترسل كثيرا فى هذه الأفكار. فإن الحملة سرعان ما غادرت

المنطقة واستأنفت سيرها إلى منطقة أخرى ، ثم إلى غيرها حتى بلغت « تونج » وهناك حطت رحلها قليلا ، واستطاع الدكتور أن يجوس خلال المكان ويرى غرائبه . وإن أروع مايذكره عنه أنه أبصر أسداً رابضاً يأكل غزالا بين مخالبه . وكان أحد الوطنيين السود يرقب الأسد عن كثب . وكأنما يتحين الفرص ليسلب الملك غذاءه وكان مع الدكتور جنديه السودانى . فقال له الجندى السودانى انظر ما سيفعله هـذا الزنجى الآن . إن الغزال فى هـذه المنطقة قليل . وهذا الزنجى يريد استخلاص الغزال من بين مخلب الأسد . ولم يتم قوله حتى أبصر الدكتور ذلك الزنجى يقترب من الأسد ويرشقه بحصاة متحرشا . لكن الأسد لم يأبه له كأنما هى بعوضة لمسته لا أكثر . فأعاد الزنجى الكرة بقطعة من الحجر أصابت الأسد فى رأسه . فالتفت الأسد إليه ثم انصرف برأسه عنه شأن المزدرى وعاد فاشتغل بفريسته . فتناول الزنجى حجراً أكبر من الحجر الأول وصوبه إلى أنفه وألقاه فى عنف . فلم يطق الأسد صبرا ونهض متثاقلا ثم تمطى ومشى ببطء نحو الزنجى . وقال الدكتور فى نفسه لقد ضاع الزنجى . وهلك إن لم يول الادبار فى الحال . غير أن الزنجى لم يتحرك من موقفه حتى أقبل الأسد ولم يبق بينه وبينه إلا ثلاث خطوات أو أربع . فتناول الزنجى رمحا قصيرا كان قربه على الأرض ثم واجه الأسد . والأسد إذا هاجم وثب . فلما هم بالوثوب على

الزنجى . انحنى الزنجى بسرعة البرق مقابلا بالرمح أسفل عنق الأسد . وإذا بملك الغابة قد خر صريعاً على الأرض والدكتور من دهشه وذهوله لا يدرى كيف وقع كل ذلك فى بضع ثوان . ! . إلا أن تكون براعة ومقدرة وخفة حركة وهبها ذلك الزنجى بطول المران منذ الصغر . ! . وتقدم ذلك الرجل بعدئذ إلى الغزال لحمله ومضى به تحت أنظار الإعجاب بهذا الذى انتزع الفريسة قسراً من براثن الأسد . ! غير أن الجندى السودانى لم يستغرب ذلك كثيرا . وقال للدكتور إن المهم فى قتال الأسد اجتناب لطمته لأن القوة كلها فى لطمته . فقد شاهد هو يوماً على شاطىء بحر الظراف أسدا ينزل الماء ليشرب فاعترضه تمساح هائل قبض بفكيه على إحدى ساقيه . وكان عراك هائل بين الوحشين بترت فيه ساق الأسد ولكن الأسد لطم ظهر التمساح بمخلبه كسره .

مضت أيام أخرى واستأنفت الحملة السير مخترقة هذه المرة مناطق تشبه السهول ذات طبيعة صحراوية قد نمت فيها أعشاب طويلة، يقطنها قوم يشبهون الأعراب، صناعتهم تربية قطعان الإبل والنوق، ويعيشون على ظهور الإبل فى مسكن كالهودج . ينتقل بهم ويتحرك تبعاً لانتقال القطعان وحركة الإبل التى ترعى العشب، وهكذا يظل أولئك القوم ساكنين متنقلين إلى غير غاية كركب سفينة تائهة وسط المحيط . أو كقبطان دهبية متنقلة فى النيل . . . والمعاملة فيما بينهم

بالابل و النوق . وفيما بينهم و بين الأجانب بالإبل و النوق كذلك أو بألبانها وفرائها وصوفها . وقد رأى الدكتور هذا فخطرت له أيضاً تلك الأفكار وقال فى نفسه حبذا تنظيم هذه المراعى الطبيعية الواسعة واستثمار صوف حيوانها وألبانها ...

وما وصل الدكتور فى حديثه ذلك العصر إلى هذا القدر ، حتى جاء الصيدلى طالباً يريد تركيب دواء ، فنهض مستأذناً واضطر الدكتور إلى قطع الحديث . . وهنا أخرج شعبان أفندى علبة شوقه وهو يقول معجباً بما سمع :

ـ دا شىء عظيم خالص يادكتور . !

وأطرق مفتش الصحه قليلا مفكرا ثم قال مستعلماً :

ـ وأرض الجزيرة دى إيه أمال ؟

فقال الدكتور حلمى :

ـ أرض الجزيرة دى خليها على جنب . دى ياافندم منطقة تنفع لكل شىء للقطن وللمطاط « الكوتشوك » . وأسهل شىء زرعها كلها غابات كوتشوك . دى كنز من كنوز المستقبل اللى فى السودان

فهز مفتش الصحة رأسه هزة معنوية وأطرق صامتا .

ثم فجأة رفع رأسه وقال :

ـ بلغنى يادكتور إنك رجعت بقرشين طيبين من السودان؟

فأجاب الدكتور حلمى .

ـــ قصدك القرشين ثمن الأفيال ؟

فسأل الباشكاتب متعجباً بعد أن عطس عطسة قويه :

ـــ أفيال ؟ ! !

فقال مفتش الصحة :

الدكتور كان اصطاد فى السودان ست أفيال وباع العاج اللى فيها بأربعة آلاف جنيه تقريبا أيام الغلا .

فقال شعبان افندى دهشا مستكثراً :

ـــ ياسلام ! أربعة آلاف جنيه ! أفيال ! أفيال إيه دول ياخويا؟؟

فأجاب الدكتور باسما :

ـــ أمال انت فاكر إيه ؟ الفيل الواحد فيه عاج بمتوسط ٦٠ قنطار ، والقنطار الواحد ثمنه النهارده ١٠ جنيه ، يعنى الفيل تقريبا يساوى ٦٠٠ جنيه : ولذلك كل واحد يحب يصطاد أفيال لازم يتحصل على رخصة من الحكومة . والرخصة رسومها باهظة .

فقال شعبان أفندى :

ياسلام ! دى السودان فيها خيرات عظيمة على كده . . .

ثم تنهد وقال :

ـــ يابختك يادكتور ! انت شوقتنا . لو كنت فى شبابى كنت غامرت ورحت بلاد الله لخلق الله . هو ياشيخ طول ما احنا قاعدين نايمين هنا نفلح . . .

ثم عطس عطسة ومسح أنفه بمنديله وقال :

— وكانت معاك العائلة يادكتور فى السودان؟

فأجاب الدكتور ومفتش الصحة معاً :

— ما كانش فيه عائلة لسه .

فقال شعبان أفندى :

— بقى حضرتك كنت أعزب أيامها . . . طبعا .

فأجاب الدكتور حلمى :

— بالطبع أنا تزوجت وخلفت بعد رجوعى من السودان . فين دلوقت بقى لى عشرين سنة . .

فقال شعبان افندى :

— عشرين سنة ابقا حضرت واقعة أم درمان . ؟

فقال الدكتور حلمى مفاخرا وقد صعر بخده وأنفه خيلاء :

— أم درمان وغيرها . معلوم . . أناحضرت مواقع حربية . . أنا مش بس طبيب أنا رجل عسكرى .

ومر فى تلك اللحظة ساعى البريد ، ونظر إلى الدكتور حلمى فقطع هذا الأخير كلامه وسأل الساعى كعادته عما إذا كانت له خطابات ، وقد اعتاد الساعى أن يمر بالأجزاخانه ويسلم الدكتور ماله من بريد بدل أن يذهب إلى المنزل . غير أنه فى ذلك اليوم تردد قليلا قبل أن يجيب الدكتور ، ثم دمدم بصوت خافت وهو يدس يده فى محفظة

الخطابات التي يحملها :

— لأ ... بس ده جواب . علشان ...

وكأنما رأى الساعى أخيراً أن ليس من اختصاصه التصرف على نحو معين بالذات وأن الدكتور هو والد المرسل إليها على أى حال . لاسيما والخطاب معنون « سنيه هانم كريمة الدكتور احمد حلمى » فلم يربدا من تسليم الخطاب إليه . وتناول الدكتور الخطاب وفضه دون أن ينظر إلى المكتوب على الغلاف وقرأ . فلم يفهم شيئاً بادىء الأمر . فأعاد القراءة فلم يفهم . فنظر إلى الغلاف ففهم . ونهض فى الحال مستأذناً وقد تغير وجهه وخيل إليه أن شرفه العسكرى قد أهين وقصد تواً منزله كى يسأل ابنته الحساب .

ودخل البيت فاستقبلته زوجته فصرخ فيها وأراها الخطاب وأفهمها مضمونه . فأخذت تهدىء من حدته وتقنعه بوجوب إخفاء ذلك عن ابنته حتى لا يثير فضيحة . وحتى لا يسىء إلى جارتها زنوبه وتعهدت أن تذهب هى الى زنوبه وتشكو إليها ما حصل ، وتجتهد فى إصلاح كل شىء بالهدوء والحسنى . . ثم أفهمته أن ابنته سنية قد تكون مظلومة ، ولا تدرى شيئاً عن خطاب بعثه جارسيء السلوك والأدب ، فلماذا يغضب ابنته ويكدرها من أجل شىء ليست بمسؤولة عنه ، وليس الذنب فيه ذنبها .

وهكذا ظلت به حتى سكت » ومرت الحادثة .

الفصل الثامن عشر

انتهى مبروك الخادم من أمر «الطرد» ووضعه جانبا .. واقترب يسأل عما يلزم بعد ذلك تأهبا لسفر محسن . فنهضت زنوبه فى نشاط واهتمام ، كأنما تتملق محسن الآن وقد قرب سفره ، كى يذكرها بالخير لدى أهله الموسرين . وأمرت مبروك فى الحال أن يصعد إلى حجرة السطح ويأتى بحقيبة محسن . وأشارت للفتى أن ينهض أيضا ليدلها على ما يأخذه معه من حاجياته ، وما يتركه فى حفظها حتى يعود . وهكذا أخذا يجردان ويفرزان الملابس والحاجات . وإذا مبروك بأعلا السلم يصيح بزنوبة مناديا . . فهرعت إليه فأخبرها أن سنية على سطح منزلها تريد محادثتها . فصعدت زنوبه وظل محسن وحده ، وقد دق قلبه وتساءل عما تريد قوله الآن ومر نحو ربع ساعة ، ونزلت زنوبة تستأنف عملها فنظر إليها محسن باعين المستفهم ولكنها كانت ملتفتة إلى جلباب له فى يدها تثنيه لتضعه فى الحقيبة وهى تقول :

— إياك تنسى الجوابات يامحسن ! اكتب لى أنا رخره مش بس تفكر فى أعمامك وأنا لأ زى السنة اللى فاتت .

فأجاب محسن بلطف :

— السنة اللى فاتت عمى حنفى كتب لى رديت عليه وبعت لك السلام مش اللى يكتب لى أرد عليه ؟ .

فقالت زنوبه على الفور :

— ياعينى على ! بس لو كنت أعرف أقرا واكتب ؟ ! ياما غلبت السنة اللى فاتت أقول لأعمامك يكتبوا لى جواب وهم ساعة يكسلوا وساعة يقولوا بعتنا من طرفنا بزيادة ، هى سيرة جوابات . لكن السنة دى والنبى لازم يوصلك منى جواب خصوصى . سنيه اسم الله عليها رايحه تكتب لى

فاضطرب محسن وقال مندفعا :

— سنيه ؟ !

فهزت رأسها إيجاباً وقالت له إن سنيه نادتها الساعة لتستعجلها فى الذهاب إليهم كسابق وعدها ، ولكنها اعتذرت بانهما كها فى تجهيز أمتعة محسن . فلما جاء ذكر محسن قالت سنيه لزنوبه فى رقة ألا تنسى تذكر سلامها وسلام والدتها كلما كتبت إليه فأخبرتها زنوبة أنها فى حيرة، إذ أن أخواتها لا يكتبون لها أى جواب إلا بالإلحاح المضنى . ففى الحال عرضت سنيه أن تقوم هى بكتابة ما تمليه عليها زنوبة . وأنها مستعدة أن تكتب لها إلى محسن كل ما تريد : خطاباً خطابين ثلاثة . فشكرتها زنوبة وفرحت حامدة الله إذ أغناها عن الاعتماد على مثل حنفى .

غير أن فرح زنوبة لا يقاس إلى جانب فرح الفتى محسن الداخلى وهو يتصور خطاباً يصله مكتوباً بيد سنيه . ورقص قلبه رقصا

وجعل من الآن يرحب بالسفر لا لشئ سوى انتظار هذا الخطاب المحبوب .

جاء الليل والتف «الشعب» حول محسن قبل أن ينام . يودعونه ويذكرونه بما يطلبون من الأرياف من هدايا يأتيهم بها عند عودته ، فالبعض يطلب « برام » أرز بالحمام . والبعض يطلب لبنا « رايب » و « بتاو » . الخ الخ .

ودخل محسن سريره فرحا وهو يوصى حنفى بسرعة الاستيقاظ فى الصباح إذ أن السفر فى أول قطار . وكان على حنفى افندى مهمة مرافقة محسن إلى المحطة و « قطع » التذكره له . بصفته رئيس الأسرة المسئول .

ولم ينم محسن تلك الليلة . فقد ظلت صور يومه اللذيذة تتعاقب فى مخيلته . وظل يرقب الصبح بفارغ الصبر اغتباطا بالسفر ، حيث يرى أهله بعد طول غياب ويرى الريف . وبالأخص ينتظر الخطاب الموعود .

وبدت تباشير الفجر . ثم دق جرس المنبه . وكانوا قد هيأوه البارحة على الساعة الخامسة . فنهض محسن قافزاً . واتجه تواً إلى سرير حنفى يوقظه وهو يعلم أنه عمل شاق : إيقاظ حنفى !

ورفع عن رأسه الغطاء وناداه فلم يجب . فكرر النداء مرة ومرتين وثلاث . فلا فائدة .

وأخيراً تقلب حنفى أفندى فى فراشه وقال متبرما :

— ياسلام ! تقلق منامنا نص الليل ! دا كانش سفر !

فصاح به محسن :

— نص الليل ازاى ؟ الشمس طلعت !

فدمدم حنفى والنوم ملء جفنيه :

— هو لسه الجرس ضرب !

فقال محسن متهكما :

— هوه . هوه . ! انت نايم ! دا ضرب وشبع ضرب .

فلم يقتنع حنفى بادىء الأمر . وطفق محسن يقنعه بالكلام وطالت بينهما المناقشة والجدل فى الساعة والمنبه وضرب الجرس وكلها مماطلة . واستفادة وقت ينامه حنفى . وسمع عبده أخيرا المجادلة فنهض مغبا وذهب إلى حنفى وأيقظه بالطريقة المعهودة قائلا : إن حنفى لا ينفع فيه غير ذلك .

* * *

ما انتصفت السابعة حتى كان حنفى ومحسن فى محطة باب الحديد . وقد وقف محسن و « طرده » وحقيبته تحت ساعة المحطة فى انتظار حنفى الذى ذهب « لقطع » التذكرة منذ ربع ساعة ولم يعد ... وتململ محسن فى موقفه ونظر إلى الساعة فى قلق ، وقد رأى المسافرين يهرعون أفواجا إلى القطار الواقف . ومضت دقائق

أخرى .وبق على تحرك القطار خمس دقائق ولم يظهر حنفى .

ودق الجرس الأول فالتفت محسن يميناً وشمالا مضطرباً باحثا بعينه . ولكن حنفى لم يبدله أثر . ومر الوقت والناس المتأخرة تجرى نحو القطار والحمالون يصيحون أن لم يبق غير دقيقة ، وأخذ الفتى فى يأس ينظر إلى عقرب الساعة الكبيرة فوق رأسه . وأخيراً صاح العامل : « أوعى رجلك » وصفر القطار و . . تحرك رويدا رويدا ثم غادر المحطة . حتى اختفى عن الأنظار . كل ذلك وحنفى لم يرجع بعد .

كظم محسن غيظه وأراد أن يستدعى حمالا يعهد إليه بأمر العفش ريثما يذهب هو للبحث عن حنفى . وإذا فجأة الرئيس الشرف يظهر آتيا يجرى والتذكرة فى فمه وهو يتصبب عرقا . فلما دنا من محسن مد له يده بالتذكرة وصاح به

— خد اركب قوام ألا مفيش وقت !

فنظر اليه محسن نظرة باردة وقال له بفتور وغيظ وقد جمد فى مكانه :

— هو فين القطر ؟ !

فالتفت حنفى إلى حيث يقف القطار عادة فلم يره ، فاطمأن وهدأ وأخرج منديله ومسح جبينه ثم قال :

— لسه ماجاش ! مش ! قلت لك احنا قمنا بدرى ؟

فاستشاط الفتى وقال ساخطاً :

ـــ ماجاش !! القطر قام من مدة ساعة . ! .

فأجابه حنفى كأنه غير مصدق :

ـــ كلام إيه ؟ انت متأكد ؟ .

فقال له محسن ببرود :

ـــ انت كنت فين ؟ رحت فين حضرتك ؟

فأجاب الرئيس شرف :

ـــ ياأخى رحت أقطع لك التذكرة . لقيت الناس زحام كده على الشباك ! قمت قلت فى عقل بالى اقعد انتظر شويه على الدكه . .

ـــ أى دكه !

ـــ أناعارف ؟ دكة خضرة هناك بمسند .

فأضاف محسن بسرعة فى غيظ مكنوم :

ـــ قامت راحت عليك نومه ! . . .

(انتهى الجزء الأول)

توفيق الحكيم

عودة الروح

٢

« انهض . انهض يا أوزوريس ! »
« أنا ولدك حوريس . . . »
« جئت أعيد إليك الحياة . . . »
« لم يزل لك قلبك الحقيقي »
« قلبك الماضي . . . »
كتاب الموتى

الناشر : مكتبة الآداب بالجماميزت : ٢٤٧٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

الفصل الأول

ركب محسن القطار التالى . وما كاد يستقر فى مقعده بركن « الديوان » قرب النافذة حتى انعزل عن بقية المسافرين وانطلق إلى نفسه وخيالاته وتذكاراته وسنيه وموقف الأمس . . الخ الخ . وذهب عنه صخب المحطة وقلق الانتظار وشغل السفر واستعداداته وتمهيداته . وهاهو ذا الآن أمام الواقع وقد ابتعد به القطار عن مصر المحبوبة . وقد ترك حنفى افندى على الرصيف يجرى خلف القطار ويشير إليه بعلامات الوداع ويصيح فى سذاجة مؤثرة « مع السلامة يا محسن ! »

هذا «الرئيس» حنفى الذى كان محسن ساخطاً عليه منذ قليل ، ما أطيبه نفساً ! لقد حمل له « الطرد » والحقيبة حتى أدخلهما عربة الدرجة الثانية وهو يتصبب عرقا . أهو فى حقيقة ! أغادر مصر حقاً بهذه السرعة ! . وأعمامه الرفاق «الشعب» وحنفى «الرئيس الشرف» . . أسيبيت الليلة فى بلد آخر وفى سرير آخر ! تأثر محسن قليلا واكتأب ولم يرفه عنه إلا تذكره أن سفره لمدة قصيرة . . . وأنه سيحظى بخطاب سنيه . . . ذلك الخطاب الذى ينتظره من الآن ولم يبرح بعد . . . والذى سيكون أثمن ما يملك فى الحياة . ثم . . . شىء آخر سيعزيه عن مصر : رؤية والدته العزيزة ووالده . .

التفت محسن بعدئذ إلى من معه من المسافرين ، فإذاهم عديدون مابين معمم ومطربش . وقد امتلأ بهم « الديوان » حتى لم يبق محل خال . وكانوا إلى تلك الساعة ساكتين . غير أنهم كانوا يترامقون كأنما هم لا يطيقون الصمت والعزلة ويودون لو يهم أحدهم بالكلام

ولم يلبثوا أن أطل عليهم رجل ضخم الجسم ، يلبس قفطانا من الجوخ ويحمل «صرة» . وأخذ يتفرس فى وجوههم كأنما يسألهم محلا خاليا ، وكانوا قبل ذلك يرونه فى ممر العربة المستطيل يمشى جيئة وذهابا بصرته باحثا عن مقعد فتناظروا لحظة ثم أفسح أحدهم بجانبه شبرين ، حاشرا الباقين عن يمينه وعن يساره حشرا صارما وقال للرجل :

— تفضل ياحضرة كلنا مسلمين نساع بعضنا ...

فدخل الرجل بصرته وجلس . . وعندئذ مال أفندى من « ركاب الديوان » على جاره وحادثه بصوت بدأ خافتا خاضعا ، وانتهى بعد لحظة جهوريا علنيا كأنما يريد به إشراك الباقين فى الاصغاء إلى مايقول. وأخذ الباقون حقيقة يحولون الأنظار إليه فى لذه وانتباه كأنما هم ينصتون إلى خطيب فى مسجد أو واعظ فى كنيسة .

وشجع المتكلم إقبال الحاضرين فاندفع يتسلسل من موضوع إلى موضوع .

وكان قد استهل كلامه بمناسبة إفساح المحل للراكب الجديد فذكر فى إعجاب عواطف الارتباط والتضامن القلبى بين أهل مصر وقال لو أن هذا

حدث فى أوربا لما تحرك أحد من المسافرين ولو كانت تجمعه والقادم صلة معرفة أوصداقة . . . فهو لن ينقص من راحته لأجل أحد مهما يكن. ثم أردف قائلا على ذكر أوربا إنه كان مرة راكباً قطاراً فى إحدى بلدانها .

وهنا قاطعه أحد الركاب المعممين فى إكبار ساذج :

ــ حضرتك رحت بلاد بره ... ؟

فأجاب الأفندى بابتسام وتواضع :

ــ رحت بلاد النمسا وبلاد الانجليز وفرنسا . لأن كان لى أشغال تجارية

وعاد الأفندى إلى موضوعه وقال إنه كان مرة راكباً القطار فى أوروبا ، وقضى فيه يوما وليلة دون أن ينبس ببنت شفة ، لا هو ولا أحد من جيرانه المسافرين معه فى ذات الديوان ، كأنما كل فرد منهم ابن كوكب غير كوكب الأرض . لا أنهم كلهم بشر لهم قلب واحد وعواطف واحدة .

فتنحنح شيخ فى ركن الديوان ثم قال :

ــ بلاد مافيهاش إسلام !

فلم يجب الأفندى وتغير لون وجهه قليلا ، ومد يده متشاغلا بنفض تراب السفر عن طربوشه فى شىء من الخجل والامتعاض. وعندئذ لاحظ أحد الركاب فى معصمه علامة الصليب فأيقن أن

الشيخ قد فاه عن حسن قصد بكلمة أسيء فهمها . فتدخل مصلحا بلطف .

— قصدك ياسى الشيخ بـلاد ما فيهاش قلوب ... مش زى بلدنا سواء أقباط أو مسلمين كلنا إخوان ...

ولاحظ أيضاً راكب آخر ذلك ، وكان من المتنورين ، فدخل فى الحديث وأخذ يستدرك الكلام بكياسة حتى وصل إلى إفهام الحاضرين ، أن كلمة « اسلام » الشائع استعمالها وترديدها فى مصر بين بعض الأوساط ، ليس لها فى الحقيقة أى صبغة دينية أو طائفية وإنما معناها ومغزاها عاطفة الرحمة وطيبة القلب وارتباط الأفئدة ، عواطف يجدها الإنسان فى مصر ولا يجدها فى أوروبا ، حيث فشا فى نفوس الأفرنج سم النفعية وعم التكالب على المصالح الشخصية الفردية

فتأمل الجميع من معمم ومطربش هذا الكلام وهذا التفسير وكأنه كشف لهم عن حقيقة كانت من قبل متوارية تحت لبس تلك الكلمة . واستحسنوا الكلام واعجبوا به ، وختم الموضوع . وجاء واحد من الحاضرين يريد العودة بالأفندى المتكلم الأول إلى حديثه فقال له :

— بقايا حضرة الأفندى فى بلاد بره يطيق الواحد ما يكلمش جاره فى الوابور .. ؟

فدخل آخر قائلا :

— طيب دا الواحد منا ولا مؤاخذه يركب قطر السكة الضيقه

نص ساعة ينزل عارف اللى راكبين كلهم ... وقال ثالث :

— وليه تروح بعيد ، أدحنا لسه ما وصلناش بنها وحلت لنا البركة بحضراتكم ...

ثم أخذ يجيل بصره فيهم فردا فردا مبتسماً كأنما يحييهم . وأخيرا وقع نظره على الفتى محسن قابعاً منزوياً ولم يحس أحد وجوده . فوقفت عنده عيناه قليلا كأنما استغرب سكوته وقد تكلم الجميع . وكأنه أراد إخراجه من عزلته فانحنى عليه بأدب وقال له بلطف :

— مش كده وإلا أيه يافندى ياصغير ؟

فالتفت إليه الفتى حائرا ، وتمتم فى حياء بضع كلمات ، ثم أدار وجهه إلى النافذة عائدا إلى سكوته وعزلته . فانصرف عنه محدثه ولم يلح ونسب ما رأى منه إلى صغره وخجله وأدبه أن يتكلم وسط من هم أكبر منه سنا .

وعاد الجميع إلى الكلام فى شتى الموضوعات حتى بلغوا محطة بنها. فأطل بعضهم من النافذة واشترى كعكا وبيضاً وبرتقالا ويوسففاندى وفرش بعضهم منديله فى حجره وهو يعزم على الحاضرين :

— تفضلوا معانا ...

فيجيبون :

— عشت ... !

وتحرك القطار وغادر بنها . واشتغل الركاب برهة بالأكل إلا

الأفندى المتكلم أولا عاد يقول ملاحظا :

— بمناسبة « تفضلوا معانا » يبقى الراكب من دول فى أوروبا يطلع السجاير ويأكل ويشرب ولا يقول لجاره إنت فين . .

فاستغفر الحاضرون مستنكرين . وأخذ كل يبدى رأيه فى ذلك واستطرد الأفندى يقول مفاخرا :

— أهل مصر شعب أصيل عريق فين ٨ آلاف سنة واحنا فى وادى النيل ! وكنا نعرف الزراعة والفلاحة ولنا قرى ومزارع وفلاحين وقت ما كانت أوروبا لسه ماوصلتش حتى لدرجة التوحش ...

فقال الرجل ذو « الصرة » بعد أن بصق بصقة كبيرة من النافذة :

— صدقت . الرك على الأصل ياسيدنا الافندى !

وهنا قال الأفندى المتنور كأن فكرة بدت له :

— لك حق يا أفندم . احنا من غير شك شعب اجتماعى بالفطرة . والسبب هو أننا شعب زراعى من قديم الأزل فى الوقت اللى كانت فيه الشعوب الأخرى تعيش عيشة الصيد والتوحش والانفراد ، كل قبيلة أو كل أسرة فى مكان . . لكن إحنا من قبل التاريخ ، كانت القرى وكان العمار ساكن وادى النيل . . الاجتماع فى دمنا والحياة الاجتماعية طبيعة نشأت فينا من أجيال . .

الفصل الثانى

وصل القطار أخيراً إلى محطة دمنهور فأطل محسن على الرصيف، ووجد بانتظاره البربرى « السفرجى » والأوسطى أحمد الحوذى، وما كادا يتعرفانه حتى تعلقا بمركبة القطار وصاحا :

— حمد الله على السلامة يابيه !

— شيل العفش يابلال واسبق ...

— والبيه الصغير ؟ ..

— أنا أوصل البيه الصغير ؟ .. تفضل يا بيه ! ..

وهكذا نزل الفتى وسار بين الخادمين كالمستغرب . وكلمة «بيه» ترن فى أذنه رنيناً غريباً . غير أنه لم يكره ذلك هذه المرة وشعر بشعور غريب من الخيلاء، وودلو أن سنية كانت حاضرة لترى وتسمع ...

وركب العربة ذات الجياد تتهادى به وسط هذه المدينة المتواضعة والناس على جانبى الطريق فى المقاهى والدكاكين ترمقه، وكأنها تتساءل عن هذا الفتى الراكب عربة الوجيه المعروف . وبلغ المنزل وإذا والدته تنتظره بأعلى السلم فما رأته حتى فتحت ذراعيها ومارآها حتى اندفع إليها فى حركة غريزية وإذاهما متعانقان . والأم تلمع فى عينها دموع التأثر والفرح . وكلما فرغت من عناقه عادت إليه .

وأخيراً أخذت تفحصه من رأسه إلى قدميه وتجسه وتلمس أعضاءه كأنما تتفقدها عضوا عضوا . وفى النهاية ابتسمت وقالت له:

— بسم الله ماشاء الله ! إنت سمنت يامحسن .

ثم أدخلته إلى الردهة وأجلسته بجانبها ، وطفقت تسأله عن مصر وعن عمته وأعمامه . . وعندئذ دخل أبوه فنهض محسن وهرع إليه يقبل يده ، ثم وقف حتى جلس أبوه فجلس . وحينئذ سأله أبوه :

— إيه يامحسن ؟ إزاى امتحان وسط السنة ؟

فتململ الفتى قليلا وقال :

— مفيش السنة دى امتحان وسط السنة . لغوه . .

فقال أبوه فى شىء من الدهش والأسف :

— لغوه ؟ إزاى ! مالهمش حق أبدا . .

وطفق بعدئذ يسأله عن الدروس وعن أساتذته ، وعن امتحان الكفاءة الذى سيتقدم إليه محسن هذا العام . إلى أن تدخلت والدته قائلة لزوجها منتهرة :

— ياباى عليك ! تصبر عليه لما ياخد نفسه ؟ أيوه أسأله الأول عن صحته وعن صحة أعمامه . إيه قلة الذوق بتاعتك دى ؟ !

ثم نظرت إلى حذاء زوجها وقالت :

— برده لابسها ؟ مش قلت لك اقلع جزمتك دى ؟ ما يلقش عقامك أبدا تلبس جزمة زى دى . . . إنت عندك جزم كتير . ليه

بقا تلبس دى ؟ انت مركزك مش صغير فى البلد . .

فأجابها الزوج وهو يخلعها :

ــ أنا نسيت . حاضر ياهانم ما تزعليش !

يا على . ! يا على .

فلبى نداءه بربرى آخر ، غير الذى رآه محسن بالمحطة. وكان لابسا قفطاناً أبيض ومتمنطقا بحزام أحمر . فأمره البك الكبير بإحضار حذاء آخر على عجـل .

وجعل الفتى محسن عندئذ يجيل النظر فيما حوله من طنافس غالية ، ورياش فاخرة ، ونقل بصره فى أدب إلى والدته ونظر إلى ما عليها من ملابس ثمينة .

وكانت والدته فى تلك الأثناء تنظر إليه هى الأخرى فمالبثت أن قالت :

ــ لبسك مش عاجبنى يامحسن .

فغمغم الفتى بكلمات مبهمة . واستطردت الأم تقول :

ــ انت ماطلعتش زيى أبداً .

وهنا تنحنح أبوه وقال :

ولا زيى .

فالتفتت الزوجة إلى زوجها وقالت فى تهكم :

ــ من إمتى ياحضرة العمدة . الفلاح . انت تنكر انى أنا اللى

مدنتك وعلمتك الأبهة ؟

فأجاب زوجها متقهقرا :

ــ الله وانا قلت حاجة ؟ طبعاً انت ياهانم تركية بنت اتراك.

فسكتت قليلا ثم انصرفت عنه إلى محسن وقالت :

صحيح شيء غريب . محسن ماطلعش زيي .. من صغره كان يبكى ويصرخ نهار ما نبعت له العربية الملاكى على باب المدرسة . فاكر؟

فقال أبوه وهو يشد جواربه الحريرية الغالية :

ــ فلاح ! تقولى له إيه ؟

فأطرق محسن لدى سماعه هذه الكلمة . وقد أحس عاطفة كالازدراء لا يدرى ألنفسه أم لغيره :

* * *

مدت مائدة العشاء وجلس إليها محسن ووالدته ووالده. وجعل بلال البربرى وعلى البربرى وكلاهما بملابسه البيضاء وحزامه الأحمر، كأنهما من برابرة فندق شبرد ، يتنقلان بالصحاف والأوانى ذات الألوان المتعددة والأطعمة اللذيذة. ومع ذلك كان محسن فاقد الشهية للأكل ، يتناول من كل لون لقمة ، كأنما يقضى واجباً عليه. ولاحظت والدته قلة أكله ، فسألته فى ذلك قائلة :

ــ مالك يا محسن ؟ الأكل مش عاجبك ؟ عند أعمامك الأكل أحسن ؟

فكاد الفتى يضحك إذ ذكر قصعة الفول النابت وورك الأوزة الذى قذف به عبده من النافذة . . ومع ذلك . ومع ذلك فقد كان هذا الفول النابت لذيذا فى فمه . . لذيذا وهذ يلتهمه وبجواره مبروك الخادم . يرشف نصيبه وعيناه اللامعتان ترمقان الدخان المتصاعد، وخياشيمه تستنشقه فى شهية قوية ثم حنفى، الرئيس الشرف وباقى الجماعة وهم مجتمعون حول هذه القصعة كأنها كعبة . .

ما أسعد الجماعة ! وما أحسن تلك الحياة مع الشعب ! نعم لهذا كان يأكل . ولهذا سمن مع سوء الغذاء وقلة الألوان .

* * *

وجاء ميعاد النوم . وقادوا محسن إلى حجرته الخاصة . حجرة جميلة غالية الفرش . وأغلق عليه الباب . وقد أوى كل إلى مخدعه، فتأمل محسن ما حوله فاذا سرير واحد . وإذا هو وحده . بمفرده . وإذا الهدوء شامل . والسكون كأنه سكون الموت، فاكتأب لهذه الوحدة وأوحشه المكان . وحن إلى سريره بجوار أسرة أعمامـــه فى تلك الغرفة « العمومية » ذات الخمسة الأسرة ينحشر فيها « الشعب » بأجمعه حشرا ، واشتد به الحنين ولما يمض به ليلة . حتى أدرك أنه كان هنـاك فى نعيم . وأن هناك إنما هى الحياة ، وما كانت أهنأها حياة . حيـاة الجماعة تلك . . حتى فى متاعبها ولحظاتها الشقية . !

الفصل الثالث

استيقظ محسن فى اليوم التالى ضيق الصدر ضجر النفس وجعل يتنقل فى أرجاء المنزل الرحب ويتأمل مايقابله من أثاث أنيق ومقتنيات فاخرة تأمل غير المكترث إلا أنه ذكر سنيه فجأة فتغير شأنه ، وانتعش فيه شيء من الزهو ، فأقبل ينظر إلى ماحوله من جديد فى اهتمام . وجاءت والدته اليه ترفل فى ثوبها الجميل فنظر إليها محسن معجباً وود لو أن سنيه رأت والدته هذه . ومر أبوه فى بذلة غير بذلة الأمس وفى يده عصا ثمينة ثقيلة عليها نقوش ذهبية بديعة فذكر الفتى فى الحال كلمة والده بالأمس :

— فلاح ! تقولى له إيه !

فخجل قليلا من نفسه واستغرب كيف أنه ابن لهذين الوالدين ولا يكون مثلهما . ووطن نفسه على التشبه بهما من الآن . فهو ليس بعد صغيرا وعليه أن يفهم حقيقة مركزه . وارتاح لهذه الفكرة فراح يتقرب إلى والدته ويتمسح بها كأنما يطلب إليها أن تطلعه على أسرار حياة الأبهة هذه أو أن تفحمه أو تجعله يتذوق تلك الحياة . .

ولكن هذا كله كان وهما : وما كاد اليوم الأول ينصرم حتى عاد الملل يقتل محسن . وذهبت عنه الحماسة والنشوة وذهب الخيلاء . . وأحس تلك الحقيقة فى قرارة نفسه : إنه غريب بين أهله ، وأن

شيئاً لا يستوضحه يفصل بينه وبين والديه . وإنه مهما صنع فلا بد من تلك الكلفة والغموض بينه وبينها . فليدعوانه فلاحا ماشاءا . . فهو لن يستطيع أن يعيش كما يريدان . إنه فى حاجة الى تلك الحرية وذلك الهواء الطلق ، الذى كان يستنشقه بين أعمامه السذج المتواضعين ومهما كان من أمر هذا المنزل بخدمه ونعمه فهو يغل نفسه باغلال ثقيلة لا طاقة له بها .

وأنشرح صدره لهذه الخواطر فأمعن فيها بروح ثائرة لم يعهدها فيه من قبل . وكانت كلمة فلاح التى لفظها أبوه أمس مازالت تذل نفسه فثار فى سره على أبيه ، وجعل يستعرض فى ذهنه شخصية أبيه ونشأته . أليس هو فلاحا أيضاً قبل كل شىء . أو لم يكن فلاحا من ذوى الأطيان ولايزال . ما الذى غيره ؟ أهى ملابسه وعصاه الثمينة وأحذيته وجواربه وخواتمه الماسية ! !

أليس هو التقليد . أليست هى والدته التركية الأصل التى أثرت فى أبيه باسم التمدن ؟ نعم ولكن بأى حق يزدرى الآن الفلاح . ألأن الفلاح فقير ؟ وهل الفقر عيب ؟

وهكذا ظل محسن يقلب فى رأسه افكاراً من هذا النوع ، وهو يتبرم بالمكان ويستوحش هذه الحياة ، ولا يتصور كيف يقيم كذلك عشرة أيام وهو المتبرم باليوم الأول . وحن إلى منزل أعمامه حنين السمكة إلى مائها . وخطر له أن يتذرع بحجة للسفر والرجوع من حيث

أتى . . غير أنه ذكر خطاب سنيه الذى ينتظره ، فسكت وأذعن وذكره ذلك بوجوب الكتابة إلى أعمامه يخبرهم بوصوله ، فنهض لفوره إلى المكتب وأخذ يكتب لهم خطابا يصف فيه شوقه الصادق. ثم أفرد خطاباً خاصاً لعمته زنوبه يسلم عليها فيه ، ويرجو منها تبليغ سلامه إلى سنيه هانم بعبارات غاية فى الرقة ، وكأنه يتوقع أن تطلع سنيه على هذا الخطاب فكتبه كأنما يكتبه لها . . .

* * *

لاحظت والدته سأمه فأشارت عليه بالنزهة فى العربة بضعة أيام . . حيث الأرض الآن يكسوها البرسيم كالبساط الأخضر . فوافق محسن مبتهجاً . وأمرت والدته بالعربة فهيئت وأعد مايلزم للاقامة ببيت العزبة

وما جاء العصر حتى كان محسن ووالده ووالدته وبعض الخدم فى الطريق إلى « . . . » وهى تبعد عن مدينة دمنهور بمقدار « . . . » مابلغت العربة « الجسر » وجاوزت الجميزة الضخمة القائمة على مدخل « الجرن » حتى نبح كلب العزبة وظهر خلفه « الخولى » وشيخ العزبة وبعض أنفار « الوسية » ، وسكت الكلب إذعرف القادمين . وأحاط « الخولى » والشيخ ومن معهما بالعربة يستقبلون ويخصون محسن بالترحيب قائلين وهم يساعدونه على النزول إلى الأرض :

— ياتلتميت ألف مرحباً بالبيه الصغير !

— العزبه نورت بجناب البيه الصغير !

وقال شيخ العزبة ولحيته البيضاء الوقورة تهتز إذ يتكلم :

— سلامات يا حضرة البيه . سلامات ياحضرة البيه الصغير سلامات يا حضرة الست . سلامات . ! سلامات كده ! .

واقترب أحد الأنفار » من محسن وقال له :

— مش فاكرنى ياجناب البيه ؟ أنا عبد المقصود اللى كنت توصينى أيام مدرسة دمنهور ، أحضرلك الركوبه يوم الجمعه ونطلع نصطاد السمك فى ترعة أبو دياب . مش فاكر ؟ بالأمارة كنت تركب الجحشه نص السكه ، وتنزل تقول لى اركب يا عبد المقصود انت كمان . أقول لك يابيه أنا مش تعبان . احنا فلاحين واخدين على المشى ، تقوم تزعل وتقول لازم تركب انت كمان . مش فاكر يابيه؟ فابتسم محسن وسكت .

وفى هذه الأثناء كان والد محسن ووالدته يحادثان الناظر والشيخ فى شئون الزراعة ، ويأمران وينهيان وناظر العزبة يجيب فى أدب :

— كل شىء تمام ياحضرة البيه . والمصارف أجرينا تطهيرها والربع القبلى قصبناه للدرة . والبرسيم السنه جنابك شايفه ماشا الله عليه . سنه خضرا بقدوم البيه الصغير !

فالتفت البك الكبير إلى شيخ العزبة وقال :

وأنت يا شيخ حسن ! إيه حكاية عرجاوى والغفر البدو . ؟

— انتهت على خير يا حضرة البيه .

— أيوه . مش عايزين مشا كل بين البدو والفلاحين فى العزبه

— مفيش مشاكل يابيه . صالحناهم على بعض بحضور وكيل العمدة وشيخ الغفر . والعزبه هاديه . بدو وفلاحين صافيه لبن . .

ومشت الست نحو بيت العزبة فتبعها زوجها ومحسن والجميع . وطفق الشيخ حسن يقول فى الطريق :

— شرفتوا العزبة ! والله سلامات .. سلامات ياحضرة البيه ! سلامات ياحضرة الست ... سلامات يابيه ياصغير . ! . سلامات كده . . .

وضاق صدر الست ، فصاحت بالشيخ المسكين :

— دوشتنا بقا . . هى سيرة سلامات . ! انتم ليه كده لكاكين يا فلاحين . !

فامتعض الشيخ قليلا وخجل لكنه قال مبتسما :

— ربنا يطول عمركم ! ماحنا ياحضرة الست فرحانين بكم فتأثر محسن قليلا . ولكنه سار خلف والدته ساكتاً مطرقا . ووصل إلى علم الفلاحات قدوم أصحاب «الوسيه» فحضرن يزغردن . وتقدمت أجرأهن تريد أن تتناول يد الست تقبلها فانتهرتها الست قائلة بازدراء :

— بعيد ! ... بعيد حاسبى توسخى فستانى !

فأجابت الفلاحة فى حلم وبشر ضاحكة الوجه :

— يوه ! مش ستنانبوس ايدها ! امال نبوس ايد مين ؟

فأشارت الست بيدها علامة الابتعاد . وتدخل الناظر ينفذ رغبة الست فرفع ذراعه فى الفضاء مرهباً ، كأنما يرهب أوزاً أو دجاجا وقال :

— يلله ياوليه انت وهيه ! على داركم .. على داركم ..

فتقهقر النسوة وتراجعن إلى الوراء نحو دورهن . وهن مستمرات يزغردن . . .

فاقترب محسن من والدته . وقال فى نبرة التأثر :

— ليه يانينه تطرديهم ؟ حرام ؟ ..

فأجابت بجفاء وقلة اكتراث ، وهى تجتاز باب البيت :

— حرام إيه .. دول فلاحين !

الفصل الرابع

ما كاد محسن يستقر ساعة فى غرفته ببيت العزبة ، حتى كان وقت الغداء . . فمدت المائدة ووقف على رأسها الخادمان النوبيان كالمعتاد ، وجاءت الست يتبعها زوجها ومحسن . وما نظرت إلى طبق الخبز « البلدى » على المائدة حتى صاحت :

ــ الله ! فين العيش الفينو ؟

فغمغم أحد الخادمين :

ــ مفيش . . .

فزجرت الست :

ــ نسيت تجيب عيش فينو معاك من دمنهور ؟ كويس قوى . . وأنا آكل ايه دلوقت ؟

ــ أروح ياستى اجيب من دمنهور وآجى حالا .

فسكتت الست لحظة . . . ثم عادت فقالت بعد أن ألقت نظرة على الشمس المتوهجة فى الخارج :

ــ الدنيا حر عليك يابلال . قل لواحد فلاح يروح . . .

وهم بلال بالذهاب ولكنها استوقفته :

ــ إسمع يابلال ! نادى لى الناظر الكلب . . .

وخرج الخادم وعاد بعد لحظة بالناظر فقالت له الست :

— إزاى عايز توكلنا عيش من بتـــاع الفلاحين ياراجل يامغفل !

فأجاب الناظر دهشاً مبغوتاً :

— دا عيش طازه ياست . . خبيز النهارده الصبح ! وامراتى خبزاه بأيدها خصوصى علشان حضرتك ...

فصاحت به .

— بلاش قرف ! أنا آكل عيش من ده ؟! امشى ابعت واحد فلاح حالا يروح يجيب لى عيش افرنجى من دمنهور .

— دلوقت ياست ؟ فى حر الأياله !

— أيوه ! دلوقت فى حر الأياله !

— حاضر ياست . بس ...

— بس إيه . . ؟

— بس جنابك تعرفى أن الفلاح من دول بيشق فى الغيط من الساعة ٥ صباحا وما يصدق تيجى ساعة الضهريه لأجل يرتمى تحت شجرة يستريح بعضشى .

— ما شاء الله ! يستريح بعضشى ؟ الفلاح يستريح ؟ من امتى العزده !

— مش بنى آدم ياجناب الست .

— امشى بلاش دلع . قوم حالا واحـد فلاح يجيب عيش

من دمنهور والا وحياة أبويا الكرباج ينزل على عمتك دى . . . جنس فلاح .

فأطرق الناظر قليلا . والتفتت الست إلى زوجها البك ، كأنما تنتهره على سكوته واكتفائه بالمشاهدة ، فأسرع البك يوافق فى ربكة وعجلة قائلا :

— أيوه . امال إيه ! ابعت واحد فلاح من اللى نايمين زى الجاموس فى الدار ...

فرفع الناظر رأسه وقال :

— حاضر ...

وأردفت الست :

— والا روح انت بنفسك إن كنت عايز تدلعهم ما انت زيهم . يعنى انت كنت ابن ترك . ؟ .

فقال الناظر فى أدب :

— حاضر ...

ثم خرج يلبى هذا الأمر الصارم . . ومحسن يتبعه بنظره مشفقا حتى غاب . . نخفض الفتى بصره وجعل يداعب أزرار سترته ، متجنباً النظر إلى والديه ، كأنه خجل من سلوكهما ...

* * *

صبر محسن حتى انتهى الغداء ، فترك والديه وانسل إلى الخارج

حيث الحرية والفضاء، والفلاحون السذج البسطاء كرماء النفس. فكان أول من صادف الشيخ حسن قاعداً على مصطبة المضيفة، وبيده سبحة وهو باهت الوجه متغير الصوت، يتوسل إلى عبدالعاطى البدوى خفير العزبة الخصوصى، وهذا يصيح فى وجهه بصوت مخيف :

— والله والله عرجاوى مايخشها .. وشرف البدوى نسطه الوش من هادى البارودة!

— مفيش لزوم للشوشرة يا عبدالعاطى. البيه هنا .. اعمل معروف ...

— والله هادا الفلاح ما يبات فيها.

— مش حصل الصلح بينكم على يد وكيل العمدة؟

— احنا بدو شرفاء مايمشى علينا كلام عمدة فلاحين ...

قال هذا وترك الشيخ حسن وسار متعاليا وعلى شفته انفراجة ازدراء. ومر فى طريقه بمحسن وكان قد وقف عن كثب يرى ويسمع غير مريد قطع المحاورة بينهما. فلما دنا منه عبدالعاطى ناداه وسأله عما قال للشيخ حسن منذ لحظة وعن السبب فى حقده على عرجاوى الفلاح. فأجابه الخفير البدوى فى صلف .. بأن هذا الفتى الفلاح عرجاوى يريد الزواج من أخته البدوية .. وأن أخته هامت بهذا الفلاح، ولم يفلح فى إرجاعها عنه لا الضرب المبرح ولا النصح ولا المعايرة بنزولها عن محتدها البدوى إلى الاقتران بفلاح. وفى

النهاية ، اتفقت مع عرجاوى على الهرب والزواج به . على الرغم من إرادة أخيها عبدالعاطى . فأقسم عبد العاطى أن لا تقع عينيه على عرجاوى هذا حتى يقتله . وقد حاولوا الصلح بينهما .. وحاولت الفتاة العربية استعطاف أخيها ، وساقت إليه من يغير رأيه فيها وفى زوجها الفلاح فلم ينفع كل ذلك . وأصر عبدالعاطى على تنفيذ حكمه . هذا مافهمه محسن من هذا البدوى . وعندئذ نظر إليه وسأله فى رفق :

— بقا البدوى أحسن من الفلاح ياعبدالعاطى ؟

فأجاب الخفير وهو يحدق به مستغرباً جهله :

— كيف يابيه ! البدوى مثل الفلاح ؟ ؟ !

— إيه الفرق بين الاثنين ؟

كيف يابيه كيف ؟ البدوى أصيل .

— والفلاح مش أصيل ؟

— الفلاح عبد بن عبد . احنا بدو مانرضى الضيم .

* * *

ترك محسن عبدالعاطى وسار وحيداً يفكر فيما سمع منه ، وقد تذكر قول مدرس تاريخ مصر القديمة إن الفلاح المصرى الحاضر ، إن هو إلا ذلك الفلاح المصرى الغابر ، الذى كان يعيش ويحرث ويزرع نفس الأرض قبل أن تكون البدو بدواً . ولقد توالت العصور عليه وتوالت الأمم عليه لكنه لبعده عن المدن والحضر . ولاعتصامه

ببطون القرى نائياً عن مهب العواصف السياسية والاجتماعية فى العواصم حيث تقيم الأمم المغيرة عادة وتختلط الأجناس ... لم يستطع طول الزمن ولا تقلباته أن تغير من نفسه شيئاً . فهل هذا الفلاح من يصح اتهامه بأن لا أصل له ؟ ؟ وهو أصل الأصول . . ، ولكن العيب عيب الفلاح وحده ، لأنه يجهل أصله ، هذا بينما البدوى بتوارث ما يسميه أصلا أبا عن جد ، وقبيلة عن قبيلة . ثم أليس من دلائل الأصل العريق تلك الطيبة التى طبع عليها الفلاح ، وذلك الهدوء وحب السلام عنوان المدنية والاستقرار بينما هذا البدوى لا يزال على الوحشية وحب الحرب والثأر والدم . . بقايا الحياة الأولى الهمجية القلقة غير المستقرة ، التى أسباسها الغزو والسلب ونهب القبيلة القبيلة. ولكن الفلاح يجهل أيضاً كيف يدافع عن نفسه فيقول : إن طيبته وحبه للسلام إن هو إلا نتيجة أصله الزراعى العريق وما تطلبه حياة الزراعة من السلم والاطمئنان ونبذ الغزو والسلب . حياة مدنية اجتماعية . لا حياة وحشية برية جبلية . فهدوءه وسلامه كرم أصل لا عبودية ولا خسة عبد ابن عبد ...

ذهب محسن بعدئذ إلى الشيخ حسن وجلس بجواره على المصطبة ونظر إليه قليلا وإلى لحيته البيضاء ثم قال له :

— ياعم الشيخ حسن ! البدوى أحسن والا الفلاح ؟

فالتفت إليه الشيخ ، ثم أجاب وهو يسبح بسبحته :

— البدو دول ياجناب البيه جماعة خطافه جرابيع . . لا لهم دين ولا ملة ولا يعرفوا رحمة ولا إسلام . .

— إزاى ؟

— الفلاح منابيق خيره عليهم . يكرمهم ويساعدهم ويخاويهم وهم يتكبروا عليه ، كأن دمهم دم واحنا دمنا ميه . روح الفلاح عندهم ماتسوى أكتر من حق عيار رش بقرش صاغ . . أهو داك السنة فضل أبو متولى الجرف يحرت للراجل بسيس البدوى أرضه ويقصبها له ويبدرهاله . أصل البدو لا تعرف تزرع ولا تقلع ناس لامؤاخذه مايفلحوا إلا فى الضرب والخطف . . وآخرة دى الخدمة والمروءة ، إن بسيس البدوى سلطوه ناس على أبو متولى ضربه فى الدره . .

— قتله ؟

— هم البدو دول لهم أمان ا دول وحوش ياجناب البيه . لو تشوف بس أكلهم فى العصيدة وهى تلهلب نار ، تقول دول مش بنى آدم .

وسكت قليل ولبث محسن ينظر إليه مصغياً . وعاد الشيخ حسن إلى الكلام بعد لحظة قائلا لمحسن على ذكر أكل البدو . . إنه كان مدعوا ذات يوم لفرح بدو فى الخلاء . وإنهم بعد أن أطلقوا النار فى الهواء من بنادقهم ، ولعبوا البرجاس بخيولهم ، وضعوا قصعة ملآنة أرزا أبيض ثم قالوا للمدعوين « تفضلوا . . » . وكان ذلك اليوم من أيام

الخماسين العاصفة والرياح الصفراء برمالها وغبارها تسفى من كل جانب . فما يشعر المدعوون إلا والأرز الأبيض فى القصعة قد صار أصفر فى لون الكركم من الغبار . فامتنع هو فى أدب عن الأكل . طبعاً أيأكل تراباً ؟ وعندئذ تقدم البدو وقد شمروا عن سواعدهم وهجموا على القصعة غير عارفين الأرز من التراب . . وجعلوا يزدردون ازدرادا بأكفهم من ذلك الأرز والتراب ، كأنهم ضوار جياع . . .

فابتسم محسن وقال فى تحمس :

ــ الفلاح أحسن من البدوى . وأكرم من البدوى . وأطيب من البدوى . مش كده ياعم الشيخ حسن ؟

الفصل الخامس

انقضى يومان ولما يأت خطاب سنية المنتظر . فبدأ القلق يدب في نفس محسن . وجعل يمضي أكثر يومه على المصطبة ينتظر مواعيد البريد ويستذكر سنية وماجرى له معها ، وآخر مرة رآها وتلك القبلة التي منحته إياها ودموعه تنهمل ... ماذكر هذا حتى اختلج قلبه وخيل اليه أن هذا كان حلماً . . وعجب كيف أنه بتلك السهولة حظى بتلك السعادة ولم يقل شيئاً ولم يفعل شيئاً . . أتراه كان غافلا . . ذاهلا . . أو أنه كان نائما ؟ مرة أخرى مرت به السعادة فلم يعرفها في حينها ولم يفطن إليها إلا بعد فواتها . إنها قبلته . ومازال يحس وقع تلك القبلة على خده . . فاضطرب فؤاده ورفع يده بغير شعور منه إلى خده فمسه . . كأنما يتفقدها أو كأنما يستوثق من خلود هذا الطابع . غير مصدق أن القبلة طابع من الهواء تطير معه . لا . . إن هذه القبلة لها عنده أعظم معنى . إنها تحبه . وهو لم يدرك أيضا في حينه معنى الحب . نعم هي تحبه . وإلا فما الذى حملها وهي الفتاة المصرية الخجول على بدئه بالتقبيل ولم يقبلها . . ثم أليست هي التي اقترحت على عمته زنوبه كتابة خطاب إليه ؟ إذن مم يخاف ؟ ولماذا يقلق ؟ لعل الذنب ذنب زنوبه التي أبطأت في أخبارها برسالة وصوله . فلينتظر قليلا . . فلا محل للقلق والاستعجال . وأخلق به بدل القلق

أن ينطلق إلى الحقول بصدر منشرح يستنشق الحب فى هذا الهواء النقى ، الطاهر ويراه فى كل ما يحيط به من مخلوقات بريئة طاهرة . .

هكذا سرى عنه . وأطاع إيحاء نفسه فانطلق يجرى هنا وهناك فى الأرجاء الواسعة يهش للقبَّرة الطائرة وينصت إلى الماء الجارى تحت ظل الجميزة الضخمة. ويبدو له فيقفز إلى « النورج » الملقى فى ركن من الجرن ، أو إلى « الساقية » الدائرة فيتأمل الثورين يجرانها ، وقد وضعت على أعينهما حجب كيلا ترى سوى العمل .

غير أن كل هذا ما أثر فى نفسه مثلما أثر فيها منظر دور الفلاحين ، عندما ذهب يجوس خلال حاراتهم الضيقة فى شىء من الحيطة والتلصص خشية إزعاجهم . وصادفه باب مفتوح فأطل برأسه داخله فلم يجد به أحداً فعلم أن أصحابه قد « سرحوا » فى الغيط .

فدخل مترددا وجعل ينظر إلى المكان فرأى رحبة صغيرة مغطى نصفها بسقف من حطب القطن والأذرة الجاف ثم قاعة صغيرة . وكان باب القاعة مفتوحا كذلك . . فألقى محسن عينيه على ما بها فألفى منظرا لن ينساه . رأى أن تلك القاعة إنما هى قاعة النوم لأصحاب الدار . . إذ بها فرن وفوق الفرن حصير وأغطية . إلا أنه رأى كذلك فى ركن منها بقرة أمامها حمل برسيم ، وبين رجليها الخلفيتين عجل رضيع جميل يشب الى ضرعها ، غير أن ما أدهش محسن أنه شاهد بجانب هذا العجل الرضيع طفلا رضيعا أيضا لعله ابن أصحاب الدار

وهو يزاحم العجل ويدافعه على ضرع البقرة . والبقرة ساكنة هادئة لا تمنع هذا ولا ذاك ، وكأنها لا تفضل أحدهما على الآخر . كأنما العجل والطفل كلاهما ولداها ... ما أجمله منظرا ! وما أروع معناه !

ونظر محسن الى العجل الرضيع فى طهارته وبراءته وهو يئن أنين الرياضى القانع ثم نظر إلى الطفل الرضيع وهو يصيح فى طهارة وبراءة صيحة السرور والرضا، فبدا له كأن الاثنين متفاهمان وكأن بينهما صلة، وكأنهما لا يدركان قط ما بينهما من اختلاف . .

أعجب محسن بهذا المنظر وأحس إحساسات عميقة عظيمة . غير أن عقله لا يستطيع أن يزيد على مجرد الاحساس العميق شيئا . والاحساس هو علم الملائكة . كما أن المنطق العقلى علم الآدميين . لذلك إذا أريد ترجمة ما شعر به محسن إلى لغة العقل والمنطق ، لظهر أنه كان يعجب فى نفسه لذلك الاتحاد بين مخلوقين مختلفين ، وصل بينهما الطهر والبراءة . لكن للأسف غدا يكبر الطفل وتكبر معه الآدمية وتتضاءل الملائكية . فيحل محل شعور الاتحاد العام بينه وبين مخلوقات الكون الأخرى ، شعور بمطامع ورغائب تجعله يحتقر ويزدرى كل ما هو غيره.. وتجعله يعمى عن كل ما هو سواه. لهذا يذهب عنه نور الملائكة الممثل فى الطهارة والبراءة ، والشعور بالاتحاد وروح الجماعة . ليحل محله عمى الرجل الممثل فى المطامع والشهوات والشعور بالأنانية والفردية . وإن الشعور بوحدة الكون لهو الشعور بالله . لهذا كانت الملائكة

والأطفال أقرب إلى الله من الرجل . كل ذلك وإن جهله محسن بعقله الناشيء ... عقل طالب الكفاءة . . فإنه كان يدركه بقلبه وبصيرته بغير أن يعلم . ألم يقل دستو فسكى « إن الإنسان يعلم أشياء كثيرة بدون أن يعلم ؟ » .

غير أن محسن استطاع أن يدرك بعقله شيئاً واحداً . والفضل فيه لدرس التاريخ المصرى القديم : ذكره هذا المنظر فجأة دون أن تكون هناك مناسبة قوية بما طالعه عن عبادة قدماء المصريين للحيوانات ، أو على الأقل لرمزهم للإله الواحد برموز من الحيوانات المختلفة .

لماذا ؟

لم يستطع محسن علم السبب على التحقيق . وهنا أيضا أدرك بشعوره إدراكا مبهما ما ترجمته عقليا :

أليس أن المصريين القدماء كانوا يعلمون تلك الوحدة الكونية وذلك الاتحاد العام بين حلقات المخلوقات المختلفة ؟ وأن رمزهم للاله بتمثال نصفه إنسان ونصفه حيوان أليس دليل إدراكهم أن الكون إن هو إلا اتحاد؟ إنهم لم يزدروا الحيوان كما أن هذا الطفل لم يزدرى العجل . فكما أنهم جعلوا الإله على صورة الرجل . فقد جعلوه أيضا على صورة الحيوان والطير والحشرات . أليست كل تلك المخلوقات من عمل الله؟ أوليس كل فعل ينم عن فاعله. وكل صناعة هى صورة لصانعها! فلم لا يكون الحيوان أيضا صورة للخالق أو إحدى صور

الخالق كما أن الرجل كذلك !

الشعور بالاندماج فى الكون . أى بالاندماج فى الله هو شعور ذلك الطفل وذلك العجل الرضيعين . هو شعور الملائكة . وهو أيضا شعور ذلك الشعب العريق المصرى القديم .

لكن أليس فلاحو مصر الآن يمجدون الحيوان بقلوبهم ، ولا يأنفون العيش معه فى مسكن واحد والنوم معه فى قاعة واحدة!

أليس أن مصر الملائكية ذات القلب الطاهر ما برحت مصر؟ وأنها ورثت على مر الأجيال عاطفة الاتحاد بدون أن تعلم . . ؟

* * *

غادر محسن دار الفلاح بهذا الشعور النورانى وسار ممتلىء النفس بفرح لا يدرك كنهه . وكأن الله شاء أن يعجل ثمن هذا الفرح كدرا ، أو أن يتم على محسن صورة ما ارتسم فى نفسه . فإذا الفتى يسمع فى « الجرن » صياحاً وعويلا ونسوة يلطمن وجوههن ، فسارع يسأل عن الخبر . فرأى جماعة من الفلاحين آتين من قلب غيط البرسيم وهم يحملون جاموسة تحتضر والنساء خلفها تبكى . وظن محسن بادىء الأمر أن هذا الصخب والعويل ولا شك على أحد مات أو حدثت له مصيبة . فلما رأى الجاموسة محمولة لم يفهم أيضاً ما يرى واقترب الجمع منه فسألهم . . فقالوا له إنها جاموسة دار عرجاوى ظهرت عليها أعراض التسمم الآن فعالجوها بالذبح وهم يعزون صاحبها فيها وبدا

على الجميع حزن وكآبة كأنما الميت إنسان!

عجب محسن بعد أن اطمأن قليلا وقال فى سره مردداً:

جاموسة! جاموسة!

وأراد أن يمضى مازحاً ساخراً بهؤلاء الفلاحون، الذين يصنعون كل هذا من أجل جاموسة... فما هم صانعون لو مات صاحبها. ومرت به إحدى الفلاحات باكية، فقال لها:

— كل ده علشان جاموسة؟

فحدجته بنظرة مؤلمة وقالت:

— ياريت كان واحد من عياله ولا هيه!

ثم سارت فى طريقها لا تلوى على شيء...

وخجل محسن قليلا إذ ظهر له أنه مهما كان من أمره فلا يزال بعيدا عن فهم مشاعر هؤلاء القوم. ولعل حياة البندر والعواصم أفسدت قلبه. فاختفت فى الحال سخريته كما اختفى عقله ومنطقه وعاد إليه شعوره. فإذا هو يرثى لهؤلاء الفلاحين ويعجب بهم.

وسمع صوت وتد يدق فنظر فوجد على مقربة منه بعض «الأنفار» ينصبون عمودا من الخشب وسط الجرن. ثم جىء بالجاموسة فعلقوها به وأخذوا يسلخونها. واجتمع أهل العزبة بعد قليل إلا صاحب الجاموسة، فقد ذهب ولا شك إلى داره توا يبكى مصيبته فى تلك التى لن يراها بعد اليوم تحت سقفه، ولن يشاركها هواء القاعة وأديمها.

ثم لما تم سلخها وجزرها ، جعل أحد أصدقاء المعزى يقطع من لحمها ويبيعه للفلاحين ، والكل يقبل على الشراء بغير مساومة ولا مماطلة كأنما يرون واجبهم ليس فقط فى التعزية الكلامية بل فى تهوين الخطب على صاحبها . . بجمع ثمنها وإعطائه إياه تعويضاً له عن فقدها ، وأخبر أحد الفلاحين محسن أن هذه هى الطريقة المتبعة والعرف الجارى كلما فجع أحدهم فى ماشية له .

إنهم ليسوا كأهل البندر قوم كلام . والمشاركة فى الحزن ليست محض عبارات تقال ، بل المشاركة الفعلية : تخفيف الخطب بأن يضحى كل منهم بجزء من ماله فى سبيل الآخر .

صمت محسن وذهل . وعاد إلى نفسه ذلك الفرح النورانى ، الذى لا يدرك كنهه عاد إليه هذه المرة من الحزن كما تعود الحياة من الموت

ما أعجبهم قوماً ! هؤلاء الفلاحون ! أيوجد بعد فى هذه الدنيا تضامن جميل كهذا التضامن ! . وعاطفة كعاطفة الاتحاد هذه ! .

فتح محسن عينيه فى فجر اليوم التالى على زقزقة العصافير ورأى بوادر الصباح والشمس تشرق وكل ماحوله ينتعش فى هدوء ، فأشرقت نفسه وانشرح صدره ، ونهض إلى النافذة ففتحها على مصراعيها ، فإذا الحقل الأخضر ، والسماء الزرقاء ، والطيور والنور ، كلها تبتسم فى سكون . فأحس فى أعماقه لأول مرة جمال الحياة ، وأدرك لأول مرة ذلك الروى المنتظم لمخلوقات الطبيعة وكائناتها الهادئه . . وتولد عنده شعور مبهم

خفى .. بأن الخلود إن هو إلا امتداد لحظة كهذه اللحظة ..

ولقد صدق شعور محسن الخفى هذا . ولو أنه أوتى مقداراً من العلم بتاريخ هـــذا الوادى أن سكانه الغابرين ما كانوا يعتقدون بجنة أخرى غير جنتهم تلك ، ولا بخلود آخر ، وأن معنى الخلود بعد الموت عندهم إن هو إلا العودة إلى هذه الأرض ذاتها ، ثم الموت ثم البعث إليهـا مرة أخرى ... وهكذا دواليك .. لأن الله لم يخلق جنة غير مصر .

ولبس الفتى ملابسه بسرعة وخرج إلى الحقول وتوغل فيها ، وهو يفتح رئتيه لذلك الهواء الدسم العجيب .. هواء مشبع برائحة الحياة والخلق ، كذلك الماء والطمى فى الجداول والقنوات يحمل الحياة والخلق أيضاً ...

شعر محسن بقوة ونشاط فى بدنه وبشر بالحياة وتقبل لها وابتهاج.. كما شعر بالحب فى قلبه . ينتعش أيضـا انتعاش ذلك النبت الصحيح القوى تحت حرارة الشمس المباركة ... ولم لا وكل شىء حوله قوى صحيح منتعش ...

ما أجمل الحياة

وبلغ مسمعه عندئذ صوت غناء لذيذ .. فالتفت فإذا الفلاحون عن كثب مجتمعون ، والمناجل بأيديهم يحصدون المحصول . وإذا أكوام منه مصفوفة وهم ينشدون جميعـــاً نشيداً يبدأ به أحدهم

وهم يعقبون، ويحمل النسيم صوتهم إلى آذان محسن والشمس قدارتفعت عن الأفق بقليل، ولا يزال الشفق أحمر دامياً عقب ميلادها . أى صوت وأى نشيد؟ أتراهم يرتلون نشيد الصباح احتفالا بولادة الشمس كما كان يفعل أجدادهم فى الهياكل ، أم أنهم يرتلون ابتهاجاً بالمحصول معبودهم اليوم . . الذى قدموا له قربانا العمل والكد والجوع والبرد طول السنه ! نعم إنهم ضحوا بكل ما يستطيعون من أجل هذا المعبود ... فليرأف بهم وليكثر لهم وليملأ دورهم رخاء .

وسار محسن إليهم حتى صار بينهم وهم دائبون على العمل والغناء وجعل ينظر إليهم وإلى وجوههم وهو يعجب . إن ملامحهم وما يرتسم على وجوههم من معان ، إنما كان شيئاً واحداً كأنما هم جميعاً على اختلافهم شخص واحد : العمل والأمل ...

ونظر إليهم وكل يحمل ما حصد ويزيد به الكوم . . فاذاهم ينظرون إلى المحصول المجموع باهتمام وحب وكأنما يقولون له « لا يهم التعب ولا يهم الشقاء فى سبيلك أيها المعبود ! »

* * *

وانقضى النهار وعاد محسن إلى البيت وقد ترك كل ما رأى أثرا فى نفسه يحسه ولا يفهمه . . وإذا العدوى تجعله يفكر هو أيضا فى « معبوده » . ولكنه استوى فجأة وقد مرت بخاطره فكرة ارتجف لها : « هل يستطيع هو أيضا أن يضحى فى سبيل سنيه ... وأن

يقذف بنفسه فى الألم والشقاء من أجلها .. أم أنه ليس من دم ذلك الفلاح ! »

* * *

وجاء الليل وانتشر فى الجو صدى نقيق الضفادع ، وسكن الطير والحيوان ، وطلع القمر وثقل الهواء ، وامتنع النوم على محسن وهاج ساكن نفسه جمال الليل ، فظل لحظة ينظر إلى القمر ويقول له « ترى هل تنظر هى إليك أيضاً هذه الساعة ؟ » ثم خرج إلى الجرن متقد القلب عسى أن يجد ما يلهيه ، وإذا هو يرى الفلاحين وقد اجتمعوا فى دائرة تحت نور الكوكب الجميل ، وقد وضعوا وسطهم « عدة الشاى » .

والشاى عند الفلاح الآن معبود آخر أدخله البدو الرحَّل ، علموه الفلاح فتعلق به بينما سلاه البدو . شأنهم فى كل شىء . . لا يستقرون على عمل ولا على حب ... ولا على موطن إقامة . ولكن الفلاحين أنزلوه من أنفسهم منزلة الاهتمام . فأصبحوا لا يطيقون الامتناع عنه . وهم يشربونه جماعة كالصلاة الجماعة . . بعد أن يفرغوا من عمل النهار الشاق . وقد صنعوا « للبكرج » كرسياً صغيراً من الخشب ، يوضع فوقه ويحيطون هم به كأنه تمثال إله فوق قاعدة . ويتولى أحدهم إدارة الفناجين عليهم . غير أن هذا الشراب يكلفهم أحياناً ما لا يطيقون وكم من موسر فيهم افتقر فى سبيله مما يغالون فى طريقة صنعه ، وفى كيفية شربه ، والعزومة على الإخوان . . وعقد مجالس الشاى . !

وذهب محسن إليهم حتى داناهم . ورآه شيخ العزبة فنهض إليه وعزم عليه بالشراب وقدم له فنجانا . فلم يمانع محسن تأدباً وتواضعاً وجلس بينهم بجوار الشيخ حسن الذى أفسح له محلا بعد أن فرشه بقش الدريس الجاف . وسر الفتى بذلك واستحى الفلاحون منه قليلا بادىء الأمر . لكنه شجعهم فى لطف على الكلام . فمضوا يتحدثون بأحاديثهم الساذجة . وكلما فرغ أحدهم من فنجان تقدم به إلى البكرج . واستبطأ الشيخ حسن شرب محسن فأراد له فنجاناً آخر . . فابتسم الفتى وأراه داخل فنجانه فاذا هو لم يشرب سوى جرعة واحدة . فقال أحدهم فى بساطة :

ـــ البيه مش عاجبه شاى الفلاحين .

فأجابهم محسن بأن هذا ليس السبب . إنما هو غير معتاد صنعه بهذه الطريقة :

ـــ ليه بتعملوه كده ؟ دا اسود زى الحبر ومر زى الحنضل !

فإذا بصوت فلاح يعلو من بين الجميع قائلا :

ـــ إيه يابيه ! دا حتى الليلة خفيف زى « الميـة » الطلمبة ...

فقهقه محسن ضاحكا . وسر الفلاحون إذ أمكنهم إضحاك البك الصغير وادخال السرور عليه . ثم انتقل الحديث إلى الشاى وحب الفلاحين له . وكيف أن صنعه وتهيئته بهذه الطريقة يتطلب من السكر والشاى مقداراً جسيما . . ومع ذلك فلم يحجم الفلاحون عن

التضحية فى سبيله ومضاعفة التعب والكد للحصول على ثمنه . غير أن منهم من بلغ به الولع أن ضحى بثروته كلها أو بعضها . وماوصل الحديث إلى هذا الحدحتى التفت أحد الفلاحين الى محسن وأشار له بيده الى فم البكرج المستطيل وقال :

— « تصدج » بالله ؟ عشرين « ناجه » وعجلين خرجوا من ـنى البزبوز . !!!

الفصل السادس

* عاد محسن إلى قلقه . فقد مضت أيام دون أن يصل الخطاب الموعود. واشتدبه الضيق أن زهدفى كل ماحوله. . وكأن عينه أصبحت لاترى شيئاولا يرجى منها شيء . وكره الإقامة وودلو يعود إلى مصر تواً. وكلما ذكر سنيه خيل اليه أن فراقه عنها كان أعواماً لا بضعة أيام .وعجب كيف يمكث هنا . وكيف يستطيع الابتعاد عنها أكثر من ذلك . فقام إلى والدته يعرض عليها رغبته فى السفر . . لكنه الفى البيت قائما على قدم وساق ، وسمع جلبة أوان وأطباق وتهيئة موائد وتجهيز أطعمة ، فسأل عن الخبر فقيل له هى « عزومة » يقيمها والده لمفتش الرى الإنجليزى ولأحـــد كبار موظفى الآثار الفرنسيين بمناسبة تشريفهما المديرية . وتفقد والده فعلم أنه ذهب بالعربة إلى دمنهور ليأتى بالضيوف . وكانت والدته منهمكة فى ملاحظة الاستعدادات ، فلما رأته ابتسمت وقالت وهى تشير إلى الخروف « الأوزى » والطباخ يزينه بالورد والعتر والزهر :

— شايف يامحسن . بكره يقولوا عزومتنا أحسن من عزومة المدير . ودخل عندئذ ناظر العزبة يرتدى «غزليته» الممتازة ، ويحمل « قفة » بها بضعة أزواج من الحمام والدجاج فنظرت إليها الست ثم قالت شزرا :

— بس دول اللى لقيتهم فى العزبة ؟ !

فأجاب الناظر فى خشية وتأدب :

— الفلاحين فقراء مساكين ياست .

فقالت السيدة بجفاء :

— فقراء مساكين ! لو كنت شغلت الكرباج كنت جبت قد دول مرتين . لكن انت ناظر غشيم . .

فسكت الناظر قليلا ثم رفع رأسه وأشار إلى الضأن والأوزى مبتسما وقال مراضياً السيدة :

— ماهو الخير كتير ياست . دا الواحد منا بلا قافية يافلاحين مايدوق اللحم إلا من الموسم للموسم . . .

فلم تجب واقترب منها محسن وقال :

— يانينه الأكل ده كفايه علشان ضيفين !

فقالت :

— أنا عايزه عزومتنا تكون أحسن من عزومة المدير

ثم التفتت إلى الناظر ونظرت إلى ملابسه ثم قالت منتهزة :

— امشى ياراجل يافلاح إلبس أحسن ما عندك .

فأطرق الرجل خجلا ولم ينبس بحرف وقد احمر وجهه قليلا ولاحظ محسن خفية ذلك فتأثر له .

ورأت الست وجومه فأعادت الكرة بقوة هذه المرة :

— الله . . عجايب ! واقف ليه ؟ مستنظر إيه ؟

فأجاب الرجل بصوت ضعيف متلعثم ، وابتسامة الحائر الساذج الخجل وهو ينظر إلى الأرض :

— ما هو ده ياست أحسن ما عندى . . .

وسكت قليلا مطرقاً . ثم رفع رأسه وقال فى بساطة واعتقاد وهو يتناول طرف ثوبه ويريه للسيدة :

— ودى « شينة » ياست ؟ وحياة راس النبى دى غزلى ؟

فلم « تتنازل » السيدة إلى رؤية ثوبه وأدارت ظهرها ومشت إلى عمل تلاحظه . وسار خلفها محسن وهو يود لو يخلو إليها ليرجوها أن تخفف من وطأتها على هؤلاء القوم . وليفهمها أن هؤلاء الفلاحين المساكين لا يعرفون الأبهة !

* * *

ما قاربت الساعة الواحدة ظهراً حتى نبح كلب العزبة دليل قدوم غريب . وبدا عفار العربة بخيلها المطهمة عند الجسر ، ومرت تحت الجميزة ودخلت جرن العزبة . ونزل منها أفرنجيان بالقبعات ثم البك صاحب الدار . ووقف الضيفان لحظة يتأملان ما حولهما وينظران إلى الحقول المنبسطة خضراء كالبحر . ووقف أمامهما وبين أيديهما الناظر والشيخ حسن بأدب فى انتظار أمر أو إشارة ، فأبدى الضيف مفتش الرى الإنجليزى رغبته فى الجلوس خلال المزارع لحظة . ليرى

المصارف ويتأكد من تطهيرها . . ويشاهد فتحات الرى ومقاسها ونسبتها إلى الترعة ، والأطيان ، فصار الجميع إليها وقد أومأ البك إلى الناظر والشيخ فأسرعا يتقدمان ويدلان على الطريق ، وفرد البك مظلته البيضاء ذات اليد الذهبية ، ورفعها فوق رأس الضيفين وهو يصف لهما طريق الرى والصرف فى هذا الربع الشرقى الذى يمرون به . والضيف الفرنسى يبتسم معجباً بانبساط الأرض ولونها الزبرجدى . ويدهش أن مصر كلها كذلك . . كأنما الآلهة الأقدمين قد بطحتها خصيصاً وهيأتها لسكان مصر الطيبين . .

فالتفت اليه البك وسأله فى سذاجة « أليست أرض فرنسا كذلك ؟ » فأجابه الضيف « فرنسا كلها منحدرات ومرتفعات ، وقلما تجد فيها بقعة منبسطة هذا الانبساط » . . ثم نظر اليه ضاحكا « فرنسا لم يسعدها الحظ أن تكون يوماً موطنا الآلهة يدخلونها كما فعلوا بأرضكم » .

فلم يفهم البك قوله جيداً ، غير أنه أجابه « صدقت ياجناب المفتش أرضنا زراعية من قديم الأزل » .

وأدرك الفرنسى من هذا القول معنى أبعد مما يقصده البك ، فقال « نعم . . نعم . . إنكم شعب عريق الحضارة لا كشعوب أوربا الوصولية . . »

فلم يجب البك . وعندئذ انحنى الانجليزى على الأرض وتناول

منها قبضة من التراب فركها بين أصابعه وهو يتمتم خافتا معجبا بخصوبة التربة « ذهب ، ذهب ! » ثم أومأ بالرجوع . فرجع الجميع الى البيت حيث مدت المائدة ووقف الخادمان النوبيان بثيابهما البيضاء النظيفة وحزاميهما الأحمرين . وقدم الطعام . . .

* * *

كان محسن فى هذه الآونة بجانب والدته فى الدهليز الذى بين المطبخ وحجرة المائدة . الوالدة تلاحظ ترتيب الأصناف والألوان .. وترتب بنفسها ماتجده ناقصا قبل أن تسمح للخادم بالدخول به على الضيوف ، ومحسن واقف ينظر وقد سال لعابه جوعا وهو يعلل نفسه بالضأن « الأوزى » وينتظر عودة مايفضل منه بعد الضيوف ووالدته تصبره قائلة أن الواجب يقضى بأن يأكل الضيوف أولا وبعد ذلك يبدآن هما الاثنان . غير أن والدته فى تلك الساعة كانت مشغولة البال منهوبة الخاطر ، تجرى هنا وهناك تلاحظ وهى مضطربة ، طالبة من الله أن تتم الوليمة على خير . . وأن يذهب الضيفان مسرورين معجبين . وهى تود لو تعلم ما يقولان الساعة عن الأكل والتنظيم ، فكانت أحيانا تترك محسن وتذهب فى أثر الخادم محترسة ، وتقترب خفية من الباب مختلسة البصر مسترقة السمع علها تلتقط كلمة اعجاب من أحد الضيفين ...

وفرغ المدعوان من الأكل ولم يبق غير الحلو والفاكهة ..

ودخل الخادمان بأطباق الحلو . وعندئذ خرج البك يجرى من قاعة الطعام وذهب الى زوجته توا يسألها هامساً فى سرعة وخطورة :

— فين الجبنه ؟ قوام الجبنه !

فتجهمت زوجته ونظرت إليه ساهمة بلا حراك

— جبنه ؟ جبنة إيه ؟

— أيوه . . قوام ! طالبين جبنه . . يختموا الأكل بجبنه . . .

— جبنه ! بعد الأكل ده كله ؟ !

— أيوه . . خلصينا . . اعملى معروف . . .

وفى الحال نادت الست خدمها همساً وسألت عن الجبنه فقيل لها لا يوجد قط سوى جبنه «قريش» منغمسة «بالمش» فى القدر، فلطمت وجهها وهى تتساءل عن المخرج من هذا المأزق وزوجها يصيح همسا :

— جبنه «قريش بالمش» مايمكنش أبداً ! خواجات يا كلوا «مش» مش ممكن . ! نوكلهم «مش بدوده» مش ممكن أبدا !

فقالت الست بصوت مختنق يأسا :

— يا مصيبتى ! ونعمل إيه دلوقت ! أعمل إيه بس ياخواتى دلوقت !

فقال لها زوجها فى لهجة المؤنب :

— انت مش عارفه أن العزايم يبقى فيها جبنه ؟

فعاودت الست عزة نفسها وكبرياؤها ووضعت يديهـا فى

خصرها وصاحت بزوجها :

ــ بتقول إيه بسلامتك ؟ العزايم ؟ أناواحده أفهم الصوره إيه ومتربيه فى بيوت باشوات . . وأعرف الأكل العثمانلى امين يقول إن بعد الخروف المحشى بالزبيب والبندق والصنيبر والفراخ والحمام إللى بالتربية والشركسية والألنجى ضلمه حد يا كل جبنه !

ــ أهم طالبين جبنه . . نعمل إيه دلوقت ؟

فرجعت الست إلى الحيرة واليأس وأخذت تسأل الخدم من جديد وتلح وتتوسل . وأخيرا ظهرت خادمة وصاحت بفرح أن يوجد قطعة جبنه « رومى » عثرت عليها فى « الكرار » . وما كادت تذكر ذلك حتى هرعت الست نحوها وهرع الجميع كأنما وجدوا لقيا . وانقلب اليأس فرحا واطمأن البك فترك زوجته وأسرع يلحق بضيوفه بعد أن أكد على زوجته بسرعة تقديم تلك القطعة . وأخيرا جاءت الخادم بقطعة الجبن « الرومى » من الكرار فإذا هى سمراء اللون من القدم ، واتضح للجميع أن سبب ترك هذه القطعة فى الكرار منذ زمن هو استعمالهــا طعما للفيران و تعمير مصيدة الفيران بها . . فترددت الست قليلا وعاد إليها الغم . . لكنها صممت أخيرا على الأمر وقالت للخدم .

ــ فيران والاقطط ... أهى أحسن من بلاش والسلام ! يعنى هم راحين يعرفوا . ؟ !

وتناولتها بيدها فى حرص وذهبت بها إلى الحنفية كى تغسلها وتزيل ما عليها من لون القدم ومن القذارة . وتبعها كل أهل البيت من بطانة وخدم ، وهم ينظرون إلى قطعة الجبن فى يد الست كأنهم ينظرون إلى قطعة من الجوهر الثمين . . ولفرط اهتمام الجميع بتلك القطعة النادرة ، أرادوا أن يساعدوا الست فأحاطوا بها بعضهم يفتح الحنفية .. والبعض يقترح غسلها « بالليفة والصابونة » حتى تعود بيضاء ناصعة. والبعض يرى خطر الغسل عليها ويقول بمسحها بخرقة مبللة فقط ، وآخر لا يرى الغسل ولا المسح ويقترح الكشط أى كشط السطح المتسخ بسكين حاد .. وبينا الجميع فى هذه الاقتراحات وهذا الاهتمام وإذا بالست القابضة على القطعة تصيح فجأة : ذلك أن القطعة انزلقت من يدها لفرط حرصها وسقطت فى « البلاعة » فبهت الجميع لحظة وقد دهاهم الأمر ثم صحوا لأنفسهم وانقضوا على « البلاعة » جميعهم دفعة واحدة ، وأخرجوا قطعة الجبن الرومى منها بعد جهد واستماتة ولم يروا بدآ من غسلها هذه المرة ... وما وضعت فى الطبق وقدمت للضيوف حتى رفعت الست رأسها وتنفست الصعداء . !!!

انتهى الضيفان من الطعام . وقدمت لهما القهوة . وإذا البك يظهر مسرعا فى الدهليز ويسأل عن محسن ، فأقبلت نحوه الست وكان أول ما فاهت به أن سألته عن نتيجة الوليمة وعما قال الضيفان فى الأكل والتنسيق . ولكن البك لم يجبها بل سألها فى عجلة :

ـــ فين محسن ؟ فين محسن ؟ عايزين يشوفوه . .

وأرادأن يخبرها بانه قال إن له ولداً فى الكفاءة يعرف الإنجليزية وأن جناب المفتش الانجليزى ود لذلك أن يراه .. غير أن زوجته قاطعته قائلة :

ـــ طيب ... طيب . المهم قالوا إيه على العزومة ؟ وقالوا إيه على الجبنه . . إحكى لى . . .

فانحنى عليها وهمس فى أذنها :

مبسوطين قوى !

فانفرجت شفتا الست بالابتسام وقالت فى كبرياء وزهو وخيلاء:

ـــ علشان تعرف إنى مدنتك ورقيتك يافلاح ياجعيدى ! مش تقول لى بقا كتر خيرك ؟ ؟

فضحك البك وقال لها :

ـــ طيب . . كتر خيرك .

فاستطردت تقول فى تعاجب ومباهاه :

ـــ مش أنا اللى قلت لك اعزمهم ؟

ـــ إيوه انت .

ـــ اسمع كلامى دايماً وانت تبقى أبهه . بكره كمان اعزم المدير علشان يعرف . .

فحك البك رأسه قليلا ثم نبس قائلا فى قلق .

— بس ... المصاريف...

فرمقته الست بنظرة أسكتته في الحال. فلم يعد يفكر بالنقود الهائلة التى تضيع فى ولائم واحتفالات منذ سنوات وسنوات ... وأخذ يبحث حوله بارتباك ويقول :

- فين محسن ؟ فين محسن ؟

كان الضيفان فى تلك الأثناء يرشفان القهوة وقد غرقا فى كرسيين كبيرين ، ووجهاهما قبالة نافذة مفتوحة على مصراعيها ، تطرح أمام ناظريهما فضاء أخضر لا حد له ، وسكون ساعة الظهيرة التام حيث الفلاحون فى دورهم يستريحون أو تحت ظلال أشجار السنط واللبخ بقرب السواقى . وسكنت البهائم أيضاً وربض كلب العزبة وأغمض إحدى عينيه . حتى الطيور من قنبر وأبى فصادة كأنها فى هدنة قد هدأت على الأغصان فوق رؤوس الفلاحين الراقدين ، وقد أبطلت زقزقتها وأخذت تشغل الوقت « تفلى » ريشها بمنقارها بعضها البعض . . .

وهب عندئذ على الضيفين نسيم جميل فأغلق الفرنسى أهدابه نصف إغلاق وقد قعس رأسه إلى الوراء وأخذ يدخن من لفافة فى يده وكأنما هو فى حلم ساحر . ولكن رفيقه الإنجليزى لم يفقد نشاطه ولم يتراخ . . بل دس يده فى جيبه وأخرج غليونه وأخذ يحشوه بالتبغ ، وهو معتدل الجلسة منتصب القامة متزن الحركة قوى النظرة .

حتى فرغ من غليونه ووضعه فى فمه وأوقده فاستوى واقفاً وأراد أن يمشى جيئة وذهاباً فى الحجرة أو أن يخرج إلى حديقة المنزل . ولكن صاحبه الفرنسى مديده إليه وأومأ له بلطف أن يجلس حيث كان . ثم قال له فى صوت النائم :

— إلى أين ؟ ألا يؤثر فيك هذا النسيم الرقيق يامستر بلاك؟

فالتفت إليه الإنجليزى ثم التفت إلى النافذه كأنما يبحث عن هذا النسيم يريد أن يراه بعينه . وكان الفلاحون عندئذ قد بدأوا ينهضون زرافات ووحداناً كل يحمل فأسه أو منجله كى يستأنفوا أعمالهم بالحقول .

فقال الإنجليزى لرفيقه :

— لا أرى إلا سراباً من ذوى الجلاليب الزرقاء . .

فنظر الفرنسى إلى الفلاحين ثم قال معجباً :

— ما أجمل ذوقهم ! لون لباسهم كلون سمائهم !

فارتسمت على فم الانجليزى ابتسامة تهكم وقال :

— إنك تبالغ إذ تحسب لهؤلاء الجهلاء ذوقاً !

فأجاب الأثرى الفرنسى بأيمان وقوة :

— جهلاء ! إن هؤلاء الجهلاء يا مستر بلاك أعلم منا . .

فضحك الانجليزى وقال أيضاً فى تهكم :

— لأنهم ينامون مع البهائم فى حجرة واحدة !

فأجاب الفرنسى بجد :

— نعم وبالأخص لأنهم ينامون مع البهائم فى قاعة واحدة .

فالتفت إليه مستر بلاك محدقاً ومبتسما :

— إنها نكتة ظريفة يا مسيو فوكيه .

فأجاب الفرنسى :

— بل حقيقة تجهلها أوربا للأسف .. نعم إن هذا الشعب الذى نحسبه جاهلا ليعلم أشياء كثيرة . ولكنه يعلمها بقلبه لا بعقله . إن الحكمة العليا فى دمه ولا يعلم . والقوة فى نفسه ولا يعلم . هذا شعب قديم . جىء بفلاح من هؤلاء وأخرج قلبه تجد فيه رواسب عشرة آلاف سنة ، من تجاريب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض وهو لا يدرى ...

نعم هو يجهل ذلك . ولكن هناك لحظات حرجة . . تخرج فيها هذه المعرفة وهذه التجاريب . . فتسعفه وهو لا يعلم من أين جاءته . هذا ما يفسر لنا نحن الأوروبيين تلك اللحظات من التاريخ التى نرى فيها مصر تطفر طفرة مدهشة فى قليل من الوقت . . وتأتى بأعمال عجاب فى طرفة عين . كيف تستطيع ذلك إن لم تكن هى تجاريب الماضى الراسبة قد صارت فى نفسها مصير الغريزة ، تدفعها إلى الصواب وتسعفها فى الأوقات الحرجة وهى لا تدرى . لا تظن يا مستر بلاك أن هذه الآلاف من السنين التى هى ماضى مصر قد

انطوت كالحلم ولم تترك أثراً فى هؤلاء الأحفاد . . أين إذن قانون الوراثة الذى يصدق حتى على الجماد ؟ ولئن كانت الأرض والجبال إن هى إلا وراثة طبقة . . عن طبقة فلماذا لا يكون ذلك فى الشعوب القديمة التى لم تتحرك من أرضها ، ولم يتغير شىء من جوّها أو طبيعتها؟ نعم إن أوربا سبقت مصر اليوم . ولكن بماذا؟ بذلك العلم المكتسب فقط .. الذى كانت تعتبره الشعوب القديمة عرضاً لا جوهر ودلالة سطحية على كنز دفين ، لا أنه هو فى ذاته كل شىء ! إن كل مافعلناه نحن الأوروبيين الحديثى النشأة أن سرقنا من تلك الشعوب القديمة هذا الرمز السطحى دون الكنز الدفين . لذلك جىء بأوروبى وافتح قلبه تجده خالياً خاوياً . الأوروبى إنما يعيش بما يلقن ويعلم فى صغره وحياته . لأنه ليس له تراث ولا ماض يسعفه بغير أن يعلم . أحرم الأوروبى المدرسة يصبح أجهل من الجهل . قوة أوروبا الوحيدة هى فى العقل . . تلك الآلة المحدودة التى يجب أن نملأها نحن بإرادتنا ، أما قوة مصر ففى القلب الذى لا قاع له . ولهذا كان المصريون القدماء لا يملكون فى لغتهم القديمة لفظة يميزون بها بين العقل والقلب . العقل والقلب عندهم كان يعبر عنهما بكلمة واحدة هى : القلب ،

وسكت الأثرى الفرنسى برهة ونظر إلى وجه المستر بلاك ليتعرف أثر ماقال فيه ، فوجد ملامح جامدة وشفتين تنفرجان عن ريبة وشك فاستطرد الفرنسى يقول :

— نعم يامستر . . بلاك هؤلاء الفلاحون لهم ذوق وذوق جميل . وهم ان سألتهم عن كلمة ذوق لجهلوا معناها . أما نحن فتعرف جيداً معنى كلمة « ذوق » ولكن ثق أن فينا عدداً كبيرا ليس له ذوق . نعم هذا هو الفرق الوحيد بيننا وبينهم : انهم لايعلمون ماعندهم من كنوز . .

عندئذ همّ الانجليزى بالنهوض وهو يقول متهكما :

— انكم معشر الفرنسيون تضحون بالحقائق فى سبيل الكلام.

فأجلسه مسيو فوكيه بيده وقال محتدا :

— الحقائق ؟ الحقائق معى يامستر بلاك . انك تعرض بضعف هذا الشعب الآن . . أليس كذلك ؟

— وأيضاً أخلاق أهله لا تعجبنى .

— أخلاق أهله ؟

— نعم .

ثق يامستر بلاك أن الفاسد من هـذه الأخلاق ليس من مصر . بل دخلته عليها أمم أخرى كالبدو أو الاتراك مثلا ، ومع ذلك فلا يؤثر هذا فى الجوهر الموجود دائماً .

— قل لى ماهو هذا الجوهر ؟

— إنك ترتاب فى قولى . ولكنى أكتفى بأن أقول لك احترس ! احترسوا من هذا الشعب . فهو يخفى قوة نفسية هائلة !

فالتفت إليه مستر بلاك جادّا لحظة ثم عادفابتسم ، ابتسامته المتهكمة ، وقال :

— يخفيها أين يامسيو فوكيه ؟

فأجاب الأثرى الفرنسى بهدوء واقتناع :

— فى البئر العميق الذى خرجت منه تلك الإهرامات الثلاث .

فقال الانجليزى فى فتور :

— الاهرامات . . ؟

فأجاب العالم الفرنسى للفور :

— نعم الاهرامات ... التى قصدها شامبليون بقوله :

« لاأستطيع أن أصفها إذ أن شيئاً من اثنين : إما أن كلامى لن يعبر عن جزء من ألف مما يجب أن أقول ، وإما أنى لو أردت رسم أبهت صورة للحقيقة ، لعدنى الناس مغرقا فى الحماسة أو مجنونا . ولكنى أقول شيئا : أولئك القوم كانوا يشيدون كعمالقة طولها مائة ذراع . . » والتى قال عنها فيلون البيزنطى فى كتابه عجائب الدنيا السبع :

« كان أولئك القوم يصعدون إلى الآلهة وكانت الآلهة تهبط اليهم » . وحتى العلماء الحديثين ويقولون إنه غير مصدق أن مشروعا كهذا أمكن تنفيذه . . وعلى حدّ قول موريه عالمنا الأثرى : « إنه حلم فوق مستوى البشر قد تحقق مرة على هذه الأرض ، ولكنه

لن يعود أبداً ، تلك هى الاهرامات ...

فنظر اليه الانجليزى وقال باسما :

— وكل هذا خرج من بئر ... أى بئر ؟؟؟

فأجاب مسيو فوكيه بهدوء :

— هذا .

وأشار بأصبعه إلى الجهة اليسرى من صدره .

القلب ؟؟؟

فلم يجب الفرنسى . ولم يتكلم الانجليزى بعد ذلك ، وصمت الاثنان لحظة ، وساد السكون فى الغرفة ...

وعندئذ ظهر البك بالباب وبيده محسن وقد ارتدى بذلته ورتب شعره طول هذه الأثناء . وما كاد البك يلقى نظرة على الغرفة الساكنة حتى اختفى فى الحال هو ومحسن ورجعا من حيث جاءا على أخماص الأقدام ولم يشعر بهما أحد من الضيفين .

واستوى بعد قليل العالم الفرنسى فى كرسيه وأشعل لفافة أخرى وأرسل نفخة من الدخان فى الهواء ثم قال .

— أرى أن قولى لم يفحمك يامستر بلاك ؟

فالتفت اليه المفتش الإنجليزى بأدب وقال :

— أعترف بذلك .

فسكت الفرنسى هنيهة ثم قال :

— نعم . لنا العذر أن لا نفهم هذا . إن لغتنا نحن الأوربيين لغة المحسوسات . إننا لا نستطيع أن نتصور تلك العواطف التى كانت تجعل من هذا الشعب كله فردا واحدا يستطيع أن يحمل على أكتافه الأحجار الهائلة عشرين عاما . وهو باسم الثغر مبتهج الفؤاد راض بالألم فى سبيل المعبود . إنى لموقن أن تلك الآلاف المؤلفة التى شيدت الاهرام ، ما كانت تساق كرهاً كما يزعم هيرودت الإغريقى عن حماقة وجهل . . وإنما كانت تسير إلى العمل زرافات وهى تنشد نشيد المعبود كما يفعل أحفادهم يوم جنى المحصول . نعم كانت أجسادهم تدمى ، ولكن ذلك كان يشعرهم بلذة خفية .. لذة الاشتراك فى الألم من أجل سبب واحد ، وكانوا ينظرون إلى الدماء تقطر من أبدانهم فى سرور لا يقل عن سرورهم برؤية الخمور القانية تقدم قرابين إلى المعبود ، هذه العاطفة عاطفة السرور بالألم جماعة . . عاطفة الصبر الجميل ، والاحتمال الباسم للأهوال من أجل سبب واحد مشترك . . عاطفه الايمان بالمعبود والتضحية ، والاتحاد فى الألم بغير شكوى ولا أنين . . هذه هى قوتهم . . .

انتصب عندئذ المفتش الانجليزى فى كرسيه وقد بدا على ملامحه معنى الجدّ والاهتمام ، وكأنما قد أفحمه بعض ما سمع . وعندئذ هب النسيم عليهما هبة حملت إلى آذانهما فى هذا السكون التام ، أصوات الفلاحين يغنون عن بعد غناء جميلا ، فاشرأب الفرنسى قليلا ثم أشار

اليهم بيده وقال :

هل رأيت فى بلد آخر أشقى من هؤلاء المساكين !! أنت مفتش رى وتعلم جيداً يامستر بلاك ، أوجدت أفقر من هذا الفلاح المصرى ولا أهول عملا ، إنى أعلم ذلك أنا أيضا فقد اشتغلت بالحفر عن الآثار فى قرى الصعيد . وخالطت بعض الفلاحين وعلمت كل شىء ، عمل ليل نهار فى الشمس المحرقة والبرد القارس وكسرة من خبز الأذرة وقطعة من الجبن مع بعض الأعشاب من السريس وغيره مما ينبت وحده . تضحية مستمرة وصبر دائم ، ومع ذلك فها هم يغنون . . . اسمع برهة يا مستر بلاك !

وسكت الأثرى الفرنسى هنيهة كأنما يستفسر روح هذه الأغنية التى تأتى مع النسيم ، ثم استطرد يقول :

أتسمع هذه الأصوات المجتمعة الخارجة من قلوب عدة ؟ ألا تخالها خارجة من قلب واحد ؟ إنى أؤكد أن هؤلاء القوم يحسون لذة فى هذا الكدح المشترك . هذا أيضاً الفرق بيننا ، وبينهم إن اجتمع عمالنا على الألم أحسوا جرائيم الثورة والعصيان وعدم الرضا بما هم فيه ، وان اجتمع فلاحوهم على الألم أحسوا السرور الخفى واللذة بالاتحاد فى الألم ، ما أعجبهم شعباً صناعيا غداً ! .

أسند المفتش الانجليزى يده الى جبينه لحظة كالمتأمل ثم قال :

— ما كنت أحسبك جادًّا وأنت تفهمنى أن بين مصر اليوم

ومصر بالأمس علاقة .

فأجاب العالم الفرنسي :

وأى علاقة ! قلت وأقول أيضا ان الجوهر باق دائماً ، إن هؤلاء الفلاحين الذين يغنون من قلب واحد . . المتعددين الذين تجمعهم العاطفة والايمان فى واحد . . ما زالوا يعون بقلوبهم ولا يعلمون تلك العبارة التى كان أجدادهم يندبون بها موتاهم فى الجنائز :

«عند مايصير الوقت خلوداً سنراك من جديد لأنك صائر الى هناك . حيث الكل فى واحد . .

وها هم اليوم الفلاحون الأحفاد من جديد . . يذكرون فى أعماق قلوبهم أن الكل فى واحد . .

وصمت العالم الفرنسي قليلا ، وعندئذ نبس المفتش الانجليزى قائلا ، وكأنه ما زال تحت تأثير ما سمع :

— شىء غريب . . !

فأجاب الأثرى الفرنسي :

— نعم ، ومع ذلك فلو ذكرت أن هذه العواطف هى التى شيدت الأهرام لزال عجبك ، والا فكيف كنت تريد أن يبنى هذا الشعب بناء كهذا ان لم يكن هذا الشعب كله قد تحول فى وقت ما الى كتلة آدمية واحدة تستعذب الألم فى سبيل واحد : «خوفو» يمثل المعبود ورمز الغاية . . . فلمعت عين الانجليزى لمعانا ، لا أحد يدرى إن

كان بارقة الإعجاب أو القلق ، وهمس وهو يفكر :

ـــ صدقت . . .

فأردف الأثرى الفرنسى يقول وكأنما يختم مقدماته السالفة :

ـــ ان هذا الشعب المصرى الحالى ما زال محتفظاً بتلك الروح

فسأله الانجليزى على الفور :

ـــ أى روح ؟

فأجابه بثقة وتؤدة :

ـــ روح المعبد .

فأنزل الإنجليزى الغليون من فمه ، وسدد نظرات جامدة سامة إلى النافذة ، فالتفت اليه الفرنسى وكأنما أدرك ما فى نفس الانجليزى من قلق ، فابتسم خفية ثم وضع يده على كتف الانجليزى وقال بغتة :

ـــ أجل يا مستر بلاك ! لا تستهن بهذا الشعب المسكين اليوم ، إن القوة كامنة فيه ولا ينقصه الا شىء واحد ...

ـــ ما هو ؟

ـــ المعبود .

فنظر الإنجليزى اليه نظرة لا يدرى ، أمعناها الاستيضاح أم الموافقة ، فأجابه الفرنسى بعد هنيهة .

ـــ نعم ينقصه ذلك الرجل منه الذى تتمثل فيه كل عواطفه وأمانيه ويكون له رمز الغاية . . عند ذاك ، لا تعجب لهذا الشعب

المتماسك المتجانس المستعذب ، والمستعدّ للتضحية إذا أتى بمعجزة أخرى غير الأهرام . . .

فى هـذه اللحظة سمع صوت البك بالباب يرحب بهما ويقول إنه كان يحسبهما قد أخذتهما إغفاءة الظهيرة فلم يرد أن يزعجهما ثم نادى محسن وقدمه اليهما فنهضا يستقبلانه فى لطف وعطف وبشاشة ، ومحسن مصطبغ الوجه حياء وأدبا وقد دعاه والده إلى الـكلام قائلا فى تباه :

ـ كلم جناب المفتش الإنجليزى يا محسن !

الفصل السابع

لم يبق من الأسبوع غير يومين ولم يصل خطاب سنية بعد فكاد محسن يجن يأساً . وهو الذى ما ارتضى البعد عنها تلك المدة إلا طمعاً فى رسالة مكتوبة بخطها . وعاوده الشك وتسلطت عليه الأوهام مصورة له شر الصور . غير أن الأمل مالبث أن جاء لنجدته فأخذ يلتمس لها المعاذير ، ويضع الذنب كله على عاتق عمته زنوبه التى قد تكون أهملت ولم تف بوعدها ولم تطلب إلى سنية تحرير الخطاب المنتظر . وارتاح إلى هذه الفكرة فسكن قلقه قليلا . غير أن هذا لم يمنعه من أن ييأس من وصول الخطاب . فترك التفكير فيه مرغماً وسار كاسف البال إلى الحقل يتلهى بمناظره ، وجاء ميعاد البريد فلم يهتم له اهتمامه المعتاد كل يوم ...

وإذا به يسمع صوتاً يناديه . . فالتفت خلفه فرأى عبد المقصود يدعوه إلى المنزل حالا لأن الست تطلبه . فعاد محسن مسرعاً وقلبه يدق حتى بلغ البيت ودخل فقابلته والدته بخطاب فى يدها ، وقالت له إن هذا له باسمه ، ولم تتم عبارتها لأن يد محسن امتدت إلى الخطاب فى حركة آلية عصبية فاختطفه . وما صار فى كفه حتى تمتم وهو ينظر إلى مظروفه :

ــ آه . . صحيح . . لى . . لى . .

ثم حمله فى يده دون أن يفضه وذهب به نحو الباب واختفى بأسرع من البرق ، تاركاوالدته تنظر إلى ذلك حائرة دهشة . . .

وما صار محسن خارج البيت حتى وضع الخطاب فى جيبه وسار هنا وهناك كالمجنون ، وكأنما الدنيا تضيق به فرحاً . ثم أخذ يلتفت حوله باحثاً عن مكان منفرد بعيد يطالع فيه الخطاب . وخطر له أن يذهب إلى آخر الحقل عند مجرى الماء . . حيث الخضرة والماء وخطاب سنية . وفى الحال جرى وهو واضع يده على جيبه كأنه يحمل كنزاً يخشى سقوطه . حتى وصل إلى المكان الذى انتقاه . فجلس هنيهة على حافة الجدول . ثم نهض كأن البقعة لم تعجبه وجلس فى بقعة أخرى .ثم نظر إلى مايحيط به من منظر .. متعمداً التريث والهدوء والتأنى . . غير أن قلبه كان يدق وكأن شيئاً يدفعه دائماً إلى وضع يده فى جيبه وإخراج الخطاب . . وأخيراً فعل . ولكنه لم يفتحه . بل ظل يقلبه فى كفه.وينظر تاره إلى ختم البوسته ،وتارة إلى العنوان،متمعنا الخط كل ذلك ويده ترتجف فرحاً.. وهو بين عاملين.الرغبة فى فض الغلاف فى الحال والرغبة فى التريث والاستمهال ،كأنما يريد أن يطيل فرحته باستلامه أو كأنما يخشى إن هو قرأه الآن أن تذهب لذته وشيكا بمجرد الفراغ من تلاوته.. وهكذا لبث تتنازعه الرغبتان وقتاً ، حتى تغلبت فى النهاية رغبة حب الاستطلاع . فجعل يفض الغلاف فى تأن وحذر خشية أن

يمزق من ورقه أكثر مما ينبغى ، وكأنما يضن بنطفةمن ورق هذا الخطاب الثمين يرميها للريح ، وأخيراً أخرج المكتوب ونشره بين يديه وقرأ :

« حضرة المحترم الأمجد محسن بك دام

« من بعدمزيد السلام والسؤال عنكم وعن صحتكم وصحة سلامتكم التى هى عين المراد من رب العباد ، وصلنا عزيز خطابكم وعلمنا ما فيه من سؤالكم عناوعن صحةسلامتنا . فأكثرالله خيركم ولا أحرمنا منكم أبدا . وانا والله متشوقين عليكم جدا. فإذا كنت تحب عمتك يامحسن فلا تتأخر أكثر من ذلك عن الحضور إلى مصر قريباً إن شاء الله ، فإن مصر بدونك مظلمة . وفى الختام أعمامك وكل من بطرفنا يهدونك أنت والبك الكبير والست الوالدة أزكى التحيات ودمتم بخير . عمتك زنوبه »

بهت محسن قليلا ووجم وأحس شيئاً من خيبة الأمل . وكان أكثر ما أدهشه وأبهته إغفال ذكر سنيه فى الخطاب . لكنه عاد فالتمس لها العذر قائلا فى نفسه : إنهاهى التى كتبت الخطاب وهى تعلم أن محسن يعلم ذلك فلا محل لذكر اسمها . . أولعله الحياءمنعها أولعلها رغبتها فى أن تظل خلف ستار عمته زنوبه .

وعاد محسن إلى تلاوة الخطاب من جديد على أن كاتبته سنيه وعلى أنها إنما تخاطبه من وراء ستار . ولكن أى ستار؟ ولماذا هذه اللغة المبتذله

التى جرت مجرى العرف والاصطلاح فى رسائل السواقه ، والتى لا يجرى بها إلا قلم كاتب عمومى أو «عرضحالجى»؟ أفتراها قصدت المداعبة ؟ إن سنيه مداعبة لعوب حقيقة ، ولكنها أيضا مهذبه متعلمة تقرأ القصص وتطالع الكتب ، فلا يعقل أن يكون هذا أسلوبها ! إنها إنما تداعبه نعم هى دعابة منها لطيفة ! . وسرعان ماابتسم محسن ورجع يتلو الخطاب من أوله ويقف عند كل ... ضاحكا مسرورا معجبا بظرف معبودته . ولمع فى رأسه خاطر جعله يضاعف إعجابه ، بها فقد وقعت عينه على الإمضاء ، فقال فى نفسه : نعم انه حسن ذوق . فما دام الخطاب من زنوبة فإنها اختارت أسلوبا يتناسق مع الإمضاء ومع جاهلة كزنوبه ! لاشك أن سنيه جمعت ما بين الدعابة لتسره وتضحكه وبين السخرية لتهزأ خفية بزنوبه . ما أذكى فؤادها ، لا ريب انه لم ير ذكاء باهرا كذكاء سنية .

غير أن محسن برغم كل هذا الذى استخرجه من الخطاب ظل قلق القلب . . كان يود أن تبثه بعض عواطفها نحوه . أنها نست أنه إنما يحيا هنا بذكراها وذكرى تلك القبلة المطبوعة على خده . ونست إنها مهما فعلت من أجله فلن تزيل عنه القلق ولن تمنحه الراحة التامة والاطمئنان . إنه فى حاجة إلى عبارة تؤكد له بعض التأكيد وتريحه بعض الراحة وتطمئنه بعض الإطمئنان . .

فعاد يتلوه تلاوة أخرى ليستشف منه شيئا آخر غير تلك الدعابة

التى ليس فى حاجة إليها كبيرة ... إلى أن بلغ عبارة « فإذا كنت تحب « عمتك يامحسن .. » الخ الخ

فوقفت عيناه عليها واحمر وجهه، إذ بدا له أن هذه العبارة إنما تعبر عن عاطفة سنية التى كتبتها خلف ستار زنوبه .. نعم هو ذاك . وأنها لولا الحياء لقالت « فإذا كنت تحب سنيه يامحسن ... » الخ الخ

دق قلب محسن سريعا لهذا التخيل . . فتوقف قليلا وأرسل نظراته الحالمة إلى ماء القناة الجارى تحت قدميه . . وقد أحس لذة وسعادة ، ثم عاد الى الخطاب بعد لحظة وأخذ يتمعن تلك الجملة الساحرة ويستنبط منهـا معانى جـديدة . . وينزل فى أغوارها يستعصرهـا عواطف مستترة . «فإذا كنت . . تحب يامحسن . . فلا تتأخر أكثر من ذلك فإن مصر بدونك مظلمة !!! »

— صحيح ؟ ؟ مصر بدونى مظلمة ؟ ؟ فى نظر سنية ؟ ؟ !

هذا ما جعل يهمس به محسن لنفسه وهو كالمجنون فرحا واختلاجا.

وطوى الخطاب باعتناء تام بعد أن أدناه من شفتيه وقبله قبلات حارة ودسه فى جيبه بحرص ، ثم نهض وقفل راجعا إلى البيت وهو يشعر كأنه لا يسير على الأرض . . بل يمشى فى الهواء ...

* * *

دخل محسن البيت فقابلته والدته سائلة عن الخطاب الذى أخذه الساعة وانصرف به . فقال لها إنه من عمته وأدخل يده فى

جيبه متردداً . ولاحظته والدته فمدت يدها إليه تريد الخطاب . ولعل ماظهر لها من أمر محسن رابها قليلا . ولم يطل تردد الفتى فإنه أبرز الخطاب مضطراً إلى والدته وابتسم واحمر وجهه وقال في بعض تلعثم :

عمتي بتسأل عن صحتك وصحة بابا . . وبس ...

ثم فض الخطاب باحتراس وناوله لوالدته . . وهي تلاحظ تغير وجهه فلما أخذت الخطاب وطالعته استغربت إذلم تجد في الخطاب شيئاً وأعادته الى الفتى وقد انفرج فمها عن ابتسامة . كأنما أدركت إن مابدا من محسن ماكان سوى اهتمام صبياني بخطاب أتاه باسمه . . مهما كان الخطاب فارغا وسخيفاً ...

ولاحظت كذلك عناية محسن بإعادة الخطاب داخل الغلاف ثم عنايته وتؤدته وحرصه وهو يضعه في جيبه ثانية ، كأنما يضع شيئاً ثمينا . . فابتسمت ابتسامة أخرى . .

ولبث محسن هنيهة معها ساكتاً . وكأنما لا يجد مايقول لها . وأخيراً تحرك يريد الانطلاق من جديد إلى الفضاء ليخلو إلى نفسه ولكنها استوقفته قائلة في عتب

— إنت يامحسن دايما في الغيط ! . . مش تقعد معاي شويه . . !

فرجع وجلس وهو يخفي تبرمه بابتسامة . .

واقتربت منه والدته . وكانت تحس دائما أن ما يربطها بابنها

إنما هى صلة تكاد تـكون رسمية شرعية لا أكثر . .

وطالما رأت ذلك منه ومن نفسها . ولا تعلم إن كان السبب افتراقه عنهـا منذ سنين للالتحاق بمدارس مصر تحت إشراف عمه حنفى المدرس ؟ .. أو أن السبب اختلاف طبائعهما منذ بدأ الغلام يعقل .. وأنها ما كانت ترى منه اتفاقاً معها فى الميول . . وطالما رأته يؤثر الوحدة أو اللعب مع رفاقه الصغار على الجلوس إليها . . . أو أن العيب عيبها هى وعيب طبيعتها المنصرفة عن الأمومة وشئونها إلى رغبات أخرى ومطامع . . . انها لا تدرى . . وكل ما حملهـا على التفـكير فى هذا الآن إحساس بسيط غريب . . لعله شىء من الغيرة أو الأثرة وهى تلاحظ اهتمام الفتى بخطاب زنوبه . ذلك أنها قالت له بعد أن نظرت إليه طويلا :

— أظن يا محسن انت تحب عمتك اكتر منى ؟ ؟

فلم يجب الفتى . إذ كان ما يملأ فـكره شيئاً آخر :

أن ينطلق إلى الغيط ويجلس هذه المرة فى ظل الساقية الدائرة ويقرأ الخطاب من جديد . .

الفصل الثامن

لم يطق محسن صبراً عن مصر دقيقة واحدة بعد اليوم . و ما الذى يبقيه هنا الآن وقد استلم الخطاب وقرأه مرة حتى حفظه عن ظهر قلب ...

وأعلم والديه بعزمه على السفر و بميعاد سفره ، وأخبرهما متلطفاً عما ينبغى حمله إلى أعمامه من هدايا الريف . وأفهمهما فى كياسة أن يسخوا فى الهدية هذه المرة ، وكان يقصد فى نفسه بهذا أن يجعل عمته زنوبة تقتطع من الهدية جزءاً تهديه إلى سنيه . فما كان اليوم التالى حتى أخذ الكل يجهزون محسن للرحيل . فهيئت السلال و « الطرود » مملوءة من « برام » الأرز ذات الحمام والفراخ ومن الكعك و « المنين » و « البتاو » الفلاحى والفطير « المشلتت » يضاف إلى ذلك بلاصان من العسل النحل وصفيحتان من المسلى « وفردان » من الأرز ونحو خمسمائة بيضة .

وقد اصطفت هذه الهدية الوافرة صفاً طويلا جعل يتأمله محسن فى زهو وافتخار .

وجاء ميعاد الرحيل ولبس محسن بذلته وهو فرح مبتهج . إذ بعد ثلاث ساعات يكون فى مصر . نعم بعد ثلاث ساعات فقط يصير فى منزل أعمامه الملاصق لمنزل سنيه . ولأول مرة ذكر

محسن وأدرك أنه يسكن بجوار سنيه . لأول مرة أحس معنى هـذا الجوار وقيمته . وكم من الحقائق تمر بالإنسان فلا يراها ولا يدركها إلا بعد زمن . وبعد أن تغدو تلك الحقائق صورا . . كأنما قدر للإنسان ألا يرى من الحياة أيضا إلا الأحلام والصور ! نعم إنه يقطن دائماً المنزل المجاور لمنزلها ولكنه لم يفطن ولم يقدر ذلك إلا اليوم وهى بعيد . .

وكان عندئذ يضع طربوشه أمام المرآة على رأسه وعيناه تائهتان تتأمل هذه الخواطر . فما وصل إلى ذلك الإحساس إن ما بينه وبينها ليس إلا الحائط بين المنزلين حتى شعر بالهناء يغمره ووقعت عينه على صورته فى المرآة فهش لها وأطال النظر إليها . ودخل عليه والده فجأة والساعة فى يده ينبهه إلى الوقت . فصحا محسن لنفسه مرتبكا بعض الشيء وجعل ينظر حوله كمن يتأكد أنه لم ينس شيئاً من حوائجه . ثم اتجه إلى الباب فى أثر والده .

وكانت والدته قد انتهت من الاشراف على نقل الأمتعة . وقد رؤى أن يسبق «العفش» محسن إلى دمنهور على عربة نقل يجرها بغلان . وأن يقفو محسن أثرها فى المركبة الفخمة بصحبة والده . وأقبلت والدة محسن فالتفت البك إلى ولده وقال بلهجة سريعة :

— سلم على نينتك قوام الا مفيش وقت !

فتقدم الفتى إلى والدته فعانقته وأوصته بالمواظبة على المكاتبة

ثم التفتت إلى زوجها وسألته عما إذا كان قد أعطى محسن «مصروفه» فأجاب مسرعا:

— فى المحطة

فقالت له وهى تومىء إليه إيماءة مصطلحاً عليها:

— اعطى له بس زى ماقلت لك إلا يروح يعطى الفلوس لأعمامه..

فاستاء محسن ونظر إليها نظرة تأنيب. واحتج على قولها هذا قائلا إن أعمامه ليسوا فى حاجة إلى أخذ نقوده الخاصة. إنهم أطيب من ذلك قلباً... ولا يدرى الفتى لماذا أوجعته تلك الكلمة... ولا أى شعور بعثه على الدفاع عن أعمامه ورفاقه؟ ولا حظ والده ذلك فقال فى هدوء بدون أن يغضب زوجته: إنه يرسل إلى حنفى أفندى كل شهر مبلغاً عادياً فى نظير إقامة محسن عنده... وإن هذا المبلغ غير مبالغ فيه...

فقالت الست بلهجة جافة بعض الجفاف، إنها تقصد القول بأن محسن لا يحب النقود ولا يهتم لها منذ صغره. وأنها مازالت تذكر أيام الأعياد عند ما كانت تعطيه ريالا «عيدية» حاسبة أنه سينفقه مثل غيره من الأطفال فى شراء «زمارة» أو «أمبوله» أو «شكولاته». ولكنه ما كان يفعل شيئاً من ذلك. بل كان يلعب بالقطعة الفضية قليلا ثم يعود بها إلى والدته ويردها.. فتدهش وتسأله «جرى إيه يا محسن؟ فيجيبها: «خلاص» فتلح فى سؤاله متعجبة «خلاص

إيه ؟ ! ؟ » فيقول لها : « خلاص لعبت به وشبعت ... »

وسكتت الست قليلا . فقال لها البك :

— لكن محسن النهارده ماطلبش شيء زيادة عن المعتاد كل شهر.

فغضبت السيدة وقالت فى حدة وبرود :

— طيب .. طيب .. عرفت ! هو أنا كفرت ! أنا قصدى تمشى بالحساب علشان بعد كده ما تقولش إن العزايم هى اللى فاهبه المصاريف ..

* * *

جاء القطار وهجم عليه الخدم بالأمتعة «والطرود» وركب محسن وتحرك به القطار وأشار لوالده على الرصيف اشارة الوداع . ثم جلس فى مقعده وخلا إلى نفسه يحاول أن يستذكر أثر الريف فى نفسه ، أو على الأقل آخر صورة لوالديه اللذين فارقهما منذ برهة غير أنه لم يجد فى رأسه الآن سوى صورة واحدة مصر — سنيه. ولا أثر فى قلبه غير أثر واحد : الخطاب الذى فى جيبه منها. هذا هو كل ماضيه . وكل مستقبله : سنيه . خلا ذلك فليس بنفسه شيء حتى الساعة كأنه لم يكن فى الريف ... ولا شاهد شيئا ولا لقى أحدا . كذلك لم يشأ محسن أن ينظر إلى المسافرين معه ولا إلى ما يجرى حوله . بل أخرج من جيبه الخطاب وأخذ يقرأه ويقرأه متأملا كل عبارة ... حتى بلغ القاهرة والخطاب بيده ...

كان والد محسن قد أرسل تلغرافا إلى حنفى أفندى عن ميعاد وصول القطار حتى يجد من ينتظره بالمحطة . فما كاد يقف القطار حتى نهض محسن ونفض عنه الغبار ثم أطل من النافذة ونظر إلى الرصيف فى سرور هائل كى يشير إلى عمه حنفى ... غير أنه لدهشته لم يجد فقط حنفى وحده بل وجد كذلك معه كل الرفاق ... «الشعب» جميعه : عبده وسليم ومبروك وحنفى ... واقفون كلهم ينظرون إلى القطار الداخل عليهم يتبختر .. ومبروك بسذاجته المضحكة يرفع ذراعه فى الهواء ويشير إشارة طائشة إلى المركبة التى يظن بها محسن ولم يكن لمحسن الوقت الكافى ولا العقل الهادىء فى تلك اللحظة ليتساءل فى نفسه عن سبب مجىء الجميع لاستقباله ؟ أتراه الشوق إليه ؟ نعم إن الرفاق فى الواقع شعروا كأنهم فقدوا شيئا بغياب خامسهم فما جاءتهم البرقيه حتى أسرعوا إليه فرحين ! . ولكن ألهذا فقط؟ ؟ ! لم يعلم محسن إلا أنه سر برؤيتهم . وما كاد نظره من نافذة القطار يقع على مبروك وهو يشير ويتكلم على طريقته المعهودة حتى امتلأ قلبه ضحكا داخليا .. وشعر كأنما قد عاد أخيراً إلى مائه وجوِّه الذى يستطيع أن يعيش فيه ..

الفصل التاسع

لم يكن المقام يسمح لمحسن بأكثر من تحية أولى سريعة . إذ أنه ذكر لهم مامعه من عفش كثير ، فأقبلوا برمتهم على القطار ومبروك فى مقدمتهم يحمل مايستطيع حمله ، حتى بلغوا ساحة المحطة فأوفدوا مبروك يتفق لهم مع صاحب عربة نقل . وما انتهوا من وضع العفش والطرود عليها ومن وضع مبروك فوق العفش والطرود حتى قالوا للعربجى بعد أن أخذوا نمرته :

— سوق ياأوسطى على شارع سلامه نمرة ٣٥ .

وقال اليوزباشى سليم :

— خد بالك كويس من العفش يا أوسطى !

وقال عبده وهو يعد الطرود :

— حاسب ياأوسطى إلا يقع منهم طرد فى السكة . !

وقال حنفى :

— ان تهت يا أوسطى عن البيت اسأل ناحية السيدة ألف من يدلك ، فأجاب العربجى وهو يجذب اللجام ويقول « شىء . . شى يابتاع الكلب ! » :

— ما تخفش أتوه ازاى مش بتقولوا شارع سلامة فى خط السيده ؟ !

فأضاف الرئيس حنفى مؤكداً :

— وقدام البيت قهوه . بس انت ما عليك يا أرسطى إلا تسأل المعلم شحاته صاحب القهوة ...

وهنا صاح بهم مبروك من فوق العربة محتجاً على إغفالهم وجوده :

أنا يعنى بلا قفيه على العربيه بصفة طرد ؟ ! .

فضحك محسن . ورأى الحق فى جانبه ، والتفت حنفى إليه وقال فى لهجة الاعتذار :

إبقا إسأل « الأفندى » إللى فوق العفش .

ورفع الحوذى يده بالسوط فسارت العربة تتهادى فى ميدان باب الحديد كالسكرى بحمارها ذى الخلاخل النحاسية ومبروك على قمتها يترنح من حركتها وينظر خلفه إلى الرفاق مبتسما وهم يشيعونه بأنظارهم . وجعل يلوح لهم بيديه أن اسبقوا أنتم إلى المنزل تواً .

واتجه الرفاق بعد ذلك إلى محطة الترام وركبوا إلى حى السيدة زينب ، وهم يسألون محسن طول الطريق عن أهله وعن دمنهور وعما رآه . وهو يجيبهم ناظراً إلى وجوههم وأصواتهم وكأنما يلاحظ فيها تغيراً قليلا ورنيناً غير مألوف . لكنه ليس يدرى بعد ان كان مايلاحظ صحيحا أو أنه خيال مسافر قادم . إنه يلمح على

وجوههم مسحة من كآبة هادئة ، وفى أصواتهم خفوتاً ثم كثيراً من الصمت كأنما هم لا يبطنون فرحاً ولا ابتهاجاً . . ومع ذلك شيء عجيب . . إنه يحس ازدياد قربهم إليه ، ويشعر كأنما كل مايملكون من ابتهاج الساعة ، إن كانوا يملكون ، فانما هو لعودته .

لم يستطيع محسن أن يناقش نفسه الآن وهو فى الترام فى كل ذلك . غير أن هذا كان شعوره المباشر عند لقائهم . وطالما بدا له فى الطريق أن يسألهم فى ذلك إلا أنه خشى أن يكون شعوره قد أخطأ وأن يكون كل هذا من تأثير المقابلة الأولى . ثم انه كان منهم فى موقف المجيب على أسئلتهم والحاكى لأخبار الرحلة . فلم يشأ تعجل الاستفسار منهم عما يريد أن يعلم . والوقت متسع أمامه وهم أيضاً من جانبهم كانوا ساكتين عن إخباره بأمرهم كأنما لا يريدون التعجل أو كأنما هم لا يريدون الظهور بمظهر الاهتمام بأخبارهم .

وبلغوا المنزل . وما وقع بصر محسن على الدار المجاورة واللوحة النحاسية المنقوش عليها اسم « الدكتور أحمد حلمى » حتى تغير وجهه ودق قلبه دقات سريعة . ولعل عبده وسليم كانا يرقبانه هذه اللحظه فقد تبادلا النظر واختلجا بشيء لا يعلم أحدأهو بعض الراحة أم بعض الرأفة . .

وصعد الجميع السلم ومر محسن وهم يجتازون الطابق الأول بالشقة القاطن بها الجار مصطفى بك فابتسم وقد ذكر فى الحال عمته

زنوبه . ثم التفت إلى أحد رفاقه وسأله عما إذا كان هذا الجار المثرى مازال ساكناً هنا أم «عزل» ؟ . فتبودلت النظرتان من جديد . ثم سمع سليم يجيبه بلهجة غريبة :

— ساكن ياسيدى ..

ووصلوا أخيرا إلى طابقهم ودخلوا الشقة المعهودة فقابلتهم زنوبه مهللة مكبرة ترحب بعودة محسن تسأله عن صحة والديه وتنظر اليه وتقول :

— إنت كنت عندنا مفض سمين . . .

ثم جعلت ترقبه وتدعو له الله وأم هاشم . . . ومحسن يجيل بصره فى البيت يتعرف ماتركه منذ أسبوع كأنما مضى عليه عام . وينظر إلى المائدة الممدودة وسط الردهة ويستذكر اجتماعهم حولها . ثم مد رأسه لينظر حجرة النوم ذات الأسرة الاربعة المصطفة جنباً إلى جنب . ثم أدار رأسه يتفقد سلم السطح المؤدى إلى حيث التقى بسنية لأول مرة . ثم التفت إلى حجرة زنوبه «والشلته الكرنبى» المفروشة على الأرض فوق الكليم الأحمر القديم حيث تجلس عمته ويجلس بجوارها يتحايل ويتخابث ليعلم منها أخبار سنية بدون أن يستثير ريبتها كل ذلك رآه ومر بخاطره فى لمح البصر . ولم يجد شيئاً تغير عن ذى قبل لا فى نظام الشقة ولا فى الأثاث

نعم لا شىء تغير . ومع ذلك فإن إحساساً دقيقاً يحدثه بأن شيئاً

تغير . ولكن ماهو ؟ التفت محسن إلى وجوه رفاقه يستفسرها .. لكنه ألفاهم ساكتين غامضين . . .

فالتفت إلى زنوبه فلم يستطع بادىء الأمر أن يقرأ فى وجهها شيئاً غريباً ، ولا أن يرى فى صوتها أو حركاتها ما يوحى اليه بإحساس خاص . غير أنه لم يفته وقد أمعن النظر إلى عينيها أن يجد فيها شيئاً يتعارض وتلك الابتسامة الفرحة ، وذلك الابتهاج الذى أستقبلته به . نعم فى عينيها أيضاً تلك الكآبة . . ولكنها أرخت بصرها فى الحال إذ نظر إليها هذه النظرة الفاحصة ثم سألته عما إذا كان جائعاً . فأجابها أنه لن يأكل إلا مع أعمامه وعند حضور العفش لأنه يحمل إليهم « برم » أرز بالحمام والدجاج . فأظهر الجميع الابتهاج وهللوا لحظة وهشوا لذكر الحمام والدجاج . . فقالت زنوبه لمحسن أن يخلع ملابسه ريثما يأتى العفش ، فذهب محسن إلى القاعة « العمومية » ذات الأسرة واقترب من الدولاب الكبير المشترك وفتحه وألقى نظرة على ما يحويه من ملابس مختلفة الأحجام والألوان تذكر بمعروضات سوق « الكانتو » ثم اتجه إلى سريره المجاور لسرير الرئيس حنفى وهو يفك أزرار ثيابه . فقال حنفى مرحباً باشّا :

ـــ أهلا بجارى !

وأومأ اليوزباشى سليم بيده إلى القاعة والأسرة ثم قال لمحسن ملاطفا ولكن فى لهجة تشوبها رنة غامضة قلقة :

ـــ رجعت « للعنبر » يابطل !

فقال حنفى باسماً :

ـــ العنبر دلوقت كامل العدد .

ثم طفق يتحدث قائلا إنه كلما ذكر أن سرير محسن خال بدا له ان شيئا ينقص . وهذا الشعور بالنقص كان يمنعه من النوم بعض الاحيان ، فضحك محسن والتفت إلى حنفى وقال :

ـــ يمنعك من النوم مش ممكن ! مفيش حاجه تمنعك من النوم أبداً فاكر يوم مانمت فى المحطه وضيعت لى القطر ؟ ...

والتفت إلى الجميع يريد أن يحكى لهم ماحصل كى يشركهم فى الضحك ، غير أن حنفى أومأ إليه إيماءة خفية متوسلا إليه ألا ينشر الخبر بين « الشعب » ...

ودب الصمت بينهم لحظة قطعها عبده الذى لم ينبس بحرف منذ دخوله قائلا .

ـــ مبروك غاب !

وحولت هذه العبارات أفكار الجميع إلى جهة أخرى فنهضوا ينظرون من النافذة مجىء العربه التى فوقها . . مبروك ونزل حنفى من فوق سريره الذى كان جالسا عليه وهو يقول :

ـــ لازم تاهوا ! هى مادام فيها مبروك حاتوصل ؟ ! أنا أراهن إن ماكان وقع من فوق العربية والعربجى مش واخد باله

وفضل سايق . ! .

وخطر لمحسن خاطر سريع فعدل عن خلع ملابسه وعاد «يزرر» سترته ... ذلك أنه رأى الهدية عما قليل ستأتى ، وأنه قد يذهب للقاء سنيه . نعم إنه يقوم المحال إذا ظن أنه يستطيع صبراً على رؤيتها حتى الغـد ...

ما كاد محسن ينتهى من تنظيم هنـدامه حتى سمع رفاقه يصيحون فى النافذة معلنين :

— ظهرت !

ثم عقب ذلك لغط أثاره حنفى الرئيس وهو يزاحم الرفاق على النافذة ، ويضع منظاره على أنفه ويسدد عينيه إلى حيث نظر الزملاء ، ويقول مؤكداً بأن العربة ظهرت حقيقة عند آخر الشارع تهتز وتتراقص كالمركب الغرقى وهى تجتاز حفر ونقر الطريق ، ومن فوقها مبروك « يقب ويغطس » لناظريه عن بعد ، وهو تاره تظهر منه يد أو ذراع يشير للعربجى إلى المنزل ، وتارة يظهر منـه نصفه الأعلى كله وقد احتضن طرداً صغيرا ...

وبلغت العربه المنزل أخيرا ووقفت ببابه . . فاقترح عبده أن ينزل الجميع لمعاونة مبروك فى إصعاد العفش . وما كاد يقول حتى اتجه إلى باب الشقة وأخذ ينهب الأرض نهباً وباقى الشعب فى أثره بما فيه «الرئيس الشرف» ، ولاحظ محسن نشاط حنفى أفندى

العجيب وهو ينزل السلم مستعدا للعمل ، فضحك فى نفسه وقد أدرك السر : « والله ما حرك العم حنفى اليوم إلا برم الأرز ! » وكانت زنوبه وقتئذ فى حجرتها تنتظر فراغ محسن من خلع ملابسه . . فلما سمعت جلبة الجميع فى السلم ، خرجت إليه وأشرفت عليهم من علّ وسألت عن الخبر ، فأجابها الرئيس حنفى فى اغتباط ساذج وهو يدافع منكب سليم على الدرجة الأخيرة من السلم :

— العربية جت . حضرى القصع والحلل والصوانى !

ما مرت عشر دقائق حتى صفت الطرود فى ردهة المائدة واجتمع الشعب بأكمله بعد أن صرفوا الحوذى وعربته . وتقدمت زنوبه وقد فوضوا إليها الأمر فى فتح الأشياء وتوزيعها وحفظها ، والتصرف فيها بمقتضى الحكمة والعدل ، فتناولت سكيناً وجعلت تقطع وتفك أربطة السلال ، وتخرج ما فيها من الكعك المسمى «منين وبتاو وغريبه» فى طشت غسيل كبير . . .

بينا مبروك ينظر إلى حركة يدها المتنقلة بين السلة والطشت ثم يحدق فى البتاو ولعابه يسيل . وأخيرا تجرأ وقال ولم يطق صبرا على الانتظار :

— أما أقول لك ياست زنوبه ! صلى على النبى . . .

فلم تجب زنوبه وظلت منهمكة فى عملها لا تلتفت إليه . فسكت قليلا على مضض ثم تردد وتنحنح وتقدم إليها أخيرا قائلا :

أنا ماليش دعوه بكم بلا قافيه ! أعطينى أنا منابى وقولى لى روح فى داهيه ...

فرفعت رأسها شزرا دون أن تنقطع عن عملها وقالت :

— النبى تتلهى . !

غير أن عبده رأى الحق فى جانب مبروك . فاقترح أن يعد البتاو كله ثم يقسم بينهم بالتساوى ، فلا يأخذ فرد من الشعب بتاوة واحدة أكثر من رفيقه ، وأن ينطلق كل بنصيبه يصنع به ماشاء ... ويكون كل حرا فى أن يأكل نصيبه بأكمله فى يوم واحد أو على أيام ، فاعجبت الفكرة الجميع وصاح الرئيس حنفى متحمساً :

— أهو دا العدل !

فأذعنت زنوبه وأخذت تعد البتاو والمنين توطئة لتوزيعه بين الجميع بالتساوى . ولكن محسن ذكر أن سنية لها قسط من الهدية فارتبك وتحير ، وأخيرا تشجع وقال فى بعض اضطراب :

— أظن واجب ياعمتى تبعتى شويه لبيت الجيران ... إلا طبعا هم عارفين إنى جيت من الأرياف ومعايه ... وغص حلقه بباقى الجملة إذ لاحظ فى وجوه الرفاق وبالأخص فى وجه عمته تغيرا فجائيا عجيبا . وتمتمت زنوبه بلهجة فيها رائحة الاستنكار :

— الجيران ؟ !

فأحس محسن انقباضا فى صدره . والتفت إلى الرفاق يستجليهم

الأمر فألفاهم متبرمين متوجسين ، كأنهم ما كانوا يريدون التعجيل بتعكير صفوهم فى لحظة كهذه . . ، ولمح سليم لأول مرة منذ قدومه يفتل شاربه المعهود غير أنه فى هذه المرة يفتله فتل ساهم «مكبوس» لا كما كان قبلا فتل تعاجب وخيلاء . ولاحظ كذلك لأول مرة أن شارب سليم قد تغير . . لم يعد بعد ذلك الشارب اللامع «الزنهار» بل غدا متهدل الأطراف مسدولا . . كأنما كف عن استعمال الكوزماتيك» منذ زمن طويل . والتفت إلى عمته زنوبه فرأى شفتيها تهتزان وترتجفان كأنما تريد أن تنفجر بكلام . . . وقد سكتت يداها عن العمل : فلما رأت صمت الجميع تجرأت ورددت فى لهجة نارية:

— جيران ! مين هم الجيران دول ؟ !!

شعر محسن كأن مصيبة تتهيأ وتتكون لتنقض على رأسه . فنظر إلى رفاقه بأعين زائغة . وعندئذ رفع عبده رأسه وأشار بيده لزنوبه إشارة عصبية وقال فى صوت جاف مغضب :

اسكتى دلوقت مفيش لزوم . ! .

ولكن زنوبة كان يكفيها أن تلمس فى هذا الموضوع لينفغر فمها بالكلام الذى لم تنقطع عنه منذ أسبوع . وكانت كلما تكلمت فيه تحس أنها تشفى غلتها . . . لذلك ما التقت بأحد من معارفها القريبين أو البعيدين إلا قالت له هذا القول الذى صاحت به الساعة . .

— جيران مين دول يا ادلعدى ! بيت الدكتور حلمى أبو قرنين؟

بيت سنيه الشرموطه ! . . . غير أن عبده ارتعد غيظا وصاح بها:

— قلت لك اسكتى . . . كفايه تشنيع . . .

وقال سليم متكلفاً عدم الاكتراث وهو يفتل شاربه بكبرياء المدحور:

— مفيش لزوم نهتم بمسأله زى دى ! مهمة قوى يعنى ست سنيه بتاعتك ! أنا والله عمرى ما نزلت لى من زور . . .

فحدجه عبده على الرغم من هياجه العصبى بنظرة ساخرة وكأنه يقول له : « الثعلب من عجزه قال إن العنب حصرم » !

وأشارت زنوبه بيدها إلى عبده وسليم كأنما تقول لهما أن يتركاها وشأنها وهى تصرخ :

— يوه ! مش أقول لمحسن على اللى جرى ؟ !

نعم تقول لمحسن عما حدث فى غيابه لو أن محسن الساعة من الأحياء . أو ممن تسمح له حالته بالاستماع ، فان محسن ما كاد يتلقى فى صميم قلبه عبارتها « سنية الشرموطة » حتى بهت لونه وبرد جسمه ، وذهل عن كل شىء حوله وأمسك بطرف المائدة يتقوى بها على الوقوف . . وقد حدق « بالمشمع » الباهت القديم المفروش عليها وتحجرت نظراته ولم يعد يسمع شيئاً من تلك الجلبة والثرثرة والصراخ والتهويل الذى كانت تثيره زنوبه فى المكان بقصتها الطويلة المفصلة عما حدث فى هذا الأسبوع المشئوم . . .

الفصل العاشر

لم ينم محسن تلك الليلة إلا نوماً متقطعاً لا فائدة منه للجسم. ولقد كانت أحيانا تأخذه الإغفاءة من تأثير تعب هذا النهار المملوء سفراً وغماً فيدب النوم فى مفاصله ويهمد كل شىء فيه .. ولكن ذلك الهمود والنوم العميق ما كان يدوم غير دقائق ، وإذا شىء كالصفير المستطيل أو الصراخ الحاد يخترق طبلتى أذنيه ويتبينه فإذا هو صوت يقول :

« سنيه الشرموطه ! سنيه الشرموطه ! .. »

فما أسرع ما يطير النوم ويحس كأن قلبه قد خطف أو سقط من بين قدميه وغاص فى الأرض . ففتح عينين متسعتين حمراوين من الأرق. وعندئذ يستعرض ما وقع هذا النهار ويستذكر زنوبه وملامح وجهها المتقلص غيظاً وهى ترغى وتزبد ساردة ما حدث ، قائلة له فيما كانت تقول وهو لا يعى إلا نصف وعى :

— من يوم سفرك يا محسن وهى تشاغله من البلكون .. !!

ثم قولها بعد ذلك إن ليت الأمر اقتصر على مجرد المغازلة من الشرفات . فان ما بينهما الآن قد وصل إلى حد تبادل المكاتبات والمراسيل .. وما يمضى يوم دون أن ترى جارية سنية ملتفة فى إزارها تجىء خلسة إلى مصطفى بك وتظل فى مسكنه « بالشقة » السفلى مقدار ما تسلمه الرسالة ويدفع هو إليها الرد .

إنها تكتب إليه ... تكتب إليه رسائل وخطابات كل يوم.. !!
ومحسن الذى كان ينتظر خطابا واحداً منها فى دمنهور !!.

وعندئذ ذكر تلك الحقيقة التى سودت الدنيافى وجهه .. وذكر الخطاب الذى جاءه بالعزبة وحفظه عن ظهر قلب .. وذكر قول زنوبه عند ما صحا لنفسه وتجلد وسألها :

— أمال ياعمتى الجواب اللى وصلنى منك مين كان كتبه لك ؟ مش سنية ؟؟

فكان جواب زنوبه :

— سنيه !!. هى فضيالنا ولا فاضية للراجل الفلانى الخباص اللى تحت !!.

فتمالك الفتى كل قوته الخائرة وسألها أيضا فى يأس !

— مين بس اللى كتبه ؟؟

فأجابت :

— كتبه العرضحالجى اللى قدام محكمة السيدة ...

عرضحالجى !..

نعم لم يكتف غيظ زنوبه وحقدها بفضح سنيه والتشهير بها عند الناس بمناسبة وغير مناسبة . بل دفعها الغيظ والحقد إلى الذهاب إلى عرضحالجى محكمة السيدة زينب تستكتبه خطابا غفلا تبعث به إلى والد سنيه الوقور ، كى تفضح البنت عندأبيها وتثير فى بيتها

عاصفة .. كل ذلك لأن مصطفى بك علق بسنيه ولم يلتفت إليها هى البادئة بمغازلته . لهذا عدت سنيه لديها «شرموطه» ، وغدا مصطفى بك «رجل فلاتى خباص» ! هكذا كان الغرض الأصلى من ذهابها إلى كاتب عمومى محكمة السيدة . وانتهزت فرصة وجودها عنده لتستكتبه «فوق البيعة» خطاباً صغيراً ترسله إلى محسن . . .

هذه هى حقيقة الخطاب العزيز الذى يحفظه محسن عن ظهر قلب كما وضحت لعينه الآن . أى أن سنيه لم تخط إليه كلمة واحدة ولا علم لها بشىء عنه ولا يهمها إن كان حضر أو لم يحضر . . .

لم يطق محسن تلك الفكرة واستوى فى سريره كأنما استقبل طعنة باغتة وجعل يضرب رأسه بيديه كمن يريد أن ينهى حياته ، وما فائدة حياته الآن ؟ ماذا يصنع بها وهى خالية من . . .

لم يجرؤ على ذكر اسمها بل لفظ آهة كادت ترن فى الغرفة لو لم يكتم فمه باللحاف . . ثم نظر حوله فى قلق فألفى الجميع نياماً وجاره حنفى يغط فى سريره غطيط خلى ، الفؤاد وباقى الشعب يرقد هادئا لكنه هدوء المستسلم المذعن . فهل يستطيع أن يذعن هو أيضا وقد فقد من الحياة كل شىء . لماذا ينام ولماذا يصحو غداً ؟ . .

وغطى وجهه وجسده باللحاف وقد تفصد جبينه عرقاً وجعل يدعو الله فى حرارة أن ينام فلا يصحو إلى الأبد ... وأغمض عينيه بعزم عصبى جنونى ، كأنما يريد أن يقنع الله بقوة إرادته وظل لحظة

ينتظر الموت ويستحثه حتى وافاه النوم . . . فنام نوما عميقاً رأى فيه حلما هو أجمل ما حلم فى حياته . . رأى أول الأمر كأن ما سمع البارحة عن سنيه كذب واختلاق ، وأن مصطفى بك قد غادر المنزل والحى ومصر كلها وذهب إلى أرضه بالأقاليم حيث تزوج ابنة أحد الأعيان من أقاربه . وأن محسن لبس بذلته الجديدة وذهب إلى سنيه بالهدية التى جاء بها فاستقبلته من أعلا السلم بملابس خضراء حريرية تترجرج كأنما نسيم خفى يهزها . . ومدت ذراعها إليه وقبلته قبلة على خده الأيمن أحس معها أريجاً يملأ أنفه ، لا يدرى أهو أريج يعطر ثيابها أم أن المكان كله يتضوع بعطر جميل. ثم رنت إليه بأهدابها السوداء الطويلة رنواً انتهى بارتخاء تلك الأهداب كأنها أطراف مروحة دقيقة من حرير هبطت على صفحة خدها . وجعلت تداعب أزرار سترته ولا تنظر إليه كأنما تعتب عليه . وأخيراً سمعها تهمس إليه : « مش قلت لك إن كنت تحبنى ما تتأخرش عن مصر أكثر من كده ؟ » . فأفاق محسن من نشوة القبلة قليلا وقال لها : إنه لم يتأخر وإنه ما كاد يستلم خطابها العزيز الذى يحفظه فى صدره دائماً أينما ذهب . ما كاد يتلوه ويتلوه حتى عزم على الرحيل وحزم أمتعته وأتى مصر . . . فبدا كأنها اقتنعت نصف اقتناع . وأخيراً قادته إلى حجرة البيانو وضربت له أناملها الرشيقة . ودخلت الجارية تحمل أكواب الشربات الأحمر . . وما كاد محسن يرى الجارية حتى ارتعد قليلا لا يدرى لماذا

ولكنه شرب هنيئا وخرجت الجارية وهو يتبعها بنظرة خائفة ثم التفت فجأة إلى سنية فألفاها ترنو إليه خلسة ذلك الرنو الطويل. فما رأت نظرته تباغتها حتى ارخت عينيها بأهدابها الطويلة السوداء وسكتت. فخفق قلب محسن وسكر.. ونهضت سنيه بغتة وقفزت إلى البيانو تريد أن تضرب له شيئا آخر بعد أن تأوهت فى رقة وابتسمت له فى سحر وقالت بصوت الهامس وهى تعود إلى الرنو اليه:

— آه يامحسن لو كنت صحيح تحبنى قد ما أحبك!

لم يدر الفتى ماذا يجيب. ولعله لم يقدر على الجواب.

فإنه ذهل حتى عن نفسه وعنها ولم يدرك إلا شيئاً واحدا: أن كنوز الأرض كلها وكنوز العوالم الأخرى لاتساوى عنده ما ظفر بهذه الجملة الصغيرة.. وأن السعادة.. السعادة التى يصفونها ولا يدركونها هاهى يلمسها بيده.. بل هاهى ملء كفه وهاهو يضعها فى جيبه بل فى قلبه. إنها تملأ قلبه على سعته. بل تثقله كأنما هى من الذهب الأبريز هذه السعادة. نعم إنها تثقل جسمه أيضا الآن.. إنها تتمشى فى جسمه كله الآن متدفقة. ويحس جسمه يحشى بها حشوا كما تحشى زكيبة بالذهب. وهاهو يكاد يخنقه الفرح. تخنقه السعادة. إنها بلغت حلقومه.. إن الفرح سيخنقه إن لم يفض قليلا والسعادة تكاد تثب من فمه. إنها تنفخ صدره وبطنه باحثة عن منفذ. نعم إنه فى حاجة إلى أن يقىء بعضا منها. نفسه تضيق. ماأثقل وزن هذه

الذهب على صدره !

وتقلب محسن فى فراشه باسم الثغر مفتوح الفم يلهث من عبء السعادة ويريد أن يفعل أى شىء.. أن يجرى.. أن ينهض يخبر.. يخبر الناس.. أن يتكلم. أن يثرثر. أن يقفز.. أن يتمرغ فى التراب. أن يتدحرج على. الأرض. وهذا الشىء الأخير هو الذى.. هو الذى استطاعه محسن وعمله فعلا: أن تدحرج على سريره دحرجة انتهت برأسه إلى حافة السرير ففتح عينيه فاذا رأسه تطل من الفراش على أرض الغرفة وفمه مفتوح كما لو أنه يقىء..

وكانت تباشير النهار قد ظهرت من النافذة. وأول شعاع من الشمس يتسلط على « الدولاب » الكبير المشترك.

وفجأة ذكر محسن المسكين كل شىء.

وعادت إليه الحقيقة برمتها وقسوتها وعلم أن سعادته حلم. ولم يبق منه شىء، لقدقاءه واستفرغه من قلبه كله الآن عند طلوع النهار. ولم يفضل له منه نطفة يتغذى بها ويحيا. واسودت الغرفة فى عينيه من جديد ونظر إلى قرص الشمس وقد ظهر كله فخيل إليه إنه قرص أسود. أسود من الابنوس.. وأسود من شعر.. إن الشمس لا تلقى على العالم نهاراً وبياضاً.. بل سواداً.. سواداً !!

وذكر أنه طلب الموت فى الليل خوفا من هذا النهار فأعطاه الله بدل الموت حلماً لذيذاً. كى يزيد عذابه عندما يصحو وتبدو له

الحقيقة ، ومرت بمخيلته صورة سنيه فى ذلك الحلم الجميل ، والقبلة والرنو والأهداب . ثم سنيه الآن التى لا تعرفه . المشغولة بحبها لمصطفى ، والتى لا تعلم ولا تريد أن تعلم حتى بحضوره . وتجسم لديه هذا الفرق الهائل بين الحلم واليقظة ، فجأر فى نفسه كالمذبوح ودس رأسه تحت الوسادة وهو يزفر متوسلا إلى ربه فى عتب مؤلم :

« حرام ! . حرام ! . حرام . . »

الفصل الحادي عشر

مر بخاطر محسن أن « الشعب » عما قليل يستيقظ ويراه على تلك الحال فأسرع بالنهوض وارتدى ملابسه فى بضع دقائق . . ثم خرج من المنزل قاصداً مدرسته بدون أن يتناول طعام الإفطار . واجتاز فى طريقه باب الدكتور حلمى فأطرق فى ألم ولم ينظر إليه. ومر تحت تلك الشرفة المشهورة فلم يرفع إليها رأسه ، كأنما لم يعد يملك حق امتاع نظره حتى إلى شرفتها الخشبية ، التى طالما وقف فيها بجانبها وأطل منها معها يشاهدان الشارع والقهوة الصغيرة المواجهة. وهنا فجأة تذكر آخر يوم رآها وقد ذهب إليها يودعها قبيل سفره إلى دمنهور . . وكيف أنها حقيقة كانت ترمق القهـوة فى اهتمام أوجسه وأدخل فى نفسه الشك . ذلك أن مصطفى بك يومئذ كان جالساً على الرصيف يخالس هو الآخر شرفتها بالنظر .

ان قلبه فى ذلك اليوم حدثه بشر . . ولكنها عرفت كيف تبدد ريبه وأبدت له ما جعله أسعد انسان يومئذ . نعم تلك القبلة التى مازال يحس طابعها على وجهه . أتراها كانت ماكرة تتخابث عليه وهذه الدمعة التى ذرفتها له ألم تكن صادقة خالصة ؟ لا يمكن ذلك . إنه لا يتصور أنها كانت تخادعه . ليكن من أمرها الآن ما يكون فانه لا يستطيع أن يرتاب لحظة فى نبل خلقها . اذن ما الذى حدث ،

ما الذى غيرها عليه بهذه السرعة ؟

عندئذ بدت لمحسن فكرة ومضت فى قلبه ببريق أمل : لماذا يحكم عليها من قبل أن يراها ؟ ولماذا لا يذهب اليها يستفسرها لعلها تكذب كل أو بعض ما سمع . أو لعلها إذا رأته تذكر أو تندم أو ترفق أو . . .

نعم ليذهب ، وتنفس ببعض الراحة لأول مرة منذ علمه بكارثته !

غير أن هذا البريق لم يلبث أن محته سحابة سوداء . سرعان ما تكونت . ما أبسطه غلاماً ! أهو يظن سنية اليوم مثلها بالأمس . وهل بعد هذه الصلة الوثيقة بينها وبين مصطفى ورسائل الحب يستطيع هو أن يطمح فى شىء . . أو أن يتوهم أى حق له عندها . حتى ولا حق الزيارة المجردة .

ثم شىء آخر . . كيف يذهب وبأى حجة ؟ والعلاقات الآن مقطوعة بين المنزلين . قطعتها عمته زنوبه بغيرتها !

إن سنيه الآن غدت أبعد من كواكب السماء . .

وهكذا سار فى الطرق يتخبط بين تلك الخواطر المتضاربة . يخرج من أمل ليدخل فى يأس دون أن يترك له القدر إحدى الراحتين حتى بلغ أخيرا المدرسة ودخل فناءها مطرقا . فانتحى ناحية بعيداً عن التلاميذ كى ينقطع لنفسه إلى أن يدق جرس دخول الفصول . وكان بين آن وآخر يرفع رأسه ويلقى نظره على تلك الزرافات من

الطلبة المجتمعة فى حلقات عدة . . كل حلقة تجمع فئة من الاخوان يتضاحكون ويتمازحون ، ويقصون مارأوا من غريب وطريف أثناء العطـــلة ، أو يسردون مافعلوا أثناءها وكيف قضوها . وكان غالبا مايتوسط كل حلقة تلميذ لعله أكبر الباقين سناً أوأذكاهم فؤادا أوأظرفهم حديثاًوأفكههم نكتة ، هو الذى يدير دفة الكلام ويقص ويحكى والجميع يصغون إليه ضاحكين مستحسنين مسرورين بكل كلمة يقولها. وذكر محسن أنه كان دائما بين تلاميذ فصله ذلك المعبود اللذيذ الذى كانوا يحيطون به مستمعين وعن يمينه صديقه وأمينه عباس . الذى يمده بقوة الثقة والإيمان والتصديق الأعمى والتحمس المطلق لكل ما يقول .

وذكر محسن فسحة الظهر التى كان هو وعباس والملتفون حولهما، يشغلونها بمطارحة الشعر بجوار جدار المدرسة تحت السلم الكبير ، حتى إذا ما فرغت جعبتهم من الشعر انقلب محسن خطيبا مفوها يتبارى بالطلاقة والتمثيل وحسن الإشارة فى هذا الجمهور الصغير من المعجبين ، وحانت منه التفاتة إلى مكان الجدار تحت السلم فألفى دهشا رهطا من تلاميذ فصله بينهم عباس ، وكأنهم بما يبدو على وجوههم من كثرة التطلع جهة باب المدرسة ينتظرون أحدا. ومن عسى ينتظرون الساعة غير محسن؟ ولكن ما الذى يستطيع محسن أن يقوله لهم اليوم ؟ هو الذى تركهم قبيل العطلة على أهنأ مايكون

إنسان . وها هو اليوم يعود إليهم بعدها إنساناً آخر . وخشى أن ينتهى بهم الأمر أن يلمحوه ، فانتقى مكاناً قصياً ومكث به حتى دق الجرس واصطفت التلاميذ صفوفا فى فناء المدرسة وتحرك «الطابور» قاصدا الفصول . وعندئذ جرى محسن مسرعا والتحق بذيل صفه دون أن يشعر به أحد حتى دخل الفصل آخرهم فالتفتوا فعرفوه وصاحوا به .. وأقبل عليه عباس مهرولا ومحسن يتكلف السرور والابتسام ويحاول مضاحكتهم ويدعو الله فى نفسه أن يعجل بمجىء المدرس حتى يوفر على نفسه مؤونة التصنع ويسكت الفصل عنه . ولم يلبث المدرس أن حضر وترك التلاميذ محسن يذهب إلى مكانه. ووقف الكل احتراما للمدرس غير أن عباس الجالس خلف محسن لم ينفك يغمزه بذراعه ويحثه على مكالمته غير صابر حتى انتهاء الحصة. ومحسن يتغاضى عنه فى رفق حتى بدأ المدرس يلقى درسه وسط الهدوء التام. وكان هذا الهدوء التام خير بيئة منعشة لأفكار محسن وخواطره. فسرعان ماغرق فى بحار نفسه ونسى الحصة والدرس والمدرس . وأخذ المدرس يناقش تلاميذه فيما ألقاه حتى أتى دور محسن. ولمحسن حتى اليوم مكانة عند الأساتذة كما عند أقرانه ، فهو معروف بالجد والذكاء والالتفات ، فما كاد يسأله المدرس اليوم فيما ألقى حتى تبين فى الحال عدم وعيه لشىء مما قيل الساعة . فدهش أستاذه وعجب أن يكون هذا من محسن . وسأله مستغرباً مستنكرا :

– جرى إيه يامحسن ؟ أنت كنت سارح فى إيه ؟

فأجاب الفتى وقد هب واقفاً متلعثما كالصاحى من نوم :

– ولا حاجة ياأفندى ! . ولا حاجة ..

ولطف المدرس من لهجته وقال :

– الطالب يرجع من الأجازة نشط منشرح منتعش مستعد للدرس . مشتاق للتحصيل .. والا إيه يامحسن . ؟ ؟

فأطرق الفتى خجلا مرتبكا متألماً وقد نظر إليه الفصل بأكمله . وسمع عباس خلفه يهمس ، كالرائى له أو الحزين المغضب الذى لا يود حدوث ذلك لصديقه الذى يقدسه ويعتقد فيه العصمة والكمال . وكان هذا ماأوجع محسن . فجلس مهموما يائسا . ووطن العزم على الالتفات إلى الدرس مادام فى الفصل وسلط إرادة قوية فى حركة عصبية ، قانطة على عضلات عينه ففتحها واسعة ونظر إلى « التختة » نظرات ثابتة طويلة وجرد فكره للانتباه إلى المدرس وحده مهما كلفه الأمر . . . ومكث يجاهد من أجل ذلك وملامحه متقلصة والعرق يتصبب منه .

* * *

لم تفد إرادة محسن شيئا . ولم يستطع المسكين التغلب على فكره الشارد . فقد كان ذلك أقوى منه . ومضى النهار وانصرف التلاميذ وانصرف هو مطرقا . يجر أذياله بعد أن ترك أثرا سيئا فى نفوس

أساتذته وأغلب رفاقه . إنهم ولا شك يستغربون أمره ومادهاه .
وكان استغراب صديقه عباس بالغا النهاية ، خصوصا عندما اقترب
منه يخبره أن والده للأسف لم يوافق على التحاقه بالقسم الأدبى ،
وأنه لذلك مضطرب إلى مخالفة عهد محسن . وكان عباس يتوقع غضب
صديقه أو كدره وحزنه على الأفل . ولكن كم كانت دهشته إذ رأى
محسن لم يتحرك للخبر ولم يبد على وجهه أى اهتمام . .

* * *

لم يكن فى رأس محسن غير شىء واحد : هذه الحياة التى أصبحت
فارغة أمامه كيف يملؤها ؟ والمستقبل الفسيح والأيام الطويلة الآتية
بأى صبر يستطيع اجتيازها ؟ . وسمع فى نفسه هازئا يجيبه فى سخرية :
وقبل أن تحب ماذا كنت تصنع ؟ عد كما كنت قبلا ...
فابتسم الفتى ابتسامة مرة ونظر إلى السماء نظرة الساخط الثائر ،
وكأنه يقول صائحا فى أعماقه : أرجع إلى ما كنت قبلا ؟ نعم إنى
عشت من غير حب وعشت سعيدا . ولكنها سعادة الأعمى الذى
لم ير الجمال ولم ير النور ولم ير الحياة . . ولكنك فتحت أعين الأعمى
وجعلته يبصر وينبهر . . فهل تحسبه إذا أرجعته بعد ذلك إلى ظلامه
الأول مستطيعا أن يجد سعادته الأولى ؟ !
ورأى محسن نفسه فجأة فى ميدان السيدة فارتعد إذ ذكر أنه
مضطر للعودة إلى المنزل . حيث يجلس إلى أعمامه الرفاق وعمته

وسيدركون ، ولاشك من وجهه مابه . فوقف متردداً لا يدرى ما يصنع . وإذا بغتة نظره يقع على دكان حلاق السيدة زينب ، وفجأة اصفر كالأموات ومكث بلا حراك ، ذلك أنه لمح مصطفى بك خارجا منه و « البودرة » البيضاء لا تزال تزين ذقنه . . . وشار به الأشقر الذهبي الصغير مقصوصا على الطراز الأخير . . وهو يختال فى بذلة جميله وبيده منديل حرير فى لون البذلة يضعه فى رشاقة فى جيب الصدر الأيسر مظهرا طرفه ، وعلى وجهه البسطة والانشراح طافحان . . .

واسود الميدان فى بصر محسن ، فلم تشعر إلا أنه اتجه إلى المسجد وفى قلبه شبه هلع أن يكون هذا الرجل قد رآه ، وخلع نعليه بسرعة وار تجاف وسار على بساط الجامع حتى بلغ المقام فانزوى فى ركن من أركان الضريح المظلمة التى لا يأتيها النور إلا من « نجف » كبير يتدلى من أعلى تلك القبة الفخمة الشاهقة . . وتناول محسن بيده قضبان الحاجز النحاسية ، وجعل يهمس ملهوفاً من صميم قلبه بصوت عصبي متقطع :

— ياسيده زينب ! ياسيده زينب ! ياسيده زينب . . !

وانفجر باكيا وتساقطت دموعه على بساط المقام وهو يكتم شهقاته فى صدره حتى لا يسمعها الزوار حوله . . .

الفصل الثاني عشر

فى نفس الساعة كان عبده فى مدرسته أمام لوحة الرسم يشتغل بتصميم هندسى مطلوب منه . والواقع أنه من يوم حكاية سنية قد تحول يأسه إلى عمل فاتجه إليه بكليته لا يعكر عليه سوى صورة مصطفى كلما مرت بخاطره لهذا ما كان يطيق أن تذكر أمامه تلك الحكاية ولا أن يلفظ اسم مصطفى . فقد كان يشعر عندئذ أن عزته قد ذلت فيعتريه هياج ويصيح بمن فتح الموضوع أمامه :

اقفلوا الموضوع ده ياناس ! دماغى وجعنى ...

ثم يترك المكان فى الحال بحركة عصبية ...

إنه حتى آخر لحظة ما كانت تسمح له كبرياؤه أن يتصور سليم الدعى « الفشار » جديراً بالفوز عليه . وبرغم ما حدث يوم إصلاح البيانو وما قاله وادعاه سليم ، فما كان ذلك ليقنع عبده أما الغلام محسن فهو أصغر من أن يحسب له حساب . ولبث على هذا التصور إلى يوم أن ظهر فى الميدان الشاب الثرى الجميل مصطفى بك . . . فانهارت ثقته بنفسه بعض الانهيار وظل يرغى فى نفسه ويزبد متوعداً دون أن يستطيع تنفيذ وعيده . إنه تنقصه عاطفة الشر الحقيقية . وأن كل هذا الزبد الطافى لا يخفى إلا ماء صافياً . وانتهى به الأمر أن انكب بعد أيام على العمل متناسيا بقوة إرادة عصبية صارمة . . وانقلب

هزؤه بسليم عطفاً أو تضامناً كما كان الحال بينهما قبل التنافس والتزاحم ، غير أنه برغم كل ذلك ما برح يحس كأن شيئاً من النور فى نفسه قد أطفىء . . وأن لا العمل ولا سواه يستطيع أن يعوضه عن ذلك الأمل الحلو والقليل من الخيال الجميل الذى كان يرقق حياته الجافة الصلبة .

وخطرت له الساعة صورة سنيه . . فلم يتمالك أن رمى بالقلم من يده وترك اللوحة وخرج ساخطاً يسير فى حدائق الجيزة المحيطة بالمدرسة . وقد أدرك أن حياته ينقصها شيء . أدرك ذلك بأحساسه العميق الخفى فقط دون أن يجسر العقل ولا الفم على القول بذلك لهذا عزا ضيقه وسخطه وخروجه الى الحدائق على هذا النحو الى شيء آخر نفاقاً منه وكذباً على نفسه ، فلقد مشى يقول لنفسه هائجاً ثائراً متبرماً :

— أف ! . . الشغل . . الشغل . . الشغل ! .. مفيش فى الحياة غير شغل ! خلقنا بس للشغل . . زى الحمير ! . .

ومر بحقل أخضر مزروع خساً . وامتلأت عيناه بالاخضرار فارتعد . وذكر فى الحال يوم ذهب الى بيت الجيران لإصلاح أسلاك الكهرباء ، فرأى سنية تهف بين آن وآن أمام ناظريه بثوبها الحريرى الأخضر . وكيف كانت كأنها تبدى له نفسها عن بعد قصداً . ثم صوتها الرقيق وهى تتساءل عما إذا كان عبده بك يحب

الشربات أو القهوة . ! وجلس عبده على مقعد حجرى قابله وأطلق نفسه تحلم بالماضى وتصوره كما تشاء مفرطة فى تكبير الصور كما يشتهى .

انه يحفظ جيداً ماقالته من كلمات ويعى رنة صوتها . كل مافيها يومئذ كان يدل على اهتمامها به وبمقدمه ولعل مسألة سلك الكهرباء ما كانت سوى حجة مخترعة . . . إنه لايذكر أن رآها رؤية ملية طويلة . فالمرة الأولى كانت يوم أن اختلس النظر اليها مع رفاقه من ثقب باب حجرة زنوبة . والمرة الأخيرة كانت يوم إصلاح الكهرباء المعهود . . ولقد كانت فرصة سانحة يومئذ ليملأ عينيه منها . . ولو أنها كانت تخطر من وراء الأبواب كالريم المنفلت . . ولقد أطلت برأسها وأطالت الوقوف مرة . . غير أنه أسدل عينيه انبهارا وقد التقت بعينيها . ماأجملها ! على الرغم من رؤيته القصيرة لها فإنه يذكر شعوره الأول يوم رآها وشعوره الأخير يوم غادرها : إنها أجمل امرأة شاهدها . وهنا ارتجف عبده إذ ذكر أن هذه المرأة هى الآن لرجل واحد . رجل أجنبى عنهم جميعاً وإنها فضلته عنهم جميعا . . وأحبته وتكاتبه ويكاتبها والمراسيل بينهما ذاهبة آيبة . .

نهض عبده مستويا فجأة وكأنما بداله أن يذهب تواً الى مصطفى هذا ويشبعه ضرباً ولكماً . أو أن يذهب الى مالك المنزل ويطلب اليه طرد هذا الرجل . أو أن يفعل أى شىء يؤذى به هذا الشخص .

وسار فى طريقه إلى حى السيدة وأضعف طول الطريق من سورته . وبردت حدته . وطفق يتكلم بلسان العقل قليلا . . متسائلا لماذا يسىء إلى مصطفى وماذنب هذا الرجل إذا كانت هى تحبه ؟ أو يعلم هو بحبهم لها ؟ وإذا كان يعلم فماذا يصنع إذا كانت هى اختارته؟

وانقلب عبده عندئذ عليها هى وجعل يقول فى غيظ ان كيف استطاعت هذه الفتاة أن تنكرهم هم الذين يتصلون بها وبأسرتها طول تلك المدة وتتعلق برجل بعيد عنها وعن أسرتها ولا معرفه لها به . ؟

ونسى عبده فى تلك اللحظة غيظه من سليم ومحسن الذى كان يشعر به نحوهما كلما اختلفا إلى منزل سنية بأى حجة . وأحس الساعة أنه كان أحب إليه ألف مرة أن تختار سنيه واحدا منهما من أن تختار هـذا الغريب . . وشعر بعطف وحنو ورابطة اتحاد تصله برفاقه المنكوبين مثله . ولاحظ أنه وهو يتكلم ويثور إنما يتكلم باسمهم جميعاً لا باسمه وحده فقط . . .

ولأول مرة أحس الحاجة إلى القرب منهم والـكلام معهم فى هذا الأمر . فالعاطفة بينهم مشتركة وكل شىء مشترك . . وكذلك الخيبة والألم . .

* * *

وفى تلك الساعة أيضاً كان سليم فى قهوة الجندى «فوق» وكان

قد عاد إليها ذلك اليوم بعد أن أيقن أن لا فائدة من بيت الجيران وحاول سليم أن يقنع «الشعب» بأن بيت الجيران لم يكن يهمه قط ، وأن سنيه إن هى إلا فتاة ككل الفتيات لا شأن لها عنده ولا يلتفت مثله إليها. غير أنه ان استطاع اقناع سواه بهذا الكلام فهو أحوج الناس إلى اقناع نفسه به أولا ...

وهكذا مضى سليم إلى قهوة الجندى حاسباً أنه قد محا كل شىء بهذا الثمن البخس . وهو يدخل السرور والعزاء على نفسه بقوله

— فين سنيه ... وإيش تكون من المدموازيلات والوظووظات الخفافى دول !

وأخذ مجلسه وهو يلتفت يمنة ويسره يتعرف المكان ويستذكر ماضيه فيه . . ذلك الماضى المملوء سروراً ومرحا . وجعل يتصفح وجوه الآنسات الجالسات إلى « الزبائن » أو الرائحات الغاديات أو المنتظرات موعدا أو العاطلات المتربصات للفرص . وكأنه لا يعرف منهن واحدة وهو الذى ما كان يجهل امرأة تدخل هذا المكان أيام أن كان الزبون المواظب المستديم . غير أنه مالبث أن لمحته واحدة جالسة بمفردها إلى مائدة فعرفته وابتسمت له تدعوه إليها ، فنهض فى الحال وأقبل عليها يفتل شاربه مختالا . ومد يده إليها مسلما فى لهجة الصاحب القديم :

— إزيك ياماريه . !

وما كاد يجلس بجوارها حتى أحاطت به « الجرسونات » فرفع رأسه إليهم وقال متجهماً :

ـــ خبر إيه !

ولكنه تمالك نفسه فى الحال إذ عرفهم وذكر ظهوره أمامهم بمظهر الثرى فغير لهجته وقال لأحدهم وهو نوبى ممتلىء :

ـــ انت لسه عايش يافسدق !

ـــ أمال ياسعاده البك . . خدامك !

فانتفخ سليم قليلا وأشار إلى صاحبته ثم قال لفسدق :

ـــ شوف المدموازيل تطلب إيه ؟

فانحنى «الجرسون» على المرأة يتلق أمرها . وجعلت هى تفكر لحظة وسليم ينتظر نطقها فى قلق . . كمن ينتظر نطقاً بالحكم عليه بغرامة . وسليم ليس له من رأس مال سوى التظاهر والإدعاء الكاذب و « الفشر » . بهذا استطاع أن يختلف إلى هذا المشرب فى الماضى ويجعل له شخصية بارزة بين رواده وزائريه ، وأخيراً نطقت المدموازيل قائلة للخادم :

ـــ ادينى واحد كونياك مارتل بالصودا ! .

فتركها فسدق والتفت إلى سليم فى احترام :

ـــ والبك ؟ !

فحك سليم رأسه وتظاهر بالتفكير والحيرة لحظة ثم قال :

أنا.. أنا هات لى واحد صودا بس.. وعليها شوية شربات ورد صغيرة.. انت عارف معدتى يافسدق..

فتردد الخادم قليلا ثم لم يربدأ من الانصراف ليأتى بالطلبات. وعندئذ التفتت المرأة إلى سليم وقالت :

— سليم بك. دايماً المعدة بتاعك عيان ؟!

— أعمل إيه يامارية. ألا على فكرة.. فين أمال كتينه وأختها آديل.؟!

وأخذ يحادثها فى مختلف الموضوعات التافهة ويلاطفها ويداعبها ويضاحكها فى قوة وضجة وحماسة وعربدة لم تعهدها فيه، وكأنما هو يتشفى اليوم ويثأر لنفسه المدحورة فى الميدان الآخر..

ودخل زبون جديد عليه سيما النعمة الحقيقية وصفق بيديه، فسرعان ما اتجهت أنظار النساء إليه، وانصرفت مارى عن حديث سليم، وظلت ترمق هذا الزبون الجديد، وأخيراً نهضت مستأذنه فى الذهاب لحظة إلى دورة المياه، ومشت تتهادى قرب الزبون الجديد تاركة سليم «مع الطلبات» وسكن سليم إلى نفسه وانقشع عنه غبار هذا المرح الكاذب الذى أثاره فى قلبه متعمداً ؛ ورسبت الكآبة والخيبة التى كان يحاول عبثا سترها عن نفسه، وانقلبت ابتسامة السرور على شفتيه إلى ابتسامة ازدراء مرة، والتفت إلى أولئك الفتيات، وجعل يتأمل أصباغهن التى تسيل بفعل العرق على وجوههن.

الشاحبة ، وينظر إلى تلك الحركات واللهجات المتكلفة والضحكات والغمزات واللمزات المتصنعة ، ولأول مرة ساءل نفسه كيف استطاع غشيان هذا المكان ، وكيف أن هاته العاهرات كن يعجبنه !!

وعادت إليه ماري بعد قليل إذ لم يعبأ بها الزبون الجديد وجالس آخر .

فألفت سليم ساهما متجهم الوجه مفكراً فقالت دهشة :

إيه ! سليم مش مبسوط كتير ؟!

فرفع رأسه إليها وسدد نحوها نظرات جامدة جافية ، وأجاب في برود :

مبسوط كتير ؟

ثم تركها والتفت توا إلى كوب الصودا الوردي ، فاشتغل به عنها . ومكثت هي تنظر إليه لحظة ثم أشاحت بوجهها عنه وهزت أكتافها خفيفا . . وجعل سليم يحرك الملعقة في الكوب وينظر خلال لونه مستذكراً يوم شرب « شربات » الورد عند سنية حينما ذهب لفحص البيانو . إنه أخطأ إذ حسب تلك الفتاة لم تترك في نفسه أثراً ، ان ما فعلته به لأكثر من مجرد ترك أثر ، ها هو ذا اليوم يزدري بعدها هاته النسوة ، وأيقظت في نفسه عاطفة جديدة لم يكن يعرفها قبلا ، عاطفة الإعجاب النبيل ، وأن ذلك التقزز والاشمئزاز الذي يحسه الآن نحو هاته المدموازيلات ، إنما يبعثه تذكره جمال

سنيه الرفيع وظرفها غير المبتذل وإحساسها الصادق ، لقد أدرك سليم الآن أن قد حرمت عليه عاهرة بعد اليوم ، إنه يحس أن قلبه قد ارتفع . بل يحس أن قد أصبح له قلب يضن به على العاهرات، سليم اليوزباشى يحس هذا الإحساس الآن ؟! شد ما تغير ! وهو نفسه استغرب من نفسه الآن ذلك الاحسان العالى وعلم أن سنيه جعلته يعرف من نفسه أشياء ويستكشف فيها مناطق مجهولة . وهل كان يعلم اليوم هذا اليوزباشى أن فى نفسه عواطف طاهرة . بل هل كان مثله يعلم معنى لتلك الكلمات « طهارة .. نبل » !! إنه هو نفسه ماكان يفهم حبه لسنيه إلا أنه حب طائش خفيف مبتذل كحبه للشامية فى بور سعيد ولهاته النسوان من قبل . ذلك أنه ما كان يعرف فى نفسه قدرة ولا ادراكا لحب أرفع .. وجرع سليم جرعة واحدة من كوبه ثم بصق وأقصاه عنه بطرف أصبعه وصفق فأتى النوبى « فسدق » ووقع بصره على كوب سليم الملآن فالتفت إليه يسأله بعينيه لماذا لم يشرب . فارتسمت على فم سليم علامة اشمئزاز وقال :

— ريحته وحشه !

وأراد الجرسون اعتراضاً فأشار له بيده أن كفى ولا لزوم للكلام ، ثم دس يده فى جيبه وأخرج له ثمن ماطلب وثمن ماطلبت المدموازيل أى الكونياك والصودا مضافاً إليه بقشيشه . ثم نهض

وانصرف بعد أن أشار بعلامة تحية مختصرة للمرأة. وعجبت المرأة لأمره ولبثت تشيعه بأنظار المستغرب حتى نزل السلم فهزت كتفها فى شبه غيظ ولفظت ضحكة استهزاء

ومشى سليم فى الشارع واستقبل الهواء الطلق برئتيه فشعر بارتياح ، وخيل إليه أنه كان يتنفس هواء فاسداً كريه الرائحة فى ذلك المـــكان . . .

الفصل الثالث عشر

عاد سليم إلى المنزل فلقى مبروك الخادم فى الردهة يشير إليه بالسكون . ثم يشير مبتسما فى خبث إلى حجرة زنوبه الموصدة . فارتجف سليم وتردد قليلاً ثم هجم على الحجرة برفق سائراً على أطراف قدميه ونظر فى ثقب الباب .

وعندئذ ظهر عبده قافلامن الخارج هو الآخر فاستقبله مبروك بنفس الإشارة والابتسامة . ويكفى عبده أن يرى سليم منكباً على ثقب الباب ليحدث فى قلبه ما حدث لسليم وأشد . ولفوره اتجه إلى الباب وزاحم اليوزباشى بمنكبيه وقلبه يدق دقا متواصلا ، ولكن سليم مالبث أن استوى تاركا لعبده الثقب فى ابتسامة مرة والتفت إلى مبروك وسأله هامسا .

— مين دى الحرمة اللى جوه ؟

— واستوى عبده أيضاً عقب ذلك فى خيبة رجاء .. ووقف بجانب سليم كأنه متضامن معه فى السؤال ومنتظر معه جواب مبروك ونظر إليهما مبروك وفهم قصدهما من النظر خلال الثقب فلفظ آهة صادقة كأنه هو أيضاً بالخلاص يدرك ويحس نفس إحساسهما وطفق يقول:

— أيام زمان ماتعودشى ... أيام زمان ماتعودشى خلاص.!

ولكنهما استعجلاه فى الجواب وأعاد عليه عبده بصبر نافد :

— مين الحرمة دى ؟ ؟

فتنحنح مبروك واقترب منهما وهمس سريعاً :

— مراة الحانوتى .

فردد الاثنان معا فى دهشة :

— حانوتى ! ؟

وبدا عليهما عدم الفهم . فجذبهما مبروك بعيداً إلى غرفة النوم العمومية ذات الأسرة وجعل يقص عليهما فى لهجة التشفى والرضا أن هذه المرأة هى امرأة حانوتى خط السيدة زينب وهى التى ستحضر لهم قبضة من تراب ميت لم يمض على دفنه : ثلاث ليال .

فقال له عبده بقوة :

— ليه ؟ علشان إيه ؟

فأجاب مبروك بنفس لهجة التشفى :

— علشان « العمل » اللى رايحين نرشه على عتبة الراجل مصطفى . .

فهز عبده رأسه وقد أدرك كل شىء . وعاد فسأل مبروك قائلا :

— طبعا دى أفكار زنوبه ؟

فأجاب مبروك بالايجاب فى فخر وزاد على ذلك بقوله : إن زنوبه استشارت فى هذه « الوصفة » أشهر « عالم » وإنها مجربة ولا خوف من الفشل وإذا لم يمت مصطفى بعد ثلاثة أيام فان

« العالم صاحب الوصفة » لا يستحق أجرا . . . وهو الذى اشترط ذلك على نفسه بعد أن أخذ فقط مبلغ « رمى البياض » .

وقد ذهب أى مبروك منذ أيام يبحث عن امرأة الحانوتى يستدعيها لزنوبه تتفق معها فلم يظفر بها إلا اليوم . وسكت مبروك لحظة ونظر إليهما كأنما ينتظر منهما كلمة موافقة أو تشجيع . غير أنهما لزما الصمت ... وغرق عبده فى تأمل عميق ... وقد بدا له أن : بيناهم قد أسلموا الأمر لله ولم يستطيعوا عمل شىء . . . إذا زنوبه لاتفتأ تعمل ولا يوافقها دين ولا ضمير فى سبيل غايتها . تود أن يموت مصطفى بعد ثلاثة أيام ؟ وتعمل هى على موته ... موت انسان لاذنب له إلا أنه لم يحبها هى . يااللوحشية ! أهذه هى المرأة إذا أحبت وخاب أملها فى الحب . . تصبح هكذا حيوانا مفترسا ؟!

ثم خطرت لعبده فكرة أظلمت لديها الدنيا فى عينيه . ومن غريب الاتفاق أن خطر لسليم ماخطر له ... واذا سليم يلتفت فى قلق وشك إلى مبروك سائلا :

ــ انت متأكد ان « العمل » ده علشان مصطفى ... بس ... وحده ؟ .

وأضاف عبده فى لهجة عصبية أشبه بالصياح :

ــ مش معقول . زنوبه تموت مصطفى وتسيب سنيه . ! .

وأدرك مبروك هذا فجأة فاختلج قلبه هو أيضا وقال بصوت

قلق مبحوح وكأنما يخاطب نفسه أيضا :

هى قالت لى على مصطفى بس . . ما أعرفش . . يمكن . . كمان . .

وعندئذ جعل سليم يوضح لهما مايظنه قصد زنوبه . . قائلا إنها لايمكن أن تكون قد قصدت بمصطفى شراً وأن الشر كلهمقصود به سنيه لاسواها . هذا هو المعقول وهذه هى مصلحة زنوبه نفسها إنها تتمنى موت سنيه لأنها منافستها وغريمتها . غير أنها كى تشرك مبروك الساذج معها فى العمل أخفت عنه القصد الحقيقى وأفهمته أن المقصود بالشر مصطفى لاسواه . ومابلغ سليم هذا الحد حتى سمع باب الشقة يفتح ويغلق فأيقنوا أن الزائرة قدخرجت فهبوا إلى زنوبه وصاح بها عبده قائلا :

— مين الحرمة اللى كانت هنا ؟

فارتبكت زنوبه قليلا من وقع لهجته الشديدة . لكنها تمالكت وابتسمت واقبلت عليهم تقص ما قاله مبروك منذ قليل . فصاح بها عبده فى غضب مخيف :

— انت يعنى مش ناويه تبطلى أمور السحر بتاعتك دى ؟

وأردف سليم قائلا :

— نفرض طيب انك عامله العمل لمصطفى . تقتلى راجل ؟ تموتى بنى آدم ؟ ؟ وضميرك يرضى بكده ؟ !

فأطرقت قليلا وهى تغلى غيظاً ثم رفعت رأسها فى عنف وصاحت فيهم :

ـ أنا ماأقدرش أقعد طرطور فى البيت ده أشوف المراسيل داخله خارجه . ! !

ثم التفتت إلى عبده وقالت :

ـ أعمل إيه ؟ أنا غلبت أقول لك روح لصاحب الملك فهمه ورسيه . . وقول له ييجى يعزل الساكن العازب دهاللى قلب البيت كرخانه .

فصعد الدم إلى رأس عبده وقد وخزته هذه الألفاظ البذيئة . . مهما كان من صلة سنيه بمصطفى فهى ما زالت شريفة لا يصح أن تنعت بهذه النعوت القذرة ، ولا يدرى عبده لماذا كانت تجرحه هذه النعوت القذرة وهى توجه إلى سنيه ، أتراه مازال يحترمها ؟ ويرى فيها مثله الأعلى ولا يقبل من أحد أن يدنس هذا التمثال المرمرى البديع ولو أنه ليس له ؟ ! !

أعجب من هذا أن سليم نفسه أدار ظهره لزنوبه مشمئزا هو الآخر . .

وسمع الباب يفتح ثم يغلق وظهر محسن فالتفت إليه الجميع وهالهم مارأوا : وجهاً باهتاً . . . وجفونا حمراء وساقين لا يكادان يحملانه . . فلم تتمالك زنوبه أن ابتدرته :

— محسن ؟ ! مالك ؟ ؟ !

فرفع رأسه وأراد أن يقول لهم أن لاشىء . . غير أنه قبل أن ينبس بادروه متسائلين :

— عيان ؟ ؟

فرأى أن يقول لهم :

أيوه . . .

ثم سار إلى سريره وخلع ملابسه واندس فى فراشه . . . بينا عبده وسليم يرقبانه وكأنهما أدركا مابه . فتقطع قلباهما رأفة به وذهبا فى سكون وجلسا على حافة سريره وكأنما يريد ان لو يستطيعان له عزاء ، أو تخفيفاً .. غير أنهما خشيا أن يسىء فهمهما ... ويصدم ذلك احساسه . ففضلا الصمت . . . غير أنهما أحسا نحوه عطفاً ومحبة لم تبلغ فى يوم مبلغها ذلك اليوم . . . وأطرقا وقد شاهداه يطبق عينيه تعباً . . . وكأنهما حزرا مبلغ ألمه وقارناه بما عندهما فأكبراه . . . وشعرا لأول مرة بأنهما دونه وأنه يمتاز عليهما بقلبه النادر . .

الفصل الرابع عشر

لم يكن أحد من الجيران المحيطين بمصطفى يعلم عنه شيئاً أكثر من أنه فتى ميسور الحال . ولعل أول من تحرى عنه زنوبه . فإنه منذ هبط المنزل فى أول تلك السنة احتالت حتى سألت خادمه عنه ، وعما يعمل ، ولم تكن بعد مدفوعة إلا بحب الاستطلاع عن جار جديد ، فأجابها الخادم على عجل وهو يشتغل بنقل « عزال » مختصر تحمله عربة نقل ذات بغل بالباب .

ــ صنعته ؟ من الأعيان . . .

وصعد الخادم منهمكا بالعمل لاهياً عنها فلم تستطع أن تسأله من أعيان أى بلد . . . وهل هو من مصر أم من الأرياف أم البنادر ؟ ولمحته زنوبه بعدئذ من النافذة بالقهوة التى أمام المنزل واستملحته ، ولكنها لم تستطع أن تعلم عنه أكثر مما علمت . لعل الحياء كان يمنعها أو خشية الاضطراب أن يبدو عليها وقد أصبح الشخص يهمها أو لعل المصادفة لم تمكنها من ذلك الخادم الذى ما كان يرى إلا قليلا، والواقع أن مصطفى نفسه فى أول عهده بالمنزل كان كثير التغيب . وإذا كان يرى بقهوة الحاج شحاته يوماً فإنه كان يختفى عن الحى أياماً كأنما هو فى سفر . . وكذلك خادمه .

ومع ذلك فلم يكن فى سلوك هذا الشاب ما يسترعى التفات

أحد من الجيران . فقد كان الهدوء شاملا مسكنه والسكينة مخيمة على بابه وكان يدخل ويخرج فلا يشعر به أحد . كأنما كان يتوخى حسن السمعة بين الجيران أو على الأقل دفع تلك الشبه التى تلتصق بكل أعزب يسكن بمفرده . . . ولعل معرفته الشخصية بصاحب الملك ، والثقة التى وضعها هذا الأخير فيه إذ رضى التاجير له بغير شرط ولا قيد ، جعلت مصطفى يبالغ فى الحرص على سمعته وعلى إيثار العزلة والسكينة .

غير أن شيئاً آخر ما كان يحمل هذا الشاب الموسر على تجنب مصر بضجيجها وملاهيها . لينزوى فى قهوة الحاج شحاته يقضى فيها الساعات الطوال : لم يكن سبب جلوسه وتردده الوحيد مشاهدة سليم أفندى أيام أن كان يغازل من بالشرفة . . . هذا لم يكن عند مصطفى سوى فصل مضحك يأتيه عفوا ليرفه عنه... أن مصطفى ذاك الوقت كان ضجرا غير منشرح الصدر لشىء فقد عاد إلى القاهرة يحسبها كما غادرها منذ خمس سنوات ... إنه كان تلميذا بمدرسة محمد على التى يرى بابها الخشبى الكبير وهو جالس بمكانه من القهوة . . ثم كان طالبا بمدرسة وادى النيل الثانوية التى مازال يمر بها كلما سار فى شارع الدواوين . ثم كان قاطنا هذا الحى عينه الذى يتنفس هواءه الآن ، لم يتغير شىء إلا المنزل الذى كان يسكنه وقتئذ بالبغالة . للأسف لم يستطع الظفر بالشقة التى كان يقطنها مع أخيه وأخته وزوج اخته

الموظف بالمالية ، لقد وجدها مشغولة منذ زمن طويل . . غير أن صاحب الملك اشترى منزلا آخر فى نفس الحى بشارع سلامه هو رقم ٣٥ هذا . فلم ير بدآ من أن يسكن عنده . على أى حال صاحب الملك هو هو كذلك لم يتغير . لكن مصطفى مع ذلك ضجر كئيب النفس وقد أحس خيبة أمله فى القاهرة . فما الذى تغير إذن فى نظره ؟ ...

كان مصطفى يجلس بقهوة الحاج شحاته يفكر فى ما ضيه بهذا الحى.. وبأيام الدراسة وبأصدقائه وبلعبهم الكرة بجوار المنيل ونزههم الصيفية فى قوارب النيل والقمر ، طالع وقد أخذوا معهم طعاما وفاكهة من بطيخ وشمام . . . فليأكلون ويشربون ويغنون حتى يقترب بهم القارب من جسر عباس خلف القصر العينى ، فيتركون المجاذيف ويدعون القارب يسير كما يشاء فى تلك المياه الهادئة الساكنة تحت الجسر . . وقد صور القمر على الماء أشكالا من الضوء والظل جميلة وكان يصمت النيل حولهم إلا من صوت طائر ليلى يصفر ، أو من صوت سمكة تقفز فجأة فى الماء بجوارهم وهى تداعب سيقان العشب والغاب الناتىء قريب الشاطىء . . وإذا هم الصاخبون الضاجون المتضاحكون . يصمتون فى لحظات ، كأن ما حولهم من منظر شعرى أثار فيهم شيئا من العواطف الطيبة الكامنة فيهم ، أو شيئا من الاحساس العميق بالجمال السامى . وأن للشباب على القلب حقا . انهم لفى تلك

السن الذهبية التى ينبغى أن يثور فيها القلب ثورته الأولى والأخيرة لينكشف فيها للنفس تحت ضوء اللهب ما اندفن فى النفس من قوى وكنوز . ولكن يا للأسف . . أنى لهذا الشباب أن يضىء قلبه وهو لا يعرف المرأة ! لم يكن واحد من عصبة الفتيان فى القارب قد أتاحت له الظروف أن يعرف المرأة . . المرأة ذات القلب . . ذات النفس . . تلك التى توحى بعظائم الأعمال : لا المرأة العاهر التى يرونها كل ليلة جمعة فى مقابل عشرين قرشاً . . .

لذلك لم تدم لحظات الصمت هذه التى استرقها منهم هذا المنظر الرائع فى شعره . . ولا استطاعت أن تصل كثيراً إلى تلك النفوس التى سممتها وأماتتها أنفاس العاهرات المملوءة بجراثيم المادة السافلة . . وحرك القمر والماء والنسيم أكثرهم شاعرية فهب يردد أبياتاً من شعر برنامج البكالوريا المقرر عليهم فى ذلك العام فاستقبله زملاؤه بالمزاح الثقيل والنكات البذيئة فسكت خجلا . . ثم انقلب معهم بعد قليل يجاريهم فى هذرهم الأحمق وصخبهم البهيمى وقد تناسى ذلك البريق من سمو الخيال وسمو الاحساس الذى لمع فى قلبه منذ لحظة . . . وهكذا كانت تنطفىء فى نفوس أولئك الفتية المملوئين حياة تلك الذرات من قبس العظمة . . . واستأنفوا نزهتهم وسط الغناء المبتذل والضحك الحيوانى . . حتى إذا انتصف الليل عادوا إلى منازلهم يتخبطون فى حارات البغالة الخالية من المصابيح وقد ازداد

صياحهم كالسكارى . . .

غير أن مصطفى ما كان يستذكر الماضى على هذا النحو . بل كان يراه عهد الشباب الأول السعيد بمرحه ولعبه واجتماع شمل الإخوان . فأين هم الآن ؟ هؤلاء الإخوان ؟ من يدرى ؟ لعل منهم الطبيب فى مركز والملاحظ فى بندر ، والموظف فى مديرية والعاطل الشارد ! حتى أخوه الذى كان من العصبة قد سافر من أعوام لإتمام الدراسة فى فرنسا ولم يرجع بعد ولا يريد أن يرجع . . حتى حين دعوه لمناسبة ظروف خطيرة . . ومع ذلك فقد بحث مصطفى عن إخوان الماضى من ساعة وصوله إلى القاهرة . فوجد بعضهم . فلاقاهم ولاقوه بشوق كبير أول يوم . واستفسر منهم عن حالهم فإذا هم موظفون فى مصالح الحكومة واستفسروا هم عنه وعما قطع بينهم وبينه كل هذه المدة فأخبرهم أن والده أراده بعد نواله البكالوريا على العمل معه فى محل تجارتهم «المانيفاتوره» المشهورة بالمحلة الكبرى وقد مكث مرغماً بالمحلة الكبرى طول هذه الأعوام حتى توفى والده أول هذه السنة فلم يضع وقتاً . . ولبث فقط مقدار ما قام بالواجب نحو الراحل ، ثم جهز نفسه على عجل للسفر مصطحبا خادما ومتاعا بسيطا تاركا محل المانيفاتورة الكبير فى عهدة المستخدمين . وقد وطن العزم على ترك التجارة والسعى للتوظف فى إحدى دواوين الحكومة حتى يكون فى القاهرة دائما .

غير أنه للأسف لم يجد القاهرة التى كان يحن إليها دائماً . وأنه للأسف لا يكاد يعرف فيها بلد الماضى وكأن كل شىء فيها تغير مع أن لا شىء فيها تغير .

نعم لقد استطاع من وجدهم من الإخوان أن يبددوا عنه تلك الكآبة أول يوم . فلقد قادوه معهم يجوسون خلال المدينة ليرى ما استجد فيها من ملاه ولعب . ومضوا به فى الليل إلى المشارب ثم إلى دور الدعارة . . فأخذت مصطفى ذلك اليوم بهــــرة العاصمة وماشاهده من جديد بعد الغيبة عنها وشغله ذلك قليلا عن شعوره الخفى الكئيب . لكن أصدقاءه كرروا معه تلك النزهة واستطاع مصطفى أن يلاحظ بعدئذ فيهم تغيراً هائلا فى أخلاقهم فلقد رأى بادىء بدء أنهم لا يقصدون فى صلتهم به بعث ود قديم ، ولا أنهم يستظرفونه أو يصاحبونه لنفسه كما كانوا يفعلون قبلا . بل إنهم إنما يريدون استغلاله والتقرب منه لينفق عليهم من ماله الذى ورثه عن والده . . هذا مافهمه منهم ومن سلوكهم معه .

فانقطع فى الحال عن هؤلاء الصحاب مستنكرا ذلك الخلق منهم مستغرباً تغير إخوان الشباب هذا التغير . . .

لهذا فضل الوحدة فى قهوة الحاج شحاته موقنا أن بعث الماضى كما كان ضرب من المحال . وانصرف عن تلك الكآبة شيئا فشيئا إلى التفكير فيما يصنع . أيعود إلى المحلة الكبرى ويباشر إدارة المحل

ويخلف والده المثابر النشيط . . أم يظل على مفكرته الأولى راغبا فى الالتحاق بوظيفة فى القاهرة بعد أن يصفى المحل ويقسم التركة بين الورثه : هو وأخوه وأخته ؟ ! إن أخته فوضت له الأمر وقد وصله خطاب من الفيوم حيث تقيم وزوجها الموظف الآن بإدارة المديرية ، وكذلك أخوه أرسل إليه من فرنسا يقول له « افعل ماشئت على شرط ألا تطلب إلى الحضور إلى مصر وألا تمس مصروفى الشهرى بنقص ما » .

ثم هو نفسه لا يريد بعد الآن الاستقرار فى المحلة الكبرى ولا الارتباط بهذا المحل . وما أهون عليه تصفيته وبيعه إلى فرع محل الخواجه ك . س كازولى . وقد عرض هذا الأخير الشراء من يوم أن شم رائحة الرغبة فى التصفية ومن يوم أن علم بسفر مصطفى إلى القاهرة بعد وفاة والده ...

ثم لم يكن مصطفى إلا شابا فاقد الهمة . إنه ليس فاسد الطبيعة ولا سافل الخلق . . وإن فى نفسه لكثير من الخير والفضيلة . . لكن هذا الخير دفين تحت جليد الخمول وخور العزيمة .

لقد استشار نفسه كثيرا فى أمر محل المانيفاتورة . وسافر مرارا الى المحلة ثم عاد ثم سافر هو وخادمه . . ثم عاد . . ثم كان يرسل خادمه إليها يوافيه بأخبار المحل وقد حسب أنها أيسر وأحسن طريقة لإدارته . . لكن كل هذا لم يزده إلا يقينا بأنه لا يقوى

على متاعب التجارة ومسئولية العمل الحر . إن المحل من يوم سفره فى نزول مستمر ، وإيراده ينقص باطراد وهو لا يدرى إن كان ذلك لضعف المراقبة على المستخدمين وقد تركهم وأتى يجلس بقهوة الحاج شحاته ، أو أن ذلك من ضعف الإدارة وعدم الجد والكدح على أى حال ماله ولهذا كله ولماذا لا يتخلص من هذا المشكل . يبيع المحل للخواجه كازولى ؟ . أحسن طريقة . ؟

لم يكن أحد يعارضه فى هذه الفكرة . فوالدته متوفية . غير أن له خالاً من كبار تجار القطن سمع ما شاع عن تصفية المحل وبيعه لكازولى فذهب إلى ابن أخته مستغرباً مستنكراً ، ونصحه ألا يفعل وتوسل إليه فى إشفاق . . فإنها خسارة كبرى ، ولكن مصطفى بك ضحك هازئاً وقال فى اطمئنان :

— خساره ! هو احنا بس عايشين بالمحل ده ؟ ! !

فأجاب خاله :

— يابنى البركة كلها فى المحل ده ! هو المحل ده اللى جاب الأطيان والأملاك كلها . .

صحيح . لم يكن ميراث مصطفى وأخواته قاصراً على المحل . بل ترك لهم والدهم المرحوم أملاكا أخرى وأطيان . . . لذلك لم يهتم مصطفى كثيراً بالمحل . غير أن خاله قال له فى أسف إن هذا لا يصح من ابن تاجر . وياويل التجار إذن إذا كان سيخلفهم أبناء يتركون

المهنة ويسعون إلى وظيفة صغيرة . بل ويا للعار على وطنى يترك محل تجارته لأجنبى يحتله .. ويصبح محل مانيفاتورة راجى الشهير فرعاً للخواجه كازولى الرومى ..

ولكن أين لهذا القلب الخامد أن يتأثر بهذا الكلام .. !

الفصل الخامس عشر

لولا زنوبه لما اتجه التفات سنيه إلى قهوة الحاج شحاته الصغيرة، ولما وقع نظرها على هذا الشاب اللطيف ذى الشارب الأشقر الصغير وهو ساكن هادىء منعزل فى ركنه لا يبالى بشىء حوله إلا بحركات اليوزباشى سليم المضحكة أمامه .

وفى نفس اليوم الذى شاهدته فيه جاءها محسن وكاشفها بحكاية المنديل الحريرى . وأساء السرد بما جعلها تفهم بادىء الأمر أن الريح قد تكون حملت المنديل إلى أحد الجيران . فقامت من ساعتها إلى النافذة فرأت أن الشقة السفلى التى يقطنها مصطفى لها شرفة صغيرة مكشوفة تكاد تجاور نافذة حجرتها الخاصة . فخامرها شك أن يكون المنديل لدى مصطفى وأنه حفظه لأمر فى نفسه . غير أن هذه الفكرة لم تلبث أن زالت عند مقابلتها التالية لمحسن حيث اعترف لها بالحقيقة . إلا أنها ظلت ترقب مصطفى كلما جلس بالقهوة لا لشىء سوى أنها تحس شيئاً يدفعها إلى النظر إليه ولا تدرى لماذا . .

وكان يوم وداع محسن وما وقع فيه وكانت صادقة مخلصة فى كل ما أبدت من علامات التعطف والتأثر . وسافر محسن فماذا حدث؟ لاشىء سوى أنها استمرت تتسلى بالنظر إلى القهوة من خلف نافذة الشرفة الخشبية . فكانت ترى مصطفى فى مكانه المعتاد وقد ازداد

فى انعكافه وعزلته بعد انقطاع سليم عن القهوة . وبدت على وجهه كآبة وتفكير . . لايخفف الآن من مظهرهما القائم تلك الضحكات المكتومة والابتسامات التى كان يثيرها فيه وجود سليم بشواربه المفتولة وعرض أكتافه وأمره ونهيه وضجته المختالة بالكذب ونظراته المرتفعة إلى الشرفة الخشبية .

غير أن ماكان يحير سنيه هو أن مصطفى ما كان ينظر قط إلى الشرفة الخشبية . . حتى أيام سليم . . . وحتى وقد فطن إلى سبب حركاته ونظراته فإنه هو لم يكن يرفع بصره إلى الشرفة إلا قليلا وفى تأدب وتحفظ كمن لاغرض له إلا تتبع خبر سليم .

وهجر سليم القهوة وظل مصطفى يختلف إليها مدفوعاً بالعادة وبأنها خير من البيت الخاوى . على الأقل فيها يستطيع شرب فنجان من الشاى بغير جهد ولا عمل . ثم هى فوق ذلك مكان صالح للتفكير فى شأنه وما ينبغى أن يعزم عليه فى مستقبله . إلا أنه لم يكن ينظر إلى الشرفة الخشبية . ولم يفعل . ومن يذكره بها وقد اختفى سليم عنه ! لهذا أخذت سنية بعد سفر محسن تقضى أغلب وقتها تراقبه فلا تظفر منه بنظره إلى شرفتها . فتساءلت فى نفسها مستغربة مايفعله مثله فى قهوة كهذه ؟ وفيم يفكر ؟ ولماذا لا ينظر إلى الشرفة ؟ وبلغ بها هذا التساؤل والعجب إلى حد الاهتمام ، فجعلت تلبس أبهر أثوابها ألوانا ، وتذهب إلى البيانو فتضرب دوراً شائعا

عما ذاعت نغمته بين الناس بعد أن تكون قد فتحت كل نوافذ الشرفة . عسى أن يبلغ الصوت الطريق . فإذا ما انتهت وقفت بالنافذة وهى تتظاهر بمعالجة فتحها أو غلقها فى قوة وجلبة . بل بلغ بها الأمر أن بات لايحلو لها مناداة جاريتها بصوت عال أو الحديث أو الضحك المرتفع إلا قرب النافذة . لهذا كله نشبت المعركة بينها وبين زنوبه التى كانت تزورها فترى منها هذه الأفعال. فلما تأكد لزنوبة أن سنيه إنما غرضها لفت نظر مصطفى لم تطق سكوتا ونهرتها ناهية . ولكن فى لهجة اهتمام أثارت شك سنيه فى الحال وفطنت إلى ما فى نفس زنوبة . فقهقهت ضاحكة فى سخرية :

— حتى انت ياللى تولدى قدى !!

كلمة هائلة . مافاهت بها حتى صاحت زنوبة هادرة كالناقة المغتلمة تسب وتشتم أفظع وأبذأ سب . ثم ارتدت ملاءتها « اللف » السوداء التى جاءت بها وخرجت الخرجة التى لارجعة بعدها . وسنيه تنظر ساكنة واجمة لاتستطيع ردا ولا حركة ، وجاءت الجاريه على صوت الصياح فسمعت بعضاً من ألفاظ زنوبة . . وعندئذ التفتت سنيه إليها وقالت فى هدوء :

— شاهده ياداده بخيته ؟ ؟

فأجابت الجارية مستنكرة :

— إخص عليه ! ست قبيح خالص !

وكانت والدة سنيه فى حجرتها تصلى العصر فختمت الصلاة بسرعة لدى سماع الضجة وهرعت ترى الخبر ، فلحقت بزنوبة تنزل السلم فاستوقفتها فى لهفة ، ولكن زنوبه لم تقف واستمرت فى النزول وهى تقول من أسفل السلم بصوت مرتفع صارخ :

— روحى ربى بنتك الشرموطة !

فوجمت والدة سنيه وذهلت قليلا . ولكنها انتبهت فى الحال وغلى الدم فى وجهها . فأجابت وهى تطل من أعلى السلم مشرئبة :

— قطع لسان اللى يقول على سنيه كده !!

ولكن زنوبه خرجت واختفت وهى تدمدم وتردد :

— حرم علىّ بيتكم . حرم على بيتكم العمر كله !

وظلت الأم جامدة لحظة . . ثم تذكرت ابنتها فجرت إليها فألفتها باهتة اللون باردة الأطراف ، فهدأت من روعها وهياجها ثم سألتها عما حدث فأخبرتها سنيه بكل شىء ، بمجىء زنوبه ونظرها الى القهوة كلما جاءت . وأنها تهتم بأمر جار لها يدعى مصطفى يجلس دائماً بالقهوة . وقد حدث منذ شهر أن نظرت اليه زنوبه فوجـــدته وحيداً بالقهوة فتناولت ملاءتها وهرولت نازلة ولم تشك سنيه يومئذ فى أمرها . ولكنها اليوم وقبل اليوم كانت تلاحظ أن زنوبه لا تطيق رؤيتها بجانب النافذة . واليوم كل ماحدث أنها أرادت النظر من الشرفة فلم يرق ذلك لزنوبه وثارت وانتهى بها الأمر إلى السب

الشتم والخروج على هذا الشكل .

فأطرقت الأم قليلا ثم قالت كأنما تخاطب نفسها :

— ياندامه ! هى صغيره على الأمور دى ؟ !

فرفعت سنية رأسها وأردفت على الفور :

— قلت لها كده يانينه قامت زعلت واتغاظت !

وظهرت بخيته الجاريه فأسرعت سنية إلى أمها قائلةوهى تشير إلى بخيته الجارية :

— داده بخيته شاهده اسأليها يانينه كان .

فقالت الجارية فى الحال :

— اخص عليه ! ست قليل أدب خالص ! واحدقبيح خالص !

وهكذا ختمت مسألة الشجار . فتناولت الأم رأس ابنتها وأوسدتها صدرها وهى تسكن خاطرها وتناشدهاألا تعكرصفوها من أجل امرأة كزنوبة ، ولا من أجل شىء فى الدنيا ، فوضعت سنية منديلها على عينيها كأنما تكفكف عبراتها امتثالا لتوسلات أمها ، ثم تخلصت بلطف من بين ذراعيها واتجهت إلى الشرفة ومنديلها فى يدها كمروحه تطرد به الحر عن وجهها المورد ، وهى تلفظ آهة الضيق كأنما هى ذاهبة إلى النافذة لا لشىء إلا لتستقبل الهواء الطلق العليل . ولكن ماكاد نظر سنية يقع على القهوة حتى رأت مصطفى ينظر إلى الشرفة كأنما كان يتربص لظهور أحد فيها

فارتدت فى الحال وتوارت عنه وقد خالجتها دهشة وخففت بشىء من السرور الخفى . وليس فى الحقيقة محل للدهشة لو علمت أن صوت الشجار بينها وبين زنوبة قد وصل إلى القهوة وعقبه بقليل خروج هذه الأخيرة وهى ترغى وتزبد وتشير بحركات مهتاجة حتى دخلت منزلها رقم ٣٥ الذى يقطن الطابق الأول منه مصطفى . وقد رأى كل ذلك مصطفى وهو جالس بمكانه من القهوة . . وتساءل فى نفسه عن هذا الصوت الآتى من الشرفه ، وعن هذه المرأةالمنفعلةالخارجة من هذا البيتالداخلة المنزل الذى يقطنه . ودفعه حب الاستطلاع إلى استراق السمع والنظر فى اتجاه الشرفه . وفجأة تقابلت عيناه المترصدتان فى غير اكتراث بعينين سوداوين جميلتين فارتجف فى الحال . وإذا منظر غادة باهرة الحسن ما كادت تطلع عليه حتى نكصت وتوارت .

منظر بسيط لم يدم أكثر من خمس ثوان ومع ذلك فإن مصطفى أحس بعده كأن عالماً آخر بأجمعه قد انكشف لعينيه بغتة وتولد فيه شعور خفى بأن الدنيا أصبح لها طعم آخر . وأن حياته قد اتخذت اتجاهاً آخر فى لمح البصر ! نعم خمس ثوان فى حياة شخص هى لا شىء ، ومع ذلك قد تكون أحياناً هى كل شىء ! قد ينقضى عمر شخص كله دون أن ينحرف أساس حياته أنملة . وقد تأتى خمس ثوان فقط فتستطيع أن تغير هذا الأساس أو أن تقلبه رأساً على عقب .

ماذا رأى مصطفى غير فتاة برزت ثم اختفت كسنا البرق ؟ كسنا البرق أضاء كل أرجاء قلبه المظلم . ! . خمس ثوان لمح فيها مصطفى لأول مرة فى حياته جمالا هزّ قلبه ... ولم يكن يعرف أن كل هذا فى هذا البيت ... وتنبه أخيرا من سكرة الصدمة وجعل يقول فى نفسه :

— المصيبة إنى هنا من أول السنة ولا عنديش خبر !

وأخذته نشوة فرح من لقى لقيا فنزل على نفسه يؤنبها :

— أما مغفل ! . حمار . ! أعمى ...

وكأنما صدره يكاد يثب . . فنظر إلى الشرفة نظرة مؤدبة قانعة فلم ير بها أحدا فنهض بغير يأس . . وسار فى الطرقات مبتهجاً يريد لو يقطع القاهرة كلها طولا وعرضا بخطاه الواسعة الفرحة .. وذكر فجأة ساعة مجيئه القهوة وقارن حالته إذ ذاك بساعة مغادرته لها الآن ولم يمض بين الساعتين وقت طويل فانكر شخصيته الماضية وكأنما غدا رجلا آخر . .

فى تلك اللحظة كانت سنية فى قلب الغرفة تسترجع فى مخيلتها نفس الأثر . هى أيضا أخذتها غير الدهشة رجفة عندما تقابلت عيناهما وقد ارتدت فى الحال لأنها لم تكن تتوقع أن ستتقابل عيناها فجأة ولا أنها ستراه ناظرا إلى الشرفة . . ذلك الشاب المنعزل الساهم . . وأخذت تناجى نفسها فى ابتهاج أولا . . ولكنها بغتة كأنما اعتراها

خجل من نفسها . . عادت تقول متكلفة التجهم متصنعة الحدة والغضب :
لماذا ينظر هذا الرجل إلى الشرفة ؛ وبأى حق وبأى جرأة وأى
جسارة يستبيح هذا الشاب لنفسه النظر إليها ؟ ؟ وخيل لها لو أن
باستطاعتها أن تزجره وتؤنبه على ذلك . . وأن تغلظ له فى القول .
ومع ذلك لم يمض على حدتها وهياجها لحظة حتى اتجهت إلى الشرفة .
لا لشيء سوى أن تعلم إذا كان هذا الشاب الجسور مازال ينظر
إليها أو إلى الشرفة . . واقتربت سنية من النافذة بعـــد أن رتبت
بسرعة وباعتناء شعرها البديع أمام المرآة . . وكم كانت دهشتها عندما
رأت أن ذلك الذى تتهمه بالجرأة والجسارة والذى تحسبه جالساً
يتأمل شرفتها ، ليس له أثر بالقهوة ومكانه خال . وأنه لا فقط امتنع
عن معاودة النظر اليها بل أنه ترك لها القهوة بما فيها ومن فيها . . !
هذا ما بدا إلى ذهنها . يالخيبة الأمل ! .

شعرت عندئذ الفتاة بألم ثم بغيظ . فأغلقت النافذة بحركة غضب
قوية وذهبت ذهاب من أقسم ألا ينظر من النافذة بعد الآن . وذلت
كبرياء الأنثى فيها فشعرت كأن الدموع ستنحدر من مآقيها .. ولـكنها
تجلدت إذ ذكرت أن ليس بينها وبين هذا الشخص ما ترجوه منه
أو تيأس . . ومن هو ؟ وما قيمته ؟ وما شأنه عندها حتى تهتم به
إلى هذا الحد ؟ . . . وقامت إلى البيانو وجعلت توقع عليه متناسية
كل شيء . . .

وعندئذ مر بخاطرها طيف محسن الباهت ...

ما أحسنها فرصة لو عاد اليها محسن تلك اللحظة ... تلك هى الساعة المثلى لكسب رضاء امرأة ... ولكن واأسفاه !.. كان محسن فى تلك اللحظة بالضيعة بين حقول البرسيم الأخضر ينتظر خطابها الذى لن تكتبه .

الفصل السادس عشر

فى اليوم التالى أتى مصطفى القهوة كعادته . . . لكن فى هيئة لو رآها صاحب القهوة أو أحد ممن اعتاد رؤيته كل يوم لأيقن أنه قد اعتنى بملبسه اليوم على نحو خاص ، وأنه ولاشك وقف أمام المرآة زمنا غير قصير قبل أن يأتى . وأخذ مصطفى مكانه غير أنه أحس كأنه يغشى القهوة لأول مرة . فقد أجال بصره فيها فى شىء من الحياء وقد خيل إليه أن جميع من بها حتى الحاج شحاته وصبيانه ينظرون إليه ويعلمون ماجاء به اليوم . . أو على الأقل يدركون لماذا يعتنى اليوم بمنظره . إلا أنه ألفى نفسه وحيداً كالعادة على رصيف القهوة . . لا ينظر إليه أحد فاطمأن ، ولبث لحظة كأنما يقاوم نفسه وأخيراً رفع بصره إلى شرفة الدكتور حلمى فى تورع وأدب ووجفة ، ثم خفض فى الحال عينيه على صوت أحد صبيان القهوة يسأله عما يطلب ، فطلب قدحا من الشاى بلهجة ميكانيكية سريعة ، ثم عاد فنادى الغلام ناسخاً ما قال وطلب زجاجة غازوزة « سباتس » . . وهو لايدرى لماذا عدل عن الشاى اليوم ولماذا بدل به الغازوزة إلا أن تكون فكرة التغيير السابحة فى مجاهل نفسه أوحت بذلك وهو لا يعى ، ولم يكن صبى القهوة أقل منه دهشة . . . لا فقط لأن « الزبون المعتاد » غير طلبه فجأة بل أيضاً لأن كلمة « سباتس » فى

هذه القهوة شبه البلدى ليست على لسان زبائن المحل كثيراً ! . وأن هذا الصبي لم يعتد نطقها كما اعتاد نطق « واحد شيشه » أو « واحد ساده» أو « واحد شاى » حتى واحد « لكوم » أو واحد« بسطه»: لذلك أدار ظهره واكتفى بأن صاح قائلا :

— واحد كازوزه ! . .

وعاد مصطفى إلى نفسه يسائلها وقد علم من نظرته إلى الشرفة أن ليس بها أحد وأن نوافذها مغلقة . . .

ترى أيأمل فى رؤيتها مرة أخرى أم أنها كانت مصادفة مرت أمس ولن تعود ؟ ومن ذا الذى يضمن له أنها ستبرز مرة أخرى؟ ومن يدريه . . فقد يمكث شهورا دون أن يراها فى الشرفة ؟ ألم يسبق أن جلس فى هذه القهوة شهورا فلم يلمحها إلا أمس ؟ أين كانت طول تلك المدة ؟ وأين كان هو ؟ وإذا كان ما فات مات ولا داعى لإثارة الندم على الماضى فهل يأمل فى المستقبل ؟

واضطرب لذكر كلمة المستقبل إذ أدرك فجأة الآن أن لهذه الكلمة حقيقة ملموسة إلا أن الشك والقلق عاوداه وخطر له أنها قد تكون زائرة جاءت أمس هذا البيت وانصرفت على أن لا تعود وإن عادت فمن ذا يعلمه ! إنه لا يعرف بعد من هى ؟ واسود لهذا الخاطر . إذن لن يراها اليوم ؟ وإذن جلوسه الآن بالقهوة على غير جدوى.. وانتظاره عبث ؟

فتململ فى مكانه وأخرج منديل الصدر الجميل الذى بلون بذلته فمسح به جبينه ثم شمر عن معصمه الأيسر ونظر فى ساعة اليد الذهبية وقد خيل إليه أنه جلس قرنا . ثم تأكدت فى رأسه فكرة أنه لن براها اليوم فتحرك فى كرسيه قائلا فى نفسه أنه مادام يعلم ذلك فلماذا يجلس بالقهوة الآن ؟ ونسى مصطفى أنه كان يجلس بالقهوة دائما بغير ما غرض وأنه كان ينفق فيها الساعات الطوال فما تململ كما فعل اليوم ولم يمض على جلوسه ساعة ...

وأخذ يضيق ذرعه ويشتد يأسه كلما مر الوقت.. وآلمه الانتظار وهو يقسم أن سينهض بعد خمس دقائق إن لم تظهر. وتمضى الدقائق الخمس فيطمعه الأمل فيجدد المدة ويمد الأجل فلا تظهر فييأس. ويتحرك للقيام ثم يعود يجدد المدة ويمد الأجل مرة ثالثة ورابعة وخامسة . . ويتعلل تارة بالغازوزة التى يتمهل عمداً فى شربها وتارة بأن الوقت فسيح وأن ساعة القهوة لم تدق بعد النصف وأنها متى دقت النصف قام . يقوم إلى أين ؟ . . وهو الذى فى مثل هذه الساعة دائما بالقهوة لا يفارقها ؟ لا يدرى . المهم . لابد من القيام لأنه انتظر فوق ما ينبغى وأن لعذاب الإنتظار حدا وإن لم يكن من قبل يفكر فى القيام بهذه السرعة فلأنه لم يكن ينتظر شيئاً . ومن لا ينتظر شيئاً يستطيع أن يقعد العمر حتى العفن وحتى يأكله الدود وهو فى مكانه . إلا أن تنهضه الرغبة فينشط ويدب فيه

الإحساس بالزمن والحياة من لا ينتظر شيئاً ومن لا يرغب فى شىء هو الميت وحده . لذلك ما تأخر مصطفى . ودس يده فى جيبه مخرجاً النقود لصبي القهوة إنفاذاً لإرادة صبره النافد . . وعندئذ بلغ مسمعه صوت نافذة تفتح بعنف . . وآذان مصطفى الآن كآذان القط متربصة لقنص كل صوت مهما . دق لا سيما صوت النوافذ والشرفات . . فرفع بصره إلى شرفة الدكتور حلمى فى حركة غريزية . فإذا هو يراها « هى » . . وكان ذلك فجأة . وكان ذلك فى ساعة يأسه وقلقه فما تمالك قلبه أن دق وابتسم لها ابتسامة ارتسمت رغماً عنه . . كأنما هى دفعة الفرح . . والخلاص من شكه ما حمله على ذلك . والواقع كانت ابتسامة خالصة صادقة فيها معنى الابتهاج الشريف ، لا معنى المغازلة المبتذلة . وليس أدل على ذلك من صدورها عن غير وعيه . كأنما انطلقت تعبر عن شعور داخلى قوى ، فهو لم ينتبه لها ولا لنفسه إلا ساعة أن رأى النافذة تغلق فى وجهه جواباً عليها .

يا لسوء الطالع ! أهو مجنون يبتسم فيضيع كل شىء ؟ ما أحمقه ولكنه لم يتعمد شيئاً . إنه معذور . هو سوء الحظ لا أكثر ولا أقل.

أسف مصطفى كثيراً وأنب نفسه كثيراً وخشى أن يكون قد نفرها منه . وود أنها لم تبرز اليوم . ومع ذلك فقد أحس مصطفى ارتياحاً فى أعماق قلبه : لقد زال شكه قطعاً . وأيقن أنها ليست زائرة ولا غريبة بل هى فى البيت دائماً ، فى هذا البيت الذى يراه

أمامه ويقطن بجواره . وله شرفة مكشوفة صغيرة تحاذى إحدى نوافذه ، حسبه هذا سعادة اليوم . وإذا كان قد أغضبها بابتسامته فعساها تصفو يوماً .

على أى حال هو مبتهج اليوم بهذه النتيجة : إنها فى هذا البيت دائما وإنها تفتح نافذة الشرفة غالبا . . وستفتحها كالعادة . . طبعاً إنها لن تحرم نفسها النور والهواء من أجل « مغفل » ابتسم لها من قهوة الحاج شحاته الحقيرة ! قهوة الحاج شحاته الحقيرة ؟! للمرة الأولى خطر لمصطفى فكرة احتقار تلك القهوة . وإذا هو يفتح عينيه حواليه وينظر نظرة المنتقد المشمئز ، إلى موائدها الخشبية وكراسيها القديمة ، وذلك المصباح الغازى الكبير «الكلوب» المتدلى فوق « يافطة » قد محاها التراب والزمن ، فلم يبق من « قهوة النجاح الكبرى لصاحبها شحاته محمد » سوى كلمة شحاته وكلمة قهوة . . .

وألقى نظرة شاملة داخلها من خلال العوارض الزجاجية المكسور أغلبها ، فرأى الزبائن الجلوس وضجيجهم وصوت حجر « الطاولة » و « الضمنو » . فدهش كيف أنه استطاع طول تلك المدة الجلوس بجوار هذا المزاح الخليط بين أفندى ومعمم وملبد كلهم من اهـــل الطبقة الصغرى . وإذا صوت المعلم شحاته يصيح فى الداخل « ولعة للشيشة ياجدع ! » وإذا أحد الصبيان يمر أمامه لابساً « العنترى » البلدى و « اللاسة » ولكى يبرهن على رقى القهوة

أضاف إلى هذا الزى « فوطة » ووضع فى أذنه اليسرى وردة وقطعة من العتر الأخضر . وجالت من مصطفى التفاتة إلى مافوق المائدة أمامه : الصينية الصفيح وعليها كوب مرسوم عليه أزهار ملونة محاها كذلك القدم وكثرة الغسيل ثم زجاجة « سباتس » المزعومة . فأيقن أنها قهوة « شلق » صحيح ! ..

ولكنه ذكر قرب القهوة من منزله فأدرك سبب اختلافه إليها. وفى تلك الثانية مرت برأسه صورة كان قد نسيها ... صورة ذلك الأفندى الطويل العريض ذى الشوارب السوداء المنتصبة الذى كان يتردد على نفس القهوة ويأخذ مجلسه أمامه منتفخاً كالديك . . ولا يزال طول مكثه يملأ الدنيا ضجة كاذبة بأمره ونهيه ، وحركات العجرفة والتيه المتكلفة المضحكة ، ولا يزال يرفع بصره إلى الشرفة الخاوية حتى ييأس فيقوم ... ضحك مصطفى فى نفسه الذكرى تلك الصورة التى طالما سرته وألهته . لكنه ماعتم أن أظلم وجهه قليلا فى الحال وأصابته خشية . إذ أدرك الآن لمن كان يأتى هذا الرجل . . رآها مرة كما رآها هو أمس . إن هذا الرجل يقطن نفس المنزل الذى يقطنه هو .. وقد قابله يوماً فى السلم نازلا من الطابق العلوى . إذن مركزه هو كمركز هذا الرجل تماماً من كل الوجوه ؟ . فقط . . قد سبقه هذا الرجل فى ترصد الشرفة . وها هو هذا الرجل يختفى منذ زمن هاجراً القهوة . . ولعله لم يصب منها غير

الخيبة واليأس . وإذا كان هـذا السابق قد خاب أفلا يخب هو اللاحق أيضاً ؟ هذا مؤكد . وقد بدت تباشير الخيبة ولما يمض على فرحته ثمان وأربعون ساعة !! ألم تغلق فى وجهه النافذة اليوم ؟! دب شىء من القنوط فى قلب مصطفى . ومصطفى كـكل شاب لم يعرف المرأة ، ما استطاع أن يرى فيما حدث إلا إعراضاً وصداً يوجبان القنوط ... فأطرق لحظة فى كآبة يسائل نفسه عما يصنع .. وهل يترك الأمل قطعاً ! وما الذى يصير إليه إذا أيقن ألا محيص من الرجوع إلى ما كان عليه من حياة فارغة ؟ وهاله مجرد تصور حياته الماضية كالو أن ما بينه وبينها هوة . مع أن ما يفصله الآن عنها لا يزيد على يوم ! . أيعود فيعيش كما كان يعيش قبلاً ، ميتاً لا ينتظر شيئاً ولا يأمل فى شىء ولا يخفق قلبه لشىء؟ هل هذه تسمى حياة ؟ أو يستطيع العودة إليها بعد أن علم ... إن عذره إذ تحملها فيما مضى كان الجهل . . أما وقد رأى بعينيه أن هناك نوراً ...

ورفع يده فى حركة ضيق ونادى صبى القهوة ودفع إليه ثمن ماشرب ، ثم نهض بدون أن ينظر إلى الشرفة نظرة أخيرة ، وكأنما منع نفسه عن النظر بكل إرادته وسار على غير وجهة مقصودة ، مطرقا ويداه فى جيبه وهو يسائل نفسه مردداً : إن مصيرى ومصير الرجل « إياه » واحد ولابد يوماً من الاختفاء بدورى وهجر القهوة ! . . إلا أن الأمل ما لبث أن عاوده ... وجعلت النفس

المتملقة تخلق له كل ما يسره ويطمئنه من أسباب . . . فأخذ يستعرض فى مخيلته صور سليم المضحكة مكبراً مجسماً ما فيها من هزل وهزء، حتى بدا لعينيه شخصا غير خليق بعطف فتاة جميلة رقيقة . . وأخذ يقيس نفسه به ويقارن ما بينهما من وجوه شبه ومن فوارق . . . إلى أن خرج من ذلك كله بنتيجة فى مصلحته . إن هذا الرجل لا يشبهه فى شيء، ولا يمكن أن يجرى عليه ما جرى على هـذا الرجل . إنه ليس مثله ولا نظيره ولو كان كذلك حقاً لألقى بنفسه فى البحر من زمن طويل . . !!

نعم لكان . ألقى بنفسه فى البحر من زمان !!!

وكأنما أعجبته هـذه الجملة ... وكأنما استراح عليها . . فجعل يرددها لنفسه بنطق واضح واقتناع :

— صحيح ! كنت رميت نفسى فى النيل من زمان !

وهكذا استطاع هـذا الانسان القلق بجملة كهذه أن يعيد إلى نفسه بعض الاطمئنان والراحة . . . ويتخيل النور قد بزغ أمام بصره من جديد . . .

الفصل السابع عشر

لو أن مصطفى ساعة أن ابتسم لسنيه رفع بصره إلى نافذة جيرانه القاطنين فوقه. لأحس أشعة عيون نارية تنفذ إليه من خلال العوارض الخشبية تلك عيون زنوبة التي مافترت عن مراقبته ومراقبة سنيه منذ يوم الشجار ولعلها أول من رأى وأدرك تحسن هندام مصطفى وسببه فى ذلك اليوم . ولعلها كذلك الوحيدة التي باغتت على شفتى مصطفى تلك الابتسامة الموجهة إلى سنيه . . .

وهكذا يكفيها مصطفى يبتسم لسنيه وهى تبتسم له !!! الله ! . الله . . .

وانتظرت حتى اجتمع «الشعب» ماخلا محسن الغائب فى دمنهور وأخبرتهم بما رأت مبالغة فى الخبر مضيفة إليه كل ما تتصور أنه سيكون . . وهل بعد الابتسامة إلا المقابلة والمراسلة ؟ ؟ لقد نهض مصطفى أمامها بعد ذلك فإلى أين؟ إن لم يكن إلى حيث يلقى من ابتسم لها الساعة ؟ وتصادف بعد قيام مصطفى بقليل أن شاهدت زنوبة جارية سنية تخرج فى إزارها لقضاء حاجة ، فتصورت زنوبة أن سنيه شيعت جاريتها وراء مصطفى ، فأضافت ذلك إلى مجموعة مارأت بعينيها قائلة لعبده وسليم الساهمين :

— أنتم نايمين ؟ طيب دى المراسيل رايحه جايه أربعة وعشرين

قيراط بالمفتشر كده فى الضهر الأحمر . . !! .

وهكذا أنزلت الطامة على هذين الأخيرين كما أثارت الدهشة عند حنفى ومبروك اللذين استغربا إمكان حدوث كل هـذا بتلك السرعة . . . لا سيما ومصطفى شاب لم يسمع له صوت ولم يحس وجوده طول مدة إقامته ! . . .

وبعد أن استوثقت زنوبة من قوة الأثر الذى تركته فيهم . اقترحت عليهم تحرير خطاب إلى والد سنيه المسئول عن سيرها شرعا حتى يوقفها عند حدها . هذه هى الطريقة المثلى والوحيده . وهذا هو الواجب عليهم معشر الجيران المخلصين ... والنبى أوصى بسابع جار !!! ووافق سليم أولا مدفوعا بما طرأ عليه فجأة من غيظ وقبل أن يكتب هو الخطاب. ولكن عبده هاج كامن غضبه العصبى وانفجر يصيح . . وكأنه وجد منفذاً فى هذا الصياح :

ـــ مفيش جواب ينكتب ! مفيش جوابات تروح ! إن كنت صحيح راجل ويوزباشى انزل للراجل اللى تحت . . قسما بالله العظيم ما ينكتب جواب . . . دا جبن . . . أنا لاأسمح بالجبن ده أبدا . . مفيش جواب ... أنا أعرف شغلى ...

فقال له سليم :

ـــ تعرف شغلك ازاى ؟ تعمل إيه ؟ تضربه ؟ . . .

وقالت زنوبة وقد لمعت عيناها تشفياً :

ــ اعمل اللى تشوفه .. لكن بردة الجواب ضرورى .

فصرخ فيها عبده :

ــ اسكتى .!.

ثم التفت إلى سليم وقال :

ــ أنا بقول لك جبن ... نداله ... دى أمور نسوان ...

وأخيرا اقتنع سليم بكلام عبده . وعبثا حاولت زنوبة حملهم على كتابة ما تشتهى . وعند ذاك جاءتها الفكرة أن تستكتب سرا كاتبا عموميا من أولئك المرابطين دائما والناصبين خيامهم ومكاتبهم أمام محكمة السيده .. ولم تكذب والتفت بإزارها الأسود وخرجت عصر ذلك اليوم خفية إلى ذلك الكاتب . وكيما تخفى عنه غرضها الأصلى جعلت كأن غايتها التى أتت من أجلها استكتاب خطاب عادى لمحسن .. حتى إذا ما تم خطاب محسن تظاهرت بفكرة عارضة هى استكتاب الخطاب الغفل ...

* * *

فتحت سنيه عينيها فى صباح اليوم التالى وابتسمت للنهار وظلت فى فراشها تفكر فيما كان من أمرها أمس وفى السعادة التى تنتظرها اليوم وهل يمكن أن ينتظرها شىء غير السعادة منذ اليوم ؟ إنها كانت تجهل أن الحياة حلوة هكذا ! إنها عاشت سبعة عشر ربيعاً لم ينكشف لها أثناءها عن جمال الدنيا إلا اليوم ... كل شىء جميل

فى هذا الصباح . . . وكل شىء يبتسم . .

أكل هذا لأن مصطفى ابتسم ؟

إنها رأت كثيرين يبتسمون لها فى الطريق . . . أو فى الترام وهى مصطحبة جاريتها بخيته فى ذهابها وإيابها إلى عيادة طبيب الأسنان ، الذى يباشر حشو أضراسهاالتى أثر بها أكل « الملبس » والحلوى !! . بل إنها رأت بالأقل بسمات سليم ومحسن . . ولكنها لم تحس ماأحست عند ابتسامة مصطفى : كأن هذه الابتسامة قلبت كل حياتهاوغيرت الدنيافى نظرهافبات كل شىء يبتسم أمامهاوحولها.

ومع ذلك فقد استقبلتها بغلق النافذة فى وجهه ! .

ضحكت سنيه عن نواجذها اللؤلؤية لدى هذه الصورة .

وأفعمها ارتياح وسرور ولذة داخلية إذ عاملته هـذه المعاملة الخشنة . وتساءلت فى نفسها مبتهجة عما عساه يقول عنها الآن؟ ثم ختمت ضحكها بأن قالت فى صوت يتهدج لذة :

مسكين !

ومع ذلك فقد كان يقاسم قلبها عاطفة أخرى متناقضة . . هى عاطفة ندم وإشفاق وقلق . . إنها تخشى أن تكون أساءته أكثر مما ينبغى ، وأن تكون صدمت إحساسه على نحو عنيف . . .

ونمت عندها هذه العاطفة ، فجعلت تؤنب نفسها أو تتظاهر بتأنيب نفسها إذ فى الواقع كانت عاطفة السرور بجفائها واللذة بقسوتها

مازالت تداعب أطراف قلبهـا . غير أنها وجدت الحل أخيراً ، وأمكنها التوفيق بين هاتين العاطفتين المتضاربتين ظاهراً . سوف تعوضه عن الإساءة ، نعم سوف تظهر له شيئا من حسن المعاملة . أوعلى الأقل سوف لاتصدم شعوره بعـــد اليوم . هذا الشاب المسكين اللطيف ! .

وابتسمت . . .

وبلغت أشعة الشمس وسادتها ولمع فى ضوئها شعرها الأبنوسى وأحست الحرارة فرفعت يدها الناصعة إلى رأسها تتقى بها. غير أنها ذكرت الوقت وأدركت أنها تأخرت فى فراشها اليوم على غير عادتها فنهضت فى الحال وسارت بأقدامها البيضاء العارية على بساط الحجرة ووقفت أمام المرآة فى قميص نومها الحريرى . وكان شعرها الذى لم ترتبه بعد مشط الصباح قد تدلى فاحما جميلا يغطى عينيها فهزت رأسها هزة وضعته فى مكانه وانزاح عن بصرها ذلك الستار الكثيف فرأت فى المرآة صورة تأملتها طويلا فى عجب ، وهى تقلبها ببطء على كل الأوضاع . كيف ؟ أهذا الجيد المرمرى لها ؟ وهذان النهدان القائمان يبدو ظلهما واضحا خلف قميص الحرير ؟ وهذا الخصر الذى تحوطه بيدها من فوق القميص لتتبين دقته فى المرآة . ! يا للعجب ! . ما كانت تعلم أنها بهذا الجمال كله ؟ !

وابتسمت أيضا لظلها ...

ثم تناولت المشط وأعملته فى شعرها وهى تتأمل وجهها وشفتيها راضية عما ترى .. ثم طفقت تترنم بأغنية من تلك الأغانى القصيرة المرحة المسماة « طقاطيق » وهى تخلع ثوب النوم لترتدى ثوب البيت ...

وانتهت سنيه من أمر ملبسها وزينتها واستغرق ذلك منها اليوم زمناً أطول من المعتاد . ونظرت إلى خيالها فى المرآة نظرة أخيرة ، ثم مشت إلى باب حجرتها فى خطى لطيفة كخطى طائر جميل وكأن كل شىء فيها قد لطف اليوم ورق أضعاف ما كان عليه من قبل . فهى الآن نفساً وجسداً كالفراشة البديعة لا تتحمل اللمس . ولعله الابتهاج المضىء والسعادة النورانية ما يشعرها بخفة وزنها وبأنها اليوم نفس طائرة أكثر منها جسما كثيفا ...

ولكنها ما كادت تفتح باب حجرتها وتخرج إلى الردهة حتى وقفت واجمة وساورها خوف لا تدرى سببه . . فقد سمعت لغطا بين والدها ووالدتها ينبئ بغضب هائل .

وكان باب حجرة والدها التى ينبعث منها الصوت مغلقا فلم تستطيع تمييز الكلام . . . إلا أنها كانت تسمع بوضوح بين آن وآخر اسمها يردد ثم كلمة « بنتك » يلفظها والدها فى عنف مخاطبا والدتها . فجمدت سنيه فى مكانها باهتة وقد أيقنت أن شراً ينتظرها ولم يكن لديها وقت للتفكير ولا لتملك نفسها بأن صوت والدها

مالبث أن تفجر فى رعد مخيف ثم فتح الباب بقوة كاد يخلع منها . وبرز والدها وبيده خطاب . فما رآها أمامه فى الردهة حتى صاح :

ــ أنت هنا ؟

ثم لم يلتفت إلى وجه ابنته الأصفر ولم يمهلها حتى تجيب بل مد فى الحال يده إليها بالخطاب صارخا :

ــ خدى . ! . خــدى اقرى ! اقرى ! وقولى لى الـكلام المـكتوب هنا معناه ايه ؟ ؟ ؟

فلم تتحرك سنيه ولم تتناول الخطاب لأنها كانت لاتقوى على شىء . ولـكن والدها الغضبان الهائج تقدم إليها وقد اشتدت ثورته . . وعندئذ ظهرت الأم وصاحت به وحاولت أن تجذبه القهقرى فلم تفلح . . فأرادت أن تتوسط بينه وبين ابنته لتحميها ، فدفعها عنه بعنف واقترب من سنيه وجـذب ذراعها وتنــاول يدها بخشونة وأقبضها على الخطاب وهو يصرخ :

ــ قلت لك اقرى الـكلام المـكتوب هنـا ! إقرى الـكلام المـكتوب هنا . . . أنا راجل عشت طول عمرى بالشرف ! أنا سافرت السودان وحضرت مواقع حربية .

ولم تستطع سنيه احتمال اكثر من ذلك . . فإن قواها تخاذلت وكادت تسقط على الأرض . لولم تسرع إليها أمها وتتلقاها بين ذراعيها وهى تنظر إلى زوجها شزرا قائلة :

ماتسكت بقا ياراجل ! . . هى يا كبدى تقدر تستحمل الكلام ده كله ؟ ؟

ولكن الوالد لم يسكت . . بل ازداد ثورة وعاد إلى ذراع ابنته المتخاذل يهزه بشدة ويدعوها أن تقرأ الخطاب . فأبعدت الأم يده عن ابنتها ثم أخذتهـــا وهى بين ذراعيها إلى أقرب مقعد . وعندئذ دنا الوالد ورفع الخطاب إلى عينيه وقال صائحا :

— مش راضيه تقريه ؟ أنا اقراه ... اسمعى . !!

« حضرة المحترم الأمجد الدكتور حلمى دام

بعد السلام نخبركم أن علاقات الهيام سائرة على ما يرام بين سنيه هانم كريمتكم وبين رجل من زباين القهوة التى أمام منزلكم العامر . والإشارات والمراسلات لا تنقطع بين البلكون والقهوة . وقد أحطناكم علماً لما لنا فيكم من العشم ولغيرتنا على حسن سمعتكم وحرصنا على شرف اسمكم ، والسلام ختام » ؟ كاتبه

صديق مخلص

وماجاء الوالد على آخر المكتوب حتى صرخ فى ابنته :

— ضيعت اسمى ! . . دنست شرفى . ! شرفى العسكرى . . تضيعى لى اسمى بعد ماحضرت موقعة أم درمان ...

ولم يتم جملته لأن سنيه على ضعفها وهى مغمضة العينين ورأسها على صدر أمها أخذت دموعها تسيل خطوطا على خدها فى صمت

ولمحت أمها تلك الدموع الصامتة فجأة فتحرك فيها الحنو إلى حد هائل فثارت فى وجه زوجها وصرخت :

ـ اسكت . ! اسكت بقا بلا أم درمان بلا أم عمران . . ياراجل انت رايح تموت لى البنيه اللى حيلتى . . وابقا افرح بك . ؟ ! دى اسم الله ماتستحملش كده أبداً . . حرام عليك ! . .

ثم رفعت بصرها إلى السماء ثم ألقته على زوجها وقالت :

ـ والنبي مظلومه ! واللى ظالمها يقعد له ويقعد لعياله . ! يقعد لك . . ويقعد لعيالك وعينك وعافيتك ببركه دى الصباح ، ياللى كتبت دى الجواب . !

فقال الوالد بحدة

ـ يعنى بنتك ماوقفتش فى البلكون . . ؟ ؟

فأجابت الأم على الفور :

ـ أبدا . . أبدا ! ! يافتاح ياعليم ! بلكون . . قطع لسان اللى يقول كده . . !

وكأن إلهاماً برق فى رأسها ... فقد خطر لها فى الحال أن هذا الخطاب الغفل لا بد أن يكون من طرف زنوبه . نعم لأن سبب الشجار بينها وبين سنيه لم يكن غير ذلك ، ولأن هذا الشجار لم يمض عليه وقت طويل فينسى من القلوب . إذن هى زنوبة التى فعلت ذلك مدفوعة بعامل السخط على سنيه . وكأن الأم وجدت وجهاً

للدفاع عن ابنتها وبرهاناً قاطعاً على براءتها فأبرقت أسرتها وانتصبت في جلستها تمهيدا للكلام القاطع ، غير أن زوجها تذكر في نفس الوقت الخطاب الآخر الذي وقع في يده وكان ممضى باسم اليوزباشي سليم ... ذلك الخطاب الذي لم يطلع عليه ابنته بل رده بالتالي إلى كاتبه . لم يبق عنده شك إذن في صحة الخطاب الاخير . فأن أحد الخطابين يؤكد الآخر . . .

فالتفت عند ذاك إلى زوجته وقال لها بعنف :

— طيب وجواب اليوزباشي . . . ناسياه ؟ !

فبغتت الأم وكانت على وشك الانتصار . . ونظرت إلى زوجها قائلة في شيء من الحيرة :

— جواب اليوباشي . . دا إيه راخر . ؟ .

ثم ذكرت ذهابها إلى زنوبه تشكو إليها قريبها سليم بعد أن أطلعها زوجها على أمر خطابه . إذن ليس لها وجه للانكار . . .

وتفكرت قليلا . وفجأة لمعت عيناها . . فقد وجدت ماتقول : إن المصائب كلها جاءت من زنوبه وأقارب زنوبه . وما الخطاب الأول والخطاب الثاني إلا من ناحية زنوبه النحس . وهل جاءت كلمة واحدة أو رائحة خبر واحد من جهة أخرى غير جهة زنوبه . ؟ .

ومادام الأمر مقصوراً على زنوبه . ومادام قول زنوبه لا يعتمد به لأنها خصم والعلاقة بها مقطوعة . . فأي قيمة إذن لهذا الخطاب

الغفل الذى هو منها بلاشك ! ؟ وغير زنوبه لا يجرؤ على فعل هـــذا . ! .

هذا خلاصة ما انفجرت به الأم وما قالته لزوجها بعد أن أخبرته تفصيلا بأصل العلاقة بزنوبه وبسر القطيعة بينهما . . وأنها هى التى كانت تنظر إلى القهوة من البلكون كلما جاءت زائرة . . حتى عنفتها سنيه على ذلك ذات يوم فغضبت وســـبت وشتمت وانقطعت . . وهاهى أخيرا تلجأ إلى إلصاق كل مافيها بسنيه . . .

وختمت الأم قولها ودفاعها المفحم بأن رفعت ذراعيها عالياً نحو السماء ودعت بحرارة :

— إلهى يوريك يازنوبه ! إلهى يجازيك على قد عملتك ببركة دى الصباح الكريم ! . .

هدأ ثائر الوالد . وبدا على وجهه الاقتناع . . وجعل يقول عن زنوبه مرددا :

— ياسلام ! . . دى لازم واحده شريرة . !

فأردفت الأم على الفور :

— قوى . . قوى معلوم ! هى دى ربنا رايح يغضب عليها أكتر ماهو غضبان ؟ ربنا ما يحكم على حد . . . دى لا جمـــال ولا مال ولا حلاوة لسان . عمرها النهارده فوق الأربعين ولسه بسلامتها بنت بنوت ! .

وطفق الوالدان يتحدثان عن زنوبه برهة . . .

ثم التفت الوالد إلى ابنته فرآها مغمضة العينين فتناول يدها فى لطف يجس نبضها . . ثم همس إلى والدتها أن تنقلها إلى فراشها تستريح قليلا ، فهى فى صحة جيدة . لكن ينقصها شىء من راحة النفس والجسم . وأعقب قوله هذا بتمزيق الخطاب الغفل إرباً إرباً . وهو يستنزل اللعنة على تلك المرأة الشريرة زنوبه التى تسببت فى كل هذا . . .

الفصل الثامن عشر

يالعجب ! مضى أسبوع كامل ولم يبد لسنيه أثر في الشرفة الخشبيه : ترى ماذا حل بها ؟ أمريضة ؟ أهي قد نفرت بتاتاً وانقطعت إلى الأبد بعد تلك الابتسامة الملعونة ؟ ! هذا ما كان مصطفى اليائس يناجي به نفسه فى القهوة بعد مداومة الترقب والانتظار أسبوعاً كاملاً على غير طائل . . صحيح . تجنبت سنية الشرفة طول هذه المدة . ولكن لا لأنها مريضة ولا لأنها نفرت بتاتاً . بل لأن كلام والدها وماجاء بالخطاب الغفل أثرا فى نفسها . لقد ساءها أن تدخل القلق على أبيها المتقاعد المطمئن . . وأن تجعل هذا الشيخ العسكرى فى أواخر أيامه يحسب أن ابنته لم تحافظ على شرفه .

كل هذا من أجل ابتسامة رجل ؟

وتأملت أمرها طويلا فإذا هى تذكر أن هذا الرجل لاتربطها به صلة . ولاتدرى شيئا عن دخيلة قلبه ولاعن خلقه . . بل إنها لا تعرف من هو وماذا يصنع ؟ إنه أجنبي عنها تماما . فلماذا تتجشم كل هذا من أجله ؟ وما الذى صنعه هو من أجلها . . . إلا تلك الابتسامة ؟ أفتاة شريفة تهتم برجل كهذا ؟ وأحست شيئا فى نفسها لم تتبينه من قبل : إنها لم تعد تلك الفتاة الطائشة اللعوب التى تنزع إلى المداعبة

واللعب مع كل رجل تصادفه ولا تلك الفتاة التى تطالبها الطبيعة بحق الشباب الملتهب ويدفعها القلب الناشى، فتجرى فى كل مكان ناظرة إلى كل شىء، باحثة قلقة غير مستقرة.

لا إن سنيه الآن خطت هذا الطور.. وانتهت من القلق إلى العقيدة. عقيدة المرأة فى الغرض من الحياة. أدركت بوعيها لماذا تحيا المرأة. وبماذا تحيا؟!

إن تربيه سنيه وثقافتها لاتزيد على تربية وثقافة زميلاتها المتخرجات معها فى نفس مدرسة البنات. وقد تكون مطالعتها للقصص أفادتها بعض الفائدة فى إنماء مداركها وتجاريبها النظرية غير أن العقيدة لا تكتسب بالمطالعة وحدها. بل بالتجربة والإحساس المباشر ولقد قرأت سنية كثيراً عن الشرف والفضيلة فلم يبزغ أمام بصيرتها معناهما إلا اليوم. فإذا بوعيها يهتف لها بتلك الحقيقة:

« ليست الفضيلة عند المرأة ألا تحب أبداً، بل الفضيلة أن تحب حبا ساميا رجلاً سامى القلب والأخلاق ».

ولكن هل مصطفى رجل سامى القلب والاخلاق؟

هذه هى المسألة. وهذا موضوع شكوكها الحاضرة وماحملها على الابتعاد عن رجل تشك فى أمره ولاتدرى عنه إلا انه ابتسم لها...

وهكذا تجنبت فى الحقيقة الشرفة وانعكفت أغلب وقتها تتأمل

وتفكر وحيدة فى حجرتها وكثيراً ما كانت الدموع تخفف عنها وتمدها بالسلوة الوحيدة . إنها كانت تبكى لأنها لا تستطيع أن تجيب على سؤالها المتشكك ولا تريد أن تبرز له أو أن تستعمل تلك الأساليب الحمق والدعايات والإشارات السخيفة لأن ما أدركته اليوم من حقيقة قلبها يرفعها عن كل هذه الأشياء ويجعلها لا ترى شيئاً خليقاً بنبل عواطفها غير العزلة والدموع .

* * *

المرة الثالثة أقسم مصطفى أن يهجر القهوة إلى الأبد إذا هو لم ير سنيه . وهاقد أشرف على أسبوع جديد فهل يبر بقسمه أو يحنث فيه كسابقه ويمد الأجل أسبوعا آخر ؟ نعم لقد انتقل الآن تجديد الآجال ومدها من الساعات والأيام إلى الأسابيع ولكنه فى هذه المرة عزم العزم الأكيد على أن يكون هذا النهار آخر عهده بالقهوة . نعم لا تردد ولا ضعف ولا هوادة بعد الآن . فقد تأمل هو الآخر أمره مليا وذكر أنه يعلق أهمية صبيانية وآمالاً سرابية على لاشىء . ماذا دهاه ؟ وماذا حدث فى حياته من تغيير ؟ أمجرد أن يلمح فتاة فى نافذتها — التى أغلقتها فى الحال فى وجهه — كاف أن يكرس كل هذا الزمن وهذا الفكر فى سبيلها ؟ من هى وأى صلة تربطها به ؟ لاشىء . حتى اسمها لا يعرفه . إن شعورها نحوه . قد ظهر إنها لم تلتفت إليه قط . ولا ترى فيه إلا رجلاً وقحا من أهل هذه القهوة الحقيرة . فلو أنها

أبدت فقط إشارة صغيرة أو قرينة واحدة على أنها أحست وجوده لكان اعتبر ذلك رباطاً وصلة بينهما بل لكان عده عهداً وميثاقاً . ولكن ماذا يقول لنفسه الآن.؟ وبماذا يطمئن قلبه القلق وقد انقطعت بعد غلق الشرفة الخشبية كل صلة حتى صلة الهواء الذى ظن أنهما يستنشقانه سوياً. فلأى شيء إذن يعلق أملاً عليها ؟ ثم من يدريه .. لعلها برغم جمالها من طراز أولئك الفتيات البلهى أو النزقات اللاتى لا يعرفن من شئون العاطفة العميقة شيئاً . فمن أين عرف أن لها قلباً وأنها تستطيع أن تفهمه وأن تفهم ما به ؟ . .

وانتهت به التأملات والشكوك إلى العزم على هجر القهوة . نعم لا مناص من هجره القهوة كما هجرها ذلك الرجل ذو الأكتاف العريضة والشوارب القائمة وعاودته مرة أخرى صورة هذا الرجل «سليم» ولكنه فى هذه المرة أحس نحو هذا الرجل بعض العطف والرثاء .. وتخيله وقد اختفى يأساً بعد أن عالج لفت نظر « إلـهة الشرفة » بكل ما يستطيع من حيل وأساليب ، وبكل ما حسبته عقليته القديمة ظرفاً ولباقة . . نعم إنه كان مضحكا إلى حد المسخرة . . ولكن أليس مسكيناً ؟ أليس جديراً بالرحمة هو أيضاً؟ لأنه أحب ورجا وأمل.. ثم خاب وقنط واختفى ؟ ؟

وجاءت تلك الصورة مؤكدة عزم مصطفى فألقى على الشرفة المظلمة التى لم تفتح منذ عشرة أيام آخر نظرة ونادى صبى القهوة

بصوت قاطع كصوت المقدم على عمل خطير ثم دفع إليه بحسابه ونهض منتفضاً ونظر يمنة ويسرة يختار الطريق فى تردد كالو أنه يختار الطريق الذى لا رجعة له .. ولكن فجأة .. خطر له ذلك الخاطر الذى يأتيه دائماً كلما نهض هذه النهضة .. فإذا هو يتراخى وإذا العرق على جبينه وإذا حماسته وحركته القوية وعزمه الأكيد يبدو له سراباً لا يقل استحالة عن السراب الذى يهرب منه .. يهجر القهوة ؟ حسن . ولكن إلى أين ؟ إلى أين يذهب إلى المواخير والعاهرات أم إلى صحبة أولئك الأصدقاء الذين لا يقلون سقوطاً عن الساقطات وهو الذى أحس أخيراً فى قلبه نبلاً واستكشف فى نفسه جمالاً ونقاء ما كان يعلم بوجودهما !!. أم أنه يذهب إلى قهوة أخرى من مقاهى حى السيدة محاولاً خلع تلك الفتاة من قلبه ؟ .

يخلعها من قلبه — إذا أمكن — حسن . ولكن ما الذى يبقى له بعد ذلك ؟ وهو الذى بدأ يفهم قيمة الحياة على ضوء المرأة ؟ . وما مصير قلبه الذى كان خامداً كالساعة العتيقة الواقفة . فإذا هو الآن يدق دقات الحياة !! وهل ينسى لذة تلك الإحساسات الجديدة التى بعثتها فيه تلك الفتاة مذ ظهرت له ؟ كلا . محال أن يذهب كل ذلك وما أبسط عقله إذا حسب بمجرد القيام أو دفع الحساب إلى صبى القهوة ينهى كل شىء . بل ولماذا هو يفكر فى الذهاب ؟ هى ولا شك ثورة الأمل الخائب . ولكن لماذا يأمل ولماذا يقنط

ولماذا تنتابه الشكوك فى شأنها ؟ حسبه منها أنها أوحت إليه ـ سواء قصدت أو لم تقصد ـ بتلك العواطف الجميلة النبيلة التى لم يوح بها إليه شىء أو إنسان قبلها . إنه سيمكث بالقهوة دائماً لا لينظر إليها ويترصدها بل ليغذى قلبه من جواها : إن مجرد الفكر أنه بجوارها يكفى .

وعاد مصطفى فجلس وهو مرتاح النفس لهذه النتيجة . غير أنه عجب كيف أنه غدا هكذا « كالشعراء » فى عرفه ! ؟ !

* * *

ظل مصطفى يأتى القهوة كالمعتاد غير آمل فى شىء إلا فى فضل الله وحسن المصادفة . فكان يرى النافذة مازالت مغلقه فلا ينزعج ولا يثور . إلى أن كان يوم نام فيه بعد الغداء كعادته فأرق فقام فارتدى ملابسه ونزل إلى القهوة قبل ميعاده يقتل فيها الوقت ويتناول فنجاناً من القهوة . . وكانت الساعة الثالثة بعد الظهر . فما كاد الصبي يأتيه بالمشروب وينصرف عنه حتى لمح مصطفى امرأتين تخرجان من منزل الدكتور حلمى . وكانت إحداهما تبدو صغيرة رشيقة فى زى آخر طراز نسائى . . بينما الأخرى التى تتبعها جارية ملتفة فى إزار أسود . فلم يشك مصطفى فى أنها « هى » وخادمة لها خارجتان . فدق قلبه سريعاً دقات متتالية وتزاحمت فى رأسه خواطر مختلفة فيما يجب أن يعمله . وارتبك واحتار . ماذا يفعل ؟ ورآهما

تسيران فى الطريق إلى ميدان السيدة زينب ، فأخذ يستشير نفسه ملهوفاً متسائلا عما يصنع ! وهو يخشى أن تبتعدا وتختفيا عن نظره قبل أن يبت فى أمر . وخشى أيضاً أن تكون هذه فرصة سانحة قل أن يأتى مثلها . . وهو الذى كان ينتظر مجرد طيفها فى الشرفة منذ أسابيع ؟ ! وأخيراً لم ينته إلى قرار . . ولكن عاطفته وحدها التى دفعته . . . فإذا هو يثب من كرسيه تاركا المشروب الذى طلبه وانطلق فى أثرهما بدون أن يعى . . وبلغت المرأتان ميدان السيدة وركبتا الترام الموصل إلى العتبة الخضراء عن طريق شارع عبد العزيز ووصل مصطفى بعدها ورآهما يصعدان المحل المخصص « للحريم » فوقف متردداً قليلا إلى أن صفر الكمسارى وتحرك الترام فإذا أيضاً قلب مصطفى هو الذى يبت فجأة وفى الحال قفز إلى نفس الترام وهو لا يدرى إلى أين ذاهب . ولماذا فعل ذلك . . وما نتيجة هذا العمل ؟ ؟ وأخذ تذكرة إلى العتبة الخضراء إلا انه قال فى نفسه « ومن يدرينى أنها نازلة فى العتبة ؟ » .

ثم تطرق من هذا إلى التساؤل والعجب من خروجها فى مثل هذه الساعة ؟ ثم إلى أين ؟ إلى أين تقصد ؟ وهل هى معتادة الخروج فى هذا الوقت من كل يوم بينما هو راقد فى سريره عقب الغداء . ؟ ولقد كان ينبغى له هـذا الأرق اليوم حتى يستطيع العلم بذلك ؟ فما أبركه أرقا . ! ولكن المهم هو أن ينتبه جيدا إلى نزولها حتى

لاتنزل فى محطة غير العتبة وهو لاه كالمغفل . لذلك وضع مصطفى نصب عينيه مكان « الحريم » وظل لا يلتفت إلا إليه . . حتى بلغ الترام أول شارع عبد العزيز فإذا هى وجاريتها تنزلان ولم يكن مصطفى يتوقع ذلك إذحسبهما قاصدتين العتبة الخضراء . . فلم ير نزولهما إلا بعد أن تحرك القطار به . . فنهض كالمخبول وقفز قفزة قوية وأدار ظهره يبحث عنهما فى لهفة وإذا هو وجهاً لوجه أمام سنيه ... فاحمر خجلا وخفق قلبه وتنحى لهما عن الطريق الذى كان سده عليهما بقفزته . ولم تكن سنية أقل انبهاتاً منه ولا أقل احمراراً وقد رأته فى وجهها فجأة . . غير أن القناع الأسود « البيشة » أخفى لون وجهها . . أما هو فقد لاحظت هى تغيره ... وسارت فى طريقها تتبعها جاريتها ووقف مصطفى فى مكانه من أثر الصدمة وقد تركهما يذهبان بدون أن يشعر بذهابهما . . إلى أن كادا يختفيان بين المارة . . فذكرهما وذكر أنه يود أن يعلم إلى أين تذهب فانطلق مسرعا يبحث عنهما إلى أن عثر بهما ، فتمهل فى مشيته يتبعهما عن كثب إلى أن رآهما تدخلان عمارة فى منتصف هذا الشارع .

وقف مصطفى لحظة أمام الباب حائرا يتساءل عما يريدانه فى هذه العمارة وعما إذا كان ينبغى له المضى فى تعقبهما ؟ ووقع نظره على لوحات نحاسية مختلفة بباب العمارة تعلن عن طبيب ومحام وتاجر . فما تردد واقتحم الباب بسرعة وصعد السلم وثباً ليلحق .

بهما فأدركتهما أمام « شقة » بالطابق الثالث والجارية تقرع جرساً كهربائياً . . ولم يلبث الباب أن فتح ودخلت المرأتان ورأى مصطفى الباب على وشك أن يغلق خلفهما فهرع إليه ودفعه بيده ليحول دون غلقه . . ودخل خافق القلب — لعله أيضاً تأثير الصعود السريع والوثب !!! وأجال بصره فى المكان فإذا هو فى عيادة طبيب . علم ذلك من « التمرجى » الذى فتح الباب وقاد السيدتين إلى حجرة انتظار السيدات . ونظر مصطفى إليهما تدخلان تلك الحجرة الخاصة بهن فتولاه الامتعاض والحسرة . . . وجاءه الممرض يقوده بدوره الى حجرة الرجال فانقاد له بغير وعى .

لم يلبث مصطفى أن وجد نفسه بين بضعة أفندية وشيوخ ينتظرون ، فأخذ مجلسه فى أدب بعد أن قرأ الجميع السلام بيده . وظل هو الآخر ينتظر فى سكون .

ولكن ينتظر ماذا ؟ فى هذه اللحظة فقط تنبه مصطفى لموقفه ! لماذا هو هنا فى تلك الحجرة ؟ إنه ليس بمريض . وما العمل اذا جاء دوره الآن وأدخل على الطبيب ؟ ثم أى طبيب هذا الذى هو فى عيادته الآن ؟ إنه لا يعرف حتى إن كان طبيباً باطنيا أو جراحا أو طبيب عيون أو اختصاصيا فى الأذن والحنجرة ؟ !

والتفت يمنة ويسرة فى حيرة وارتباك . هل يسأل من حوله عن صفة هذا الطبيب ؟ ولكنه لا يأمن أن يثير سؤاله دهشتهم . .

ويعجبون لأمر هذا المريض الذى جاء ولا يعلم إلى أى طبيب جاء ؟ ففضل الصمت . ومن الآن حتى المثول بين يدى الطبيب يأتى الله بالفرج . . وأنه متى دخل حجرة الطبيب ورأى مافيها من أدوات وآلات قد يتضح له اختصاص صناعته لذلك لاخير من الانتظار .

ولكن شيئاً آخر خطر لذاكرته : إنه لم يأت هنا كى يرى الطبيب . ماله ولحجرته وأدواته وآلاته . أين هى وجاريتها ؟ أين المرأتان وهب ناهضا على قدميه فجأة على نحو لفت إليه أنظار المرضى المنتظرين . ولكنه لم يأبه وسار نحو الباب وخرج إلى الردهة وأجال بصره فيها فوجد حجرة السيدات بابها مفتوح فاتجه إليها ومر ببابها سريعا ، ثم عاد فوقف ببابها لحظة يتصفح الوجوه كأنما له قريبة أو نسيبة يفتش عنها بين الحاضرات . وإذا فجأة بصره يقع على بصر سنيه وإذا هى ترنو إليه ولكنها فى الحال خفضت عينيها السوداوين الى الأرض فى حياء لذيذ فابتعد مصطفى مسرعا وعاد الى مكانه بحجرة الرجال وقد علا الدم الى وجهه وأطرق مبهوتا تحت تأثير تلك النظرة

إنها لاشك تعرفه وأحست وجوده والا فما معنى هذه النظرة الغريبة . . نعم انها بدأت تلتفت اليه وأنه يشعر بذلك . انه ليشعر الآن بأن بينهما صلة ، وأن هذا الشعاع من عينيها الخلابتين ، الذى اخترق قلبه الساعة الأقوى رباطا من السلاسل الحديد . . إنه حسنا فعل بمجيئه اليوم فى أثرها ولسوف يسير دائماً فى أثرها أينما ذهبت .

ولكن أتراها أتت هذا المكان للمرة الأولى ؟ أم أنها كانت تختلف إليه منذ زمن وهو لا يعلم ! . أهي مريضة إذن ؟ مسكينة تلك العزيزة ! وبأىّ مرض ياترى ؟ وأىّ ألم تشعر به ؟ وهل يطيق هو أن يعلم بألمها ولا يتألم كذلك ؟ مستحيل ! . . إنه يتألم مثلها وإنه لمريض مثلها . . . وكفاه هناء وراحة أن يكون مريضاً مثلها وبنفس مرضها . . نعم بنفس مرضها . فقط لو يعلم بأى شىء هى مريضة ! ؟ هذه هى المشكلة ! ولكن الأمر بسيط : ماعليه إلا أن يعرف عيادة أى طبيب هذه .

وبينما هو فى هذه الخواطر والعواطف إذا رجل مريض يدخل عليهم ، وقد وضع منديله على فكه وأسفل خده الوارم . فما كاد مصطفى يراه حتى أدرك صفة الطبيب وقد كفاه الله مؤونة السؤال إنه الآن فى عيادة طبيب أسنان . الحمد لله إذ ظهر أنه طبيب أسنان؟ لقد اطمأنّ مصطفى عليها الآن ... وعلى نفسه . . ! الأسنان . . كل شخص محتاج الى العناية بأسنانه . . ومن الناس المترفين الدقيق المزاج من لا ينقطعون عن طبيب الأسنان يتولى أمر أسنانهم على نحو شبه دائم . وما أسعدها فرصة إذا أتيح له رؤيتها دائماً فى العيادة ، لماذا لا يعالج هو أيضاً أسنانه ووضع فى الحال أصبعه فى فمه يبحث وينقب عله يعثر على سن أو ضرس محتاج إلى إصلاح . فلم يجد سوى ضرس العقل يؤلمه قليلا — على حسب دعواه الآن — كلما

أكل أو شرب شيئاً بارداً . .

ومرّ الوقت ولم يبق على مجيء دور مصطفى لملاقاة الطبيب سوى لحظة . وجاءه « التمرجى » منبهاً بذلك مصبراً إياه بقوله إنه سيدخل فى الحال عقب خروج السيدة التى فى حجرة الطبيب الساعة فنهض مصطفى للفور واتجه الى الردهة وألقى نظرة سريعة على مكان سنيه من حجرة السيدات فلم يجدها . . فأيقن أنها هى التى فى حجرة الطبيب الساعة إلا أن تكون خرجت قبل ذلك ولم يرها ، ولم يضطرب مصطفى ولم يحزن ، لأنه علم أنه سوف يقابلها كثيراً فى هذه العيادة ، ولم يلبث أن أتاه التمرجى يدعوه الى الدخول فاستغرب قليلا كيف أنه لم يرأحداً خرج من عند الطبيب ، وسأل فى ذلك ، فقال له التمرجى: ان لحجرة الطبيب باباً آخر يؤدى الى السلم مباشرة.

دخل مصطفى أخيراً فاستقبله رجل قد وخطه الشيب يرتدى شبه معطف أبيض من التيل فعلم أنه الطبيب . . فأشار له بالتحية فردها الطبيب سريعاً وهو يشير اليه بالجلوس على كرسى المعالجة . وحاول مصطفى أن يتكلم ليبين له الضرس الذى يشكو منه ، ولكن الطبيب لم يمهله وفتح له فاه وتناول مسباراً وأخذ يحفر له جميع أسنانه . وبعد لحظة تركه واستوى قائلاً : لهذا « الزبون » الجديد أن ما ينبغى علاجه لا يقل عن اثنا عشرة ؟ سنًا وضرسًا !

أين وكيف وجد هذه الاثنتى عشرة ؟ لا أحد يدرى . وعبثاً

حاول مصطفى أن يقنعه بأن أسنانه ، سليمة وأنه يأكل عليها جيداً جداً منذ سنين ، وأنه لا يشكو إلا من ضرس العقل فقط . وحتى هذا الضرس لا يشكو منه كثيراً . ! ذهب كل هذا الكلام فى الهواء . واضطر مصطفى أن يذعن أخيراً لهذا الطبيب . فشمر هذا الأخير عن ساعديه وأدار آلة الحفر والنقر الكهربائية وجعل يخرب فى أسنان مصطفى السليمة وغير السليمة على حد سواء ...

وانتهى الطبيب فقاد مريضه إلى مكتبه وأخذ يكتب له ورقة بمقدم الدفع ومؤخره ثم بمواعيد الحضور . وهذا ما يهم مصطفى قبل كل شىء .. مواعيد الحضور إذ ينبغى أن تكون هذه المواعيد متفقة ومواعيد سنية وإلا فما الفائدة إذن ؟ ولكن كيف العمل وهو لا يعرف مواعيد سنية بالتحقيق والضبط ؟ وهل يستطيع أو يليق أن يقول للطبيب : إجعل مواعيدى فى نفس الساعة واليوم الذى تأتى فيه تلك السيده ؟ ! لذلك حار مصطفى فى الأمر وتردد وظل الطبيب يعرض عليه أياماً وساعات وهو يتذرع بالشغل رافضاً فى حيرة وتردد وأخيراً خطر له أن يختار الساعة الثالثة ففى مثل هذه الساعة جاءت سنية اليوم . ثم ذكر أن ميعاد سنية القادم ربما كان اليوم التالى بعد الغد إذ لا علاج فى يومين متتاليين . فطلب من ساعته إلى الطبيب أن يجعل ميعاده القادم فى ذلك اليوم مؤكداً عليه الساعة الثالثة تماماً ، فتوقف الطبيب لحظة وقلب سجلا أمامه

ثم رفع رأسه إلى مصطفى وقال له إنه لا يستطيع ذلك بعد غد لأن السيدة التى خرجت الآن قبيل دخوله ستأتى فى تلك الساعة من هذا اليوم لتختم علاجها عنده الذى بدأته منذ شهرين .. فإذا شاء مصطفى أتى فى منتصف الرابعة أى عقب خروجها كما حدث اليوم .. وله بعد ذلك أن يأتى فى الثالثة تماما فيحل محل تلك السيدة التى انتهى علاجها .

«انتهى علاجها ؟ من؟ يالنكد الطالع ! كانت تأتى منذ شهرين! أهو كان أتى اليوم ليأخذ محلها ؟ »

ورجف فؤاد مصطفى وبهت لفكرة أنه لن يراها فى العيادة . وأن علاجها انتهى أو سينتهى بعد غد . . وأنه إنما جاء فى آخر وقت فلم يتمالك أن صاح مبغوتاً :

— الست الصغيرة اللى مع جاريتها ؟ !

فرفع الطبيب بصره إلى مصطفى فى دهشة قليلة ثم أجاب بالايجاب . وأردف مصطفى وكأنه يخاطب نفسه :

— انتهى علاجها . ؟ ؟ انتهى إزاى ؟ ! .

فقال الطبيب مصححا وهو يبتسم :

— بعد بكره . . آخر يوم فى العلاج .

ودفع مصطفى المبلغ الذى طلب منه واستلم ورقة المواعيد وهو لاه واجم ساهم وخرج يسائل نفسه كالمجنون لماذا اتفق .

ولماذا سيأتى . وكيف سيستطيع . المجىء ما دامت هى لا تجىء ؟ وما فائدة مجيئه . .

وما كاد يبلغ السلم حتى سمع الطبيب خلفه على باب حجرة العيادة يقول له محذراً إياه ألا يأكل منذ الآن طعاماً ساخناً ولا بارداً ولا يابساً . وأن يتوخى الحيطة التامة فى المضغ حتى لا تهيج العروق ... وأن يجعل غذاءه مقصوراً — إن أمكن — على السوائل كالحساء واللبن وما إليهما . ولا بأس من لباب الخبز الطرى مغموساً فى السوائل . فاستشاط مصطفى غضبا ونزل السلم ساخطاً يقول لنفسه :

آدى اللى أنا كسبته النهارده ! ما نابنى إلا كونى هرتمت استانى !

الفصل التاسع عشر

عاد مصطفى الى مسكنه محزونا كئيب النفس وهو لا يفتر يتأمل .. كيف أنها كانت تختلف الى طبيب الأسنان منذ شهرين وهو لا يعلم.. فلما علم .. اذا هي تختم العلاج وتنقطع عن الذهاب . . ليته لم يعلم . . انه دائما يعلم بعد فوات الوقت . والآن ماذا يصنع كي يراها؟ما كان أحسنها فرصة أن يلقاها عند طبيب الأسنان ويرافقها عن كثب فى الذهاب والإياب ! أما الآن وقد امتنعت هذه الوسيلة فكيف العمل . إن بروزها فى الشرفة أمر غير مضمون .

بات مصطفى وقام وهو على هذه الأفكار . وذكر فى يأسه وكآبته أنها ستذهب الى الطبيب فى الغد لآخر مرة وأنه مهما كان ويكون من أمره فأمامه فرصة رؤيتها هناك غداً .

اطمأن قليلا لهذا الخاطر ولو أن خاطراً آخر هتف به فى الحال أن ما قيمة رؤيتها مرة واحدة يتبعها غيبة وفراق لا يعلم مداه . ؟

ارتجف مصطفى قليلا وأحس عاطفة غريبة تتولد فى نفسه : عاطفة الحرص عند اليأس.ولم يلبث أن وطن العزم على القيام بعمل جرىء فى الغد . ان ميعاد الغد عند الطبيب هو آخر فرصة تعطيها إياه الظروف . فينبغى له أن يحرص عليها. نعم وأى ظروف أخرى تتيح له القرب منها فى مكان واحد! ووالله لو ضاع منه الغد لضاعت آماله كلها

فليتذشبث بهذا اليوم الأخير وليضرب ضربة القانط ولا يفكر فى النتيجة .

ونهض من ساعته إلى المنضدة وتناول ورقا وقلما وجعل يكتب ويكتب ، والعرق يتصبب وكان يخرج الكلمة أو الجملة وكأن جزءاً منه يخرج معها . ومضى شطر كبير من ليلة الغد الأخيرة وهو منكب منكفىء على الورق يراجع ما كتب فيخيل إليه أنه ما أراد أن يكتب ذلك ولكن أراد غيره وأكثر منه : أشياء فى صدره يعرفها ويحسها زاخرة مصطخبة ولكن لم يخرج منها شىء على الورق . وها هو مضطر بعد أن أعياه التعب والمراجعة المتكررة أن يترك ما كتب على علاته على أنه ما يريد . ووضع المكتوب فى غلاف أبيض نظيف . . ثم ذهب إلى فراشه وقد احمرت عيناه من فرط السهر والكتابة وتهيج المشاعر .

نهض مصطفى فى الصباح . فكان أول ما فعل أن تناول الرسالة الطويلة التى خطها البارحة فأعاد تلاوتها . ثم لبث برهة متفكراً متردداً وأخيراً انهال عليها يمزقها قطعا وألقى بها فى سلة المطبخ . لقد استيقظ فيه العقل منتعشا مع الصباح وبدا له أن العاطفة كادت تضله . لماذا يكتب كل هذا الكلام لهذه الفتاة ؟ إن هذه الصفحات إليها صادقة . هذا صحيح . وإنه إنما يطلعها على جزء مما يحسه نحوها . هذا صحيح . ولكن مالها ولكل ذلك ولعلها لا تلام إذا قالت فى

نفسها بعد الاطلاع على رسالته : « مالذى يرومه منى هذا الرجل؟ »
نعم . . . مالذى يرومه بصفحاته المتدفقة عواطف ؛ إنها أعجبته . .
ولا يتصور الحياة بغير صورتها — كما يقول — حسن فليتزوجها . .
وبدل رسالة طويلة كهذه ... فليذهب إلى والدها أو يوفد أحداً من
قبله إليه أو إلى والدتها يخطبها . يوفد من ؟ لديه زوجة خاله تقوم
مقام والدته المرحومة. ولديه خاله مقام والده المرحوم . ثم انتقل
فكره من هـــذا كله إلى حالته المالية وطريقة معيشته بعد
الزواج . أيتخذ لها مسكنا لائقا فى القاهرة بعد . أم يصفى أعماله
بالمحلة الكبرى ! لكن مالذى يصنعه إذا لم يجد وظيفة فى مصر ؟
ومامركزه الاجتماعى؟ وهل تراها ترضى به ولا عمل له ؟ ولكن
لماذا يشغل باله بكل هذا. أمثله يعجز عن إيجاد عمل ؟ المهم الآن
هو أن يسلك الطريق المستقيم ويخطبها إلى أهلها ولا محل لمكاتبات
فارغة . هذا ما أملاه عليه العقل . عقل الساعة العاشرة صباحا .
حيث ضجيج الحياة ونشاط القوى المادية المتجددة يجعل جميع
المخلوقات راضخة لتأثير المنطق المادى .

ولكن ماجاء الظهر وبدأت حرارة الشمس تتخللها بسمات من
نسيم النيل ، وهمدت الحركة قليلا ، واستلق الناس فى الظل يطبقون
الجفون نصف إطباق أمام وهج الضوء الراسم فى الهواء أشكالا
متماوجة مرتعشة . وقت يبدأ فيه استيقاظ الخيال ويتحول كل

شىء من جديد تحت سيطرة العاطفة حتى بدأ يتولد فى مصطفى شعور ندم على تمزيقه الخطاب. ونظر فى ساعته فوجد أن لم يبق غير وقت قصير على ميعاد ذهاب سنيه إلى الطبيب. وهذه آخر فرصة.. وهذا اليوم آخر عهده بملاقاتها هناك. فماذا أعد لهذ الظرف السانح؟ وكيف يتكاسل ويتردد ويخور عزمه فى دقيقة هامة كهذه؟! وهكذا عاد إليه المنطق الآخر العاطفى يسير بمقتضاه بغير أن يشعر. وذهب لفوره إلى المنضدة وتناول ورقاً وقلماً... ولكنه توقف إذ ذكر مافعل فى الصباح. غير أنه أقنع نفسه بقوله إنه لن يكتب صفحات عديدة كرسالة البارحة. بل يفهمها إحساسه نحوها فى كلمتين.. سطرين... فقط. وكأنه ذكر كذلك حكاية خطبتها إلى أهلها وأن الرسالة لافائدة منها! فتردّد قليلا. ولكن ما لبث أن شعر بالحاجة إلى كتابة هذه الرسالة لها. نعم إنه سيخطبها وسيتزوجها إذا سمحت وشاء الله. ولكن كل هذا لايمنع أن هذه الرسالة لابد أن تقرأها. إنه فى حاجة ماسة إلى أن يطلعها على ما يحس نحوها وفى حاجة ماسة إلى معرفة رأيها فى ذلك. المسألة ليست فقط مسألة بلوغ غاية مادية من طريق مباشر كما يزعم العقل. بل بجانب هذا توجد مسألة العاطفة والقلب الذى لا يطمئن ولا يهدأ حتى يعلم: هل هناك تبادل فى الإحساس والعاطفة أولا؟ أو بالأقل لا يهدأ ولا يستقر: حتى يصرح بما يكنه ويتلقى الجواب عليه. فمصطفى

يشعر بحاجة القلب هذه ، وحتى على فرض أن الخطبة تمت والزواج تقرر فانه مازال فى حاجة هائلة إلى معرفة رأيها فيه ، وهكذا اقتنع مصطفى كل الاقتناع ، وكأنه أدرك أن منطق العقل غير منطق القلب، وكلاهما صحيح ، وكلاهما ضرورى ، وانكب على الورقة يكتب بسرعة عدة أسطر ، وضعها فى الغلاف ثم نادى خادمه طالباً الغداء وأكل فى عجلة . ثم نزل إلى القهوة متربصاً خروج الفتاة وجاريتها.

مادقت الساعة الثالثة حتى ظهرت الجارية بالباب فدق قلب مصطفى واستعد للقيام ، إلا أن الجارية خطت بمفردها إلى الشارع واستوقفت عربة مارّة ، ولم تمض لحظة حتى خرجت سنيه واتجهت إلى العربة ، وقبل أن تركب التفتت إلى ناحية القهوة ونظرت إلى مصطفى ثم صعدت وتبعتها جاريتها وسارت بهما العربة .

وظلّ مصطفى واقفاً فى مكانه مبهوتاً قليلا ، أولا لأنه كان يحسبهما ذاهبتين بالترام كالمرّة السابقة ولم يتوقع العربة . ثانياً من أثر تلك النظرة ولو لم يكن النقاب يخفى ثغرها ، للمح مصطفى عليه ابتسامة ، ولكن العجيب أنه أدرك هذه الابتسامة من عينيها ، إنها ابتسامة غريبة فيها — لو درى مصطفى — معنى السرور والمداعبة والعاطفة العميقة كلها مجتمعة ولكن لم يدرك منها إلا أنها غدت تحسّ وجوده وتلحظ اهتمامه بها ، وفرح مصطفى وغابت العربة عن نظره ، ففطن واختلج وجرى مسرعا يبحث عن عربة وهو

مضطرب خائف ألا يلحق بها ، ولكنه تذكر أنه يعرف إلى أين هى ذاهبة ، فهدأ قليلا وركب مع ذلك عربة حتى لا يتأخر كثيراً ، وظل فى الطريق يفكر فيها وفى نظرتها وفى ركوبها اليوم العربة، نعم لماذا ركبت عربة اليوم وقد عرفت أنه يتبعها فى الترام ؟ لعلها نزلت متأخرة اليوم أو لعلها كانت تذهب دائماً بعربة ولم تذهب بالترام إلا أول أمس مصادفة ؟ أو لعلها تريد توفير الوقت؟على كل حال هذه مسألة غير مهمة لا تدعو إلى كل هذا التفكير، ولا غرابة مطلقا فى تصرفها هذا . ماذا فى سيدة ركبت عربة ؟ أولا يريدها أن تركب عربة . . ولم ينقطع عن هذه الأفكار إلا بوصول عربته أمام عمارة الطبيب ، فنزل وصعد مسرعا وكان أول ما فعل عند دخوله العيادة أن ذهب وألقى نظرة على مكان سنيه التى كانت فيه أول أمس بحجرة السيدات . . كأنها لا يمكن أن تغير هذا المكان ، فلم يجدها فيه فارتعد ، ونظر قانطاً إلى جهة أخرى من الحجرة فألفاها جالسة بجانب جاريتها وقد نظرت إليه فاحمر خجلا واختفى فى الحال من عينيها قاصداً حجرة الرجال . حيث جعل ينتظر مفكراً كيف يوصل إليها الرسالة ؟ .

وخطرت له أخيراً فكرة جميلة : هى أن يطلب إلى «التمرجى» أن يستدعى له الجارية المرافقة للسيدة من حجرة السيدات ، وعندئذ يسلم الرسالة للجارية كى توصلها إلى سيدتها مفهما إياها أنها

من عند الطبيب مثلا.. ولكن هب سنيه سألت « التمرجى » عمن يطلب جاريتها فماذا يجيب ؟ ثم ما معنى أن يرسل إليها الطبيب رسالة وهو عما قليـــل يراها ؟ وإذا أعطى « التمرجى » نفسه الرسالة ليوصلها إلى سنيه فانه يثير شبهة الرجل ويعرض سنيه ونفسه للقيل والقال . إن هذه الجارية الجاهلة كانت خير رسول ولكن كيف يستدعيها إليه ؟

لم يهتد مصطفى إلى حل مرض وخشى أن يفوت الوقت فى هذا التردد والتصميم ويأتى دور سنيه وتدخل هى وجاريتها إلى حجرة الطبيب ، وتخرجان بعد ذلك من الباب الآخر فلا يراها وتفلت الفرصة ، فنهض بقوة مصرا على تنفيذ الفكرة غير ناظر إلى ما يحدث واستدعى « التمرجى » فى الردهة وطلب اليه استدعاء الجارية التى فى حجرة السيدات ولم يقل له أكثر من ذلك . ومضى الممرض من ساعته إلى الجارية فأشار لها عن بعد أن تأتى إليه فترددت قليلا ونظرت إلى سيدتها فقالت لها ستها :

— قومى ياداده بخيته شوفى التمرجى عايز إيه ؟!

فنهضت بخيته وسارت اليه فسحبها من يدها فى صمت حتى أوصلها إلى مصطفى . فتنفس الشاب وأخذها ناحية وأخرج الرسالة من جيبه وأعطاها اياها قائلا :

— سلمى دى لستك حالا !

ولم يزد على ذلك وقد أيقن أن قلة الكلام فى هذه الظروف خير من كثرته . وتناولت الجارية الرسالة قائلة :

— « هاضر » ياسيدى !

ولم يخطر لها أن تسأله ممن ؟ .

وما رآها مصطفى تذهب بالرسالة الى سنيه حتى اهتز فؤاده ابتهاجا وشعر كأنه نال كل ما أرادمن هذا المكان. فخرج من العيادة توا وكأنه لايمشى على قدميه بل تحمله أجنحة خيالية . وسار فى شارع عبد العزيز ناسياً أن دوره ينتظره عند طبيب الأسنان .

الفصل العشرون

اشتد حال محسن سوءاً . وأجمعت أساتذته بعد عجب طويل على ضياعه المحقق هذا العام . إن لم تنقذه أعجوبة. وشحب لونه وقل كلامه ، فأشفق عليه أعمامه وصاروا يخرجون به إلى النزهة إرغاماً ليروحوا عنه . فكانوا يسيرون بجانبه فى صمت غير مجترئين بعد على مفاتحته فى الكلام . ولعل العدوى انتقلت إلى عبده فأصبح أمره هو الآخر يشبه أمر محسن . وغدا لا يطيق كثرة الكلام حوله ولا ذكر اسم سنيه على الخصوص . وقد كانت زنوبه إلى عهد غير بعيد كلما علمت خبراً وشاهدت أمراً من نافذتها يتعلق بالجيران بادرت تزفه إلى « الشعب » حال اجتماعه حول مائدة الطعام . ولكن عبده حرم عليها ذلك بتاتاً ، وأرغمها على السكوت المطلق بالأقل فى حضرتهم . وهكذا غدا البيت كالمقبرة وغدوا هم كالأشباح . . ويدخلون ويخرجون فى صمت ، وضايق هذا بادىء الأمر حنفى أفندى ومبروك ، نعم ماذنب حنفى ؟ إن كان للآخرين عذر فى السكوت فما عذره هو يقبرونه معهم ؟ وحاول أن يتكلم وأن يضاحكهم ويمازحهم بحجة الترفيه عنهم فلم يجد منهم مصغياً ولا مستظرفاً فأجبر على السكوت .

* * *

لاريب كان حزن محسن عظيما حتى استطاع ترك هذا الأثر فيمن حوله فما كان يسمع هذا المسكين صوت بيانو يضرب فى الطريق فى أحد البيوت حتى يصفر ويخضر ويعلو قلبه ويهبط ويختل توازن مشيته ويحاول المستحيل ليضبط نفسه ويخفى ما ألم به فجأة .

أيام مضت ولن تعود .. كان فيها يسمع صوت البيانو وهى بجانبه تعلمه التوقيع ممسكة يده بيدها الرقيقة .. وكان هو يعلمها الغناء وهى مصغية ترنو إليه فى إعجاب وهو ينشد :

« قدك أمير الأغصان ــــ من غير مكابر »
« وورد خدك سلطان على الأزاهر »
« الحب كله أشجان ــــ ياقلب حاذر ! »
« الصد ويا الهجران جزا المخاطر »

كان يتمثل للفتى طيف تلك الأيام .. فيتوقف وقد غلبته شهقة بكاء ، ويقول لنفسه منفجراً فى عزلة :

الحب كله أشجان يا قلب حاذر !
والصد ويا الهجران جزا المخاطر .

نعم .. وهو الذى كان يقول ذلك أمامها باسماً فى تلك الأيام السعيدة التى ذهبت . باسماً لأنه كان يظن الأغنية أغنية وأن ما فيها من التحذير والنذير مجرد كلمات ... وأين له العلم بأن كل ما سلف سينقضى بهذه السرعة .. وأن كل هذا ينتظره ... ؟

ياقلب آدى انت حبيت ورجعت تنــدم
ورحت تشكى مالقيت لك حــد يرحم

هكذا تقول الأغنية أيضا .

نعم « ورحت تشكى مالقيت . . . » . حتى الشكوى هو محروم منها . . وهل تتدانى هى إلى سماع شكوى الآن ؟ كلا مستحيل . أما الشكوى إلى رفاقه . . فهو يحرم نفسه إياها . . قد يكون فيها بعض التخفيف . ولكن ما الفائده ؟

كثيراً ما يكون عبده وسليم برفقته ، ويحس صلة قلبيهما بقلبه ويدرك بمشاعره رغبة سليم المتأججة فى مفاتحته وانتهازه الفرص للكلام فى ذلك الموضوع ... ولكن محسن كان يفضل السكوت . ومع ذلك فقد كانوا إذا لمحوا سيدة ذات ثوب أخضر ، أو سمعوا صوت بيانو أو جاء ذكر أسلاك الكهرباء . . شعروا جميعاً برجفة تسرى فيهم ؛ وهذه كانت اللغة الوحيدة التى يتفاهمون بها .

العجيب أن سليم انقلب شخصاً آخر ، وكأن قلب محسن الكبير فيه من النار المقدسة ما يكفى لملء قلب سليم وتكملة الناقص من قلب عبده . إن سليم بطبعه لم يكن قديراً على إحساسات كهذه ، وإن ما كان بينه وبين سنيه لا يستلزم كل هذا ، ولا شك أنه لو كان وحده فى بلد كبور سعيد وحدث ما حدث لما أفرد له هذا الاهتمام . . أهى إذن العدوى ؟ أم الوهم ! . أم الإلهام ؟ أليس أن القلب مصدر

قوى هائلة ؟ وأن قلبا واحدا كبيرا يكفى لإلهام قلوب شتى !
هكذا بدأت عواطف عبده وسليم بالإعجاب والتأثر وانتهت بالمشاركة والمشاطرة . . وأصبحا كلما أوغل محسن فى الألم وكلما شاركاه فيه يشعر ان أنهما ارتفعا عن مرتبتهما الأولى .

ومرت الأيام وإذا تلك الحياة بجوار محسن ، واقتسام هذا الحزن الجميل يقتل فيهما كل عاطفة شر أوحقد نحو سنيه أومصطفى . بل أعجب من هذا أن سنيه قد تغيرت فى عين سليم . . فنسى فيها المرأة المادية ذات الجسم المغرى والثديين البرتقاليين الواقفين فهو لا يذكر منها الآن إلا اسماً معنوياً لا يدل إلا على معبود يتألمون كلهم من أجله . . ويشاهدن ويرثون لعذاب هذا الصغير المؤثر فى سبيله .

نعم لو أن محسن ذكر الآن يوم رأى الفلاحين فى الضيعة يكدون ويتألمون وهم يغنون فى سبيل المحصول معبودهم المرتفع أكواماً أكواماً ، وهم حوله العبيد بمناجلهم وأقدامهم وأجسادهم العارية التى قرحها القر والحر والعمل والظلم .. لقد فكر يومها هو الآخر فى معبوده وخطر له خاطر ارتعدله : « هل يستطيع أن يتألم هو أيضا فى سبيل ذلك المعبود ، أو أنه ليس من دم هذا الفلاح ؟ . »

لم يستطع محسن مطلقاً ، وبرغم ما حدث أن ينزع من فكره ذلك الخطاب الذى وصله فى العزبة والذى يحفظه دائما . ولم يستطع مطلقا أن يتصور سنيه لم تكتبه ولا تعلم به . ولم تستطع حتى الحقيقة أن

تهدم تلك الخيالات والأوهام التى طالما بناها على ذلك الخطاب . والخيال أحياناً أقوى من الحقيقة . لذلك ما انفك محسن يخرج فى وحدته ذلك الخطاب ويتلوه ويمعن فيه مردداً تلك الجمل التى توسع فى تفسيرها وأسبغ خياله عليها معانى لم تكن لها . نعم لقد كان يتذكر قول زنوبه إن هذا الخطاب إنما حرره كاتب عمومى أمام محكمة السيدة . ولكنه مع ذلك كان يعز عليه تمزيق هذا الخطاب . وكان يتمسك به وبعباراته المعهودة كأنما الخيال واستمراره أعاره فى نظره قوة الحقيقة . . أم أن الوهم انقلب عقيدة . وأنى للحقيقة أن تهزم العقيدة ! إلا أن يهزم العقل القلب ! ؟

وفى ذات يوم باغت سليم محسن فى سريره وقد أخرج ذلك الخطاب من غلافه بعناية وجعل يطالعه كالمعتاد فى تأن خلف ستار الناموسية المسدلة . فلم يتمالك سليم أن خرج من صمته وصاح صيحة فرح ملهوفاً :

— جواب ؟ . جواب من عندها ؟ .

فرفع محسن رأسه مبغوتاً وحاول إخفاء الخطاب بحركة غريزية وكان رئيس الشرف حنفى مستلقياً على سريره بقربهما يستعين بالنوم على تلك الأحزان التى ينال نصيبه فيها بغير مقتض . فلما سمع صيحة الفرح التى لفظها سليم ولم يكن قد سمع صوته منذ زمان أيقن أن ساعة الرحمة والفرج قد أذنت . فنفض عنه اللحاف بسرعة وهب

منتصباً فى فراشه وصاح بصوت فيه حرارة التحمس :

ـ بشرونى ياأولاد . !

ولم يلبث سليم أن ترك الحجرة وذهب يفتش فى البيت منادياً :

ـ عبده ... ! يا عبده ... ! يا عبده ...

وعمت الضجة فى البيت ... ولو كانت زنوبه حاضرة لدهشت لهذا الإنقلاب الفجائى فى المنزل الصامت وقد عادت إليه مظاهر الحياة ، ولكنها كانت قد خرجت بصحبة مبروك لإحدى الزيارات كما تقول ولعلها ذهبت حقيقة ... ولكن لتفشى كامن بغضها الذى لا يفتر وتشيع ما تختلقه زورا على غريمتها ... أو لعلها كذبت وذهبت هى ومبروك للبحث عن سحرة البلد الحاذقين ...

كان عبده فى حجرة الاستقبال أمام لوحة الرسم ... يعمل آنا ليشغل نفسه ويقذف بالقلم فى ضيق آنا آخر ضجرا ملولا مستيئساً من هذه الحالة ، فلما سمع نداء سليم تغيرت فى الحال أساريره وهرع نحوه يرى الخبر ...

ولم يمض قليل حتى ألفى محسن نفسه بين رفاقه ينظرون إليه منتظرين وعلى وجوههم ابتسامة أمل تأثر لها ...

لم يستطع أن يسكت عنهم هذه المرة ... وقد فعل به منظر رجائهم وفرحهم فمد يده تحت الوسادة وأخرج الخطاب إلا أنه تردد قليلا وخجل إذ ذكر أن هذا الخطاب قديم التاريخ وأنهم لا شك

يظنون أنه جديد وسيخيب أملهم . ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يلزم خطة الصمت والعزلة عنهم بعد الآن .!. ولا بد أن يقاسمهم ذلك القليل الذى عنده وبقى له من آثار سنيه . فمد يده إليهم بالخطاب فتناوله سليم ونشره تحت أعين عبده ولبثا يطالعان ومحسن يراقب ما يرتسم على وجهيهما . . . وأخيراً رد إليه الخطاب فى سكون وقد خاب أملهما على نحو وجف له محسن . وسمع عبده يدمدم قائلا :

— دا من عند زنوبه ؟ !

ورفع سليم رأسه إلى محسن وكأنه يسأله مستغرباً عما حمله على مطالعة خطاب كهذا . . .

فأجاب الفتى بصوت منخفض وهو مطرق :

— هى اللى كتبته . .

فسأل سليم فى رفق وصوت متأدب خافت :

— هى مين ؟ . سنيه . ؟

فأشار محسن برأسه علامة الايجاب . وعندئذ تناول سليم الخطاب مرة ثانية ليعيد قراءته من جديد . وعاد عبده إلى المطالعة أيضاً من فوق كتف سليم . وهنا أخذ محسن يشير لهما بأصبعه إلى العبارات المهمة فى الخطاب ويفسرها ويشرح معانيها الخفية كما فهمها هو . فما لبث سليم أن ردد هذه العبارات وقابل بينها وبين التفسير الذى يزعمه محسن . . ثم هز رأسه وقال بصوت خافت يائس :

— لا . . . أبدا . ! ! مش قصدها . . . !

فامتقع لون محسن المسكين . فغمز عبده سليم بمرفقه ثم أسرع قائلا :

— قصدها كده تمام . اقرأ تانى وانت تفهم !

ثم التفت إلى محسن وقال فى لطف :

— ماقبلتهاش بعد مارجعت من السفر ؟

— فأجاب محسن للفور :

— أبدا .

وهنا تذكر محسن أنه حقيقة لم يذهب إليها بعد عودته ولم يرها قط مع أنهـا تستحثه وتنتظر عودته بفارغ الصـبر . وهاخطابها وعباراتها تنبىء عن مبلغ هذا الانتظار ! !

وأعطاه هذا الخاطر شيئا من الأمل والقوة . نعم إنه هو المذنب لأنه لم يذهب إليها توا . بل إنه هو الخائن لعهدها وأنه الذى أساء معاملتها .

وازاداد فرحه بهذه الفكرة فانفجر يحدث رفاقه عنها وعما كان له معها قبل السفر وعن المنديل الذى كان التقطه ولكنها منحته إياه بعد أن مسحت له به دموعه ! ! وهاهو المنديل يحفظه للآن . ثم أسرع فأبرز لهم المنديل الحريرى ... فتناوله سليم بسرعة ولوّح به لحنفى وهو يصيح فرحا :

ـــ العاشق للنبي يصلى عليه !

فسأل الرئيس حنفى وهو يبحث عن منظاره ليرى ما بيد سليم

إيه ده .. ؟

فأجاب سليم وهو يدنى المنديل من عين حنفى :

منديلها . منديلها . معانا منديلها .

فوقف الرئيس حنفى باحترام وقال فى صوت خطير :

ـــ منديلها ! الله أكبر !

ثم رفع عينيه إلى السماء وقبل يديه وجهاً وظهراً وقال :

ـــ الحمد لله ! نعمة من الله ! .. بزيادة علينا ! . احنا عايزين نتهبب ؟ !

وأردف سليم باغتباط بعد أن سلم المنديل لعبده ليتأمل بدوره :

ـــ وقالت لنا تعالوا ولا رحناش ! !

فقال حنفى للفور صائحاً :

ـــ احنا المحقوقين ! !

ثم « كبس » طاقيته حتى أذنيه ووضع يديه فى خاصرته وجعل هذا « الرئيس الشرف » يرقص ويقول مغنياً :

ـــ منديلها معانا .. معانا منديلها .. ياسيدى منديلها .. منديل الحلو .. الحلو .. الحلو ..

فانتهره عبده الذى خشى أن يقلب حنفى الموقف إلى هزل بهذا

الهرج ولكن « الرئيس » فى الحقيقة ماكان يقصد هزءاً وإنما هو فرح محبوس وكأنما طول الصمت والعبوس فى هذا المنزل واضطراره إلى مجاراة الرفاق زمناً وكتم طبيعته المرحة أثر به . . فلما فهم أن الحياة فى المنزل رجعت إلى مجاريها انطلق بكل نفسه . لذلك لم يسكت عن الضجيج والتهريج . فعاد عبده يصيح به .

— بس بقا . . من فضلك ؟

فسكت عن الغناء ودنا من عبده وقال فى ابتهاج :

— قالت لنـا تعالوا و لارحناش !

وعندئذ فجأة تقدم سليم إلى الجميع وقد خطرت له فكرة :

— هس . . اسمع ... كلكم ! ... فيه اقتراح .

فالتفت إليه الجميع قائلين فى وقت واحد :

— إيه . !؟

فقال سليم فى تؤدة :

— أنا أقترح أن محسن يروح . رأيكم إيه ؟

فأشار الجميع بالموافقة.

وكان محسن يشاهد ما جرى أمامه فى ابتسام وسرور داخلى لعبارة « معانا منديلها » و « قالت لنا تعالوا » الخ الخ . متأثرا للفظة « نحن » التى حلت محل لفظة « أنا » . . . مرتاحا إلى أن ماله خاصة أصبح ملكا للجميع . وإلى أنه بات يدخل عليهم الرجاء والاغتباط

أجمعين . وأحس منذ تلك اللحظة أنه مسئول عن هناء هذا «الشعب» وأنه يجرؤ الآن على فعل كل شيء من أجلهم . وأنه لن يحرمهم بعد الآن أى شيء مما يخص به نفسه . ورضى أن يذهب لمقابلة سنيه عله يأتى بنتيجة يفرح بها « الشعب » .

الفصل الحادي والعشرون

سمعت سنيه أذان العصر من مسجد السيدة وهى فى حجرتها منذ الظهر لم تنم ولم تنقطع عن التفكير فى أمر هذا الخطاب الذى تسلمته من جاريتها أمس فى عيادة الطبيب. إنها من ساعة لمحته فى يد بخيته أحست بمن هو . ودق قلبها فى الحال ولكنها تجلدت وتناولته ودسته فى صدرها إلى أن جاء الليل ودخلت حجرتها وأغلقت بابها ففضته وأنفاسها معلقة وقرأت وصدرها يرتفع وينخفض حتى انتهت فإذا هى ترفع الخطاب إلى فمها بلاوعى تقبله وقد نزلت دموعها حتى فمها . . ونامت أولم تنم فى ليلتها لاتدرى . إلا أنها كانت فى حالة لم تعرفها من قبل . وكان أول مافعلت فى الصباح أن طالعت الرسالة من جديد. وهاهى الآن أيضا منذ الغداء منفردة وبابها مغلق عليها والخطاب منشور بين يديها. وهى تتأمل سطوره القليلة التى استطاعت أن تعطيها فى يوم وليلة أجمل سعادة عرفتها منذ ولدت

كان الخطاب فى هذا الأسلوب البسيط :

« سيدتى

أعذرى جرأتى. إنى فعلت ذلك مضطرا. منذ شهر تقريبا خرجت مقاليد حياتى من يدى إلى يد أخرى ولم أصبح وحدى الشخص المالك لزمام شئونى . فإذا تجرأت بالكتابة إليك فلأنى أريد طبعا

أن أعرف رأى ذلك الشخص الذى يتصرف الآن فى أمر هنائى وشقائى وربما مستقبلى . إنى أعلق أهمية على رأيك . لأنى لا أود أن أكون أنانياً . ولأنى أحبك إلى درجة أنى أفضل الشقاء على رباط يأباه ميلك .

وتقبلى يا سيدتى احترامى ؟

المخلص

مصطفى راجى

شارع سلامه رقم ٣٥ الدور الثانى

لابد أن يكون هذا الرجل مخلصاً فيما يقول لأنها هى أيضاً تحس نفس الإحساس : حياتها لم تعد ملكا لها وحدها . شخص آخر — عندها كذلك — أصبح المسيطر على مافى تلك الحياة من ساعات هناء وساعات شقاء . العجيب أن عبارات هذا الخطاب إنما صنعت على قدّ إحساسها هى ... وكأنها جاءت لتعبر عما يخالجها هى . أبعد ذلك دليل على صدق عاطفته ؟ أو ليس من القلب إلى القلب رسول كما يقولون ؟ !

وجعلت تتمتم فى سرور :

— صحيح ! من القلب للقلب رسول ! ...

شىء واحد فقط بعد ذلك ما كان يحيرها :

ماذا تصنع ، . وكيف تصنع؟! أتتناول القلم وترد عليه أم أنها برغم

ثقتها ويقينها واقتناعها وبرغم سعادتها وفرحها به لا يصح لها ولا يليق بها كفتاة مخدرة شريفة أن تكاتب رجلا هو غريب عنها على كل حال.!

نظرت إلى الخطاب فى يدها مرة أخرى وراحت تفكر فى هذه المسألة التى تشلها منذ الصباح . ووقع نظرها على عبارة « إنى أعلق أهمية على رأيك . . » ثم صعدت بصرها فى السطر الذى قبله « إنى أريد أن أعرف رأى ذلك الشخص الذى يتصرف الآن فى أمر هنائى . . » إلخ إلخ ، فأطرقت برهة . ثم تركت الخطاب على المقعد ونهضت إلى المرآة وألقت عينيها على صورة وجهها المورد إلى حد الاحتقان من تأثير الخوالج النفسية المطردة والتفكير المستمر ... وابتسمت لنفسها ابتسامة المغتبط لأمره . ثم تساءلت بصوت خافت وكأنها تخاطب صورتها بلهجة المقنع : « مصطفى ينتظر رأيى..! « مصطفى له الحق يعرف » « دا حق من حقوقه » ! . وانتصر منطق القلب مرة أخرى . ولكن خطر لها خاطر آخر : لو استطاعت أن تكلمه مباشرة ؟ ! أو بالأقل أن تعجل له بابتسامة أو نظرة يكون فيها كل الرد . ؟ ! إنه قريب منها جدا أليس يقول إنه يقطن الطابق الثانى من المنزل المجاور ؟ ! إنها هى أيضاً فى الطابق الثانى . . نعم . . ويالحسن الحظ ! إن شرفته المكشوفة الصغيرة تحاذى نافذة حجرتها ولم تفطن إلى ذلك ... يا لها من مغفلة ! . .

وتركت المرآة وهرعت إلى نافذتها وفتحتها لتتأكد من قريب

شرفته منها نعم قريبة جدا . بينهما متران . . . لأن حجرتها تقع فى آخر المنزل من الجهة الملاصقة للجار . يا للفرحة ! إذن ليست فى حاجة إلى الشرفة الخشبية المقفولة ولا إلى الذهاب كل ساعة إلى قاعة البيانو فتلفت إليها أنظار والديها . ما أعماها ! كيف لم تعرف حسن موقع نافذتها من قبل ! صحيح أن الشرفة الخشبية تطل مباشرة على القهوة. ولكن مالها وللقهوة الآن . سوف تشير له من نافذتها كى يخرج إلى شرفته الصغيرة التى لم يبرز فيها مرة واحدة منذ قدومه. عندذاك تستطيع أن تحادثه وهى فى حجرتها الخاصة فى سكون الليل ومتران بينهما ليسا بالمسافة الكبيرة ...

وبينا هى فى تلك الخواطر الجميلة إذ دق الباب فأغلقت النافذة بسرعة وذهبت ففتحت فإذا جاريتها بخيته تخبرها أن محسن الصغير فى قاعة البيانو وقد سأل أولا عن الست الكبيرة . . ولكن الست الكبيرة فى حجرتها تصلى العصر وملحقاته . . فطلب رؤية الست الصغيرة ...

دهشت سنيه قليلا وقالت مدمدمة :

— محسن ؟ ! !

ووقفت مترددة لحظة . ثم رفعت عينيها إلى بخيته كأنما تسألها عن سبب مجيئه . وأخيراً مشت بخطى متثاقلة إلى حجرة البيانو .

كان محسن فى الحجرة جالسا على كرسى منفرد يحسب ألف

حساب لظهور سنيه . . . ويصفر وجهه ويحمر لكل حركة تقترب ويعلو قلبه ويهبط كلما خطر له أنه عما قليل يراها وأنه سيحدثها بتلك الأحاديث الخطيرة التى جعل يهيئها فى رأسه أياما قبل مجيئه اليوم.

وفجأة أحس حفيف ثوب بالباب فانتفض ناهضاً وقد شحب لونه ووقف مرتبكا وألجم لسانه... ونظرت سنيه إليه وهى بالعتبة نظرة استفهام جامدة لكنها مالبثت أن تقدمت نحوه وكأنما أخذتها شفقة بمنظره فمدت يدها له وقالت متلطفة :

— إزيك يا محسن !

— فأجاب وهو يبلع ريقه مطرقا .

— الله يسلمك . .

ثم سكت . وسكتت هى أيضا طبعا . وكانت لا تزال مستغربة قدومه منتظرة معرفة السبب . وطال السكوت . وكأنها أدركت أخيرا أن لا فائدة من انتظار بدئه بالكلام .

فبدأت هى قائلة :

— بلغتك أعمال عمتك ؟

وكان محسن توقع هذا السؤال من قبل وجهز له الإجابة . . فما عليه الآن إلا أن يتكلم ففتح فاه ولفظ أولا بضع عبارات مرتجفة مضطربة قائلا إنه وجميع المنزل غاضب على عمته زنوبه لسلوكها هذا المسلك معها .. غير أنه هو ماذنبه ؟ ولماذا تأخذه

سنيه بذنب عمته زنوبه ؟ فأجابت سنيه للفور :

— ومين قال لك يا محسن إنى زعلانه منك ؟

جاء هذا الجواب مهدئا لروع محسن . فاطمأن قليلا وذهب خجله وخوفه بعض الشىء . وكأنما فسر جوابها هذا تفسيراً أوسع من حقيقته وفهم منه ماجعله يفرح ويقول فى صوت مرتجف قليلا :

— صحيح ؟ مش زعلانه منى ؟ أنا دايما عندك زى زمان ؟ زى يوم قبل السفر ؟ ! ؟

فقالت سنيه وقد بدا عليها شىء من القلق :

— طبعا : وأنت ذنبك إيه ؟

ولكن محسن لم يلتفت إلى ردها . واندفع يخبرها فى حرارة صبيانية عن سفره وعن انتظاره خطابها وعن عودته وعن رغبته فى رؤيتها وعن ذلك الخوف الذى كان يمنعه من زيارتها عقب رجوعه مباشرة وتلك الفكرة المشئومة التى كانت مستحوذة عليه من أنها قد نسيته كل النسيان وأنها لا تود رؤيته قط . وعن تلك الأيام السوداء التى قضاها بعيدا عنها . كل ذلك دون أن يجرؤ على ذكر مصطفى ودوره فيما حدث . وكانت سنيه تستمع إليه شاردة الفكر . وكثيرا ما كانت تطرق كلما تحدث محسن عن ألمه من البعد عنها . ثم حدثها عن منديلها الذى كان سلوته ورفيقه ووضع يده على جيبه وهنا أحس أن رزمة من الورق هى أشعار

ورسائل نثرية كان قد نظمها وكتبها طول تلك الأيام التى تلت يوم فكر هو وأعمامه فى الذهاب إلى سنيه . منذ ذلك اليوم حتى هذه الزيارة وهو هائم شارد فى الحدائق والمتنزهات العمومية وعلى ضفاف النيل وقد امتزج يأسه بقليل من الأمل اللذيذ . ومحسن بطبيعته الشاعرية قد سبق له نظم الأشعار والأزجال والمقطوعات الغنائية فى ظروف مختلفة . فكيف بهذا الظرف الذى ملك كل كيانه ؟ واليوم قبيل مجيئه خطر له أن يقدم لها كل ما كتبه فيها حتى تعلم كل ما يحويه قلبه .

وانتهى الفتى من كلامه وقد احمر وجهه وجف لعابه ونظر إليها منتظرا ما تقول . ولكنها لم تستطع أو لم تجد شيئاً تقوله .

وسكتت قليلا حائرة ثم نهضت فى ضيق وقالت :

ــ لا يامحسن . أنا مش زعلانه منك أبدا .

كأن هذا هو الجواب الوحيد الذى له عندها على كل ما قال .

بهت محسن قليلا ولكنه ظل ساكتاً منتظرا فى أمل أن تستمر فى الكلام بعد ذلك .

ولكنها لم تتكلم وعادت فجلست لحظة ثم تململت والتفتت إلى محسن المطرق المنتظر . . ونهضت نصف نهوض كأنما تدعوه إلى الانصراف وقالت :

ــ أنا متشكرة على كل حال يامحسن و ... وتأكد أنى مش

زعلانه منك أبداً .

هنا أحس محسن خيبة الأمل . وفتحت عيناه أمام الحقيقة المخيفة . ولكنه ككل يائس أغمض عينيه على عجل وتشبث بالمحال وقال بصوت المتوسل :

— فاكره دروس البيانو ؟ .

فتحركت فى مجلسها وقالت فى فتور :

— طبعاً فاكراها .

فتجلد الفتى وقال :

— لكن أنا نسيت دروسى ومحتاج لك تعيدى معايا كل اللى فات .

فأطرقت سنيه ولم تحر جوابا ثم تمثل لها مصطفى ووقتها المشغول وحياتها التى لا تستطيع أن تنفق منها دقيقة لغير مصطفى وذكره فتحرك فيها الغضب وقالت ببرود :

— أنا ما عنديش وقت .

فتجلد محسن أيضا وقال فى رجاء :

— مش عايزانى آجى ؟

فلم تجب فى الحال . ولكنها عادت فقالت :

— أنا يامحسن عندى شغل كتير دلوقت .

فوهن جلد محسن وتصبب العرق من جسمه وأظلمت الدنيا فى عينيه . ولكنه قال بصوت اليائس :

— يعنى دى آخر مرة آجى فيها ؟ ! دى آخر مرة أشوفك .؟.

ولم يملك ضبط نفسه فتساقطت دموعه وأجهش باكياً . ولمحته سنيه وسمعت صوت نشيجه فحولت رأسها عنه كالمتجاهلة ولكنها رأت أن صوته قد أخذ يعلو . فنهضت واقفة وترددت قليلا ثم التفتت إليه وقالت فى صوت متبرم جاف :

— جرى لك إيه يامحسن ؟ انت صغير تعيط ؟ انت مش صغير على العياط . !

ولكن محسن لم يتمكن من كبح نفسه وظل ينشج ويشهق ويتوسل بكلام متقطع ويؤكد لها أنه إنما يطلب رؤيتها فقط . . نعم . إنه أصبح لا يطمع إلا فى القرب منها . لأنه يعيش على القرب . فلتحب مصطفى أو غيره . فإنه هو لا يحول ولن يحول بينها وبين سعادتها . بل أن سعادتها سعادته . فقط لا تحرمه رؤيتها . وهل هذا شىء كثير أن تسمح له بذلك . بتلك الرؤية التى لا تكلفها شيئاً . وهى له كل حياته .

وهكذا ظل فمه ينطلق فى قنوط وعن نصف وعى بذلك الكلام الممزوج بالدموع . ورأت سنيه أن لا حيلة فى إسكاته وإيقافه . فتركته يتكلم ويهذى وذهبت هى إلى الشرفة الخشبية وفتحت نافذتها وأخذت تنظر منها غير سامعة كلمة واحدة مما يقول .

وتعب محسن قليلا فسكت ورفع رأسه فألفى تلك التى كان يحسبها

على الأقل تنصت له . ألفاها تتراجع من النافذة حمراء الوجه وقد ابتسمت ابتسامة ساحرة يعلم لمن طبعاً . ؟!

عندئذ أدرك محسن أن المرأة التى أمامه ليست سنيه . وأغلقت سنيه النافذة وعادت وصدرها يضطرب ابتهاجاً فما رأت محسن فى وجهها مبتل العينين حتى تجهمت وقالت متبرمة :

— انت لسه هنا بتعيط ؟؟ كنت جاى علشان كده ؟!

فوقف محسن وأحس أن انصرافه ضرورى وأن قد انتهى الأمر . وتقدمت نحوه وقالت بلهجة هادئة :

— مروح بيتكم ؟

فجمع كل قوة جلده ليستطيع أن يهدىء أعصابه ويقول :

— أيوه ... مروح ...

ولكنه ظل واقفاً كالتمثال لا يتحرك .

وكأن سنيه خافت أن يعود فيتكلم ويبكى بحجة الوداع . فابتعدت عنه فجأة ومشت ببطء كأنما تقوده إلى الباب ... ولكنها كانت تقود شخصاً وهمياً لأنه لم يتحرك من مكانه .

وبلغت العتبة ووقفت كالمنتظرة . وصحا محسن لنفسه ولموقفه فرأى أنها تدعوه ضمنا بل وشبه صراحة إلى الرحيل . ورأى وقفتها المنتظرة فى تبرم ظاهر . أو بالأقل هى وقفة استحثاث واستعجال . فماذا ينتظر هو إذن ؟ وما الذى يبقيه ويوقفه عن الانصراف من

وجهها فى الحال . كما تريد هى . إن الحقيقة التى كان يحسها ويكتمها ويغالط نفسه ويعمى بصره حتى لا يعرفها قد بدت له الآن على نحو لا يستطيع كتمه ولا تخطئته . واضحة عارية . إنها فقط لا تحبه . بل إنها ما أحبته قط يوما . ولئن تلطفت معه فى الماضى إلى حد غره وخدعه فلأنها كانت خالية القلب ميالة بطبعها ككل فتاة إلى المداعبة والمضاحكة . أما وقد شغلها الحب . فما أسرع نسيانها عهد الخلو الماضى . والمرأة إذا أحبت حسبت حياتها ابتدأت من تاريخ الحب ونسيت ما قبل هذا التاريخ .

ولكن محسن لم يكن فى السن التى يعلم فيها كل هذا عن المرأة . هذه بالذات كانت أولى تجاريبه . ومع إحساسه التام فى تلك اللحظة بأن كل شىء انتهى وأن اسم سنيه يجب أن يمحى من ذاكرته إلى الأبد . فاته ظل واقفاً لا يدرى ماذا ينتظر . كما ظلت هى بالباب وقد بدا عليها التعب من الوقوف . ولم تشأ أن تفتح فمها بالكلام لئلا ينفتح موضوع جديد . إنها محتاجة للانفراد فى حجرتها تتأمل خطاب مصطفى . ولسوء حظ محسن أنه جاءها فى يوم هو أسعد أيامها . يوم ليس فى عقلها ولا فى كيانها محل لشخص ولا لشىء آخر سوى مصطفى، يوم كهذا عند المرأة ... عند المرأة الرقيقة، بل عند النبية والقديسة يصيرها قاسية غليظة الكبد إذا رأت ما يمس تلك السعادة . المرأة السعيدة المحبة أنانية إلى حد الوحشية .

أخيراً رآها محسن وقد أسندت يدها إلى الباب وبدلت رجلها لتستريح فعلم أنه يضايقها بوقوفه ووجوده . فمشى إلى الباب ثم مد يده إليها فى سكون . ثم دس يده فى جيبه وأخرج منديلها الحريرى فأعطاه إياها ورده إليها فى صمت فأخذته بغير كلام هى الأخرى.. ثم قالت له فى هدوء :

— متشكرة على الزيارة . وبالنيابة عن ماما أقول لك إنها متشكرة كمان قوى .

وتردد محسن قليلا قبل الانصراف . وأخيرا لا يدرى لماذا ولأية مناسبة أخرج من جيبه رزمة الشعر والنثر وأعطاها سنية فأخذتها فى دهشة . . وهو يذهب بسرعة وينزل السلم على عجل . . ولا يعلم إلا الله وحده سر قلب هــــذا الفتى فى تلك الساعة . .

الفصل الثاني والعشرون

لم يمض وقت طويل حتى انقلب حال شرفة مصطفى الصغيرة وبدت عليها مظاهر حياة أخرى . فبعد أن كانت مغلقة ليل نهار مهملة تتراكم على أرضها وحاجزها الأتربة لا يذكر وجودها هو لقلة مكثه بالدار . ولا يشملها خادمه بنظرة لانصرافه إلى شئون أخرى . . غدت الآن محل الاهتمام الأول . . مفتوحة ليل نهار . وقد اصطفت فيها أصص الأزهار والرياحين . وأصبح مصطفى ينفق فيها من وقته ما كان ينفقه بالقهوة .

منذ هذا التغيير . ومصطفى سعيد برؤية سنية . قلما يمر يوم لا يشاهدها فيه ولا يحادثها . ولكن أى سحر تسلط عليه ولن ينساه أبداً .. يوم سمع صوتها لأول مرة ترد عليه تحيته مبتسمة من نافذتها فى جوف الليل ! ثم تلك الأحاديث المقتضبة اللذيذة فى الأيام التالية ! إنه ما كان يعلم أن هذه الفتاة على هده الدرجة من الذكاء . ما ألذ حـــديثها وأحسن ردودها وأظرف إيماءاتها . لقد أيقن مصطفى أنه استكشف فيها بعد محادثتها مواطن جمـــال أخرى تضاف إلى جمال الهيئة والجسد . أجمال روح ؟ لا يدرى . إنه فقط يعلم أنه بات يحبها ألف مرة أشد من ذى قبل ولا يطيق يوماً يمر دون أن يسمع صوتها . لذلك هو ينتظر الليل بفروغ صبر حيث

يسترهما الظلام عن أنظار المارة .

ولكن . . إذا كانت عيون المحبين ساهرة فإن عين «العذول» لا تنام . فما أسرع ما استكشفت زنوبه ماجد فى شرفة مصطفى وهذا متيسر لها ، فإن إحدى نوافذ حجرة الاستقبال تقع فى أعلى شرفة مصطفى تماماً وتطل عليها مباشرة . فما كان على زنوبة إلا أن تنظر منها إلى تحت فترى وتسمع كل مايدور

لذلك مضى عليها أيام وهى تغافل الجميع وتدخل حجرة الاستقبال ليلاً وتظل ملازمة لها حتى تنتهى المحادثة تحتها وكأنما لم تحتمل طويلاً كتمان ماترى . . فما لبثت أن أسرت ذلك إلى مبروك وأشركته معها فى المشاهدة والمراقبة لأنه الوحيد الذى لن يستطيع معارضتها والذى يتقبل دعوتها وشركتها بغير مناقشة ولا شجار . لا سيما وقد بدت أخيراً على الآخرين وفى مقدمتهم الصغير محسن أعراض هدوء غريبة ومخيفة . . نعم تخيفها لا تدرى لماذا وتشعر معها بأنه مستحيل أن تفاتحهم فى هذا الأمر . .

وهكذا كلما جاء الموعد غمزت مبروك وذهبا إلى مركزيهما من النافذة وأخذا يتتبعان . . وزنوبة تهمس فى أذن الخادم بين فترة وأخرى وهى تشير إلى ما يجرى من حديث :

— سامع يامبروك . ؟

فيهز لها رأسه وينظر كمشاهد سينما لا يريد أن يقاطعه أحد .

ولكن فى كل آونة تغمزه زنوبه وتلكمه فى كتفه قائلة فى غيظ :

ــ شايف المسخوطه ؟ ؟

وأخيراً اشتد هياج زنوبة وثارت عاطفة الشر عند المرأة الغيرة فأبت إلا أن تعكر صفوهما بأى طريقة. وقالت لمبروك أن يذهب ويأتى « بالزعفة » والمكنسة وأن يتظاهر بتنظيف النافذة كى يتساقط على مصطفى التراب والغبار . . فأجابها الخادم مستنكراً :

ــ حد ينفض الشبابيك بالليل ؟ !

فصاحت به :

أهو احنا كده . حد شريكنا :

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل امتد إلى قذف الأقذار والأوراق وقشور الفاكهة والخضر من نافذة حجرة الاستقبال خصيصاً لتسقط على شرفة مصطفى . . وتختار زنوبة وقت الليل أولاً لأنه وقت الميعاد وثانياً كى تحتج إذا عارض أحد . . بأنها إنما تقذف هذه الأشياء إلى الطريق ليلاً وهو خال حتى يكسحها الكناس فى الصباح لذلك ما كانت تنتهى من الطعام حتى تذكر مبروك قائلة :

ــ خليك فاكر ! اجمع قشر الخيار . .

فيجيبها الخادم غامزاً بعينه :

ــ واخد بالى . علشان نرميه للبط . .

ولكن هذا كله ما كان طبعاً ليحول دون خروج مصطفى إلى

الشرفة . غير أن ما كان يغيظه هو أنه لم يكن ليستطيع الاعتراض . لقد منعته سنية منعاً باتاً أن ينبس بكلمة . فلقد فهمت سنية هذا التحرش . ورأت الأصوب الصمت والتظاهر بعدم الالتفات . فهي تعرف زنوبة لاتغلب فى مضمار الشجار وأنها لاشك تود فتح بابه بأى ثمن فلماذا التعرض لها وللسانها البذىء ؟ إذن الاحتمال والسكوت المطلق عنها .

نعم أدركت سنيه منذ البدايه أن هذه أعمال زنوبه وحدها .. فليس من إخوتها وأقاربها من يفكر فى عمل كهذا . حتى محسن الذى قست عليه سنيه وأساءت معاملته وأخرجته شبه مطرود فى ذلك اليوم لا يستطيع برغم هذا أن يفعل ذلك .

من الغريب أن هذا الخاطر ذكر سنيه فى لحظة بمحسن و برُزمته التى سلمها إياها قبيل رحيله وألقت بها فى غرفتها لاتدرى أين ؟ ودعاها ذلك إلى القيام للبحث عنها وقراءتها وقد مضى عليها زمن منسية مهملة .

فتحتها فتساقطت منها أوراق الشعر والنثر . فجعلت تطالع وتصادف اسمها مقروناً بصفات الحب والعبادة مرفوعا فى مخيلة هذا التلميذ الشاعر وفى قلب هذا الصبى الصغير إلى مراتب الآلهة . ثم قرأت قطعا كالمذكرات يبثها فيها آلامه !! استغربت سنيه كيف استطاعت أن تجازيه على ذلك بهذه المعاملة الوحشية . وذكرت

بكاءه أمامها وانصرافها عنه وقتئذ إلى التفكير فى حبها هى. ثم كيف أنها دعته إلى الانصراف على نحو مذل. أهى تفعل كل هذا ؟ هى التى على الأقل تعرف اللياقة ! أهكذا المرأة إذا أحبت تنسى حتى اللياقة ؟ نعم إنها ظلمت هذا الفتى. هى لا تنكر ذلك .. وتود لو تستطيع إصلاح ماحدث ... لو تستطيع أن تخفف عنه ؟ إن ضميرها يؤنبها وتحس بوقر هذا الاجحاف. ولكن كيف ؟ انها امرأة تحب. وانها لا تستطيع أن تتصرف فى جزء صغير من قلبها ولا من فكرها لشخص آخر غير ...

هنا تلاشى الظلم والمظلوم ولم يبق لمحسن ولا لشعره ونثره أثر فى نفسها، وقامت لساعتها الى المرآة ثم نظرت إلى السماء ثم إلى المنبه الصغير فوق منضدة السرير لترى مابقى من الوقت على الليل.

* * *

برز القمر مستديراً فى ليلة التمام. ودقت الساعة العاشرة. ونام أهل المنزل وسكنت الحركة. فنهضت سنية من مقعدها الطويل وارتدت فى الظلام فوق قميصها الحرير « روب دى شامبر » من الموسلين الوردى ... ورتبت بكفيها شعرها الجميل على عجل ثم ذهبت إلى النافذة ففتحتها فتدفق فى وجهها نور القمر فبغتت وتراجعت إلى قلب الحجرة مسرعة، ولكنها لم تلبث أن ابتسمت إذ رأت أنه نور الكوكب الفضى يضىء أرجاء الحجرة المظلمة.

وعادت فتقدمت بغير خوف إلى النافذه فإذا مصطفى يضحك كأنما رأى وفهم سر ذعرها اللذيذ . كان الشاب يرتدى « بيجاما » ياقوتية اللون موشاة بشرائط ذهبية تلمع فى الضوء . كما كان يلمع شعره الكستنى المتموج . كان كل مافيه تلك الليلة الجميلة يدل على الثراء والجمال وكانت هى صامتة ومبتسمة تتأمل القمر فى استدارته يطل عليهما من سماء شارع سلامه الهادىء تلك الساعة ، فيعتريها فرح داخلى فتضحك ضحكة رقيقة يبدو من خلالها ماس أسنانها يبرق فى شعاع القمر . وكأنما بهرها النور أخيراً فإذا هى ترفع يديها وتفرك عينيها جذلة .. ومصطفى يرنو إليها مسندا ذراعيه إلى حاجز الشرفة وكأن قلبه فاض فجأة .. فمد عينيه إليها وقال بلهجة التأنيب تلطفها نبرة حب متهدجة :

— إنت تأخرت الليلة نص ساعة . !

فأجابت مبتسمة :

— صحيح .

— إيه بقا السبب ؟

فنظرت إليه بخبث، ثم قالت ضاحكة :

— السبب ؟ مش عايزه أقطع عليك مناجاة القمر .

فقال لها على الفور :

— أى قمر ؟ ؟

ثم أشار بأصبعه إلى نافذتها التى هى فيها وقال :

— القمر الوحيد اللى أعرفه يطلع من الشباك ده . . .

فضحكت وهى مطرقة فى شبه حياء .

وأرادت أن تقول شيئاً فأسرعت على نحو فجائى محسوس تقول :

— مصطفى . ! الليلة حر قوى . . .

فلم يجبها مصطفى كأنما أمعضه هروبها بالحديث إلى ناحية أخرى لامعنى لها . غير أن هذه الجملة من سنيه ككل جملها لها كل القيمة عنده . وجعل مصطفى ينظر إلى الليل حوله .. نعم كان الهواء ساكناً. كأنه يكتم أنفاسه كيلا يعكر عليهما الهدوء . . .وذكر مصطفى أنهما الآن فى أوائل شهر مارس فقال وهو يستقبل بوجهه النور العائم الراقص فى هذا الجو الراكد :

— ابتدا الربيع . ! !

وهنا تنفس الهواء قليلا . فهب نسيم رقيق داعب شعر سنيه البديع وبعثر خصلة منه على صدغها وفوق جزء من إحدى عينيها . فرمقها مصطفى وهو يتقطع غراماً ويود لو يلثم تلك الخصلة على تلك العين . . .

وباغتت سنيه منه تلك النظرة الطويلة فارتجفت وخفضت بصرها فى لذة داخلية . . ثم عادت فى شىء من الارتباك فرفعت رأسها وأصلحت ترتيب شعرها الذى بعثره النسيم ونظرت إلى

السماء وقالت فى دلال ورقه :

— فى الربيع على رأى الروايات تمطر السما بدل الميه والثلج ورد وأزهار !

ولم تكد سنيه تتم جملتها حتى سقط على رأس مصطفى من السماء قشر كرنب وخيار . . .

فرفع رأسه إلى فوق وهو يصيح :

— أهى مطرت ! وبدل الورد والأزهار قشر كرنب وخيار !

ولم تتمالك سنيه أن أدارت وجهها وانفجرت ضاحكة . . .

وأراد مصطفى أن يتوجه بالكلام إلى النافذة التى فوقه والتى سقط منها الكرنب . . لكنه ذكر تنبيه سنيه ومنعها إياه . . فالتفت إليها وأشار لها بيده سائلا :

— اسكت كمان المره دى ؟

فأجابته سنيه مشيرة بأصبعها على فمها علامة الصمت . . .

فتمتم مصطفى قائلا :

— أمرك .

ولكن خطرت له فكرة فجائية فأشار إلى سنيه بالانتظار قليلا فى مكانها ثم دخل وغاب لحظة ثم عاد حاملا مظلة فى يده . . فتحها ووضعها فوق رأسه يتقى بها . . .

فما رأت سنيه ذلك حتى أغرقت فى الضحك وهى تحاول

ألا يرتفع صوتها . . .

في هذه اللحظة أيضاً غمزت زنوبه مبروك المتعب المتثائب من الوقوف والسهر والمراقبة. ولفتت نظره إلى مظلة مصطفى هامسة.

— شوف يامبروك اشوف المضروب طالع لنا بتقليعه جديدة .!!

فنظر مبروك وحملق إلى المظلة ، ثم قال :

— دى بلا قافية عاملة زى الشمسية !!

— ما هى شمسية . . جاتك خيبه . . أمال هى إيه ؟ ؟

فنظر مبروك وحملق إلى القمر الوهاج ، ثم قال :

— لازم خايف تصيبه ضربة شمس . . !

فصاحت به زنوبه فى همس :

— جاتك نيله . . . دا القمر .

فقال مبروك :

— زى بعضه . دى حتى من غير مؤاخذة ضربة القمر أقوى ...

فقالت زنوبة بقلب خافق وهى ممسكة بقشرة قلقاس كبيرة ستضرب بها رأس مصطفى :

— ضربة أنهى قمر يامبروك ؟ ؟

قالت ذلك بصوت متغير خافت التفت له مبروك فى الحال ونظر إليها وإلى القشرة التى بيدها وفهم ماتريد بجملتها هــــذه فقال فى نفسه :

— ياحفيظ !

فألحت عليه زنوبه وهى تهم بالضربة :

— ضربة أنهى قمر ؟ ؟

فأجاب مبروك فى الحال كالمتملق .

— القمر أبو قلقاس . . !

فضحكت زنوبه متكلفة الرقة وقدأعجبهاقول مبروك وصدقته وقالت متلطفة ممازحة :

—آه ياكداب ! . .

وقذفت بقشرة القلقاس على مظلة مصطفى وهى تقول :

— هو ده بيحس بضربة ... حد

ثم دست يدها فى « صفيحة الزبالة » بجانبها وغمزت مبروك وهمست :

— إياك يامبروك تهمد ولاتنام ! . الصفيحة لسه مليانه . . !

فأجابها الخادم :

— هدى خاطرك انت . . وروقى بالك . ! وروحى نامى . ! ألا بلاقافيه ماتروحى إنت تنامى ...

فنظرت إليه زنوبه نظرة شك وارتياب وقالت :

— يعنى أتكل على الله وعليك وأروح أنام ؟ !

فأجاب مبروك على الفور :

ـ قوى .. قوى .. ! حطى فى بطنك «قشر» بطيخة صيفى ! أنا وشرفك ما اتحرك من هنا إلا بعدما أفرغ صفتحة الزبالة بحالها على راسهم.

فمشت زنوبه وقد أنهكها التعب والوقوف هى أيضاً ولكنها التفتت إليه قبل أن تبرح الحجرة وقالت منبهة :

ـ أظنك رايح تدلقها مرة واحدة وتمشى !!

قشرة قشرة زى ما علمتك .. فاهم !!.

حاضر .على راسى .. قشرة .. قشرة . روحى إنت بقامن غير مطرود ...

وترددت زنوبه ووقفت غير مؤمنة بمبروك وقالت فى نفسها من يضمن لها تنفيذ المهمة على مايرام . إنها تريد أن يقطع عليهما الحديث بهذا الرذاذ الكربى حتى ينتهيا دائماً إلى لاشىء ولا يتم بينهما كلام أو اتفاق ..

ـ فعادت أدراجها إلى مبروك تكلمه فى ذلك .. فضاق الخادم بها ذرعاً وصاح بها :

ودى شغلة إيه دى !! مش لك على من غير مؤاخذه أفركش لك شملهم الليلة ! وحياتك عندى لأخليها عليهم آخر ليله فى دى البلكون .. ! روحى نامى بس . !

فاطمأنت زنوبه قليلا للهجة مبروك القوية ورددت مستبشرة :

— آخر ليلة لهم !! طب أما أشوف شطارتك . . . والنبي دا يبقى لك عندى الحلاوه . !

وسارت إلى الباب فى بطء وتمهل ومبروك ينظر إليها مستحثاً ويقول:

— أيوه كده زقى عجلك . !

وخرجت زنوبه أخيرا من الحجرة وتركت مبروك يتنفس الصعداء ويقول ناظرا إلى حيث ذهبت :

— انشاء الله تنقرضى ! يعنى ياربى مش حرام عليك كل دا! .

ونظر من النافذة تحت فى احتراس . وتأمل هذين المتحابين الجميلين . . وتحرك فيه إحساس الإنسان إذ يرى حمامتين أو عصفورين جميلين . . ذكرا وأنثى يتناجيان . . . ولعله الإحساس بالجمال ... إحساس التناسق . !

لاشك هذا الإحساس هو الذى جعل مبروك يقول وهو ينظر إليهما وضوء القمر الجميل يظلهما بجناحه :

وحياة النبي حلوين ! الله يهنيهم ببعض !

ثم ترك الحجرة حاملا صفيحة الزبالة ومشى على أطراف قدميه حتى وصل إلى نافذة المرحاض التى تطل على حارة صغيرة خلف المنزل فألقى مابها من قشر . . . ثم ذهب إلى فراشه فوق مائدة الطعام فى هدوء . وهو يقول لنفسه :

— هو كان الجدع انعمى لما يبص بلا قافيه لوش الحصان

زنوبه ! . . اللى ماهى عاجبانى أنا يافقير !

وهكذا انقطع المطر عن مصطفى . غير أن هذا لم يمنعه من القلق ومن نشر المظلة فوق رأسه . وأنى له أن يدرى أن لا محل للخوف منذ الآن . ؟ ورأت سنيه قلقه فقالت له فى لهجة جد أزعجته وأغضبته :

— أحسن طريقه إنك تعزل من البيت ده .

ولكنه اكتفى بأن رمقها بنظرة حزن وغضب وتقريع .

غير أنها تجاهلت وقالت فى خبث :

— إلا إذا كانت أجرته رخيصة .

فثار مصطفى وقال منفعلا :

— أجرته ؟ ؟

فقالت فى هدوء وابتسام ومكر :

— طيب ماتزعلش . بلاش أجرته . قريب لشغلك ؟

فلم يجب مصطفى وأطرق قليلا . ثم رفع رأسه وقال :

— بالعكس .

فقالت متظاهرة بالاستغراب :

— بعيد عن شغلك ؟ .

فقال مصطفى على الفور

— جدا . . جدا . . جدا . .

فقالت سنيه فى الحال :

— وليه تسكن بعيد عن شغلك ؟ !

فأجاب مصطفى فوراً وفى شبه احتجاج :

— عايزانى أسكن فى المحله ؟ ؟ ! مستحيل !

— المحلة !!

— أيوه المحلة . . المحلة الكبيرة .

— شغلك فى المحلة الكبيرة وساكن هنا ؟! انت صنعتك إيه ؟

— صنعتى . . صنعتى . .

إذا كنت مكسوف تقول . . . بلاش . !

— أبويا صاحب محل مانيفاتورة راجى بالمحلة الكبرى .

— وانت ؟ .

— أنا . .

— صاحب كيف تقعد على قهوة شحاته

قالت ذلك متخابثة ومتقاسية وهى تخفى فمها بكمها الحريرى الواسع حتى تخفى ابتسامتها . وصمت مصطفى قليلا مبغوتا ونظر إليها . إلى عينيها السوداوين الظاهرتين فوق كمها . . وحسب لأول وهلة أنها تهزأ به . . فغلى دمه وانفجر يحدثهـــا بكل تاريخه وبكل شئونه فى صدق وإخلاص . . فأعلمها برغبته فى تصفية المحل أوبيعه للخواجه كازولى وعن ميله إلى الالتحاق بوظيفة فى إحدى مصالح الحكومة

حتى يظل فى القاهرة . وأنه لم يقدم على خطبتها من أهلها حتى الآن لأنه لم ينفذ خطته بعد . وأنه متى حصل على الوظيفة وأقام فى مصر فأول ما يفعل أن يبحث عن منزل آخر لائق فى حى حديث و يبعث امرأة خاله تاجر القطن تخطب سنيه إلى أمها ؟

أصغت سنيه إلى كلامه الطويل ولم تكن تجهل أغلبه . إنها بذكائها قد أدركت ذلك من قبل . ولكنها أرادت أن تعلم من فمه حقيقة أمره فاحتالت حتى استدرجته على هذا النحو .

وعند ماأتم كلامه وصمت مطرقا أخفت سنيه رأسها بين ذراعيها وأفرغت كل مافى نفسها من ضحك وسرور ثم رفعت رأسها متظاهرة بالتجم والغضب ، وقالت :

— كل اللى فهمتــــه منك دلوقت . . إنك وارث . . زى الوارثين العاطلين اللى بنقرا عنهم فى الكتب .

فالتفت اليها مأخوذاً .

وابتعدت سنيه قليلا عن نافذتها وقالت فى لهجة غضب وازدراء :

— حضرتك طالب وظيفة! وكمان كنت عايز تخطبنى ؟ !

ارتعد مصطفى ونظر إلى وجهها المكفهر وشفتيها المرتسم عليهما الاحتقار ، فخيل إليه أنه لايفهم شيئاً وأن سنيه تغيرت فى لحظة على نحو يرعب . وأراد أن يتكلم أو يستوضح أو يتوسل و يستعطف ولكنها لم تمهله . . . بل أمسكت بعارضتى نافذتها ، وقالت :

— كنت فاكراك أحسن من كده !

ولم تزد وأغلقت النافذة فى وجهه .

فاسود كل شىء فى عين مصطفى . . .

الفصل الثالث والعشرون

جاءت الليلة التالية وخرج مصطفى إلى شرفته ينتظر سنيه وهو فى أشد حالات القلق . خائفاً أن تكون جادة فيما فعلت البارحة وأنه لن يراها . وظلت الساعات تمر وهو مصوب عينيه إلى نافذتها المغلقة فى شبه تضرع . وكلما ذهب من الليل جزء اهتز يأساً وطلب إلى الله فى حرارة أن يمن عليه برؤيتها الليلة ولو دقيقة واحدة . . لأن غيبتها عنه أمر لا يطاق .. ولأن غيابها الليلة بعد ما حدث بالأمس له معنى مخيف .

فلتبرز الليلة كى يطمئن . . ولتغب مرة أخرى إذا شاءت . . إنه ليشترى منها اللحظة من هذه الليلة بأى ثمن .

لم تفد شيئاً هذه التضرعات التى لم تخرج من حدود صدره الضائق . . . ولم يعرهـا أحد اهتماماً . . . ولم يعلم بهـا حتى الليل الساكن حوله الذى مضى أكثره وهو مازال ينتظر فى أمل !

* * *

مرت ثلاث ليال على هذا النحو خالها مصطفى ثلاثة أعوام . أى جحيم هو فيه الآن ؟ لقد كان فى الفردوس ولا يدرى . وخرج منه لا إلى الأرض فقط بل إلى الجحيم مباشرة وما الذى جناه ؟ ماهى تلك الشجرة المحرمة التى عصاها فيها حتى تخرجه وتطرده من

الهناء الذى كان فيـــه ... وتمنع عنه نورها الذى كان ينبثق من هذه النافذة ؟ !

وجعل مصطفى يسترجع فى ذهنه كل عباراتها الأخيرة ، عسى أن يهتدى إلى سبب غضبها . إذ من ساعة غيبتها لم يكن يفكر إلا فى شىء واحد : وحشته القاتلة بدونها .

أتراها ازدرته لأنه وارث عاطل ، ولكنه قال لها إنه يبحث عن وظيفة . أم تراها ازدرته لأنه ترك محل تجارته وعمله وجاء يقطن القاهرة ، وذكر قولها : « وانت صاحب كيف تقعد على قهوة شحاته » إنه ليس يدرى قصدها تماماً . . ولكن إحساساً خفيفاً هتف به أنه حقيقة وارث عاطل ، وأنه يستحق فى الواقع احتقارها. إن مثله أمامه عمل هائل بدأه أبوه . وكان ينبغى له أن يستمر فيه ... لو أنه شىء آخر غير وارث عاطل كسلان واهن الهمة . ولأول مرة أحس احتقاره لنفسه . ودب فيه فجأة شىء من القوة والعزم . ولمعت عيناه . وكأن حجاباً من الغمام انقشع عن بصره فرأى الحقائق واضحة وإذا هو يقول فى نفسه :

— أما أنا مغفل صحيح ! وظيفة بعشرة جنيه ! .. مع أن المحل لو أعتنى به يكسبنى على الأقل ١٠٠ جنيه إيراد شهرى ! !

ثم ذكر قولها : حضرتك طالب وظيفة ! وكان كنت عايز تخطبنى ؟ ! »

أتراها احتقرته لأنه يبحث عن وظيفة حقيرة . مع أن لديه عملا أهم وأجدى. نعم لقد فهم الآن. أو ليس لها كل الحق في احتقاره واتهامه بالغفلة أو على الأقل بنقص في الرجولة والنشاط ؟

— « أنا كنت فاكره انك أحسن من كده ! »

هذا كان آخر ماقالت له :

وهنا نهض مصطفى كأن قوة دفعته . وصاح بخادمه أن يهيء حقيبة السفر . وازدحمت في رأسه الأفكار والمشاريع والأعمال . وأحس قوى في نفسه قد انكشفت له .

وبرق في رأسه خاطر . أترى غضبتها عليه مدبرة ؟ كي تستثير فيه وتستحث ذلك النشاط الخامد ؟ من يدرى . إنها على غاية الذكاء. وأحس رغبة هائلة في رؤيتها. على أى حال لن يستطيع مغادرة المكان بدون إخبارها بما اعتزم . إنه مستعد لفعل العجب والمحال من أجلها . كذلك لابد له أن يعلم منها شيئاً عن أمر مستقبلهما كما علمت هي عن ماضيه وحاضره . إنه لا يحجم عن سكنى المحلة الكبرى بل أقاصي الصعيد ما دامت هي معه .

ولكن كيف يراها ؟!

وفجأة بدا لمصطفى أن نافذتها المغلقة لا يمكن أن تظل مغلقة طول الليل والنهار . إنها لاشك تفتحها في الصباح المبكر عند نهوضها من الفراش كي يدخل الهواء والنـــور حجرتها . فلماذا

لا يتربص لها فى الصباح المبكر ؟ !

ثم عاد نخطر له خاطر آخر . إن الليل حار ولا يمكن أن تظل فى حجرتها محرومة الهواء طول الليل . إنها بلا ريب تغلق نافذتها خصيصاً فى ساعات الموعد فقط حتى إذا مامر الهزيع الأول من الليل قامت وفتحتها ، وانتهى مصطفى من كل ذلك إلى شىء :

إنه سيسهر الليل بأكمله فى الشرفة يرقب النافذة ، إن لديه الآن من العزيمة ما يفعل به أكثر من ذلك .

وجاء الليل ، ومضى الموعد . فأتى مصطفى بمعطف ثقيل تدثر به ، و « كوفية » لفها حول رقبته وأتى بمظلته التى لا تفارقه من يوم قشر الكرنب والقلقاس . زيادة فى الاحتياط . وأخرج إلى الشرفة كرسياً كبيرا وجلس فوقه القرفصاء ناشراً المظلة على رأسه وأخذ يتربص .

على أن مصطفى لو درى ، لاطمأن من جهة زنوبه فإنها سرعان ماأدركت غيبة سنية ، وأنها أول من فرح فى مصيبة مصطفى بهذا الغياب غير أن زنوبة كانت تعزو سر هذه الفرقة بين المتحابين إلى مبروك ومهارة مبروك الشخصية وقد ارتفع قدره فى عينيها من ذلك اليوم ، أليس هو الذى قال لها :

— روحى نامى وحياتك لتكون آخر ليله لهم ؟ !

إنه وعدها بذلك ، وها هو مبروك نفذ وعده ، وكانت تلك

حقيقة آخر ليلة لهما معا ، وأخذت زنوبه تستجوب مبروك معجبة بما فعل حتى أحدث هذه النتيجة الباهرة :

— وحياة أبوك يا مبروك قل لى بس عملت إيه ؟؟

ولكن مبروك كان أكثر منها عجبا وأشد دهشة .

— عملت إيه ؟ !! مين . . أنا ؟ !

غير أنه كان مضطر إلى إخفاء دهشته متسائلا فى حيرة وارتباك:

— أقول لها إيه !!! وانا بلا قافية رميت الصفيحة من شباك « المرتفق » . . ؟ !

وذكر عطفه على هذين المتحابين فعجب لما صارا إليه ، وأخذ يتساءل عن سبب ما بينهما من جفاء فى شبه كآبة كأن الأمر يهمه

وأخيراً نظر إلى زنوبة بطرف عينيه وقال فى سره :

— كله من عين وش النحس ! حسدتهم ...

ولم تمهله زنوبة فأعادت الكرة :

— بس عملت إيه يامبروك بعد ماسبتك : مش تقولى وتريح قلبى .

— أقول لك الحق والا ابن عمه .

— لأ . الحق .

— الحق . بقيت أمسك قشرة القلقاس والا الكرنب واقرأ عليها بلا قافية عدية يس وارميها بينهم .

فابتسمت وقالت له فى إعجاب وحماسة :

— إلهى ماتعدم عينك وخيلك يامبروك ! دا انت اتابيك قاصح وراسى ! عينى عليك بارده !

* * *

فى تلك اللحظة كانت سنية بجانب والدتها تحادثها وتضاحكها متظاهرة بعدم الاكتراث لشيء . ولكنها فى الواقع كانت تريد استدراجها إلى موضوع يهمها .

تناولت سنية يد والدتها وقالت لها :

— انت تحبينى يانينه ؟

فرفعت الأم رأسها إلى ابنتها وقالت :

— حد يكره ضناه !

فقالت سنيه فى خبث :

— علشان كده يانينه لما طلبونى الخطاب السنه اللى فاتت قلت لهم : ماعندناش بنات تسافر وتتغرب . !.

فقالت الأم :

— معلوم يابنتى ، وأنا حيلتى غيرك ! أنا عايزه أفرح بك جانبي .

فقالت سنيه بلهجة معنوية :

— صحيح يانينه . انت دايماً على فكرك القديم .

وسكتت برهة . ثم فجأة سألت فى رفق :

ـــ انت رحت مع بابا السودان ؟

فأجابت الأم :

ـــ يابنتى أبوكى راح قبل ما يتجوزنى

فقالت سنيه مصرة :

ـــ افرضى انه كان راح بعد ما اتجوزك كنت رحت معاه السودان ؟!

فأجابت الأم على الفور :

ـــ ياندامه ! الواحده مش تبع جوزها مايروح تروح !

فقالت سنية متخابثة :

ـــ ووالدتك كانت ترضى تسيبك تروحى ؟

فأجابت الأم :

ـــ أمى ؟ أمى ماتت وأناصغيره .

فقالت سنيه :

ـــ افرضى أنها كانت موجودة . ؟ .

فأجابت الأم .

ـــ الله يرحمها كانت ست أميره وعاقله ..

فقالت سنية على الفور :

ـــ زيك . . مش كده ؟

وصمتت الفتاة لحظة . ثم استأنفت الحديث في لباقة وهى تدرج به من طبقة إلى أخرى حتى بلغت به حيث استطاعت أن تفهم والدتها عن طريق غير مباشر أنها مخطئة إذا كانت تظل تشترط إقامة ابنتها فى مصر بجانبها أساساً للزواج . وأنها إنما تشترط ذلك بدافع الاستئثار بابنتها لا المصلحة . وواجب الأم : أن تكون أقل أثرة وأنانية فى سبيل مستقبل ابنتها وهنائها . كما أن واجب الزوجة أن تتبع زوجها أينما حل — كما قالت أمها نفسها منذ لحظة — وأن ترافقه إلى البلد الذى تدعوه إليه مصالحه وأعماله .

لم تكن سنيه فتاة من الطراز القديم . إنها تريد أن تهتم بعمل زوجها وأن تدفعه إلى الاهتمام به . إنها كانت تدرك على وجه التقريب أن لمثل مصطفى مصالح وأعمالا فى الأرياف . على الأقل مزارع وأطيان ورثها عن أبيه . لذلك لم تتردد فى التفكير فى الذهاب معه والمعيشة وإياه فى الأرياف إذا اقتضى الأمر .

* * *

فتحت سنيه نافذتها فى صباح اليوم التالى فإذا هى أمام منظر غريب مضحك فى شرفة مصطفى : منظر رجل قد التف «كالكرنبه» فى معطف كبير وتدثر فوقه بغطاء سميك « بطانية » ، وجعل خلف رأسه الملفوفة بالكوفية وسادة صغيرة مسندة إلى الحائط ، وفوق كل ذلك مظلة مفتوحة قد انكبت على رأسه فأخفت جزءاً من

وجهه . وهو نائم يغط . .

عرفته سنية فضحكت من قلبها . إنه مصطفى . وكل الدلائل تجمع على أنه مضى ليلته فى الشرفة هكذا . مسكين . ! إنه ولا شك كان ساهراً فى انتظارها ولكن ساعة الصباح ونسيم الفجر لفح جفونه فأرداه نائماً يغط رغم أنفه .

ترددت سنيه قليلا . . أتوقظه أم تتركه؟ولكن تغلب عليها حب الدعابه فتركت النافذة مفتوحه واختبأت خلف الستائر لترى ما يكون منه . . وارتفع النهار وتسلطت الشمس على وجه مصطفى ففتح عينيه وفى الحال تذكر أنه جاء لانتظار ساعة فتح النافذة فالتفت إليها بسرعة البرق فإذا هى مفتوحة ولا أحد بها . فضرب رأسه بيده يأساً وشد شعره غيظاً وهو يقول :

— جت وفتحت وراحت وأنا نايم زى الجحش ! !

وسمعت سنيه ذلك من مكمنها فضحكت فى نفسها مسرورة وهمت بالظهور له . لكنها رأته جمع أمتعته وأرديته ومظلته وغادر الشرفة يائسا . فرأت أن تسكت وتنظر ماذا يصنع بعد ذلك ، واعتزمت مراقبته عن كثب وهى مخفية عنه .

أدرك مصطفى أن النوم الملعون لابد غالبه إذا أراد السهر طول الليل ، وأن أشد ما يهاجمه ذلك النوم ساعة الفجر وقرب

بزوغ الصبح . فماذا يفعل له؟ فكر قليلا وأخيراً اهتدى :

فما جاءت الليلة القادمة حتى خرج مصطفى إلى الشرفة بمتاعه المعتاد ، وأرديته ووسائده ومظلته كما فعل الليلة السابقة التي ضاعت منه ، إلا أنه أتى معه بمنبه ذي جرس هيأه على الساعة التي يريد الاستيقاظ فيها إذا ما غلبه النوم . وجلس القرفصاء على الكرسي الكبير بعد أن التف اللفة المعهودة ونشر المظلة المنكبة . ووضع المنبه على جدار الحاجز أمامه مقسما أن لن تفوته الفرصة بعد الآن .

ونظرت سنيه إلى كل هذا من خلف نافذتها فأضحكها هـــذا المنبه الواقف على جدار الشرفة ، وودت لو تستطيع صبراً حتى الصباح ، لترى كيف يدق هذا الجرس من الشرفة وماذا عسى المارة في الطريق ساعة الصباح يقولون .. إذا سمعوا جرس المنبه ورفعوا رؤوسهم وأبصروا ذلك الأفندي النائم بمتـــاعه ومظلته ومنظره الغريب في الشرفة !! .

ولكنها ذكرت نومة مصطفى ليلة الأمس والبرد الذي يتعرض له في الفجر من أجلها . فكرهت أن تتركه يبيت في الشرفة الليلة أيضاً لتتمتع هي بالمنظر المسلي .

وقاربت الساعة منتصف الليل ففتحت النافذة محدثة عمـدا بعض الصوت فهب مصطفى ناهضا على قدميه كالخفير النائم إذا دهمه ضابط نوبتجي . وما كاد مصطفى يتبينها ويدرك أنهـا هي

سنيه التى فتحت النافذة . وأنها هى لا طيفها . وأن يأسه من رؤيتها كابوس زال حتى لمع وجهه ببريق أمل وفرح غريب ، وأقبل نحوها باندفاع حال دونه حاجز الشرفة كأنما نسى أن بينهما فاصلا من الفضاء .

ولكن سنية كتمت إحساسها و تظاهرت بالجد وقالت :

— انت لسه ما سافرتش المحلة ! ؟

فردد مصطفى فى استغراب :

— المحلة ! ! !

— أيوه المحلة .

فأجاب مصطفى بصوت مملوء عاطفة :

— اسأليني إذا كنت تحركت من البلكون ده من ليلتها ! فأخفت سنيه ابتسامة وقالت فى لهجة الغضب والتهديد :

— يعنى عايزنى أقفل الشباك مرة ثانية ؟ !

فتقدم إليها فى تضرع :

— لأن المرة الثانية رايح أبات فى المستشفى ! .

فقالت ملطفة من لهجتها قليلا :

— وإذا كنت تروح تبات فى المحله مش يكون أحسن ؟ مش تهتم بأشغالك يا مصطفى ؟ !

خفق قلب الشاب لهذه الجملة الأخيرة خفقة شديدة . ورفع رأسه بعد قليل ، ونظر إليها نظرة طويلة ، ثم قال بعد فترة بصوت

عزم قاطع :

ـ سنيه .

ثم سكت ، ثم استطرد لجأة :

ـ أنا مسافر بكره المحله .

فقالت بفرح :

ـ مسافر ؟ !

فأجاب على الفور :

ـ لكن بشرط . . .

ووقف . . . ثم قال بغتة :

ـ رايح أبعت امرأة خالى بأول قطر . . .

فأطرقت سنيه واحمر وجهها . . .

الفصل الرابع والعشرون

لقد صدق نظر الأثرى الفرنسى :

« أمة أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام لن تعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى . . أو معجزات ! أمة يزعمون أنها ميتة منذ قرون ولا يرون قلبها العظيم بارزا نحو السماء من بين رمال الجيزة ! لقد صنعت مصر قلبها بيدها ليعيش الأبد . . . ! » .

لعل هذا الأثرى الذى يحيا فى الماضى كان يرى مستقبل مصر أكثر من أى إنسان .

فى شهر مارس . . . مبدأ الربيع . . . فصل الخلق والبعث والحيـــاة . . . اخضرت الأشجار بورق جديد وحبلت وحملت أغصانها الأثمار . . .

وكذلك مصر أيضاً . . . قد حبلت وحملت فى بطنها مولودا هائلا . . وها هى مصر التى نامت قرونا تنهض على أقدامها فى يوم واحد . إنها كانت تنتظر — كما قال الفرنسى — تنتظر ابنها المعبود رمز آلامها وآمالها المدفونة يبعث من جديد . . وبعث هذا المعبود من صلب الفلاح . . .

* * *

كان محسن فى صباح اليوم المشهود فى فصله ، وإذا أحد التلاميذ

قدأقبل وهو يلهث... وكلما صادف فى طريقه فئة لفظ بضع كلمات سريعة بلهجة خطيرة فتتغير وجوه السامعين . . حتى بلغ الخبرمسامع محسن . وما كاد يفكر فيه وفى معناه حتى ألفى المدرسة بأجمعها حوله تتهامس وتتناقش وتتساءل . ودق جرس الدخول فلم يأبه له أحد . أمر عجيب إذ ذاك فى تاريخ المدارس . . أن يحتشد الطلبة هكذا وفى ملامحهم معنى واحد هائل ويدعون إلى الدرس فلا يجيبون . . . كأنما هو يوم القيامة .

كان الجميع يتحدثون عن رجل لم يسمع به محسن من قبل . . ولكنه أحس فى لحظة أن حياته يجب أن تعطى لهذا الرجل. وإذا الحماسة تبلغ به إلى حد الهتاف فى رفاقه التلاميذ أن اتركوا المدرسة واخرجوا لملاقاة زملائكم طلبة المدارس الأخرى . . فإن الأمر أجل من أن نشتغل بغيره الساعة ، ولعل هذا كان نفس إحساس رفاقه ، فإذا الجميع يهرعون إلى باب المدرسة ولم تمض دقائق معدودة حتى كانت المدرسة بأجمعها سائرة فى الطريق ، وخطر لمحسن أن يذهبوا لملاقاة مدرسة الهندسة حتى يجتمع بعبده ولأن هذه المدرسة قريبة منهم . إلا أنهم ما كادوا يسيرون قليلا حتى لمحوا حشداً من الطلبة مقبلا عليهم فتبينوه فإذا هم طلبة الهندسة خرجوا أيضاً وإذا محسن — لدهشته — يرى على رأسهم عمه عبده يلوح بذراعيه ويهتف صائحاً وقد احمر وجهه وقطب حاجبيه وفى رنين صوته ما يدل على

هياج عصبي عظيم . وانضمت المدرستان إحداهما إلى الأخرى وسار الكل لملاقاة المدارس الأخرى ، واقترب محسن من عبده ووضع ذراعه تحت إبطه وسارا معاً يهتفان... وبين الضجيج والأصوات الراعدة كان عبده يسأل محسن :

— خرجتم ازاى ؟!

فيجيبه محسن بكل بساطة :

— زى ما خرجتم أنتم .

ولعل هذا السؤال وذاك الجواب تبودلا مراراً عدة بين جميع الطلبة وجميع المدارس ... وبين كل طبقات الشعب ... إن كل فئة وطائفة كانت تحسب نفسها البادئة بالقيام ... الشاعرة بالعاطفة الملتهبة الجديدة . ولم يفهم أحد إذ ذاك أن هذه العاطفة انفجرت فى قلوبهم جميعاً فى لحظة واحدة ... لأنهم كلهم أبناء مصر لهم قلب واحد .

* * *

ماغابت شمس ذلك النهار حتى أمست مصر كتلة من نار ، وإذا أربعة عشر مليونا من الأنفس لا تفكر إلا فى شى واحد : « الرجل الذى يعبر عن إحساسها ... والذى نهض يطالب بحقها فى الحرية والحياة قد أخذ وسجن ونفى فى جزيرة وسط البحار... »

* * *

كذلك أوزوريس الذى نزل يصلح أرض مصر ويعطيها الحياة والنور أخذ وسجن فى صندوق ونفى مقطعاً إربا فى أعماق البحار! .

وانقلبت القاهرة رأسا على عقب فأغلقت الحوانيت والمقاهى والبيوت وقطعت الموصلات وعمت المظاهرات . وقام نفس الهياج فى جميع أرجاء الأقاليم والأرياف . وإن الفلاحين لأشد من أهل المدن فى إظهار احتجاجهم وغضبهم . فلقد قطعوا الخطوط الحديدية ليمنعوا وصول القطرات المسلحة . وأحرقوا دور البوليس ...

* * *

وعاد محسن إلى المنزل فألفى الرئيس حنفى يحدث زنوبه بما وقع ويشرح لها الأسباب والعلل وهو يفرك ركبتيه تعبا وجهداً فلقد مشى هو أيضا فى مظاهرات عدة طول النهار. ولم يلبث سليم أن عاد كذلك وقد اندمج فى جموع أخرى . وجعل كل يتحدث بما رأى وسمع . . ويتنبأ بما سيحدث ويروى ما تتناقله الإشاعات التى تكثر فى هذه الظروف . وجاء مبروك فقال أيضا إنه اشترك فى مظاهرة كبيرة بميدان السيدة ... وأنه كان برفقة الجزار وصبيه والخباز وبائع البرتقال ... فكسروا وحطموا مصابيح الغاز وحواجز الأشجار، وتسلحوا بالحجارة والعصى الغليظة والهراوات والسكاكين ، وحكى أن الخنادق قد حفرت هناك . . وإنه حفر معهم خندقا عمقة متران وعرضه ثلاثة ...

وأصبح هذا حديث البيت . ولعله الحديث العام فى كل البيوت وحضر عبده وطلب العشاء على عجل لأنه خارج ليلا الى حى الأزهر حيث يعقد اجتماع كبير فى المسجد وسيخطب الخطباء فى الحالة الحاضره . . .

وإذا الجميع ماعدا الرئيس حنفى التعب الطالب النوم يوافقون عبده ويبدون الرغبة فى مرافقته .

وما جاء موعد الاجتماع حتى كان الأمر قد تفاقم . . . فإذا الأزهر محاصر وإذا المتظاهرون قد أقاموا المتاريس يتحصنون خلفها . . وإذا هذا الحى والحى المسمى طولون قد أصبحا ميدانا لمواقع دموية . وقيل إن كثيرا من المصريين كشفوا عن صدورهم للمدافع الرشاشة فى بسالة مدهشة . . وقيل إن مصريا سودانيا تقدم فى جرأة إلى مدفع رشاش مصوب جهته فانتزعه بيده وجعل يضرب به أعداءه ضرب العصا . . .

ولم يحجم عبده ورفاقه بل احتالوا حتى اجتازوا مناطق الحصار من حارات ضيقة مجهولة وحضروا الاجتماع ...

* * *

كان الناظر إلى القاهرة وشوارعها أثناء ذلك الوقت يرى منظرا عجيبا . . فى وسط المظاهرات والهتافات . كانت ترفرف الأعلام المصرية وقد رسم فيها الهلال يحتضن الصليب ! ذلك أن مصر

أدركت فى لحظة أن الهلال والصليب ذراعان فى جسد واحد له قلب واحد « مصر » :

* * *

اشتدت الحالة حرجا غير أن المدهش أن عبده ومحسن وسليم اندفعوا وانغمسوا فى الثورة على نحو يقلق . ولعل زنوبه هى الوحيدة التى لاحظت ذلك ... وقد خيل إليها أنها فهمت قليلا سر ذلك : أن هؤلاء الثلاثة الذين كانوا منذ قليل ساكتين صامتين كأصحاب « بنك » أفلس . . . تخنقهم الكآبة والضيق كأنهم فى سجن من نفوسهم لا يستطيعون منه خلاصا . هؤلاء الثلاثة ما كادت الثورة تنفجر حتى انفجروا معها . . وإذا هم يروحون ويغدون منهمكين فيها وفى حوادثها المتجددة المثيرة للحواس ، وإذا هم قد ذهب انقباضهم ووحشتهم وحل محله الاهتمام والكفاح والتحمس. ولعل الصغير محسن كان أظهرهم تأثراً بذلك الحادث التاريخى . . فقد استحال كل ما كان فى قلبه من حب خاب فيه بقسوة إلى عواطف وطنية حارة . . وكل عواطف التضحية التى كان مستعداً لبذلها فى سبيل معبود قلبه إلى عواطف تضحية جريئة من أجل معبود وطنه . هذا ما حدث أيضاً لعبده وسليم بمقدار أقل .

عجباً ! أترى كان لابد من تلك الثورة لتصريف عواطف هؤلاء المنكوبين فى عواطفهم ! ! !

— ثم شىء آخر . أتراها هى الأعجوبة التى كان لابد منها كيلا يسقط محسن فى امتحان هذا العام ! ؟ فى الواقع لم يكن ثمة أمل فى محسن بإجماع أساتذته وهو نفسه ما كان يفكر فى موضوع الامتحان ولا فى شهادة الكفاءة هذه السنة . ولكن هاهى الثورة أغلقت المدارس وألغت الامتحانات وهاهو قد نجا من وصمة الفشل بأعجوبة ! غير أن محسن لم يعلق أهمية كبيرة على هذه المسألة ولم ينظر إلى الثورة بهذه العين الخاصة . هى عواطفه القوية التى تحولت إلى وطنية ما كانت تملك كل كيانه وتصرفه عن شىء آخر حتى عن سلالته فى تلك الظروف الخطرة .

* * *

لم يكد مصطفى يسافر إلى المحلة الكبرى ويبلغها حتى بر بوعده وبعث امرأة خاله بصحبة خادمه إلى مصر على أن تمضى نهاراً واحداً تذهب فيه إلى منزل الدكتور حلمى وتخطب سنيه إلى أمها .

وقد تم الاتفاق مبدئياً وعادت امرأة الخال إلى المحلة تزف للخطيب البشرى وتخبره بما فعلت وبما ينبغى له أن يفعل . . ولقد أعجبتها سنيه فجعلت تصف لمصطفى محاسنها . . . ومصطفى يصغى إليها فى فرح وابتهاج . وأخبرته كذلك أن سنيه هى التى كانت تسهل الأمور ولولاها لما تم شىء بهذه السرعة ، والواقع . . . ما كادت امرأة الخال تنصرف حتى تنفست سنيه مسرورة سعيدة تعد الأيام

على أصابعها . . وتتوقع حضور مصطفى من يوم لآخر لإنهاء الأمر. ولكن واأسفاه ! . . كان اليوم التالى لسفر الخالة الخاطبة هو اليوم المشهود . . وما انتهى النهار حتى قطعت السكة الحديدية ما بين مصر وطنطا والمحلة الكبرى وتعذر على مصطفى السفر إلى القاهرة . . بل تعذر عليه حتى الكتابة إلى سنيه يهدىء من روعها . . ولا أحد يستطيع وصف قلق مصطفى وضيقه . . أفى هذا الوقت الذى يستطيع أن يراها فيه علانية ويكاتبها كما يشاء علناً يقطع الاتصال بينهما . ؟ ! ولكن أسف سنيه كان أشد . . وقلقها وحزنها أروع ... وخطر لها فجأة شبح محسن . وهتف فى أعماق نفسها هاتف :

« أليست هذه العقبة جزاءاً لها على إذلالها محسن المسكين على ذلك النحو . . ! »

* * *

ليس يدرى أحد على التحقيق أكان الثلاثة عبده ومحسن وسليم قد اندمجوا فى سلك جمعية سرية أم ماذا ؟ لقد أصبحت حجرة السطح مستودعا لرزم هائلة مكدسة من المنشورات الثورية . وكانت تقف فى كل مساء بالباب رقم ٣٥ شارع سلامة عربة نقل يجرها حمار عليها صندوق خشبي كبير يصعده السائق بمساعدة مبروك تحت إشراف عبده إلى حجرة السطح وبعد أن يفرغ ما فيه من رزم يعاد إلى العربة . ولا يدرى أحد بالضبط من أين تأتى هذه العربة ولا إلى أين

تذهب الرزم ؟ هذا سر كان الثلاثة يفضلون الموت على إفشائه .

* * *

وفى ذات يوم سرت فى البلد إشاعة : أن التفتيش جار وأن كل مار فى الشارع والطرقات وكل مختلف إلى مقهى أو مشرب معرض للتفتيش فى أى وقت . . ومن يعثر فى جيبه على سلاح أو ورقة مشتبه فيها يساق إلى السجن فى الحال . ولكن.. للأسف جاءت .. جاءت الإشاعة بعد فوات الأوان . ففى تلك الساعة كان محسن وعبده فى قهوة « الشيشة الكبرى » وجيوبهما محشوة بالمنشورات يوزعانها يميناً وشمالا . فلم يشعرا إلا وضابطان انجليزيان اقتحما المكان شاهرين المسدسات وخلفهما جنود مسلحة . . وفتش عبده ومحسن وأخرجت من جيوبهما المنشورات ... وفتش بعد ذلك منزلهما وعثر على حجرة السطح ورزمها المكدسة ... هذا يكفى بالطبع للقبض على البيت بأكمله ! وذلك أقل ما يعمل فى ظرف كهذا قبض حتى على الرئيس حنفى والخادم مبروك وأخذ حنفى من سريره وهو يفرك عينيه ويقسم أنه لا يعرف شيئاً . والواقع كان حنفى مظلوماً لأنه لا يدرى بما فى حجرة السطح ... ولكنه دائماً مظلوم وكونه مظلوماً دائماً لا يخليه قط من تحمل نصيبه من المسئولية !!

لم يستثن غير زنوبه . . كل الدلائل تبرئها من التهمة . إنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا علم لها بشىء . فتركوها وحدها فى

البيت . وحدها فقط . وساقوا الباقين جميعاً إلى سجن القلعة ... وقد ظل مبروك يغمز اليوزباشي سليم بيده طول الطريق ويهمس له في سخط :

— كله منك ياسي سليم ! قعدت تفتش . . لحد بلاقافيه ما فتشوتا وعلى رأى المثل ..

ولم يتم . . لأن الجنود المرافقة لهم منعوه من الاسترسال في الثرثرة ولوحوا له بالبنادق . فوضع يده على فمه وقال مرتجفاً :

— ياجناب العسكر . مفيش لزوم للبنادق . قطعت لساني خلاص ! العمر مش بعزقه !

الفصل الخامس والعشرون

زج بالخمسة فى قاعة واحدة من السجن فناموا ليلتهم من فرط التعب فلما أصبح النهار قام مبروك قبلهم وأخذ يتأمل المكان ويتبين أرجاءه فوجد شباكا عالياً فى ركن كأنه برج بارز فاحتال حتى ارتفع إليه ونظر من بين قضبانه . فرأى ساحة فأجال بصره فيها فإذا فى وسطها « عقلة » منصوبة . . وبجانبها « متوازيان » من الخشب لعلهما وضعا لتمرين الضباط والجنود على الألعاب الرياضية ، غير أن مبروك لا يعرف ذلك . فما كاد يرى هذه الأشياء حتى نزل يصيح :

— نصبوا المشنقة . !!

فما سمعه الرئيس الشرف حنفى حتى فتح عينيه فى الحال وانتفض هلعا ثم انتصب قائماً على قدميه يقول :

— المشنقه ! هى حصلت المشنقة ! هم رايحين يشنقونا!! لا .. دا كلام ماينفعش ! .

ونظر إلى عبده ومحسن وسليم فإذا هم نيام أو متناومون فى هدوء تام فهزهم صائحاً :

قوموا . . قوموا يا أولاد ! .. دى داهيتنا تقيله ولا احناش عارفين!

فلم يجبه أحد . . فقال مغتاظا :

— يعنى دلوقت النوم حلو ! !

فلم يسمع سوى صدى صوته فوق الأسفلت . . فقال كانه يخاطب نفسه ويندب حظه :

— آه النهار باين من أوله ! والله عملتوها ياغجر ! وفضلتم ورايا لحد ماوديتونى معاكم المشنقه ! ! .

وثم سكت قليلا ، وكأنما كلمة مشنقه وهو يلفظها أشعرته أن الموقف قد يكون جداً لا هزل فيه فارتعد :

— لأ . . دى المسألة ما فيهاش هزار . ! .

وصمت قليلا أيضاً يفكر فى هول ما ينتظرهم . وفجأة قفز إلى الرفاق النائمين كأنما لم يطق مجرد التفكير وجعل يقول بصوت التوسل والخوف :

— شوفوا لنا طريقة يااخواننا . . اعملوا معروف . ! . ينوبكم فىّ ثواب ! ! قوم ياسليم انت يوزباشى وتفهم فى الموضوع ده ! ما تعرف لناش واد ضابط صاحبك ابن حلال هنا يشوف لنا مخرج . ! ؟ لكن لأ دا انت بحق مرفوت وواقعتك طين : نعمل ايه بس يارب ! عبده . ! ياعبده قوم شوف لنا سلك والااختراع نهرب به ! ! نايمين برده ! اخص عليكم كده . . وانتم ما تفلحوا إلا فى الهلس ! .

ويئس منهم فتركهم والتفت إلى مبروك المطرق المفكر كذلك فى الآخرة ولسان حاله يقول « جالك الموت ياتارك الصلاة» فهزه الرئيس حنفى وقال له فى إلحاح :

— انت متأكد يامبروك انها مشنقه بصحيح ؟

فرفع الخادم رأسه إليه فى حزن وقال :

— آه . . مشنقه بصحيح إمال كده وكده !

فقال حنفى كأنما يخاطب نفسه :

— آهى دى المصيبة اللى بصحيح ! لكن بس يشنقونا من قبل مايحاكمونا . ولو مجلس عسكرى يامسلمين ! ؟ !

وجنسها ايه المشنقه يامبروك ؟

فقال مبروك وهو مطرق :

— كويسه .

فسكت الرئيس حنفى وأخذ يقطع القاعة جيئة وذهاباً بخطى عصبية ويفكر ويستعرض ويناقش نفسه ويقول بين آن وآخر « مش معقول ! مش معقول أبداً ! . » وأخيراً وقف والتفت إلى مبروك وطلب اليه أن يصعد ثانية ويصف له مايرى فى الخارج بالتفصيل .

ولبى الخادم وأعاد النظر إلى « العقلة » الطويلة المنصوبة ، ثم إلى « المتوازيين » القصير الصغير بجوارها وقال :

— ناصبين بلا قافية مشنقة كبيره وجنبها مشنقة صغيره ! !

فردد حنفى فى شىء من الشك والارتياب وقد أحس أن مبروك يهزل :

ـ ايه هى اللى صغيره وكبيره ! مشنقه كبيره ومشنقه صغيره ! ايه الكلام ده ؟ انزل ياشيخ بلاش عبط ؟ !

فألقى مبروك نظرة أخرى على المتوازيين » الصغير ، ثم قال مقتنعاً ومعللا :

ـ وحياة دقن النبي كده ! لازم الصغيره دى علشان من غير مؤاخذه سى محسن . . .

وعندئذ رن فى المكان صوت انفجار ضحك ، وإذا الثلاثة النيام أو المتناومون قد جلسوا القرفصاء كل فى فراشه . . يضحكون من قول مبروك ومن خوف حنفى ، والتفت سليم إلى محسن وقال له ضاحكا :

ـ سامع ! . ناصبين لك مشنقه « نونو » على قدك !

فأجاب الفتى باسماً :

ـ أشكرهم على كل حال ، لكن أنا أفضل أنشنق معا كم على المشنقه الكبيرة . !

فقال الرئيس حنفى على الفور :

ـ تبادلنى ! أنا والله راضى بالصغيره ! . .

* * *

كان أول ما فعلته زنوبه بعد القبض على «الشعب» أن التفت في إزارها إلى مكتب التلغراف وبعثت تخبر والد محسن في دمنهور بما جرى: وكانت طرق المواصلات قد أصلحت على الأقل خط «مصر اسكندريه»، وأصبح الانتقال على طول هذا الخط ممكناً ولكن بقيود وتذاكر شخصية تصدرها المحافظة ونزل الخبر على والد محسن ووالدته نزول الصاعقة. وجعلت والدته تندب مصيبتها من يوم أن وافقت على إرساله إلى مصر بين أعمامه. نعم إن دمنهور ليس بها مدرسة ثانوية ولكن أما كان ينبغي لها أن تفكر في طريقة أخرى غير استئمان أعمامه؟ إنما اللوم كله على والده الذي ظن خيراً في إخوته بالقاهرة، وحسب أنهم سيحافظون على ابنه وهكذا طفقت تلطم وجهها مشبعة زوجها وإخوته لوماً وتقريعاً وتصيح «هاتوا لي ابني. هاتوا لي ابني!..» ولم ينتظر والد محسن حتى الصباح بل جهز حقيبته وركب أول قطار استطاع أن يقله إلى القاهرة، وهناك جعل كالمجنون يقابل أصحاب الأمر والنهي ويسأل ويتوسل على غير جدوى، وأخيراً خطر له أن يذهب إلى مفتش الري الإنجليزي الذي يعرفه علّه يساعده لدى السلطات العليا، فكانت فكرة موفقة، إذ قابله الرجل مقابلة بعثت فيه الأمل واهتم بالأمر غاية الاهتمام لأنه ذكر رؤية الصغير محسن يوم مأدبة الريف وإعجابه به وقد كلمه بالانجليزية في لطف، إلا أنه بعد التحري اتضح

له أن المسألة دقيقة لأنها بين أيدى السلطة العسكرية . . . ولذلك لا يستطاع حلها دفعة واحدة ، فرجاه والد محسن فى يأس أن يتوسط ولو فى إطلاق سراح محسن فقط على حدة ، وليتنظر الباقون حتى تهدأ الأمور ، فراح المفتش ينظر فى ذلك الشأن ، فى تلك الساعة تحصل الوالد على إذن بزيارة « الشعب » فى سجن القلعة . فما رآهم ورأى محسن بينهم حتى دهش لمظهرهم الهادىء المرح ، وبعد أن استعلم منهم عن كل ما حدث وقاربت الزيارة الانتهاء . أخذ محسن ناحية وأفهمه أن يتشجع ويصبر يوماً أو اثنين فقط . فإن المساعى مبذولة لإخراجه وحده الآن . . ولم يكد الفتى الصغير يسمع ذلك حتى تراجع أحمر الوجه غضباً وغيظاً وصاح قائلا :

— فاهم إنى أرضى أخرج وأعمامى هنا ؟ !

فبغت الوالد قليلا والتفت إلى الباقين فى حيرة وارتباك ، ثم توجه إليهم بالكلام ، مخبراً إياهم عن استحالة إطلاقهم الآن ، وأن كل ما أمكن الحصول عليه هو ربما إطلاق محسن فقط ، وطلب إليهم المساعدة فى إقناع الفتى الصغير نظراً لأن سنه وصحته لا تسمحان له بحياة السجن ، فأقبلوا جميعهم على محسن يطلبون إليه فى إخلاص وفى أصوات حارة صادقة أن يمتثل ويرضى بالخروج لأنه صغير وليس فى سنهم . . و . . و . .

ولكن محسن له أحياناً وفى هذه المسألة على الخصوص . .

عزماً لا يلين . . .

وانتهت الزيارة على ذلك نخرج الوالد وقد خطرت له فكرة ابتسم لها : إنه متى صدر الأمر بالإفراج عن محسن ، فإن رضاه أو رفضه لا يفيدان شيئاً لأن التنفيذ بقوة الجنود .

منذ تلك الزيارة انقلب حال محسن وأصبح كئيباً يتوقع فى كل لحظة أن يفتح الباب ويجبروه على الانفصال عن رفاقه ، وظل هكذا فى قلق ، وأحياناً فى خجل داخلى كلما ذكر أنه سيفلت بفضل مساعى والده ويترك أعمامه ومبروك بلا معين ، ثم أى لذة للحياة بمفرده فى دمنهور أوفى أى مكان آخر وهو الذى يحس الغبطة بمشاركة رفاقه « الشعب » فى كل تقلبات الظروف والأوقات ، إن الألم نفسه مهما عظم يتضاءل كلما اشتركوا فيه جميعاً ويخف حمله كلما حملوه معا ، بل إنه أحياناً ينقلب عزاء مثلجاً للصدور ، لذيذاً ! .
فماذا يريد به أبوه وأمه غير الوحدة والأنانية ؟ ! وجعل فى سره ومن أعماق نفسه يدعو الله أن يخفق مساعى والده !

وكأن الله استجاب الدعاء الحارّ :

رجع المفتش الانجليزى آسفاً حزينا . . لأنه بعد جهد حقيق لم يستطع أن يفعل سوى شىء واحد الآن : أن ينقل المسجون الصغير أو هو ومن معه إلى مستشفى السجن حيث المعاملة أرق والمعيشة والراحة أوفر . . .

وقال للوالد الواله :

ـــ اطمئن ! فهم فى مستشفى السجن كأنهم فى فندق.. أوكأنهم فى منازلهم . هـذا خير مكان يمضون فيه وقتهم براحة ، بعيداً عن هياج المدينة حتى يأتى يوم اطلاقهم ، طبعاً المسألة عسيرة الآن ، لأن الحالة فى البلد مازالت خطيرة . ولـكن بعد بضعةأيام أخرى من يدرى ؟ ثق انهم أول من يخرج بمجرد أن تستقر الحالة . انهم فقط محجوزون مؤقتاً . لأجل معلوم . إنى لن أتركهم. ثق بذلك. انك تستطيع العودة إلى بلدك مطمئناً مكتفيا بالاعتماد علىّ .

وهدأ والد محسن قليـلا لقول المفتش الكريم . . ثم قال متردداً :

ـــ يعنى أسافر وأقول لوالدته . .

فأجابه المفتش بصوت قاطع وبلهجة الواثق المطمئن :

ـــ سافر . . . أنا موجود هنا . .

وتم نقل « الشعب » إلى المستشفى . . .

وفى نفس اليوم ذهب والد محسن بصحبة المفتش لزيارة محسن ورفاقه فى مقرهم الجديد .

وجعـل الوالد يتأمـــل النظام الجميل حوله والأسرة المصطفة النظيفة والحديقة التى يتنزه فيها من يريد أو من فى دور النقاهة والمكتبة وما تحتويه من كتب حسنة التنسيق وقاعات

الانتظار والاستقبال بكراسيها وارائكها الجلد . .

فسر فى نفسه ولاحظه المفتش فوضع كفه على كتفه بلطف وقال له :

– يخيل لى أننا نطمئن على وجودهم هنا أكثر من منزلهم. على الأقل هنا بعيدون عن الاضطرابات والخطر . والمستشفى مسئول عنهم .

اطمأن حامد بك والد محسن تماماً ، وعزم على العودة إلى دمنهور ليطمئن زوجته القلقة ويخبرها بما يحوط محسن من أمان وراحة وسلام ، وبعد أن شكر المفتش الانجليزى على مروءته غادره ليأخذ حقيبته ويأخذ زنوبه معه إلى دمنهور إذ لا معنى لإقامتها بمفردها وسط هياج القاهرة . . وحزمت زنوبه صرر متاعها . ولكنها لم تشأ أن تسافر قبل رؤية اخواتها ومحسن فى المستشفى . فوافقها حامد بك . وفى الصباح صحبها إليهم فدخلت عليهم وكانوا فى «عنبر» النوم فى أسرة خمسة مصطفة الواحد بجانب الآخر . فوقفت دهشة قليلا للنظر ! منظرهم لم يتغير وكأنهم فى قاعة النوم « العمومية » بمنزل شارع سلامه !!

ثم وقع بصرها على مبروك ممدداً فى سرير بجوار سرير حنفى . وهو يتمطى فى أغطيته وفرشه البيضاء الناصعة النظيفة الجديدة . .

فلم تتمالك زنوبه أن صاحت فى استغراب صيحة خفيفة :

— جاتك نيله يامبروك ! صبرت ونلت ونمت على آخر الزمن في سرير بحق وحقيق . ! !

فنظر إليها مبروك بغير أن يتحرك من رقدته وقال باسماً :

— انت وخده بالك ! !

ثم نهض نصف نهضة في سريره متكئاً على مرفقه وقال :

— بقا أما أقول لك : أنا خلاص جتني خدت على نوم السراير وشرفك وشرف أمي ما أنام بعد النهارده على الطرابيزه الخشب إياها ! انتم بلا قافيه استغفلتوني وحسبتوها علىّ سرير !

في هذه الأثناء كان حامد بك والد محسن في الردهة الخارجية حيث استوقف طبيباً يعرفه وأخذ يحادثه بعد أن أشار إلى زنوبه على العنبر الذي فيه اخواتها حتى تسبقه إليهم . . وانتقلت زنوبه من حديثها مع مبروك إلى التحدث إلى الباقين . وقد علمت من كلامها مع الرئيس حنفي أنه مسرور بالمستشفى وعلى الأخص النوم في هذا العنبر .. لا لشيء إلا لأن الهدوء هنا تام شامل . فإن «الشعب» لايجسر على الضجيج « والشوشرة » لأنه يخضع هنا لأوامر رئيس « التمرجية » لا لرئيس « الشرف » !

وسألها سليم عما جرى بالحي وبالأخص أخبار الحوادث الأخيرة وتأثيرها على . . السكان . . أو . . الجيران . .

وفهمت زنوبه مغزى سؤاله فابتسمت ابتسامة صفراء وقالت

متنهدة وبلهجة كلها تلميح :

عقبال عندك ! كتب كتاب أكيد وأفراح عن قريب ! !

فسكت ولم يحر جوابا .

وتقلب محسن على جنبه الأيسر والتفت إلى ناحية سرير عبده عن يساره يحدثه فى شيء تافه ليخفى انقباضه فى قلبه ... فأجابه عبده هو الآخر على حديثه التافه بانتباه مصطنع . وفى عينيه مرارة ممزوجة بالاستياء إلى حد الغضب . . إنه لا يريد أن يتذكر ...

* * *

نعم أصبح أكيداً عقدزواج مصطفى راجى وسنية حلمى . فقد حضر مصطفى إلى القاهره من يوم أن فتح طريق المواصلات الذى كان ينتظره بصبر نافد . وقابل والد سنية الدكتور احمد حلمى . . واتفقا على إنجاز العقد والتأهيل يوم تهدأ الحاله بإعادة المنفى العظيم إلى مصر الوالهة ...

وهكذا .. قد يتفق يوم خروج محسن ورفاقه من السجن مع يوم زفاف سنية إلى مصطفى .

* * *

من غريب المصادفات أن الطبيب الذى استوقفه حامد بك فى الردهة والذى يعرفه منذ كان طبيباً بالأرياف نواحى دمنهور البحيرة . كان هو نفس الطبيب الذى عاد «الشعب» فى منزلهم بشارع سلامه

أيام أن أصابتهم كلهم جملة الحمى الاسبانيولى . يومئذ دهش الطبيب لمنظرهم وهم يجتمعون كلهم فى حجرة واحدة صفت فيها الأسرة الواحد تلو الآخر كأنهم فى عنبر ثكنة أو مستشفى .. حتى أنه لم يتمالك « هذا الطبيب » وقتئذ أن صاح بهم :

— لا . . دا مش بيت . . . دا مستشفى !

وهو الذى ابتسم مستغربا انضمام مبروك الخادم إليهم على « طرابيزة » الأكل المنقلبة سريرا . وتساءل يومها دهشا عما حدا بهم إلى هذا الحشر فى حجرة واحدة قائلا فى نفسه : « أتراهم فلاحين من أهل الأرياف اعتادوا المبيت هم ومواشيهم فى قاعة واحدة !! »

* * *

كان حامد بك والد محسن فى حديثه مع الطبيب بالردهة قد استفسر منه عن سبب وجوده بالمكان ، فعلم أنه الآن طبيب بالمستشفى . فانتهز الفرصة وأوصاه خيراً بابنه واخوته .

ودخل الطبيب العنبر فوقع نظره على «الشعب» راقدين الواحد تلو الآخر ... وتبين السحن والوجوه فاذا هو يذكرهم ويذكر « عنبر » منزلهم : فوقف دهشا لحظة ... ثم صاح بهم مبتسما :

— هو انتم ؟!! وبرده هنا كان جنب بعضكم ... الواحد جنب أخوه !

بارس (جامبتا) سنة ١٩٢٧

E.O.F

Exclusively

First published on the net by :

Passer By_in Time

MARCH 2009

Passerby_intime@yahoo.com

Passer by in time



